

أشباح القبعاتي

متبوعة ب

الخياط الصغير و القبعاتي

أيام الرجل الفقير الأربعة

أعمال مختارة

(3)

جورج سيمنون

ترجمة: د. أنطون حمصي

أشباح القبعاتي

متبوعة بـ

الخياط الصغير والقبعاتي

أيام الرجل الفقير الأربعة

أعمال مختارة

(٣)

جورج سيمنون

أشباح القبعاتي

متبوعة ب

الخياط الصغير والقبعاتي

أيام الرجل الفقير الأربعة

ترجمة: د. أنطون حمصي

منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب

وزارة الثقافة - دمشق ٢٠١١م

العنوان الأصلي للكتاب

GEORGES SIMENON
Œuvres complètes

Les Fantômes du Chapelier
suivi de
Le Petit Tailleur et le Chapelier
avec un Avant – propos de Gilbert Sigaux
Les Quatre Jours
du Pauvre Homme

أشباح القبعاتي؛ الخياط الصغير والقبعاتي؛ أيام الرجل الفقير الأربعة:/ جورج سيمنون؛ ترجمة أنطون حمصي .- دمشق: الهيئة العامة السورية للكتاب، ٢٠١١م .- ٤٤٠ ص؛ ٢٤ سم.

(أعمال مختارة؛ ٣)

١- ٨٤٣ ف س ي م أ ٢- العنوان (١) ٣- العنوان (٢)
٤- العنوان (٣) ٥- سيمنون ٦- حمصي ٧- السلسلة
مكتبة الأسد

أشباح القبعاتي

كلمة أولى

«أشباح القبعاتي» التي كتبها جورج سيمنون في توما كاكوري (أريزونا) في بداية شهر كانون الأول ١٩٤٨ - هي رواية تستعيد وتوسع موضوعاً عولج في قصة «الخياط الصغير والقبعاتي» التي كتبت في آذار ١٩٤٧ في برادنتون بيتش (فلوريدا) والمعالجتان مختلفتان جداً، بل وتتضمنان عناصر متعارضة جذرياً. ويمكن للقارئ المتنبه أن يتابع، بالانتقال من القصة إلى الرواية، هذا التضخيم، هذا الإثراء، هذا الانتقال من مستوى إبداعي إلى مستوى آخر.

وقد عرفت قصة «الخياط الصغير والقبعاتي» صياغتين. الأولى كانت بعنوان «طوبى للبسطاء» وترجمت إلى الانكليزية وفازت بجائزة المسابقة السنوية للقصص البوليسية التي تنظمها مجلة «ايلري كوين» ونشر في عدد نيسان ١٩٤٩ من هذه المجلة ونشرت الطبعة الفرنسية للمجلة الأمريكية في عدد أيار ١٩٤٩ النص الفرنسي لهذه الصيغة. وهذه الأخيرة التي وردت في هامشها عبارة «طوبى للودعاء لأنهم سوف يملكون الأرض» تختلف عن الصيغة السابقة في ثلاثة أمور: الأول هو أنه ليس للفصول الأربعة عناوين، والثاني هو أن بضعة تصحيحات أسلوبية لا أهمية لها، جاءت الفصول الثلاثة الأولى، والثالث هو أن الفصل الرابع يقترح خاتمة مختلفة اعتباراً من اللحظة التي غادر، فيها، كاشودا الأم المقدسة أورسولا.

ولهذا السبب، نقدم بعد الصيغة الأصلية لقصة «الخياط الصغير والقبعاتي» الصفحات الأخيرة من «طوبى للبسطاء».

(١)

كان يوم الثالث من كانون الأول، وكانت السماء لا تزال تمطر. كان الرقم ٣ يبرز ضخماً، أسود جداً، مع شيء يشبه بطناً كبيراً، على اللون الأبيض الفج للتقويم المثبت على يمين الصندوق، مقابل الحاجز المصنوع من السنديان القائم الذي يفصل المخزن عن واجهة المعروضات. مضى بالضبط عشرون يوماً، على اعتبار أن ١٣ تشرين الثاني – ٣ أخرى بدينة على التقويم – هو الذي قتلت، فيه، أول عجوز قرب كنيسة المخلص الأقدس على مسافة بضع خطوات من القناة.

إلا أن المطر كان ينهمر منذ ١٣ تشرين الثاني. كان يمكن تقريباً أن يقال إن المطر كان يهطل دون انقطاع منذ عشرين يوماً. وفي معظم الأحيان كان مطراً يستمر طويلاً ويطرطش عند اصطدامه بالأرض وكان المرء، عندما يركض في المدينة ملتطياً بالبيوت، يسمع الماء يسيل من الميازيب، يختار الأزقة ذات القناطر ليكون في مأمن لبرهة. كان يبدل حذاءه عندما يعود إلى بيته. وكانت، في كل البيوت، معاطف وقبعات تجف قرب المدفأة، والذين يفتقرون إلى ملابس بديلة يعيشون في رطوبة باردة أبدية.

كان الظلام يحل قبل الساعة الرابعة بكثير، وكانت بعض النوافذ مضيئة من الصباح إلى المساء.

كانت الساعة قد بلغت الرابعة، وكان السيد لابيه، ككل بعد ظهيرة، قد غادر خلفية المخزن الذي اصطفت، فيه، على الرفوف رؤوس خشبية من كل القياسات. تسلق الدرج الحلزوني في آخر المحل. توقف لحظة على المنبسط، أخرج مفتاحاً من جيبه وفتح باب الغرفة ليدخل النور.

هل مشى، قبل أن يدير القاطع الكهربائي، إلى النافذة ذات الستائر المخرمة، السميكة، المغبّرة التي كانت مسدلة دائماً؟ الأمر محتمل لأنه كان يرخي الستارة المعدنية، عادة، قبل أن يشعل النور. في هذه اللحظة، استطاع أن يرى، تجاهه، على مسافة بالكاد تبلغ بضعة أمتار منه، كاشودا، الخياط في ورشته. كانت من القرب، والطريق من الضيق بحيث كان المرء يحسب أنهما يعيشان في البيت نفسه.

لم تكن لورشة كاشودا الواقعة في الطابق الأول، فوق دكانه، ستائر. كانت أدنى التفاصيل ترتسم، كما لو كان ذلك على منقوشة بالإزميل، أزهار ورق الجدران، بقع الذباب على المرآة، قطعة الطبشور المسطحة والدهنية التي تتدلى من خيط، باترونات الورق الأسمر المعلقة على الجدار وكاشودا الجالس أمام طاولته وقد طوى ساقيه تحته مع مصباح كهربائي دون عاكس للنور في متناول يده كان يقربه من عمله بواسطة سلك معدني. كان الباب البعيد الذي يؤدي إلى المطبخ منفرجاً دائماً، لكن ليس إلى درجة تكفي، في معظم الأحيان، لرؤية داخل الغرفة، ومع ذلك، كان يتبين حضور السيدة كاشودا لأن شفتي زوجها كانتا تتحركان. من وقت إلى آخر كانا يتحدثان، من غرفة إلى أخرى وهما يعملان.

كان السيد لابيه قد تكلم بدوره: فمستخدمه فالانتان الذي كان يقف في المخزن سمع دمدمة صوت وخطى فوق رأسه. ثم رأى القبعاتي يهبط من جديد: قدماه في حذائين فاخرين أولاً، ثم البنطال، فالسترة، وأخيراً دون مبالغة، دون قسوة، وجه رجل مكتفٍ بذاته، لا يحس بحاجة إلى عرض نفسه للعيان.

كان السيد لابيه قد كوى، في هذا اليوم، أيضاً، قبل أن يخرج، قبعتين إحداهما قبعة العمدة الرمادية، وخلال هذا الوقت، كان يسمع، في الطريق، المطر، الماء يتدفق من الميزاب وصفير مدفأة الغاز الخفيف في المطبخ.

كانت الحرارة فيه، أعلى مما ينبغي دائماً. فمنذ وصول فالانتان، في الصباح، كان الدم يصعد إلى رأسه، وكان رأسه يتثاقل بعد الظهر. وكان، أحياناً، يرى في المرايا المعلقة بين الرفوف، عينيه اللامعتين كما لو كانتا محمومتين.

لم يزد كلام السيد لابيه عما كان عليه في الأيام الأخرى. كان يستطيع أن يبقى ساعات مع مستخدمه دون أن يقول شيئاً. وكان هناك حولهما، أيضاً، صوت نواس الساعة وطقة كل ربع ساعة. وكانت الآلية تنطلق عند الساعات وأنصافها، لكنها كانت، بعد جهد عاجز، تتوقف تماماً: فلا شك في أنه كان للساعة، في الأصل، جرس كان قد تعطل.

وإذا لم يكن الخياط الصغير يستطيع أن يرى داخل غرفة الطابق الأول – بسبب الستائر، نهاراً، وبسبب الساتر المعدني مساءً، فلم يكن عليه سوى أن يحني رأسه ليغوص بنظرته في مخزن القبعات.

من المؤكد أنه كان يراقب. لم يكن السيد لابيه يتجشم مشقة التأكد من ذلك، ولكنه كان يعلم. لم يغير شيئاً من جدوله الزمني لهذا السبب. بقيت حركاته بطيئة ودقيقة. كانت له يدان جميلتان جداً، سمينتان قليلاً، لونهما الأبيض مدهش.

غادر في الساعة الخامسة إلا خمس دقائق غرفة المخزن الخلفية التي كانت تسمى ورشة والتي أطفأ النور فيها، وتلفظ بإحدى عباراته الطقوسية:

– أنا ذاهب لأرى ما إذا كانت السيدة لابيه تحتاج إلى شيء.

ومن جديد، صعد السلم الحلزوني.

سمع فالانتان خطواته فوقه وتمتمة أصوات خافتة، ثم رأى، من جديد، القدمين، الساقين، الجسم كاملاً. فتح السيد لابيه، في العمق، باب المطبخ وقال للويز:

– سأعود مبكراً. سيتولى فالانتان إغلاق المخزن.

كان يقول الكلمات نفسها كل يوم، وكانت الخادمة تجيب قائلة:

– حسناً يا سيدي.

ثم كان، وهو يرتدي معطفه الأسود السميك، يكرر لفالانتان الذي كان، مع ذلك، قد سمع:

– نعم ياسيدي، مساء الخير يا سيدي.

– مساء الخير فالانتان.

أخذ نقوداً من درج الصندوق واستمر في التباطؤ، قليلاً، وهو ينظر إلى النوافذ المقابلة. كان واثقاً من أن كاشودا الذي كان قد رأى، قبل قليل، ظله على الستار المعدني في الطابق الأول، قد نزل من على طاولته.

ماذا كان يقول لزوجته؟ ذلك أنه كان يقول لها شيئاً. كان في حاجة إلى عذر. لم تكن تطلب منه شيئاً. لم تكن تسمح لنفسها بأن توجه إليه ملاحظة. منذ سنوات، كان يذهب، في حوالي الساعة الخامسة من بعد الظهر، ليشرب كأساً أو اثنين من النبيذ الأبيض في مقهى الأعمدة. السيد لابيه كان يذهب إليه، هو أيضاً، كما يذهب إليه آخرون لم يكونوا يكتفون بالنبيذ الأبيض ولا بكأسين. كانت تلك، بالنسبة لمعظمهم، نهاية اليوم. وكان كاشودا، بدوره، يتعشى بسرعة، وسط أسرته ويتسلق، من جديد، طاولته التي كان غالباً ما يبقى عليها يعمل حتى الساعة الحادية عشرة أو حتى منتصف الليل.

– أنا ذاهب لتنشق الهواء برهة.

كان يخشى جداً أن يخطئ السيد لابيه. وكان هذا الأخير قد فهم ذلك. لم يكن هذا يعود إلى العجوز الأولى المقتولة، بل إلى الثالثة، حين بدأت المدينة في الهلع جدياً.

كان شارع ميناج مقفراً تقريباً في هذه الساعة دائماً، خاصة عندما كانت السماء تمطر سيولاً. وزاد إقفاره منذ أن أصبح كثير من الناس يتجنبون الخروج بعد حلول الليل. كان التجار الذين كانوا أول من تضرر من الذعر هم، أيضاً، أول من نظم دوريات. ولكن، هل نجحت هذه الأخيرة في منع موت السيدة جوفروا – لامبير وموت السيدة ليونيدبرو، قابلة فيتيي؟

كان الخياط الصغير خوافاً، وكان السيد لابيه يمنح نفسه متعة خبيثة في انتظاره دون أن يبدو عليه ذلك. ألم تكن متعة شيطانية؟

فتح، أخيراً بابه الذي جعل بذلك جرسه يرن. مر تحت القبعة العالية الضخمة المصنوعة من الصفيح الأحمر التي كانت شعاراً له، ورفع ياقة

معطفه وغاص بيديه في جيبيه. كان هناك، أيضاً، جرس على باب كاشودا، وكان السيد لابيه واثقاً من سماعه بعد بضع خطوات على الرصيف.

كان زقاقاً بقناطر كمعظم طرقات لاروشيل القديمة. لم يكن المطر يسقط على الأرصفة إذن. كانت هذه الأخيرة بمثابة أنفاق باردة، رطبة لم يكن، فيها، نور إلا بصورة متباعدة مع بوابات تنفتح على الظلام.

كان كاشودا يضبط، كي يصل إلى ميدان السلاح، خطوته على خطوة القبعاتي، ولكنه كان يخشى من كمين إلى حد كان يفضل، معه، على الرغم من كل شيء، أن يمشي تحت المطر وسط الطريق.

لم يصادفا أحداً حتى الزاوية ثم جاءت واجهات بائع العطور والصيدلية ومتجر القمصان، وأخيراً فتحات المقهى الواسعة. كان جانتيه، الصحفي الشاب، بشعره الطويل ووجهه النحيل وعينيه المتقدتين، في موقعه، على الطاولة الأولى، قرب الزجاج، يكتب مقالته أمام كوب من القهوة.

لم يبتسم السيد لابيه، لم يبد عليه أنه رآه. كان يسمع خطوات الخياط الصغير التي كانت تقترب. أدار مقبض الباب ودخل في الحرارة الطيبة، وسار، مباشرة، نحو طاولات الوسط، قرب المدفأة، بين الأعمدة، وبقي واقفاً وراء لاعبي الورق في حين كان النادل، غبرييل، ينزع عنه معطفه وقبعته.

- كيف حالك ياليون؟

- لا بأس.

كانوا متعارفين منذ زمن - معظمهم منذ المدرسة - أطول من أن يحسوا برغبة في تبادل الكلام. الذين كانوا يمسكون بالورق أبدوا إشارة خفيفة أو لامسوا، آلياً، يد الوافد الجديد. سأل غبرييل، بحكم العادة:

- كالعادة؟

وجلس القبعاتي مع تنهدة ارتياح وراء أحد لاعبي البريدج، الدكتور شانترو الذي كان يدعوه بول. من نظرة واحدة عرف أين صارت اللعبة؟ كأنها كانت مستمرة منذ سنوات على اعتبار أنها كانت تستأنف كل يوم، في

الساعة نفسها، على الطاولة نفسها، مع المشروبات نفسها أمام اللاعبين أنفسهم والغلايين نفسها، والسيغارات ذاتها.

لا بُدّ أنّ التدفئة المركزية لم تكن كافية على اعتبار أن أوسكار، صاحب المقهى، احتفظ بالمدفأة الضخمة ذات اللون الأسود الجميل البراق التي مد نحوها السيد لابيه ساقيه ليجفف حذاءيه وأسفل بنطاله. تسنى للخياط الصغير الوقت كي يدخل ويتجه نحو طاولات الوسط، هو أيضاً، ولكن ليس بالثقة نفسها، ثم ليحيي باحترام دون أن يرد عليه أحد، ويجلس على كرسي.

لم يكن من المجموعة. لم يكن قد ارتاد المدارس نفسها، ولا الثكنات نفسها وفي العمر الذي كان لاعبو الورق، فيه، قد رفعوا الكلفة بينهم، كان يعيش في مكان لا يعرفه إلا الله، في الشرق الأدنى حيث كان الناس من نوعه ينتقلون كالماشية من أرمينيا إلى سميرنة، من سميرنة إلى سورية، إلى اليونان أو غيرها.

في البداية، قبل بضع سنوات، كان يجلس في مكان أبعد قليلاً ليشرب نبيذه الأبيض ويتابع اللعبة التي لا بُدّ أنه لم يكن يعرفها بانتباه مستمر يجعل جبينه يتغضن. ثم اقترب بصورة غير محسوسة دافعاً، في البدء، كرسيه ثم مبدلاً المقعد صراحةً والطاولة، أخيراً، ليجد نفسه وراء اللاعبين.

لم يكن أحد يتحدث عن العجائز ولا عن الرعب الذي كان يسود المدينة. ربما كان ذلك يناقش على طاولات أخرى لا على هذه. سحب لود، السيناتور، غليونه من فمه ليسأل، وهو يكاد يلتفت نحو القبعاتي:

– ماذا عن زوجتك؟

– مازالت على ما هي عليه.

كانت تلك عادة اتخذها الناس منذ خمسة عشر عاماً. قدم له غبرييل كأسه من البيكون بالرمان بلون الأكاجو القاتم وشرب منه رشفة، ببطء، مع نظرة نحو جانتيه الشاب الذي كان يبيض مقالته لجريدة «صدى الشارانت».

كانت ساعة بإطار مطوق بالنحاس تتدلى بين المقهى الحقيقي والقسم البعيد من القاعة حيث كانت تصطف طاولات البليار. كانت تشير إلى الخامسة والربع عندما توجَّهَ جوليان لامبير، موظف التأمين الذي يخسر كعادته، بسؤالٍ إلى القبعاتي:

- هل تأخذ مكاني؟

- ليس هذا المساء...

وكانت إجابة ليس فيها شيء خارق للعادة. كانوا ستة أو سبعة يلعبون الورق، تارة، ويجلسون وراء اللاعبين تارة أخرى. كان كاشودا وحده الذي لم يدع قط إلى اللعب ومن المحتمل أنه لم يكن يطمح إلى ذلك.

كان قصيراً ونحيلاً. رائحته كريهة، ويعرف ذلك إلى حد كان يتجنب معه أن يقترب أكثر مما ينبغي من الآخرين. كانت رائحة لا تخص إلا إياه وأسرته يمكن أن تسمى الرائحة كاشودا، مزيج من ثوم مطبخهم ومصالة الأقمشة. هنا لم يكن يقال شيء، كانوا يتظاهرون، بأدب، بأنهم لا يلاحظون، ولكن بنات أقل تحفظاً في المدرسة، كنّ يبدين احتجاجهن عندما يوضعن إلى جانب الابنتين كاشودا:

- تفوح منك رائحة نتنة! تفوح من شقيقتك رائحة نتنة! جميعكم تصدرون رائحة نتنة!

دخن إحدى سجائر اليوم النادرة لأنه لم يكن يستطيع أن يدخن وهو يعمل دون أن يجازف بإحراق ملابس الزبائن. كان يلف سجائره بنفسه وكانت هناك، دائماً، بقعة لعاب عريضة على أطرافها.

كان ذلك اليوم الثالث من كانون الأول. كانت الساعة الخامسة والربع، وكانت السماء تمطر، وكانت الطرقات سوداء. جو المقهى كان حاراً، وكان السيد لابيه، قبعاتي شارع ميناج، ينظر إلى لعب الدكتور الذي كان قد اشترى خمسة ضروب سباتية تحداها موظف التأمين بتهور.

سوف يعرف، صباح الغد، لدى قراءة الجريدة، ما كان يكتبه الفتى جانتيه حول العجائز المقتولات لأنه كان يقوم بتحقيق متحمس، بل وأبدى نوعاً من التحدي للشرطة.

رب عمله، جيروم كابيه، صاحب المطبعة الذي كان يدير الجريدة، كان يلعب البريدج بهدوء دون أن يقلقه شأن الشاب المتحمس الذي سوف يقرأ مقالته حين يعود، بعد قليل.

كان شانترو قد أتى على الإلقاء بأوراقه الرابحة وكان مهدداً بالمأزق الحاسم عندما رأى السيد لابيه، دون حاجة إلى أن يلتفت، كاشودا يقف نصف وقفة، دون أن يفقد اتصاله بكرسيه، وينحني نحوه ويمد ذراعه كما لو كان ذلك ليلتقط شيئاً من نشارة الخشب التي كانت تغطي الأرضية.

لكن شأنه كان، مع بنطال صانعِ القبعات. كانت عين الخياط، لديه، قد لاحظت نقطة صغيرة بيضاء قريبة من مقلب الساق. لا شك في أنه ظن أن هذا خيطاً. لم تكن لديه، بالتأكيد، نوايا سيئة. وحتى لو كانت لديه هذه النوايا، فإنه، ما كان ليستطيع أن يخمن أهمية حركته.

ولم يخمن هذه الأهمية، أيضاً، السيد لابيه الذي تركه يفعل وقد فاجأه الأمر قليلاً، لكنه لم يكن قلقاً أبداً.

- اعذرني.

كان كاشودا يمسك بالشيء الأبيض الذي لم يكن خيطاً، بل قطعة صغيرة من الورق يكاد طولها أن لايتجاوز نصف سنتمتر من ورق خفيف وخشن كورق الصحف.

لم يبد أحد في المقهى أدنى انتباه إلى ما كان يجري. كان كاشودا يمسك بقطعة الورق بين إبهامه وسبابته. وكانت مصادفة، حقاً، أن يكون قد ألقى عليها نظرة وهو محني الجسم مخفوض الرأس، وطرف ردفيه ما زال يلامس كرسيه. إلا أن ذلك لم يكن سوى قطعة من جريدة كان قد اقتطع بعناية بواسطة مقصات، بالضبط، حرفان، حرف «n» وحرف «t» في نهاية كلمة.

نظر السيد لابيه من أعلى إلى أسفل، وتجمد الخياط الصغير فجأة ورفع، أخيراً، وقد استولى عليه الهلع، رأسه واستقام بجذعه وتجنب النظر إلى القبعاتي الذي مد إليه الشيء الصغير وهو يقول متلعثماً:

- اسألك العفو.

وبدلاً من أن يلقي بقطعة الورق، أعادها إليه، وكانت تلك غلطة لأنه كان يعترف، على هذا النحو، بأنه قد فهم أهميتها. ولأنه كان حيياً ومذوراً للمذلة، اقترف غلطة أخرى عندما بدأ جملة لم يجرؤ على إكمالها:

- خيل إليّ....

لم يكن يرى شيئاً خلاف كراس وظهور وقماش ونشارة خشب على الأرض وقوائم المدفأة السوداء، في ضباب مضيء، وسمع صوتاً وقوراً وهادئاً يقول:

- شكراً يا كاشودا.

ذلك، أنهما كانا يتبادلان الكلام. ففي كل صباح، كان القبعاتي والخياط يخرجان من بيتيهما ليسحبا الألواح الخشبية التي كانت بمثابة مصاريع لدكانيهما. كان دكان اللحام المجاور لكاشودا يفتح قبلهما بكثير. في أيام السبت، كانت مزارعات الجوار اللواتي لديهن خضار أو طيور للبيع يزحمن الشارع بسلالهن، ولكن البلاط كان وحده في الأيام الأخرى الذي يفصل بين الرجلين.

وكان كاشودا قد اعتاد على القول:

- نهارك سعيد يا سيد لابيه.

وكان يضيف حسب منظر السماء:

- الطقس جميل اليوم.

أو:

- ما زالت السماء تمطر.

وكان القبعاتي يجيب ببساطة:

- نهارك سعيد يا كاشودا.

كان ذلك كل شيء. كانا تاجرين يتقابل دكاناهما.

هذه المرة، أتى السيد لابيه على القول:

- شكراً يا كاشودا.

كان الصوت نفسه تقريباً. ربما كان الصوت نفسه، تماماً، على الرغم مما كان هناك من شيء مخيف في اكتشاف الخياط الصغير.

ساورت كاشودا رغبة في أن يشرب كأسه دفعة واحدة. كانت الكأس تصطك على أسنانه. كان يحاول أن يفكر سريعاً جداً، أن يفكر تفكيراً صائباً. وكلما بذل جهوداً زادت أفكاره اختلاطاً. لم يكن ينبغي، خاصة، أن يدير رأسه إلى اليمين. هذا الأمر قرره منذ اللحظة الأولى.

على طاولة الوسط، طاولة السناتور وصاحب المطبعة والطبيب والقبعاتي، كان هناك رجال تتراوح أعمارهم بين الستين والخامسة والستين، أهم الرجال جملة، إلا أنه كان هناك، على طاولات أخرى، لاعبون آخرون، وخاصة، إلى اليمين، لاعبو البيلوت الذين كانوا يمثلون جيل الرجال الذين تتراوح أعمارهم بين الأربعين والخمسين. إلا أنه كان يمكن أن يرى على هذه الطاولة، بين الخامسة والسادسة، دائماً تقريباً، المفوض الخاص بيجاك، المكلف بالتحقيق في موضوع العجائز.

كان على كاشودا أن يتجنب، بأي ثمن، النظر إلى جهته. لكنه لم يكن، كذلك، يستطيع الالتفات نحو الصحفي الشاب الذي كان لايزال يكتب. لا شك في أن جانتيه كان مشغولاً مرة أخرى، بالرد على إحدى رسائل القاتل.

في عشرين يوماً، تَوَفَّر الوقت لكي يصبح الأمر عادة، تقليداً تقريباً. كانت الجريدة تتلقى، بعد كل جريمة، رسالة، كلمات كاملة في أغلب الأحيان، أحرفها مقتطعة من الأعداد السابقة لجريدة «صدى الشارانت» التي كانت

تنشرها متبوعة بتعليق لجانتيه الشاب. وغداة هذا النشر، أو بعد يومين، كان القاتل يرد بدوره، بواسطة أوراق صغيرة مقتطعة وملصوقة على ورقة بيضاء دائماً.

عشية ذلك اليوم، بالضبط، كانت الرسالة تتضمن عبارة تجمد معها الخياط الصغير فجأة.

«أنت واهم أيها الفتى. أنا لست جباناً. ليس الباعث على مهاجمتي العجائز الجبن، بل الضرورة. وإذا تبدت، غداً، ضرورة مهاجمتي لرجل، فسوف أفعل ذلك حتى لو كان كبيراً وقوياً».

بعض الرسائل التي كانت تبلغ نصف عمود كانت تمثل مئات من الحروف المقتطعة بصبر، وهو ما جعل جانتييه يكتب:

«لا يقتصر الأمر على كون القاتل صبوراً ودقيقاً، بل إن نوع حياته يدع له، أيضاً، كثيراً من أوقات الفراغ».

الصحفي البالغ من العمر تسعة عشر عاماً، الصبور بدوره، أجرى تجربة. حدد الوقت اللازم لتأليف رسالة من ثلاثين سطراً بواسطة حروف مقتطعة من جرائد قديمة. لم يعد كاشودا يتذكر النتيجة بالضبط، لكنها كانت مخيفة.

«وإذا تبدت، غداً ضرورة مهاجمتي لرجل....».

كان أحدهما يدخن غليونه بسحبات صغيرة وهو ينظر إلى لعب الورق، وكان للآخر عقب سيجارة قذرة ملتصق على شفته ولا يجرؤ على تثبيت نظرة على أي مكان. كان السيد لابيه يلقي أحياناً بنظرة إلى الساعة، ولم تكن تشير سوى إلى الخامسة وخمس وعشرين دقيقة حين طلب كأس البيكون الثانية. وبلغت الساعة الخامسة والنصف عندما نهض، وهو ما كان كافياً لأن يهرع غبرييل حاملاً معطفه وقبعته.

هل كان يفحص، حقاً، كاشودا بعطف ساخر؟ كانت هناك سحابة من الدخان تنتشر فوق رؤوس اللاعبين. كانت المدفأة تبعث بنفحات حارة.

كأنّ لابيه كان ينتظر أن يخمن بالضبط ما كان يفكر فيه الخياط الصغير.

«لو تركته يرحل وحده، فإنه يستطيع أن يكمن في زاوية مظلمة من شارع ميناج....»

وماذا لو تحدث كاشودا، فوراً، إلى أي كان، إلى المفوض، أو حتى إلى الصحفي الشاب. ماذا لو صرح وسبابته مصوبة قائلاً:

- إنه هو!

كانت قطعة الورق قد اختفت. بحث كاشودا، عبثاً، عنها بعينيه. تذكر أن القبعاتي دعكها بين أصابعه وصنع منها كرة صغيرة رمادية. وحتى لو كان الحرفان المقتطعان على الأرض، كيف يثبت أنه التقطهما من بنطال السيد لابيه. حتى هذا لن يكفي. كان ذلك صحيحاً إلى درجة لم يبد معها على السيد لابيه اهتماماً، لم يخف، بل قال ببساطة:

- شكراً يا كاشودا!

وكانت هناك عشرون ألف فرنك على المحك، وهي ثروة بالنسبة لخياط لا يعهد إليه إلا بتصليحات أو ببزات لقلبها. وكانت ابنته البكر تعمل بائعة في مخازن «السعر الموحد».

والأمر لا يدور، لكسب عشرين ألف فرنك، حول إطلاق اتهام في الهواء. ولم يكن ينبغي تحذير القاتل.

السيد لابيه يعلم الآن. والسيد لابيه الذي قتل خمس عجائز منذ تشرين الثاني، أي في عشرين يوماً، قادر على التخلص منه.

هل تسنى الوقت لكاشودا كي يفكر في كل هذا؟ لامس القبعاتي أطراف أصابع أصدقائه. كان يقال له:

- مساء الخير يا ليون.

ذلك أنه كان يدعى ليون. ربت على كتف الدكتور الذي كان يوزع الورق ويداه مشغولتان. وغمغم الدكتور:

– أتمنى صحة أفضل لماتيلدا.

كان يمكن للمرء أن يقسم على أنه كان يتباطأ عمداً ليعطي كاشودا الوقت الكافي لاتخاذ قرار. كان وجهه على الحال نفسها التي كان عليها منذ قليل، عندما رآه فالانتان ينزل على الدرج الحلزوني. كان بديناً سابقاً. ربما كان بديناً جداً ثم ذاب. كان ذلك يظهر من خطوطه الرخوة وسمائه الملتبسة. ولا بدّ أنّ وزنه، كما هو، لا يزال ضعف وزن كاشودا.

– إلى الغد.

أتى عقربا الساعة على تجاوز الخامسة والنصف، وما أن أغلق الباب من جديد حتى أخذ كاشودا معطفه من على الكرسي المجاور. كاد ينسى أن يدفع لشدة ما كان يخاف أن يتيسر الوقت اللازم للانعطاف عند زاوية شارع ميناج قبل أن يصبح، هو نفسه، خارجاً. ذلك أن كل الأشراك تصبح، إذ ذاك، ممكنة. ومع ذلك، كان ينبغي، حقاً، أن يعود إلى بيته.

كان السيد لابيه يمشي بخطوته المنتظمة التي لم تكن بطيئة ولا سريعة، وللمرة الأولى لاحظ الخياط الصغير أنه كان خفيفاً جداً، مثل معظم البدينين أو البدينين السابقين وأنه لم يكن يحدث صوتاً وهو يمشي.

انعطف يميناً إلى شارع ميناج. تبعه كاشودا على مسافة عشرين متراً تقريباً ملتزماً، بعناية، وسط الطريق. بذلك سيكون لديه الوقت كي يصرخ عند اللزوم.

كان دكانان أو ثلاثة لا تزال مفتوحة وكانت أنوارها ترى من خلال المطر. كانت كل المساكن، في الطوابق، تقريباً، مضيئة.

كان السيد لابيه يسير على الرصيف الأيسر، رصيف مخزن القبعاتي، لكنه، بدلاً من التوقف عنده، تابع طريقه. أدار رأسه، بعد قليل، وربما كان ذلك ليتأكد من كون جاره لا يزال يتبعه. كان ذلك نافلاً لأن خطوات كاشودا كانت ترن على البلاط.

كان على الخياط الصغير أن يعود إلى بيته. فالطريق كانت سالكة. وكان مخزنه لا يزال مفتوحاً وكان لديه الوقت كي يسحب القفل بسرعة. رأى، من خلال نافذة الطابق الأول، قطعة الطبشور التي كانت تتدلى فوق

الطاولة، قرب المصباح الكهربائي. كانت الصغيرتان قد عادتا من المدرسة. ستعود استير، البكر، بعد السادسة بقليل. راكضة، لأنها، هي أيضاً، كانت تخاف من القاتل، ولم تكن أية رفيقة لها تسكن في الحي.

تابع طريقه. انعطف يساراً كالسيد لابيه، ومرا، برهة، في زقاق معتم. كان مطمئناً أن يرى أشخاص في المخازن، أن ترى بعض السيارات النادرة التي تمر وهي تفجر رقاع الماء.

لم تعد هناك قاطر، وكان السيد لابيه يتلقى المطر على كتفيه. عادت الطريق إلى الظلام. كان القبعاتي يختفي، تارة، ويعود إلى الظهور، تارة أخرى، في دائرة ضوء فانوس، وكان كاشودا يلتزم، بالضبط، وسط الطريق، يحبس أنفاسه مرتعشاً من الخوف، وغير قادر، مع ذلك، على أن يعود أدراجه.

كم دورية متطوعين كانت، في تلك الساعة، في المدينة؟ أربع أو خمس، دون شك، بما فيها فتيان كان ذلك يسليهم، مع مصابيح في جيوبهم. كانت تلك هي الساعة الرديئة. فثلاث من العجائز قتلن بين الخامسة والنصف والسابعة مساءً.

بلغا، واحداً بعد الآخر، حي المتحف الهادئ الذي كانت، فيه، بيوت صغيرة بطابق واحد، ووراء بعض النوافذ. كانت ترى أسر مجتمعة، أطفال يكتبون واجباتهم المنزلية، نساء يحضّرن، منذ ذلك الوقت، المائدة للعشاء.

فجأة، اختفى السيد لابيه في الظلام. توقف كاشودا فوراً كما لو كان قد فاته شيء أساسي: استحال عليه تعيين موقع جاره بسبب الظلمة التي كانت تسود الطريق. لا شك في أنه قد تجمد في قعر ركن ما. ولكن، ربما كان يتحرك. ألم يكن قادراً على التحرك دون صوت؟ لم يكن هناك شيء يدل على أنه لم يكن يقترب من الخياط الصغير، وبقي هذا الأخير جامداً كما لو كان ذلك بفعل برد نافذ.

كان يسمع، غير بعيد عنه، نوطات بيانو. كان وميض ضعيف يتسرب من مغالق نوافذ أحد البيوت، وكانت بنت صغيرة، أو صبي صغير، يتلقيان، في غرفة مضيئة، درس الموسيقى ويعاودان، دون كلل، السلالم نفسها.

لم يكن أي كائن بشري يسلك الطريق من طرف أو من الآخر، وكان السيد لابيه كامناً في مكان ما، صامتاً، غير مرئي، في حين لم يكن كاشودا يجرؤ على الاقتراب من البيوت.

سكت البيانو، وحل الصمت الكلي. ثم سمع الصوت الخافت للغطاء الذي كان يعود إلى الإطباق على الملامس البيضاء والسوداء. نور وراء باب، أصوات خافتة تصبح أكثر حدة في اللحظة التي كان فيها الباب ينفتح على مسافة عشرين متراً من الخياط الصغير في حين كانت قطرات المطر تتحول إلى شرارات.

– هل تتمسكين بذلك، حقاً، يا آنسة مولار؟ سيكون أكثر أمناً بكثير أن تنتظري عودة زوجي من المكتب. سيكون هنا في غضون عشر دقائق.

– من أجل الخمسين خطوة التي يجب أن اجتازها! عودي بسرعة! لا تعرضي نفسك للبرد. إلى يوم الجمعة المقبل.

كان ذلك يوم جمعة. لا شك في أن البنت الصغيرة (أو الصبي الصغير) تتلقى دروساً في البيانو بين الخامسة والسادسة من كل يوم جمعة.

– سأدع الباب مفتوحاً إلى أن تصلي إلى بيتك.

– أمنعك من هذا حقاً! أذلك لتبريد البيت؟ أقول لك إني لست خائفة.

من صوتها تخيلها كاشودا قصيرة ونحيلة، مهتزة قليلاً ومتحذلقة قليلاً. سمعها تهبط الدرجات وتمشي على الرصيف. الباب الذي بقي، برهة، مفتوحاً أغلق ثانية أخيراً. كاد يصرخ. أراد أن يصرخ. ولكن الأوان كان قد فات. وفضلاً عن ذلك، كان سيعجز عن ذلك جسدياً.

لم يحدث ذلك من الضجة أكثر من تلك التي تصدر عن طائر تدرج يطير من دغل. كان ذلك، احتمالاً، حفيف الملابس. كل الناس في المدينة كانوا يعرفون كيف كان ذلك يتم وحمل كاشودا، على الرغم منه، يده إلى عنقه، تخيل وتر الفيولونسيل الذي كان يضغط على العنق، بذل مجهوداً حقيقياً لينتزع نفسه من جموده.

كان واثقاً من أن الأمر قد انتهى وأنه كان عليه أن يبتعد بسرعة، أن يركض إلى مخفر الشرطة. كان هناك مخفر في شارع سانت – يون، بعد السوق مباشرة.

خيل إليه أنه تحدث إلى نفسه، في حين أن شفتيه كانتا قد تحركتا في الفراغ. مشى. كان ذلك نصراً. لم يتوصل بعد إلى الركض. وفضلاً عن ذلك، ربما كان من الأفضل أن لا يركض، هنا، في الطرقات الخالية التي كان الآخر يستطيع أن يركض فيها هو أيضاً، ويدركه وينهي الأمر معه كما أنهاه، منذ قليل، مع الآنسة العجوز.

مر بواجهة. كانت، كما لو كان ذلك سخرية، واجهة بائع سلاح. والحق هو أن القبعاتي لم يكن أبداً يستعمل سلاحاً. خف شعورٌ كاشودا بالوحدة. كان يستطيع أن يستعيد أنفاسه. كان يود حقاً أن يلتفت. بعد عشرين متراً، عشرة أمتار سيلمح ضوء مخفر الشرطة الأحمر.

كان قد تخبط في بقاع المياه، وكانت قدماه مبللتين وقسماته متصلبة من البرد. مشى، من جديد، كشخص سوي، اجتاز شارع ميناج، شارعه.

وصل، تقريباً، إلى الهدف. لم يعد يسمع أي صوت خطى، لكنه كان يعلم أن أحداً يسير وراءه، يدركه، ما زال لا يجرؤ على الركض ولا على التوقف، وبرز، إلى يساره، خيال أطول منه وأعرض، وكانت خطوة تضبط على خطوته وصوتاً غريب الهدوء يقول:

– ستقترف غلطة يا كاشودا.

لم ينظر إلى جهة رفيقه. لم يرد. لم يرتد فوراً.

كان وحده. رأى الفانوس وشرطياً دراجاً يخرج من المخفر ويمتطي دراجته.

استدار راجعًا كان السيد لابيه الذي عاد على عقبيه يتجه، دون أن يعود مشغولاً به، نحو شارع ميناج، نحو شارعهما معاً، ويداه في جيبيه وياقة معطفه مرفوعة.

(٢)

عندما وصل أمام مغالقه التي كان فالانتان قد أغلقها، توقف، فك أزرار معطفه ليأخذ رزمة مفاتيح من جيب بنطاله. كانت له دائماً الحركات نفسها عندما كان يعود إلى بيته مساءً.

توقف أحدهم عند زاوية شارع ميناج. كان ذلك كاشودا الذي ينتظر أن يغلق باب القبعاتي من جديد ليذهب إلى بيته بدوره.

رفع السيد لابيه عينيه ولمح زوجة الخياط في ورشة الطابق الأول. كانت قد أتت، قلقة، على إلقاء نظرة من النافذة.

أدار المفتاح في القفل، دخل في الظلمة الدافئة، أعاد إغلاق الباب قبل أن يدير القاطع الكهربائي، وضع الرتاج، ثم بقي واقفاً ووجهه ملتصق بشق في المغلاق.

الخياط الصغير الذي مازال يلتزم بحذر وسط الشارع وصل أخيراً إلى مقابل بيته. كان يمشي بصورة مضحكة، كما لو كان ذلك بقفزات.

للمرة الأولى، لاحظ السيد لابيه أنه كان يلقي جانباً، قليلاً، بأحد ساقيه. نظر كاشودا أيضاً في الهواء، لكن زوجته أتت على العودة إلى المطبخ. دلف إلى دكانه التي كان عليه أن يخرج منها ثانية ليضع المغاليق لأنه لم يكن لديه مستخدم يقوم بذلك مكانه. كانت كل حركاته عصبية، متقطعة. لا بد أنه صاح ملتفتاً نحو السلم – السلم الحلزوني نفسه الذي كان لمخزن القبعات:

– هذا أنا!

أسرع وأغلق الباب بالمفتاح. انطفأ نور الطابق الأرضي، وبعد قليل ظهر في الورشة حيث كان أول هم للخياط الصغير هو أن يأتي للنظر من النافذة.

انسحب السيد لابيه من موقع مراقبته وأعاد إلى درج الصندوق ما بقي من المال الذي كان قد أخذه منه قبل أن يذهب، وتقدم نحو غرفة الدكان الخلفية وربت، برهة على شيء كان قد سحبه من جيبه وكان يشبه لعبة صنعها أحد غلمان الشوارع، قطعتي خشب يصل بينهما ما يشبه الخيط.

كان معطفه المبلل لا يزال على ظهره، وعندما كان ينحني، كانت قطرات ماء تقع من قبعته. لم يخلعها إلا عندما صار في أسفل السلم حيث كانت توجد علاقة قبعات، ورأى خيطاً من نور تحت باب المطبخ.

كانت المائدة معدة بطبق واحد وغطاء أبيض وزجاجة خمر أعيد سدها بسدادة فضية.

- مساء الخير يا لويز، هل نادت السيدة؟

- كلا يا سيدي.

كانت الخادمة تراقب قدميه بينما كان يجلس أمام المدفأة وعادت بخفين في يدها وجثت على الأرض. لم يكن قد طلب منها ذلك قط. لا بد أنه قد روضت، في المزرعة، على أن تخلع أحذية الرجال، أبيها وأخوتها، عندما كانوا يعودون من الحقول.

كانت حرارة المكان في مستوى حرارة المخزن، وكان للهواء الجمود الثقيل نفسه الذي يضغط على الأشياء ويعطيها مظهراً جامداً، أزلياً.

كان المطر ما يزال يسمع وراء النافذة التي تطل على الباحة، وكانت، هنا، ساعة قديمة، في صندوقها الجوزي، تؤرجح اسطوانة نحاسية بصورة يمكن للمرء أن يقسم على أنها أبطأ من أي مكان آخر.

الساعة لم تكن هي نفسها الساعة في مخزن القبعاتي ولا في ساعة يد السيد لابيه ولا في المنبه الموجود في الطابق الأول.

- هل أتى أحد؟

- كلا يا سيدي.

ألبسته الخفين المصنوعين من جلد الماعز الرقيق المبرنق. كان المكان قاعة طعام أكثر منه مطبخاً لأن الفرن وحوض الصحون كانا إلى الجانب في حجرة ضيقة. كانت المائدة مستديرة والمقاعد منجدة بالجلد المسمر. كان هناك كثير من النحاسيات، وكانت هناك، على خزانة صحون ريفيه خزفيات قديمة مشتراة من صالة المبيعات.

- أنا صاعد لأرى ما إذا كانت السيدة تحتاج إلى شيء.

- هل أستطيع أن أقدم الحساء؟

اختفى في السلم الحلزوني وسمعت الباب الذي كان يفتح في الطابق الأول وخطوات وتمتة وصوت دواليب المقعد الذي كان يدفع، كما في كل مساء، عبر الغرفة. عندما نزل ثانية، قال، وهو يجلس أمام الطاولة:

- ليست جائعة جداً. ماذا هناك من طعام؟

كان قد وضع كتابه أمامه، أخرج نظارتيه من غمدهما. كانت المدفأة تدفئ ظهره. راح يأكل ببطء. كانت لويز تخدمه وتنتظر، بين الأطباق، ساكنة في حجرتها الصغيرة تائهة النظرات.

لم تكن قد بلغت العشرين من عمرها. كانت أقرب إلى البدانة، غبية جداً، بعينين بارزتين لا تعبير فيهما.

لم تكن الحجرة التي تستخدم مطبخاً واسعة إلى حد يسمح بوضع طاولة فيها. كانت أحياناً تأكل فيها واقفة، وفي مرات أخرى كانت تنتظر أن ينتهي القبعاتي ويغادر الغرفة لتأتي وتجلس مكانه.

لم يكن يحبها. كان استخدامه لها صفقة سيئة، لكن هناك وقتاً للتفكير في ذلك فيما بعد.

في الساعة الثامنة إلا الربع، مسح فمه ودس المنشفة الملفوفة في الحلقة الفضية وأعاد سد الزجاجة التي لم يشرب منها سوى كأس ونهض متنهداً. قالت:

- إنه جاهز.

عند ذلك، أخذ الصينية التي أعد عليها عشاء آخر ومضى، مرة أخرى في السلم.

كم مرة كان يصعد هذا السلم يومياً؟ الصعب كان أن يمسك الصينية بيدٍ دون أن ينسكب شيء من الطعام، وأن يخرج المفتاح من جيبه ويديره في القفل، لأن هذا الباب كان مغلقاً بالمفتاح دائماً، حتى حين يكون في البيت. أدار القاطع الكهربائي، ورأى كاشودا، من الجهة المقابلة، الستار يضيء. كان يضع الصينية في المكان نفسه، دائماً، ويعيد إغلاق الباب وراءه.

كل ذلك كان معقداً جداً. وقد استغرق زمناً كي ينظم. كانت روحات القبعاتي وغدواته تتم وفق ترتيب دقيق كانت له أهمية كبرى.

في البدء، كان يجب أن يتكلم. لم يكن يتجشم، دائماً، مشقة التلفظ بكلمات لأن ذلك لم يكن، على كل حال، يصل إلى الأسف إلا كتمتمة مبهمة. اليوم، مثلاً ،كان يكرر بشيء من السرور:

- ستقترف غلطة يا كاشودا.

لم يكن هناك شيء يطيب أكله بصورة خاصة هذا المساء، لكنه اختار، مع ذلك، أطرى قطعة من ضلع العجل. كانت هناك أيام كان يأكل، فيها، العشاء الآخر كاملاً.

ذهب إلى النافذة. كان لديه الوقت. أزاح الستار قليلاً واكتشف الخياط الصغير الذي استعاد، وقد أنهى عشاءه، مكانه على طاولته، في حين كانت البنتان تلعبان على الأرض أمام الغرفة، وفي حين كانت الكبرى، دون شك، تغسل الصحون مع أمها.

قال بصوت مرتفع وهو يعود باتجاه الصينية:

- هل أكلت جيداً؟ عظيم.

وذهب ليفرغ الصحون - باستثناء عظم الضلع - في المرحاض الذي كان يتجنب أن يسحب طارد الماء فيه: كان يفعل ذلك في البداية، لكن ذلك كان خطأً. كانت هناك أكوام من الأخطاء وضروب عدم الحذر، مثل هذه، صححها شيئاً فشيئاً.

كان يهبط ثانية مع الصحون الفارغة، وكانت لويز، الخادمة، تنهي عشاءها في مكانه. وكانت، لتجنب زيادة المواعين التي يجب غسلها، تأكل في صحن معلمها وتشرب من كأسه. كانت تقرأ، وهي تأكل، هي أيضاً، مسلسلات شعبية صغيرة.

– ألن تخرجي يا لويز؟

– لا رغبة لدي في أن أختق...

– طابت ليلتك.

– مساء الخير يا سيدي.

انتهى الأمر تقريباً. مازالت هناك بضعة طقوس يجب إنجازها: الذهاب للتأكد من أن باب المخزن مغلق جيداً، إطفاء النور، صعود السلم مرة أخرى، أخذ المفتاح من جيبه، فتح الباب، إعادة إغلاقه.

بعد قليل ستصعد لويز لتنام في الغرفة الأخيرة، وسوف يسمع خطوتها الثقيلة لمدة ربع ساعة قبل أن يئن السرير الحديدي تحت وزنها.

– إنها عجل!

كان له الحق في أن يتكلم بصوت مرتفع. كان ذلك ضرورة تقريباً، بين وقت وآخر. يستطيع، الآن، أن يسحب طارد المياه في المرحاض، أن يخلع ياقته وربطة عنقه وسترته وارتداء ردائه المنزلي البني. إلا أنه لم ينته تماماً لأنه كان يبقى عليه أن يضع ثلاث أو أربع حطبات في المدفأة.

كانت لويز هي التي تصعد بها صباحاً وتكومها على منبسط الطابق الأول. كان لكل منازل الشارع العمر نفسه، كانت تعود إلى عهد لويس الثالث عشر. بقيت، من الخارج، على ما كانت عليه مع قناطرها وسقوفها ذات الانحدار الشديد، لكن كلاً منها قد خضع، من الداخل، لتحولات متنوعة. على سبيل المثال، كان يوجد فوق رأس السيد لابيه طابق ثان، لكنه لم يكن يستطيع الوصول إليه دون أن يمر بالشارع. كان هناك باب إلى جانب المخزن يؤدي إلى ممشى ضيق يطل على الباحة. ومن هناك كان يبدأ السلم الذي يخدم الطابق الثاني دون أن يتصل، مع الطابق الأول.

كان ذلك، في السابق، عملياً، عندما يكون في الأعلى مستأجرون. كانت الغرف خالية منذ زمن طويل، بالضبط منذ السنة الأولى لمرض ماتيلدا التي لم تكن تتحمل أن تسمع، طيلة النهار، خطوات فوق رأسها.

لزمت دعوى من أجل التخلص من سكان الطابق الثاني. وحدثت أمور أكثر من ذلك تعقيداً!

ألم ينس شيئاً؟ كانت الحطبات تشتعل، والستائر مسدلة جيداً. كان يستطيع أن يطفئ ضوء السقف الذي كان فجاً جداً بالنسبة إليه وأن لا يحتفظ إلا بالمصباح الموضوع على المكتب، لأنه كان هناك، دائماً، في إحدى الزوايا، مكتب بعدد كبير من الأدراج الصغيرة، وكان ذلك مفيداً، حقاً، الآن.

أخذ كومة الصحف والمقصات وملأ غليونه. التفت مرتين أو ثلاثاً نحو النافذة مفكراً في كاشودا.

– شخص مسكين!

في البداية، كان تجهيز الرسائل عملاً صبوراً لأنه كان يقتطع كل حرف على حدة. كان، الآن، يعرف الجريدة جيداً إلى حد كان، معه، يعرف في أي باب يجد، بالتأكيد تقريباً، الكلمات التي يحتاج إليها. كان، أيضاً، قد عثر، في سلة أشغال ماتيلدا، على مقص تطريز لا يخطئ.

«السادسة ماتت يافعي، وكل المدينة، بكاملها، ستنتحب، أيضاً، على مصيرها»

كان توجهه مباشرة إلى جانتيه عادة قد أكتسبها.

«لاحظ أن الآنسة مولار كانت تعاني مرضاً في القلب منذ عدة سنوات وأنها فقيرة، تعيش وحدها، ليس لديها من يعتني بها وأنها مرغمة على إعطاء دروس بيانو لأبناء صديقاتها. أما بالنسبة لصهرها، المهندس، الذي يكسب حياته جيداً جداً، فإنه رفض، دائماً، أن يساعدها.

لم أقتلها من أجل ذلك طبعاً. قتلتها، كالأخريات، لأنه كان ينبغي ذلك. وهذا ما لايريد أحد أن يفهمه. سيقال ويكتب، أيضاً، أني مجنون، مهووس، سادي، وهذا ليس صحيحاً.

«أفعل ما يجب، هذا كل شيء.

«إذا اقتنع الناس بذلك، فسوف يتجنبون هذا الهلع الأبله الذي يمنعهم من الخروج من بيوتهم ويضر كثيراً بالتجارة.

«مالم تقترف حماقات، فلم يعد هناك، على اللائحة، سوى واحدة. سيكون المجموع سبعاً، بالضبط، وكل تحريات العالم لن تغير من الأمر شيئاً.

«البرهان على ذلك، يافتى، هي أنني أعلن لكم، منذ الآن، أن ذلك سيقع يوم الاثنين»

كان تركيب العنوان سهلاً على اعتبار أنه كان يكفي اقتطاع توقيع جانتيه من أسفل مقالة وعنوان الجريدة المطبوع في أعلى الإعلانات الصغيرة.

كانت لويز قد أتت على الدخول إلى غرفتها، وكانت تهمهم كعادتها.

ختم السيد لابيه الرسالة ولصق طابعاً ودس المغلف في جيب سترته الذي كان يتدلى من علاقة. غداً صباحاً، سينتظر، بعد أن يسحب ألواح الواجهة، وصول فالانتان، ثم سيذهب ليقوم بجولته المعتادة في المدينة سواء أكانت السماء تمطر أم لا.

المدهش هو أنه لم يكن عليه أن يغيّر شيئاً من عاداته. في كل الأوقات، صباحًا، كان قد تنزه في الحي، حول مجموعة أو اثنتين من البيوت، كما كان يذهب، دائماً، كل مساء إلى مقهى الأعمدة.

كانت الساعة قد بلغت التاسعة والنصف. بقيت لديه ساعة، وذهب ليجلس تجاه النار، ممدود الساقين وكتاب ضخم بصفحات صفراء على ركبتيه.

كان أحد أجزاء كتاب «*القضايا الشهيرة في القرن التاسع عشر*». قبل خمسة شهور، اشترى عشرين مجلداً ناقصاً منه من صالة المبيعات. بقيت عليه قراءة سبعة منها.

كان يدخن بسحبات قصيرة متباعدة. كان الجو حاراً. يجب أن تكون لويز قد نامت أخيراً. لم يعد يسمع سوى صوت المطر الرتيب وطقطقة للحطب أحياناً. ولم يكن هناك من يزعجه في قراءته.

كان السيد لابيه هادئاً، صافي الذهن. كان، بين حين وآخر، يلقي نظرة على المنبه.

– مازالت هناك عشرون دقيقة!

بقيت عشر دقائق، خمس دقائق. في العاشرة والنصف، أعاد إغلاق كتابه وهو يتنهد، نهض ومضى إلى الحمام. في الساعة الحادية عشرة إلا الربع، رقد في السرير الأيمن.

في السابق، لم يكن هناك سوى سرير واحد في الغرفة، سرير جميل جداً كان يتناغم مع قطع الأثاث الأخرى في الغرفة. منذ مرض ماتيلدا، نقل، عن طريق الشارع – على اعتبار أنه لم يكن هناك سلم بين الطابقين – إلى الشقة الخالية في الأعلى ووضع مكانه سريرين توأمين تفصل بينهما طاولة.

التفت ليتأكد من أن الجمرات التي مازالت حمراء لا تهدد بالتدحرج على السجادة وإشعال حريق.

كان كاشودا في الجهة المقابلة، لا يزال يعمل. كان شخصاً فقيراً يصنع كل شيء بنفسه، بما في ذلك البناطيل والصدارات التي يعهد بها الخياطون الأكثر أهمية لعاملات في بيوتهن.

الآن، وقد أصبحت الغرفة في الظلام، كان السيد لابيه يستطيع أن يرى، من خلال الستارة المستطيل المضيء للجانب الآخر من الشارع.

قبل أن ينام، قال هامساً، لأن الكلام لا يزال مناسباً.

– مساء الخير ياكاشودا.

لم يكن يترك المنبه يرن: كان يستيقظ من تلقاء ذاته في الساعة الخامسة والنصف صباحاً. لويز البدينة تكون، إذ ذاك، لا تزال نائمة في سريرها الندي. لا بدّ أنها كانت تسمعه ينهض ويذهب ليجلب حطباً من على المنبسط، يعيد إغلاق الباب ويشعل النار بعد برهة. في ذلك الصباح، لاحظ أن شيئاً ما كان مفتقداً، وكان ذلك طقطقة المطر، صوت الماء في الميزاب.

كان الظلام أشد من أن ترى السماء، إلا أن المرء كان يحس بريح عرض البحر التي كانت تطرد الغيوم نحو الداخل.

كان ينبغي عليه أن يرتب سريره ويضفي النظام على الغرفة ويضع خارجاً الدلو الممتلئ بالرماد، ومن أجل كل ذلك، كان يملك حركات دقيقة يجريها بترتيب مدروس بعناية. كان يتكلم قليلاً، يقول أي شيء، ولا يلبث أن يرى النافذة المقابلة تضيء. لم يكن هذا كاشودا الذي كان لا يزال نائماً، بل زوجته التي كانت تشعل النار وتكنس الورشة وتنفض الغبار.

سمع مرور عربات كانت تتجه نحو السوق، ثم جاءت أخرى كانت تتوقف في الشارع نفسه وأصوات فلاحات وتصادم سلال وأكياس كانت تترك تقع على الأرض.

كان يوم سبت. أخذ حمامه وارتدى ملابسه فيما كانت لويز تغتسل وراء حاجز المرحاض.

نزلت من الطابق الأول لتعد القهوة وعندما نزل، بدوره، كانت النار قد أشعلت.

- نهارك سعيد يا لويز.

- نهارك سعيد يا سيدي.

أدخل، في مخزن القبعات، عود كبريت في ثقب مدفأة الغاز الصغيرة. كانت أصوات الطريق تزداد حدة، ولكن الوقت لم يكن قد حان بعد لسحب المغاليق.

كان عليه، أولاً، أن يتناول إفطاره، ثم أن يصعد بإفطار ماتيلد، بدأت السماء في الشحوب. دفع السيد لابيه، حتى النافذة، بالمقعد الذي كان يضعه، دائماً، في المكان نفسه، في الزاوية نفسها، وتأكد من أن الرأس الخشبي الذي كان يأتي من دكانه الخلفية غير مهدد بالتدحرج.

أطفأ النور ورفع الساتر المعدني. كل شيء كان رمادياً، أبيض تقريباً. كان المطر قد تحول إلى ضباب ولم يكن مصباح كاشودا يرى إلا من خلال حجاب.

كان الزجاج متجمداً. ربما كان الجليد سيأتي أخيراً. كانت النساء الريفيات المتدثرات بشالات يتوقفن، أحياناً، عن ترتيب سلالهن ليضربن خواصرهن بأياديهن المزرقة. كانت هناك واحدة، عجوز قصيرة، تقف في المكان نفسه منذ أربعين سنة، وكانت قد أشعلت نار جمر صغيرة.

في هذا الفصل من السنة، كانت تبيع كستناءً وجوزاً.

لم يكن كاشودا قد أخذ مكانه على طاولته. كان باب المطبخ مفتوحاً، وكانت الأسرة، كاملة، تتناول إفطارها.

لم تكن السيدة كاشودا قد اغتسلت أو تمشطت. كان أصغر الأطفال الصبي الوحيد الذي كانت له عينان سوداوان لوزيّتا الشكل لا يزال في قميص النوم.

كانوا أناساً غريبين. كانوا يأكلون لحوماً باردة منذ الصباح. أدار كاشودا ظهره وبدا أحد كتفيه أعلى من الآخر.

كان السيد لابيه ينتظره. كانت لا تزال لديه أشياء صغيرة يفعلها. الجرائد التي اقتطع منها الكلمات والحروف قد أحرقت. حمل إلى لويز البزة التي كان يرتديها بالأمس لتكويها لأنه كان شديد العناية، وكانت ملابسه دائماً من جوخ فاخر، وأحذيته تصنع على قياس قدميه.

بدأ ذلك ببضعة تحركات لعربات وببضعة أصوات متفرقة ليتحول الأمر، من أحد طرفي الشارع إلى الطرف الآخر، إلى صخب كل أيام السبت الأصم. كان يعرف سلفاً أية رائحة لخضار طازجة، لرؤوس ملفوف مبللة، لدجاجات وأرانب، ستملأ خياشيمه منذ أن يفتح باب المخزن.

كان عليه أن ينتظر برهة طويلة أخرى، وعينه على الشق، كي يخرج كاشودا، أخيراً، من بيته، وعند ذلك قلده وهتف، من فوق النسوة، قائلاً:

– نهارك سعيد يا كاشودا.

ارتعد الكتفان النحيلان، التفت الرجل، فتح فمه، انقضت بضع ثوان قبل أن يقول:

– نهارك سعيد يا سيد لابيه.

لابد من أن ذلك كان يبدو له شيئاً لايصدق، شيئاً يدعو إلى الهلوسة – وربما أكثر من ذلك بسبب الضباب. كانت الأمور تجري مثل كل الأيام، مثل كل أيام السبت على كل حال. كان السيد لابيه قد حلق ذقنه وارتدى ملابس معتنى بها. سحب، بوقار، ألواح واجهته التي أدخلها، واحداً بعد الآخر ووضعها في الزاوية المعدة لها وراء الباب.

كان بلاط الشارع لا يزال مبللاً، مع بقاع ماء على طول الأرصفة. بقي متجر اللحوم الباردة، بالقرب من كاشودا، مضاء.

وصل فالانتان في الساعة الثامنة والنصف أحمر الأنف، وما كاد يصل إلى المخزن حتى كان عليه أن يتمخط قال:

- لقد أصابني زكام.

سيتمكن من معالجته في جو مخزن القبعات الفائق الحرارة. ارتدى السيد لابيه معطفه. وأخذ قبعته.

- سأعود بعد ربع ساعة.

اتجه نحو السوق المغطاة، وكان كثير من الناس يحيونه لأنه ولد في لاروشيل حيث عاش دائماً. اختار صندوق بريد شارع العقادين: لم يكن، هذا الصباح، مهدداً بأن يلاحظ في روحات الحشد وغدواته. ثم دخل، كما كان يحب أن يفعل كل سبت، إلى السوق المغطاة وتمشى أمام بسطات الأسماك والقشريات.

لم يشتر الجريدة، في ركن شارعه ذاته، إلا لحظة عودته إلى مخزنه. دسها في جيبه دون أن يساوره فضول ليلقي عليها نظرة.

كانت مزارعة قد أتت بابنها الذي جرب عليه فالانتان، ومنديله في يده، عمرات. كان ذلك هو اليوم المناسب. خلع السيد لابيه معطفه وقبعته وقال للويز من فرجة الباب:

- اشتري سرطانات. لدى عجوز شارانت الصغيرة سرطانات جيدة، هل نادت السيدة؟

- كلا يا سيدي.

سوف يأكل، أولاً، نصيبه من السرطانات تحت، ثم نصيب ماتيلد في الغرفة. كان حظاً طيباً أن تكون الخادمة السابقة، دلفين، قد ذهبت لتعيش مع ابنتها في جزيرة أوليرون لأن دلفين التي عملت لديهما عشرين سنة لم تكن تجهل أن ماتيلد لم تكن تحب كل ما يخرج من البحر.

كان يمكن الحصول على واحدة أفضل من لويز. كان يمكن لأشياء كثيرة أن تتدبر بصورة أفضل، بل أنه بدأ في كراهية الفتاة البدينة. لم تكن تطرح أسئلة قط. لم يكن يمكن تخمين ما تفكر فيه. ربما لم تكن تفكر.

لم يكن يحب أن تنام في البيت. دلفين التي كان لها أولاد كانت تعود إلى بيتها، في الجانب الآخر من المحطة، بعد العشاء مباشرة. لويز، أيضاً،

كانت قد نامت في المدينة في البداية، ثم صرحت، بسبب جرائم قتل العجائز، بأنها لم تعد تريد الخروج بعد هبوط الليل. لماذا قبل أن يخصص غرفة لها في الطابق الأول؟ ربما كانت لا تزال لديه، في تلك البرهة، فكرة غامضة في رأسه. كانت شهية إلى حد مقبول عندما لا ينظر إليها عن قرب. ولكنه لم يكن يستطيع أن يجهل، الآن، وهو يسمعها من خلال الحاجز وهي تنظف نفسها، إنها لم تكن نظيفة. كانت رائحة غرفتها التي اتفق له أن دخلها تشعره بالتقزز، وكذلك ملابسها الداخلية الملقى بها على كرسي.

ربما لم تكن خطرة، لكن هذا كان مع ذلك يشكّل تعقيداً، وكان قد فعل كل ما في وسعه ليفلت من التعقيدات. سوف يرى ذلك فيما بعد.

بدل سترته. كان يرتدي، دائماً، سترة قديمة ليعمل، دخل إلى الغرفة الخلفية وأشعل السخان الذي كان يستعمله كي يكوي القبعات على البخار.

فتح خزانة بأصغر مفاتيحه. كانت هذه المفاتيح التي لها أهمية أساسية مصقولة، لامعة كأدوات وكان يحتفظ بها دائماً في الجيب نفسه، ولا ينسى أبداً أن يضعها على الطاولة قبل أن يأوي إلى السرير.

كان يتدلى من سقف الخزانة خيط يشده مرتين أوثلاثاً.

فالانتان الذي كان لايزال مشغولاً مع الزبونة أم الصبي الصغير مشى بضع خطوات ليعلن له:

– السيدة تناديك يا سيد لابيه.

ذلك أنه كان، بسحبه الخيط، يطلق آلية كانت تقرع ضربات فوق أرضية الطابق الأول، تماماً كما في السابق عندما كانت ماتيلد تقرع الأرضية بعكاز لكي تناديه.

أعلن وهو يتنهد:

– أنا صاعد.

أعاد إغلاق الخزانة وأعاد المفاتيح إلى جيبه، الشيء الغريب هو أنه في دكان كاشودا، كان الخياط القصير مشغولاً بأخذ قياسات صبي صغير

كانت أمه قد أتت به. صبي صغير وأمه في كل من جانبي الشارع، ومن القرية نفسها، وهو شيء غريب أيضاً.

اختفى في السلم الحلزوني واستطاع فالاثنان سماع خطواته. انغلق الباب ثانيةً كانت الستائر تمنع الرؤية من الخارج. كانت السيدة كاشودا التي لم تكن تفكر أبداً في جيران الجهة المقابلة، ترفع ذراعيها في الهواء لترتدي ثوباً فوق تنورتها الداخلية لأن هؤلاء الناس كانوا، للحصول على مزيد من الحرارة، يرتدون ملابسهم، بل ويغتسلون في المطبخ. ومن أجل الصغيرتين والصبي، كان يوضع طشت من الخزف على كرسي.

أضاف حطبة أخرى إلى حطبات المدفأة، جلس، أشعل غليونه، وعند ذلك، فقط، فتح الجريدة.

«الخناق أوقَعَ ضحية جديدة». أليس طريفاً أن نتبين كيف تستطيع الكلمات تشويه الحقيقة؟ «الخناق»! وهي كلمة بدأت بحرف كبير فوق ذلك! كما لو كان الشخص، مثلاً، قد ولد خناقاً، كما لو كان مذوراً لهذا جملة! في حين أن الحقيقة كانت مختلفة جداً! كان ذلك يثير دائماً أعصابه قليلاً. بل كانت إثارة دفعته إلى توجيه أولى رسائله إلى الجريدة.

كانوا قد كتبوا في تلك المرة:

«*مجنون خطر يتجول في المدينة*». كان قد رد:

«*كلا يا سيدي، ليس هناك مجنون، لا تتحدث عما لا تعرفه*».

ومع ذلك، لم يكن جانتيه الشاب غبياً. ففي حين كانت الشرطة تلم المتشردين والبحارة المتوقفين مع مراكبهم وتستجوب المارة في الشوارع بصورة اعتباطية وتطلب منهم أوراقهم، كان المخبر يبني، شيئاً فشيئاً، محاكمة متماسكة. فبعد الضحية الثالثة، الآنسة لانج، بائعة الخردوات في شارع سانت يون، وفي حين كانت قد نظمت المراقبة منذ حلول الليل، كان يؤكد قائلاً:

«من الخطأ الانشغال بالمتشردين، وبصورة عامة بكل الذين يسترعون الانتباه بلباسهم أو بسلوكهم. القاتل هو، بالتأكيد، رجل يمضي دون أن ينتبه إليه أحد. فليس هو إذن غريباً كما افترض بعضهم. فنظراً للروحات والغدوات التي اقتضتها جرائمه الثلاثة، فمن الأكثر احتمالاً أن يكون قد اتفق له، مرة واحدة على الأقل، أن التقى إحدى الدوريات التطوعية التي تجوب المدينة كل مساء»

كان هذا صحيحاً. فقد كان بائع القبعات قد صادف دورية وتابع طريقه بطمأنينة. صوّب إليه ضوء مصباح جيب، في حين قال صوت:

– مساء الخير يا سيد لابيه.

– مساء الخير أيها السادة!

«....إن مواطناً معروفاً ومحترماً، هو وحده، الذي استطاع ....»

الفتى الذي كان يشاهد، كل ليلة، يكتب على الطاولة الأولى في مقهى الأعمدة ذهب إلى أبعد من ذلك، بكثير، في استنتاجاته.

«.... ساعات وقوع الجرائم تدل على أنه رجل متزوج له عادات منتظمة...». كان يبني هذا التأكيد على كون أية جريمة لم ترتكب بعد ساعة العشاء.

«... هو إذن رجل لا يخرج بمفرده مساءً...»

ثم يحيد عن الصواب. فبعد الجريمة الخامسة، قبل الأخيرة، جريمة قتل ليونيدبرو، قابلة فيتيي، كتب يقول:

«من المحتمل أن تكون القابلة قد اجتذبت إلى خارج بيتها بهاتف، وهو ما يبدو أنه يثبته وجود حزمة مفاتيح معها عندما هوجمت....».

كان تلك خطأ... فقد كانت الوحيدة التي التقاها السيد لابيه بالمصادفة تقريباً. كانت على القائمة بالتأكيد. ربما، فعلاً، كان يمكن أن يهتف لها لو لم يكن قد التقاها.

«...... ولما كان من الخطر إجراء مخابرة مثيرة بهذا الشكل للشبهات من كشك عام أو من مقهى........»

كان يريد أن يبدو أذكى مما ينبغي، أذكى من القاتل. وصل إلى التأكيد بأن في بيت هذا الأخير هاتفاً. ألم يكن يفكر، في أنه كان يمكن، في هذه الحالة، أن تفاجئ زوجته أو الخادمة المخابرة؟

بالضبط لم يكن لدى السيد لابيه هاتف. كان يرفض، دائماً، أن يركب هاتفاً في بيته.

وتابع جانتيه التخبط.

«يدور الأمر، احتمالاً، حول رجل يعمل في مكتب يغادره بين الخامسة والسادسة ويقترف جرائمه قبل العودة إلى بيته».

كان من المحبط إلى درجة كافية أن يكون قد كتب هذا في المقهى حيث كان يرى، كل يوم، تجاراً وممارسي مهن حرة يمضون ساعة أو ساعتين في لعب الورق قبل العشاء.

اليوم، كان هناك ما هو أفضل. كتبت الجريدة في عنوان فرعي:

«هل تم الحصول على أوصاف القاتل؟»

اكتشفت جثة الآنسة ايرين مولار بعد الثامنة والنصف مساء بقليل. كان شرطي قد تعثر بها، بالمعنى الحَرْفي للكلمة. شاع الخبر في كل الشارع. أم البنت التي أعطتها الآنسة العجوز آخر درس في البيانو هتفت قائلة:

– كنت معترضة على تركها تذهب وحدها. توسلت إليها كي تنتظر عودة زوجي الذي كان سيرافقها حتى باب بيتها. لم ترد أن تسمع شيئاً. سخرت من مخاوفي. أكدت أنها لم تكن خائفة. تركت الباب منفرجاً لحظة بينما كانت تبتعد لأسمع صوت خطواتها. أتذكر، الآن، أنني لمحت رجلاً في وسط الشارع. كدت أطلب النجدة، ثم فكرت في أني كنت مضحكة وأنه لا يمكن لقاتل أن يلتزم وسط الطريق. ومع ذلك، أعدت إغلاق بابي سريعاً جداً. لم أره جيداً، ولكني متأكدة، تقريباً، من أنه كان قصيراً ونحيلاً يرتدي معطفاً مطرياً أطول مما ينبغي.

كان ذلك معطف كاشودا، أو بالأحرى، المعطف الذي لم يكن لكاشودا والذي لأنه كان مهترئاً وقذراً تركه عنده وكيل تجاري متجول ليس من سكان المدينة، حين اشترى منه معطفاً، وكان الخياط الصغير يرتديه بدافع التوفير عندما تمطر.

التفت السيد لابيه نحو النافذة. كان كاشودا قد عاد إلى طاولته. كان يتحدث إلى زوجته التي كانت على أهبة الخروج وفي يدها كيس المشتريات. لا شك في أنها كانت تسأله عما يريد من طعام.

لم يكن الخياط قد قرأ الجريدة بعد. لم يكن يخرج من البيت، صباحاً، إلا لسحب المغاليق. ستحمل إليه زوجته، وهي عائدة من السوق، جريدة «*صدى الشارانت*».

خرجت لويز، أيضاً، لشراء ما يلزم. أتى جرس الباب على الرنين عدة مرات. كان هناك زبائن في المخزن.

لم ينس السيد لابيه، قبل أن يغادر الغرفة، أن يتمتم ببعض الكلمات، وغيّر مكان المقعد قليلاً.

رأى فالانتان ظهور الساقين ثم الجذع وأخيراً الرأس الهادئ والمستريح. وبما أنه كان يبدو مرتبكاً، فقد سأله بائع القبعات قائلاً:

- ماذا هناك؟

أشار الشاب المزكوم إلى فلاح ضخم الجثة كان يتأرجح بين ساق وأخرى.

- يلزمه قياس ٥٨ وليس لدينا سوى ٥٦ .

- دعني أجرب.

أصلح القبعة على البخار وذهب الزبون وهو ينظر إلى نفسه في المرايا بشيء من القلق.

(٣)

- سوف تغلق المخزن يا فالانتان.

- نعم سيدي. مساء الخير ياسيدي.

كان فالانتان قد تمخط طيلة النهار. وكان سائلاً إلى حد أن العيون كانت تدمع لدى رؤيته وسماعه. أفاد مرتين من عدم وجود زبائن ليجفف منديله أمام مشعاع الغاز.

كان شخصاً مسكيناً أيضاً. كان طويلاً وأصهب له عينان في زرقة الخزف، وكانت له سيماء صادقة إلى حد غالباً ما أعاد معه السيد لابيه إغلاق فمه الذي فتحه لتوجيه ملاحظة إليه دون أن يقول شيئاً مكتفياً بهز كتفيه. كانا يعيشان معاً القسم الأكبر من اليوم لأن الورشة والمخزن لم يكونا، في الحقيقة، سوى غرفة واحدة. في بعض الأيام، كانت تنقضي ساعات دون أن يريا زبوناً. كان فالانتان المسكين، بعد أن ينفض الغبار عن كل شيء، يرتب كل شيء ويتحقق للمرة المائة من البطاقات، يبحث، مثل كلب كبير محتار بجسده، عن ركن يقبع فيه متجنباً أن يحدث ضجة، منتفضاً لدى أدنى حركة من معلمه. وبما أنه لم يكن يحق له أن يدخن في المخزن، كان يمص، بصمت، سكاكر بنفسج:

- إلى الاثنين يا فالانتان. يوم أحد سعيد.

كانت تلك ملاطفة إضافية عابرة. ما كان يهمه هو أن يعلم إذا ما كان كاشودا سينزل أم لا. لم يكن قد تحرك من بيته طيلة النهار. نزل مرة من أجل قياس، ونشر، مرة أخرى، أقمشة أمام زبون لم يحزم أمره وكان عليه التملص بوعد في العودة. احتفظ بالضوء في ورشته لأن الضباب لم يتبدد،

وعندما خفت أصوات السوق، سمعت صوت صفارة طوافة الإنقاذ عدة مرات. كانت، في الفضاء، كخوار بقرة هائلة وكان هناك أناس يسكنون المدينة منذ زمن بعيد ومازال ذلك يستدعي تأثرهم.

لم يكن قد خرج أي مركب. وكان هناك مراكب أخرى تنتظر عودتها ولم تعد بعد، وكان الناس قلقين على مصيرها.

كانت الفلاحات قد رحلن في عرباتهن أو في الباصات قبل حلول الليل بكثير، ولم يبق سوى الرجال من يتلكأ في الحانات بوجوه حيوية اللون، وعيون لامعة.

كان كاشودا قد قرأ الجريدة. على كل حال، حملتها زوجته إليه. لم يخطئ السيد لابيه حول هذه النقطة. هل كان يخطئ قط؟ لم يكن يحق له ذلك. وعلى الرغم من كل ما كان في ذهنه، كان يتوصل إلى أن لا ينسى أدنى التفاصيل، وإلا لقُضي عليه.

كانت الجريدة على كرسي قرب طاولة الخياط وكان واضحاً أنه قد فتح صفحاتها. سوف يأتي كاشودا. كان بائع القبعات مقتنعاً بأنه سيأتي وتوقف عند عتبته ونظر نحو النافذة المضاءة وهو يفعل، آلياً، في سره، كما تفعل المزارعات حين ينادين الدجاجات:

– بوتي، بوتي، بوتي ....

مشى دون ضجة، ولم يتقدم عشرين متراً حتى راحت تسمع وراءه الخطوات التي كان قادراً على تمييزها من بين كل الخطوات. لقد جاء كاشودا. هل تردد؟ إنه شخص مسكين بالتأكيد. يوجد كثير من الأشخاص المساكين في العالم. لا بد من أنه كانت لديه رغبة مخيفة في العشرين ألف فرنك. لم يكن قد رأى، قط، مثل هذا المبلغ مجتمعاً ما لم يكن ذلك وراء كوى المصرف احتمالاً. كان يلزمه عامان يستهلك فيهما أيامه ولياليه على طاولته من أجل أن يكسب مبلغاً مماثلاً.

هذه العشرون ألف فرنك كان يريد بالتأكيد أن يكسبها، كان يريد ذلك بكل قواه. بل إنه يخاف إلى هذه الدرجة لأنه كان يريد ذلك بمثل هذه القوة.

ربما كان ذلك خوفاً من أن يفقدها أكثر منه خوفاً من بائع القبعات. ما حدث كان يجب، حتماً، أن يحدث: أن شخصاً مثل كاشودا هو من يغدو مشبوهاً، كاشودا هو الذي لمحته أم بنت البيانو الصغيرة ووصفته للشرطة.

كانا يسيران، الواحد منهما خلف الآخر، ككل الأيام، وكان على الخياط الصغير أن يلقي بساق جانباً لدى كل خطوة. أما السيد لابيه، فقد كانت له، على العكس من ذلك، مشية هادئة ومحترمة، كانت له حقاً مشية جميلة.

دفع باب مقهى الأعمدة، وكان يمكن للصوت والرائحة وحدهما أن يعلماه، أن ذلك اليوم كان سبتاً. نعم، الرائحة لأن زبائن السبت لم يكونوا يتناولون مشروبات زبائن الأيام الأخرى نفسها.

كانت القاعة غاصة بالزبائن. بل إن بعضهم كان يبقى واقفاً. كان الفلاحون العاميون يجتمعون في الحانات الصغيرة قريباً من السوق. هنا كان يوجد أغناهم، أو أكثرهم مبادرة، أولئك الذين كانت لهم أعمال مع تجار الأسمدة وموظفي التأمين ورجال القانون الذين كانوا، كل يوم سبت، يعقدون جلساتهم على طاولات أصبحت، لبضع ساعات، مكاتبهم أو متاجرهم.

طاولات الوسط، قرب المدفأة، كانت وحدها تبقى واحة تحظى بالاحترام، محاطة بمنطقة هدوء وصمت.

الدكتور شانترو الذي لم يكن يلعب كان جالساً وراء السيناتور الذي يمسك بالورق. لمس السيد لابيه يده.

– مساء الخير بول.

وبما أن صديقه كان يخرج قرصاً من علبة صغيرة من الورق المقوى، قال له:

– ألست على مايرام؟

– الكبد.

كان ذلك يحدث له دورياً. فمن يوم إلى الآخر، كان يبدو أنه قد فقد من وزنه عدة كيلو غرامات لشدة ما قاسى وجهه، مع انتفاخات رخوة تحت عينيه، نظرة رجل يتألم.

كانا، كلاهما، في العمر نفسه. كانا، في الثانوية، صديقين حميمين يكادان أن لا يفترقا.

أخذ غبرييل معطف السيد لابيه وقبعته.

– الشيء نفسه؟

كان أمام الدكتور، على رخام الطاولة، ربع ليتر من مياه فيشي. كاشودا الذي دخل كان متردداً في الجلوس قرب اللاعبين.

شخص مسكين هو أيضاً! لم يكن كاشودا فقط الذي انتهى بإرخاء طرف ردفيه على كرسي، بل أيضاً بول الدكتور. يجب أن تكون مازالت لدى السيد لابيه في مكان ما، في قعر درج، صورة تمثلهما، معاً، في عمر الخامسة عشرة أو السادسة عشرة. في ذلك العمر، كان شانترو نحيلاً، ذا شعر قريب من اللون الأصهب، ولكنه لم يكن أصهب فالانتان المخنث. كان يرفع ذقنه بزهو وينظر أمامه بتحد. كان قد اختار أن يكون طبيباً، إنما ليس طبيباً عادياً: بل كان يريد أن يكون مكتشفاً عظيماً على صورة أمثال باستور ونيكول. كان أبوه غنياً، يملك حوالي عشر مزارع في أونيس والفانديه. لم يكن يفعل شيئاً خلاف إدارتها من بعيد، والطريف هو أنه كان يمضي كل بعد ظهر في مقهى الأعمدة، في المكان نفسه الذي يشغله لاعبو البريدج اليوم. كان بول الفتى يقول عنه:

– إنه يثير اشمئزازي. إنه بخيل ويسخر من مصير الفلاحين.

على وجه الإجمال، كان آباؤهم، جميعاً، يملكون مالاً وأراضٍ ومزارع أو بيوتاً، أو سفناً، أو نصيباً من سفن أيضاً.

كان كاشودا ينظر إليه بحدة خفية، وكان السيد لابيه يتظاهر بأنه لا يلاحظ ذلك. كانت لعبة. كان هذا يثبت له، هو نفسه، أنه، كان له ذهن حر.

انقلبت الأدوار. كان الخياط الصغير هو الذي يتعرق من الخوف، والذي يشرب كأسه بعصبية مع سيماء من يتوسل إليه أحياناً.

أن يتوسل إليه بماذا؟ بإيقاع نفسه، ليسمح له بتقاضي جائزة العشرين ألف فرنك؟

- أنت تشرب كثيراً يا بول.

- أعلم.

- لماذا؟

كان قد عاد إلى المدينة وفتح عيادة. كان قد حزم أمره:

- لن استقبل زبائن إلا صباحاً ليكون باقي الوقت حراً لأبحاثي.

أنشأ مختبراً حقيقياً واشترك في كل المجلات الطبية.

- لماذا لم تتزوج أبداً يا بول؟

ربما لأنه كان يريد أن يصبح عالماً، ما أدراه، وكان يكتفي برفع كتفيه مع تكشيرة كان الألم ينتزعها منه.

كان قد ترك لحيته تنمو، ولم يعد يعتني بنفسه. كانت أظافره سوداء وملابسه الداخلية مريبة. كان يأتي إلى مقهى الأعمدة في الساعة السادسة، ككل الذين يعملون، أولاً، ثم في الخامسة، ثم في الرابعة، وكان يأتي إليه، الآن، بعد الغداء مباشرة. وبما أنه لم يكن يوجد فيه أحد آنذاك من أجل لعب البريدج، فقد كان يلعب الضامة مع أوسكار، صاحب المقهى.

انتهى إلى تجاوز الستين كالسيد لابيه. كانوا، جميعهم، قد تجاوزوها.

- هل تأخذ مكاني يا ليون؟ يجب أن أذهب لأثرثر مع ناخبيّ.

اندريه لادرو، السيناتور، الذي كسب شوطاً نهض آسفاً. كانت حولهم ضجة مستمرة، نعال تسحب نفسها على الأرضية المغطاة بالنشارة، كؤوس تتقارع، صحون، أصوات أعلى من المعتاد.

كان مزارع بطماقين جلديين يقول:

– سوف ينتهي إلى الوقوع، أقر بذلك. جميعهم ينتهون إلى الوقوع، بما فيهم أدهاهم. وماذا بعد؟ سترون أنهم سيدسونه في مصحٍّ زاعمين بأنه مجنون، وأننا نحن دافعي الضرائب، الذين سنعيله حتى موته.

– مالم يقع على شخص مثلي!

– أنت، ستفعل مثل الآخرين على الرغم من معلاقك الكبير. ربما سددت قبضتك إلى وجهه، ولكنك ستسلمه بعد ذلك، مذعناً، إلى الشرطة. لا أقول إن ذلك يحدث في قرية. ربما كان الأمر، فيها مختلفاً، فهناك مذار ورفوش.

جلس السيد لابيه بهدوء، دون تقطيبة، مكان السيناتور الذي مضى ليبدأ جولة بين الطاولات. تساءل السيد لابيه، لبرهة، عما إذا كان كاشودا مزكوماً أيضاً لشدة ماكان وجهه محمراً وعيناه لامعتين، لكنه لاحظ صحنين تحت كأسه.

كان الخياط يشرب! ربما كان ذلك ليهب نفسه الشجاعة. أشار، فعلاً، إلى غبرييل بأن يأتي له بكأس ثالثة من النبيذ الأبيض. أعلن جوليان لامبير، موظف التأمين، وهو يخلط الورق:

– نحن معاً.

هذا الأخير لم يكن يشرب، أي أنه كان يكتفي بكأس فاتح للشهية أو اثنتين كحد أقصى. كان بروتستانتياً. له أربعة أو خمسة أبناء، وكان يمكن أن ينجب أكثر بكثير لو لم تكن زوجته تجهض مرة على اثنتين. كان ذلك موضوع مزاح. كانوا يسألونه:

– ماذا عن زوجتك؟

– في العيادة.

– طفل؟

– اجهاض.

كان لديه مال، هو الآخر، ورثه عن أبويه وسمح له بشراء مكتب تأمين. لم يكن ينشغل به كثيراً. كان لديه مستخدمون جيدون. كان واحد من

هؤلاء يوافيه، أحياناً، إلى المقهى لقضية عاجلة. وكان، بعد أن يلعب البريدج بعد الظهر، يتعشى بسرعة ليلعب البريدج أيضاً في بيته أو لدى أصدقاء.

والواقع هو إنه شقيق السيدة جوفروا - لامبير، المخنوقة الرابعة، كان السيد لابيه قد اشترك في مراسم دفنها.

- تعازي يا جوليان.

كان قد شارك في كل الجنازات لأنه كان يعرفهن، جميعهن، عن طريق ماتيلد على الأقل.

لم يكن الصحفي الشاب مرئياً. لا شك في أنه كان مشغولاً، خارجاً، بتحقيقه. ألقى السيد لابيه، مرتين أو ثلاثاً، نظرة على طاولته المعتادة. قال كاييه ناشر «صدى الشارانت» وصاحبها وهو مستمر في فحص أوراقه:

- تلقينا رسالة جديدة.

تمتم جوليان لامبير، وهو يعلن عن اثنين سباتي:

- بدأ يبالغ.

وقال، وهو يلتفت نحو شانترو الذي كان يراقب اللعب:

- هل تعتقد يا بول، أنه مجنون؟

رفع الدكتور كتفيه، لم يكن ذلك يعنيه حالياً. لم يكن قلقاً إلا من البراثن التي كانت تحرث جنبيه. وغمغم:

- على كل حال، لن يتوقف قبل أن يقبض عليه.

- لم يقبض على جاك الباقر أبداً، ومع ذلك فقد توقف عن القتل.

سر ذلك السيد لابيه الذي لم يفكر أبداً في ذلك. سأل قائلاً:

- كم قتل؟ ثلاثة ديناري.

- أنا خارج اللعبة.

زايد لامبير قائلاً:

- ثلاثة بستوني.

– أربعة كبة.

كان يلوح في الأفق فوز بكل الأوراق الرابحة، وسادت برهة صمت كانت تقطع بمزايدات ليتم الوصول إلى ستة ديناري.

– لا أدري كم قتل، لكن الرعب قد دام، في لندن وضاحيتها، عدة أشهر. لقد استدعي الجيش للنجدة. أرغمت مكاتب ومصانع على إغلاق أبوابها لأن المستخدمين والعاملات لم يعودوا يجازفون بالخروج من بيوتهم.

– يستبد في الفضول لمعرفة كم يوجد من النساء في الطريق في هذه البرهة.

ارتعش الخياط وأفرغ كأسه الثالثة دفعة واحدة. وبما أنه لم يعد يجرؤ على النظر في اتجاه اللاعبين خشية أن يلتقي نظره نظرَ بائع القبعات، فقد كان يحدق، بحزن، في الأرضية الوسخة.

كان من الطريف معرفة كيف يكون كاشودا عندما يشرب. لم يكن السيد لابيه قد رآه سكراناً أبداً. الدكتور الذي كان يبدأ في الشرب منذ الصباح، بعد كل استشارة، والذي لا يعود يتوقف حتى المساء، كان يظهر، في البدء، حنوا بالكاد مصطبغاً بالسخرية. كان يدعو آخر زبائن الصباح، جميعهم:

– ياصغيري.

أو:

– يا صديقي المسكين

أو:

– يا سيدتي الصغيرة

وكان، بدلاً من أن يكتب لهم وصفات، يذهب إلى خزانته ليأتي بدواء يدسه في يد المريض مجاناً.

وكان، في بداية بعد الظهر، يرى أولمبياً، وجهه محاط بهالة من الدخان، بطئ الحركة، ثقيل النظرة، نادر الكلام. ثم يصبح، شيئاً فشيئاً، متهكماً حتى مع أفضل أصدقائه.

الذين كانوا يلتقونه حوالي العاشرة مساء، عندما يكون عائداً إلى بيته بعد أن يكون قد شرب نبيذاً أحمر في الحانات الصغيرة، كانوا يزعمون أنه يكون، عند ذلك، دامع العين وأنه كان يمسك بسواعدهم.

– فاشل يا صديقي، جيفة فاشل هرمة، هذا ما أنا عليه. اعترف بأني أسبب لك القرف، بأنكم تشمئزون مني جميعاً!

أما بالنسبة لأوسكار، صاحب المقهى المرغم بحكم المهنة على أن يشرب طيلة اليوم، كؤوساً صغيرة مع الزبائن، فإن عينيه تنتفخان، ومشيته تصبح وقورة ومترددة، وكان يلتقط شعرة على لسانه ويخلط، مساء، بين المقاطع، بحيث لا يفهم، دائماً، ما كان يقوله.

على كل حال، أصبح الخياط الصغير محموماً. لم يكن يلزم مكانه، وكانت له حركات غير متوقعة كعرات، أو كما لو كان يطرد ذباباً يهاجمه.

كان لدى السيد لابيه الانطباع السار بأنه كان يمسك به بطرف خيط، بأنه يتمدم له بلطف:

– اهدأ يا صغير.

كان يعرف جيداً أن المفوض بيجاك كان هناك، وراء ظهره، على طاولة أعمار ما بين الأربعين والخمسين. كان قد رآه يدخل بمعطفه الرمادي وقبعة رمادية على رأسه وبوجه رمادي. كان يذكّر بسمكة، في رنكة كامدة اللون، ويحتفظ دائماً بابتسامة باردة على شفتيه كما لو كان ذلك ليوهم بأنه يعرف الكثير.

لم يكن يعرف شيئاً بالمرة. السيد لابيه كان مقتنعاً بذلك. كان مغفلاً رسمياً، خُلق ليكون موظفاً لا يفكر إلا في ترفيعه وانتمى إلى المحافل الماسونية لأنهم أوهموه بأن هذا قد يساعده. لم يكن قوياً إلا في لعبة البليار حيث كان يحقق سلاسل من مائة وخمسين ومائتي نقطة ملتفاً ببطء حول السجادة الخضراء ناظراً إلى نفسه، من وقت إلى آخر في المرايا.

– لا تفعل ذلك يا صغيري.

كان يقول ذلك، في سريرته، لكاشودا لأنه كان يحس بالدوار الذي كان يستولي على الخياط الصغير الذي كان محموماً ولم يعد يعرف إلى أين ينظر، والذي كان يفكر في العشرين ألف فرنك وبشهادة أم فتاة البيانو. قال كابيه أيضاً:

– إنه يدعي أنه لن يقتل سوى واحدة أخرى.

– لماذا؟

– إنه لا يقدم سبباً لذلك. إنه لا يزال يؤكد أن ذلك ضرورة وأنه لا يفعل هذا راضياً. ستقرؤون رسالته غداً صباحاً في الجريدة.

أربع كؤوس من النبيذ الأبيض. كان كاشودا قد شرب فعلاً أربع كؤوس من النبيذ الأبيض. كان ذلك ينسيه التطلع إلى الساعة. كان الموعد الذي اعتاد، عنده، أن يعود إلى البيت قد انقضى.

– الموعد هو الاثنين.

– ما الذي موعده الاثنين؟

– آخر واحدة ولماذا الاثنين؟

– لا أدري. يسرني أن أرى ما إذا ستكون هناك جرائم اليوم أو غداً. هذا سيثبت أنه يكتب مجرد كلام.

أكد جوليان لامبير قائلاً:

– إنه لا يكتب مجرد كلام. ولماذا أختي التي لم تسيء، قط إلى أحد؟

لثغ شانترو قائلاً:

– ربما لم يكن يحب العجائز.

نظر إليه السيد لابيه بفضول لأن الفكرة لم تكن غبية جداً. لم تكن دقيقة تماماً، لكنها لم تكن غبية بالمرة.

تابع كابيه قائلاً:

– هل لاحظتم أنهن، جميعاً، في مثل أعمارنا إلى حد ما.

عند ذلك تدخل أرنو، أرنو الضخم، من شركة سردين أرنو، الذي لم يكن قد قال شيئاً بعد:

– بينهن اثنتان على الأقل نمت معهما وواحدة كدت أتزوجها.

أحس لامبير بأنه معني:

– شقيقتي؟

– لا أتحدث عن شقيقتك.

لكن الجميع كانوا يعلمون أنه كان للسيدة جوفروا – لامبير فخذان مضيافان. والحق أن ذلك لم يحصل إلا حوالي الأربعين، مع ترملها، وأنها لم تكن تتعاطى إلا مع شبان فتيين جداً.

– هل عرفت ايرين مولار؟

– كانت جميلة، لكنهم يزعمون أنها، في عمر السابعة عشرة، كانت مثل عصفور بالنسبة لقط لشدة ما كانت نحيلة. كانت عاطفية كرواية متسلسلة، عاطفية إلى حد أنها لم تتزوج. أراهن على أنها ماتت عذراء.

سئل الدكتور الذي كان يعالجها:

– هل هذا صحيح؟

– لم يتفق أن فحصتها من هذه الناحية.

– من هو الذي أعلن عن ثلاثة سباتي؟ كنا عند ثلاثة سباتي. دورك يا بول.

كان المقهى مليئاً بالدخان الذي تجتذبه المصابيح الكهربائية الضخمة ذات اللون الأبيض اللبني والتي ركبت منذ قليل. كان السيناتور قد وصل إلى طاولته الثالثة. وعند كل طاولة، كان يقدم شوط شراب. وعند كل منها، تقريباً، كان يُرى وهو يُخرج من جيبه دفتر جيب ويكتب بضع كلمات. كان الناخبون الذين ليس لديهم ما يطلبونه نادرين. وعندما نظر إليه السيد لابيه من بعيد وهو يعيد الدفتر إلى جيب سترته، وجه إليه لود غمزة وقحة، كان أقلهم ثراءً في السابق. كان أبوه موظفاً صغيراً في الكريدي ليونيه. تزوج الابن ابنة

وحيدة في حين لم يكن سوى محام أو مستشار بلدي. يسكن، اليوم، أحد أضخم قصور شارع ريومور، غير بعيد عن بيت السيدة جيوفروا - لامبير. قال السيد لابيه:

- بالمناسبة، يجب أن يكون منزل أختك للبيع.

سخر الآخر قائلاً:

- هل تنوي أن تشتريه؟ هذا البيت أكبر من الإمكانات المادية لفرد. لا توجد، فيه، إلا إحدى عشرة غرفة نوم واصطبلات لعشر خيول في آخر الباحة. أحاول أن أتحرى المحافظة التي لا تزال تحتاج إلى مكاتب.

- اهدأ يا صغيري!

لولا قليل لأمر السيد لابيه غبرييل بأن لا يعود يقدم شراباً للخياط الصغير، ومن المؤكد أن غبرييل كان سيطيعه. قلق برهة عندما هب كاشودا واقفاً وبدا عليه أنه يسرع إلى طاولة المفوض. ولكنه تجاوزها وغاب في دورات المياه.

هل كانت مثانته؟ هل كانت معدته؟ في هذه البرهة، وبمصادفة سعيدة، كان بائع القبعات يتّماوَتُ واتجه، بدوره، نحو المغاسل، لمجرد الفضول لأنه لم يكن خائفاً.

لم يكن الأمر يدور إلا حول المثانة. ووجدا نفسيهما جنباً إلى جنب أمام الخزف الذي كان يغطي الجدار.

لم يكن الخياط الصغير الذي كانت كل أعضائه ترتعش يستطيع أن يهرب. قال له السيد لابيه بعد برهة تردد، بهدوء، وهو ينظر أمامه:

- اهدأ يا كاشودا.

كانا وحدهما. هل كان الخياط يتصور أن جاره سيخنقه؟ كان السيد لابيه يستطيع أن يؤكد له، دون أن يكذب أن أداته ليست معه.

وبالفعل، لم يكن أحد قد فكر في أن يضع قائمة بسكان لاروشيل الذين يعزفون على الفيولونسيل. ما كانت لتوجد، منهم، كميات.

أما بالنسبة إليه، فقد نسوا، احتمالاً، أنه كان موسيقياً. مضى عليه عشرون سنة، على الأقل، لم يستخدم خلالها آلته، وكانت هذه الأخيرة في مخزن النفايات. كان ينبغي عليه، ليصل إلى المخزن، أن يخرج من البيت ويدخل في الزقاق المسدود ويتسلق سلم الطابق الثاني. وهذا ما فعله لأنه لم يكن من التهور بحيث يشتري وتراً من دكان الآلات الوترية في شارع القصر، خاصة أنه لم يكن هناك سوى دكان واحدة في المدينة. وقد مضت على بائع القبعات خمس عشرة سنة لم يغادر خلالها لاروشيل حتى للذهاب إلى روشفور، خمس عشرة سنة لم يرقد خلالها إلا في سريره.

لم يفكر أحد كذلك في هذا. كان الآخرون يخلفون، أحياناً، موعد بعد الظهر. كان أندريه لود يذهب إلى باريس من أجل جلسة مجلس الشيوخ ويمضي عطلته في قصر في الدوردون كانت زوجته قد أتت به كبائنة. وكان شانترو نفسه، يمضي، كل سنة، فترة استشفاء في فيشي. وكان لكل أسرة جوليان لامير بيت صغير في فورا كانت تمضي، فيه، شهرين في السنة، وكان رجل التأمين يعلن أحياناً أنه ذاهب إلى بوردو من أجل أعمال، وأحياناً أخرى إلى باريس.

كان لدى معظمهم سيارات، وكانوا يركبون قطارات. أرنو، صانع السلاح شارك في الصيف الماضي، في رحلة سيتزبيرغ البحرية. وكانت هناك أيام يشق فيها، إيجاد، لاعب رابع لجولة البريدج، وكان ينبغي، في بعض المرات، الاستنجاد بأناس من جماعة ما بين الأربعين والخمسين.

لم يكن هناك سوى بائع القبعات موجود دائماً، وكان الآخرون قد اعتادوا على ذلك إلى حد لم يعودوا، معه، يجدونه غريباً. منذ متى لم يشاهد بقرة حقيقية خارج القطعان التي كانت تمر في الطريق لتمضي إلى المسلخ؟

كانوا، في البداية، يرثون له، كانوا يرثون، خاصة، لماتيلد.

- كيف تتحمل هذا؟

- لا بأس، لا بأس.

كاشودا نفسه ذهب إلى باريس وإلبوف! كان كاشودا يأخذ، في بعض أيام الآحاد، أسرته إلى البحر، في مكان ليس بعيداً جداً، أي في شاتليون، وفي هذه الأيام، كانت الطريق خالية خلوّ طاولة بلياردو، خلاف زقزقة عصافير الدوري.

عاد السيد لابيه، أولاً، إلى مكانه. كان يعلم، جيداً، أن الآخر سوف يتبعه.

– ثلاثة أوراق الكُبّى؟

– جمعتُ منها خمساً.

– لقد فَوَّتّها على نفسك. أأنا من يوزع الورق؟

بلغت الساعة السادسة وأصبح الفلاحون أقل كثافة. الذين كانوا يتأخرون هم من يملكون سيارة أو شاحنة لأن العربات كانت قد رحلت منذ زمن طويل وسارت في صف آحادي على طول الطرقات، في الضباب الذي كان يتكاثف من جديد. كان من الكثافة، حتى في المدينة، إلى حد كان معه يدخل، حين يفتح باب المقهى، إلى قاعة الطعام كدخان بارد، أكثر بياضاً من دخان الغلايين والسيغارات.

من كان يصدق، خارج طاولتهم، أن السيد لابيه كان طياراً؟ ومع ذلك، فقد كان كذلك خلال حرب ١٩١٤. أسقط طائرات معادية، مثل إسقاط غلايين في الملاهي، وكسب عدة تنويهات. بل إنه أسس نادياً للطيران في لاروشيل، وكان، لبعض الوقت، رئيساً له. وقبل ذلك، كان قد أدى خدمته في سلاح الفرسان.

لم يقترف خطيئة واحدة. لم يكن لدى جوليان لامبير الذي كان مماحكاً دائماً مأخذاً واحداً عليه. كانت إعلاناته صحيحة دائماً، وكان لعبه جيداً.

أليس من الأبسط أن يهدي كاشودا العشرين ألف فرنكاً؟ كان يستطيع أن يسمح لنفسه بذلك. كان ميسوراً. وإذا كان يدع مخزن القبعات يتهاوى، فلأنه كان يريد ذلك حقاً.

كان يستطيع أن ينتقل على اعتبار أن التجارة انتقلت في اتجاه شارع القصر حيث كانت تتلألأ أنوار مخازن السعر الموحد والمخازن الكبرى الأخرى وفونوغرافاتُها.

كان من السهل، حتى في شارع ميناج، زيادة تدوير واجهته وتحديث مخزنه وطلاء الجدران والرفوف بألوان زاهية. ما الجدوى؟ كان أصدقاؤه نادراً ما يشترون منه قبعة مفضلين أن يشتروا من بوردو أو باريس. كان يكتفي بإصلاحها في الدكان الخلفية فاتحاً، بين حين وآخر، الخزانة لشد الخيط. كان فالانتان يقول له حالاً:

– السيدة لابيه تناديك.

وذلك كما لو كان الوحيد الذي يسمع الضربات الواقعة على السقف. قطب حاجبيه وهو يسمع كاشودا يوصي غبرييل بصوت متردد:

– كأس كونياك.

لقد قرر، إذن، أن يسكر، وحول نظره ليتجنب نظرة بائع القبعات.

هل ستكون لديه الجرأة، بعد قليل، على تسلق طاولته والتقاط قطعة قماش تفوح منها رائحة مصالة الصوف. وعلى وجه الإجمال، كان لهذا الأخير طاولته، المصباح المعلق بسلك حديدي، قطعة الطبشور التي تتدلى. كانت له رائحته أيضاً، الرائحة التي كان يحملها معه إلى كل مكان والتي لا تزعج إلا الآخرين، التي لا بدّ أنه كان يتنشقها بشيء من النشوة. وكانت له زوجته مختلة الهندام دائماً، ذات الصوت الحاد الذي كان يسمعه، طيلة النهار، من باب المطبخ الأخضر المنفرج، والبنات الصغيرات والصبي الذي جاء أخيراً بعد أربع بنات، والبكر التي يجب أن تكون قد بدأت بأن يكون لها عشاق.

في ذات يوم، ستحمل السيدة كاشودا من جديد. وكان عجيباً أن تنقضي ثلاث سنوات دون أن تحمل ما لم تكن قد اختلطت أحشاؤها.

كان بوسع السيد لابيه أن يسير إلى جانب الخياط في الطريق، عندما يخرجان، أن يهدئه، يطمئنه، يطلب منه أن ينتظر دقيقة ويذهب ليجلب له عشرين ألف فرنك. كانت، في خزانة الغرفة، محفظة ضخمة تحتوي على أكثر من ذلك على صورة أوراق نقدية. كان ذلك يعود إلى زمن ماتيلد التي لم تكن تثق بشيء، بأحد، وترتاب بالمصارف.

- غبرييل!

- نعم سيد لابيه، الشيء نفسه؟

- فين مع الماء.

كان كونياك كاشودا يخلق لديه الرغبة في أن يشرب منه بدوره، لكنه لن يسكر. نادراً ما سكر في حياته إلا عندما كان طالباً وأثناء الحرب، قبل أن يذهب في غارة.

- أقصّ وألعب السّباتيّة الملك.

ابتلع شانترو، إلى جانبه، قرصاً ثانياً وتلقى السيد لابيه نفسه الكريه في وجهه.

- ماذا عن زوجتك؟

- لا تزال على حالها.

- ألا تصاب بقروح؟

هز رأسه نفياً.

- إنها محظوظة.

منذ حوالي عشر سنوات، لم يدخل طبيبٌ إلى المنزل. كانت ماتيلد، في بداية شللها، تريد أن تراهم جميعاً. فكان يجري تغييرهم كل أسبوع. استقدم اختصاصيون من بوردو وباريس. اتبعت كل أنواع العلاج، ثم جاء دور الكهنة والراهبات، وحجت سنتين متواليتين إلى لورد.

هذه البلبلة دامت خمس سنوات بطلعات ونزلات، بأزمات صدوفية، فترات أمل وفترات تسليم.

- أقسم لي على أنك لن تتزوج ثانية إن رحلت.

وفي الغد، كانت تمسك بيده وهي تتخذ سيماء الحماية:

- استمع يا ليون. لا ينبغي أن تبقى وحيداً عندما أكون قد رحلت. سوف تجد، حقاً، فتاة طيبة تتزوجها، وربما أنجبت لك أبناء. سوف تعطيها مجوهراتي. إني أصدر على ذلك.

كانت، خلال ثمانية أيام، تقرأ من الصباح إلى المساء، وفي الأسبوع التالي، كانت تمضي ساعات في التحديق في الستائر بهيئة شرسة.

استقدمت شافي شارون الذي آمنت به خلال حوالي الشهر. وقد نفرت من خمس ممرضات، وتلقت الأخيرة سيلاً من الشتائم. وفي ذات يوم، قررت أنها لن ترى، بعد، طبيباً ولا كاهناً، وبعد قليل، أعلمت دلفين التي كانت، آنذاك، خادمتهما بأن عليها أن لا تتجاوز، بعد، عتبة غرفتها.

كان شانترو الذي لا زوجه له يمضي أيامه المتوحدة في الشرب. وكانت لجوليان لامبير زوجة - فرس كبيرة سمراء - وأبناء، وكان يقتل الوقت في لعب الورق.

أما أرنو، رجل السردين الذي طلق مرة وتزوج ثانية من امرأة تصغره بخمسة عشر عاماً، فقد كان يذهب إلى المبغى مرتين في الأسبوع، بل اتفق له، أيضاً، أن نام، فيه، بعد أن شرب كثيراً.

كان كاييه هو الذي استوقف المفوض بينما كان يمر بطاولتهم.

- ماذا عن تحقيقكم يا بيجاك؟

رد الآخر بهيئة لغزية لأغبى غبي رسمي!

- لا بأس، لا بأس!

- هل نقلوا لك نسخة من الرسالة التي تلقيناها في بريد بعد الظهر؟

- قرأتها.

- ماذا تظن؟

- إنه لن يلبث أن يقع.

- هل هناك أثر تتبعونه؟

كان السيد لابيه ينظر إلى كاشودا الذي كانت رؤية توتره العصبي مؤلمة.

- إذا حاول شيئاً يوم الاثنين فسيكون ذلك خروجه لأخير. ولكنه يراوغ، صدقني.

– جانتيه يدعي أنه لا يراوغ.

قال المفوض بيجاك ساخراً:

– طبعاً إذا كان هذا رأي السيد جانتيه.

– إنه يؤكد أن الرجل لا يكذب.

– حقاً ؟

– هذه الضرورة التي يتحدث عنها باعثة على الاضطراب. هل تفهم ما أعني؟ ليس لدينا، كما كتب جانتيه جيداً جداً، ما ينفي أنه تمَّ اختيار الضحايا كيفما اتفق.

– تهانينا لصحافيِّك.

وقطع المفوض بأسنانه طرف سيغار وكشر في ابتسامة.

– لماذا سبع، ولماذا يوم الاثنين ؟

– أغادركم أيها السادة، اعذروني.

غمغم كاييه بعد ذهاب المفوض:

– إنه مغتاظ. أعلم أن جانتيه ليس سوى غلام، لقد أخذته على سبيل الإحسان تقريباً لأن أمه، الأرملة، تخدم في البيوت. إلا أني أراهن على أنه إذا اكتشف القاتل، فسيكون هو من سيكتشفه.

اقترح جوليان لامبير قائلاً:

– ماذا لو تحدثنا عن شيء آخر؟ جاء دورك في توزيع الورق.

كانت الساعة قد بلغت السادسة والنصف، وسأل السيد لابيه قائلاً:

– هل انتهت الجولة؟ سأدع مكاني إذا كان ذلك لا يزعجكم.

لم يكونوا يلحون عليه أبداً – وهو ما يفعلونه مع غيره – بسبب ماتيلد. كان يتمتع باعتبار خاص. كانت هناك طريقة خاصة في تحيته، في مصافحته. أصبح ذلك عادة. وعندما كان يختفي، كان هناك، دائماً، من يقول:

– يا للصديق المسكين!

كان ذلك بأطراف الشفاه، كما عزوا جوليان لامير عندما خنقت شقيقته.

بل كان هناك، أيضاً من غمغم من بين أسنانه - الدكتور في مساء شرب فيه أكثر مما ينبغي- قائلاً:

- هذه واحدة يجب أن تكون تأسفت لأنها لم تغتصب.

- إلى الغد أيها السادة.

- أنت تنسى أن غداً هو يوم الأحد.

كان ذلك صحيحاً، فهم لم يكونوا يجتمعون في أيام الآحاد.

- إلى الاثنين إذن.

يوم الضحية الأخيرة! بعدها سوف ينتهي الأمر. سوف يتحدثون عنها خلال بعض الوقت، ثم سيفكرون في شيء آخر، ولن تعود العجائز اللواتي سيدخلن، شيئاً فشيئاً في الأسطورة موضع بحث.

كان ذلك مؤسفاً تقريباً. نظر إلى الخياط الصغير وتوجه هذا الأخير، بهيئة من يطيع، نحو العلاقة التي علق عليها معطفه. لم يكن ذاك معطف الأمس المطري. لم يكن قد تجرأ على ارتدائه. لن يرتديه بعد الآن أبداً. من يعلم ما إذا كان قد أتلفه؟

اجتاز السيد لابيه القاعة بوقار والتقى نظره الآنسة بيرت. كانت جالسة قرب الزجاج، في المكان الذي كان جانتيه يحتله في الأمس. كانت كثيراً ما تأتي إلى مقهى الأعمدة، مرتين أو ثلاثاً في الأسبوع. كانت تفوح، على الفور، رائحة عطرها. كانت جميلة اللباس، ترتدي، دائماً، الأسود والأبيض، وهو ما يحمل على التفكير في حداد ويجعلها أكثر إثارة.

كانت تشرب، بلطف، كأس البورتو وحدها. كانت لها ابتسامة متحفظة، بالكاد ترتسم على فمها عندما ينظر إليها أحد الرجال الذين تعرفهم، ولكنها لم تكن، أبداً، توجه إليهم الكلام.

كان يكفي السيد لابيه أن يغمز بعينيه ويتجه، ببطء، نحو شارع غارغولو حيث تملك شقة جميلة.

كان من شأن ذلك أن يكون لعبة طريفة على كاشودا. ماذا كان الخياط سيفكر؟ إنه سيخنق الآنسة بيرت على الرغم من أنها تكاد لا تبلغ الخامسة والثلاثين؟

كانت لويز، خادمته، تنتظره، كان يجلس إلى المائدة في الساعة السابعة دائماً. سوف يكون ذلك في الأسبوع المقبل، عندما ينتهي كل شيء ويتخذ الأمر صورة مكافأة صغيرة.

تعال يا صديقي كاشودا! اتبعني أيها الرجل الطيب. لا عجوز، اليوم، ولا صبية. نعود إلى البيت. كانت خطوات الخياط الصغير، وراءه، مترددة. يجب أن تكون قد خطرت له فكرة التحدث إلى بائع القبعات لأن مشيته أصبحت، في برهة ما، وهما يسيران في شارع ميناج، أسرع، أكثر استعجالاً. وصل إلى مسافة بضعة أمتار من السيد لابيه، في الضباب الذي كان يجعل من هذا الأخير شبحاً أكبر من حجمه الطبيعي. في الواقع، اعترى الخوف الاثنين. حث السيد لابيه، لا إرادياً، خطاه. كان قد أتى على التفكير:

– ماذا لو كان مسلحاً؟ ماذا لو كان سيقتلني؟

كان كاشودا على ما يكفي من فرط الاستثارة من أجل أن يفعل. لكن لا. توقف، ترك المسافة تطول بينهما، استأنف سيره متلمساً طريقه في الظلام. تجمد كل واحد منهما، أخيراً، أمام بيته، سحب المفتاح من جيبه. وفي صمت الشارع، ومن خلال الضباب، قال صوت السيد لابيه الهادئ:

– مساء الخير يا كاشودا.

كان ينتظر، المفتاح في القفل و وخزة في القلب. انقضت بضع ثوان وتمتم صوت مشوش، كما لو كان يتكلم على الرغم منه:

– مساء الخير يا سيد لابيه.

(٤)

رأى نوراً تحت الباب، وسمع خطوات على السلم، وهو ما كان يعني أنه كان ذاك يوم الأحد. كان، في هذا اليوم، يستيقظ متأخراً قليلاً عن عادته في باقي أيام الأسبوع. وعلى العكس من ذلك، كانت الخادمة تجد الشجاعة على انتزاع نفسها من سريرها حتى قبل أن يسمع صفير أول قطار. كانت تنزل، تائهة النظرات، إلى المطبخ وتشعل النار وتبقى واقفة هناك، ناعسة بينما كان ماء الأحواض الكبيرة يسخن.

في أول أحد لها في البيت، نزل وقد استبد به الفضول. وجد باب المطبخ المزجج مغطى بغطاء مشدود ومثبت بدبابيس. سألت لويز بصوت خشن:

- ماذا هناك؟

- هذا أنا...

- هل تحتاج إلى شيء؟ أنت ترى جيداً أني أغتسل.

ربما كانت تغتسل في الحوض الذي يستعمل للغسيل. لا بدّ أن الأمر يجري هكذا في بيتها في شارون، كما لدى كاشودا. وكانت رائحة الصابون تفوح في المطبخ طيلة الصباح.

لم يكن السيد لابيه يستطيع أن يسمح لها باستعمال حمامه لأنه كان ينبغي اجتياز الغرفة للوصول إليه. كان قد اشترى لها حوضاً من القصدير. بات الآن، يسمعها، أيام الأحد، تملأ هذا الأخير بأباريق ماء ساخن تصعد بها، واحداً بعد الآخر، وهي تزفر. وإذا كان يتفق لها، في الأيام الأخرى، أن تهمل غسل وجهها، فإنها كانت، في ذلك اليوم، تبقى، ساعة، جالسة في حوضها تنظف زوايا جسدها.

كان ذلك يثير اشمئزاز بائع القبعات قليلاً. فهو لم يكن يحب روائح الآخرين، خصوصية الآخرين. كان قد عاش خمسة عشرة سنة في الغرفة مع امرأة عاجزة لم تكن تستطيع أن تعنى أدنى عناية بنفسها وكانت تغضب منذ أن يبدو أن النافذة ستفتح.

ربما لم يكن ذلك خطأها، وربما كان يجب تعليل ذلك بحالتها الصحية. وعلى كل حال، كانت ماتيلد، في السنوات الأخيرة، قذرة إلى حد كان يبدو معه أحياناً، أنها تتعمد ذلك تحدياً. اتفق لها أن تسأل ولهب قاسٍ صغير يصدر عن عينيها:

– ألا تجد رائحتي كريهة؟

ذهب ليقعي أمام المدفأة ليشعل الحطبات. لم يكن يخطئ قط إشعال ناره التي تستغرق قليلاً من الوقت لتتوهج. كان ذلك اليوم، أشد برداً من الأيام السابقة، كان برده مختلفاً. رأى، عندما أزاح الساتر، قليلاً، السماء الليلية الصافية جداً، الجليدية، وتجمدت أطراف أصابعه بملامسة الزجاج.

كانت الأمطار قد توقفت إذن. سوف تفرح كل المدينة، أما هو، فلا. إن ذلك قد أتى مبكراً يوماً. كان ذلك بمثابة خيانة من السماء حياله، نوعاً من الفشل الشخصي. كان يود أن ينتهي من الأمر في مناخ واحد. لم يكن الأمر يقتصر على أن المطر سبب له، دائماً، نوعاً من الإثارة في الشوارع المظلمة مع هالة حول كل ضوء، بل إنه، أيضاً، سهل حركاته دائماً، إذ يقل عدد الناس في الطرقات، وهم يلاصقون البيوت غير مفكرين إلا في حماية أنفسهم من ماء السماء ووحل الطريق.

لم يكن أحد قد نهض، بعد، لدى كاشودا. كان الخياط الصغير نائماً إلى جنب زوجته الضخمة. بعد سكرة الأمس، لا بد أنه تخبط طيلة الليل وشخّر، وربما تكلم بصوت مرتفع.

لم توجه إليه لوماً عندما عاد. ومع ذلك، فما كاد يصل إلى بيته حتى ظهر سكره أكثر جلاء بسبب الانتقال من البرد إلى الحر احتمالاً. صعد السلم الحلزوني (السلم نفسه الذي كان لدى السيد لابيه) ناسياً أن يقفل المخزن

ويطفئ النور، وهو ما كان يفعله بنفسه دائماً، وعندما وصل إلى ورشته، تهالك على كرسي وأحد ذراعيه على المسند ورأسه على ذراعه المثني.

هل كان يبكي؟ لم يكن ذلك مستحيلاً. أو ربما كان يحس بنفسه مريضاً. ابنه الذي كان في الثالثة والنصف أو الرابعة من عمره جاء يحوم حوله، ثم جاءت الصغيرتان، وأخيراً خرجت السيدة كاشودا من مطبخها وفي يدها مكواة.

فهمت حالاً ما يحدث ولم تقل شيئاً، لم تتحرك شفتاها، اختفت في الغرفة الأخرى التي عادت منها مع كوب من القهوة السوداء.

- اشرب يا كاشودا.

كانت تناديه كاشودا. لم يكن أحد ينادي الخياط باسمه الأول. حتى على الواجهة لم يكن هناك سوى كنيته التي كانت، بالأحرى، اسم قبيلة لا بدّ أنه موجود في مئات قرى الشرق الأدنى.

انتهى كاشودا إلى الكشف عن وجهه، وفهم إذ ذاك، حتى عبر الشارع، إنه كان خجلاً. سأل زوجته عن شيء، وربما كان عما إذا كان الأولاد قد رأوه في هذه الحالة. ساعدته في شرب قهوته، وما كاد يشرب نصفها حتى انطلق راكضاً نحو أقصى المسكن.

لم يلمحه السيد لابيه طيلة المساء. كانت السيدة كاشودا هي التي نزلت لتغلق المصاريع وتضع الأقفال. أطفأت مصباح الورشة واستمرت تعمل في المطبخ في حين كان الجميع في أسرّتهم.

كان يوم أحد، وسوف يكون مشمساً بالتأكيد. كان السيد لابيه يقوم بالحركات المعتادة. رتب سريره الذي غير بياضاته كما غير مناشف الأسبوع الوسخة وأسال الماء في الحوض ولم ينس أن يتكلم، بين حين وآخر، أن يقول أي شيء للتظاهر.

كان قد انتهى، مع السنين، إلى تنظيم حركاته كنوع من الباليه. كان ذلك آلياً، لم يعد يحتاج إلى التفكير. كان ذلك حقيقياً إلى حد كان معه، عندما يتغير الإيقاع لسبب طارئ، يبقى برهة دون حراك، مبلبلاً كآلية معطلة قبل أن يتمالك نفسه. فعلى سبيل المثال، في حين كان حوض الحمام يمتلئ، كان لديه

الوقت لإعادة ملابسه إلى الخزانة، السترة على علاقة والبنطال مضبوط الثنيات، ثم لتحضير جواربه وقميصه وياقته وربطة عنقه عند آخر السرير. كان هناك وقت لكل شيء، وكان نادراً ما يتفق له أن يقلب ترتيب حركاته.

لو كان المرء يتجشم مشقة تعداد هذه الحركات، فإنه سيجد المئات، وربما الألوف منها. كانت تنتهي، مصفوفة إلى جانب بعضها، بأن تملأ اليوم، وكان يقوم بها بمسرة، خاصة يوم الأحد، لأنه كان يعلم أنه سوف يتمتع، بعد طقوس الصباح الباكر، بيوم طويل حر، وحيداً في المنزل.

عندما نزل، كان قد دفع، من أجل أن يحظى بالتقدم بمقعد ماتيلد إلى أمام النافذة مع الرأس الخشبي في الزاوية المناسبة وأسدل الستائر على الرغم من أن النهار لم يكن قد طلع بعد.

وجد لويز قرب مدفأة المطبخ وفي يدها كوب من القهوة بالحليب، مرتدية كامل ملابسها، مستعدة للخروج بثوب الأحد ومعطفه وقبعتها على رأسها. أعلنت بصوتها الكئيب الذي كان بمثابة نفي لفرح الحياة قائلة:

- كل ما يلزم موجود في خزانة الطعام.

كانت غبية، كانت «بهيمة»، لم يكن ينبغي الانتباه إليها. كانت تأخذ، كل أحد، أول باص إلى شارون حيث تمضي اليوم مع أسرتها وصديقاتها.

كانت لها طريقة في النظر إلى السيد لابيه لم يتوصل إلى الاعتياد عليها. كانت تحدق فيه كما لو لم تكن تراه. أو أنها كانت تراه بصورة مختلفة عن الآخرين، وكان ذلك يقلقه أحياناً. أية فكرة كانت لديها عنه؟ ألم تكن ترى أن هذا منزل غريب؟ هل كانت لديها أفكار خفية؟

هل السيدة بخير؟

- كالعادة. شكراً يا لويز.

كان يفضل أن ينتظر رحيلها ليجلس إلى المائدة لأن وجودها كان كافياً لإفساد متعته. كان يمضي لإغلاق باب المخزن وراءها ويستمع إلى وقع خطاها التي تبتعد على الرصيف، وهي أكثر رنيناً من أي مكان آخر بسبب القناطر. وكانت الأجراس تبدأ في الرنين، كان لديه دائماً، ميل إلى الآحاد، حتى في زمن

مانيلد عندما كان هذا اليوم يحبسه فوق ولا يعطيه سوى ساعات من الملل الثقيل ربما كان قد انتهى إلى الاعتياد على الملل، قد أخذ يحبه.

كان يقرأ وهو يأكل. كان يقرأ التقرير التحليلي لمحاكمة مشعل حرائق في الجورا، عام ١٨٨٢، اجتذبت حماسة الجماهير إلى حد إشعال ثورة تقريباً واقتضى الأمر إرسال الجيش. لم يكن، فضلاً عن ذلك، يهم ما يقرؤه، لم يكن يتذكره في الغد. كان يشتري كتبه من صالة المبيعات، على مسافة بيتين عنه، ويختارها اتفاقاً، روايات أحياناً، قصص تاريخية أحياناً أخرى. كانت دائماً كتباً مصفرة الصفحات تفوح منها رائحة خاصة، ويجد فيها زهرة يابسة احياناً، ونباتة مسحوقة أحياناً أخرى. كان يتفق له أن يجد فيها رسالة مكتوبة بالحبر الشاحب استخدمت للدلالة على الصفحات، ونادراً ما خلت من اسم مكتوب على الصفحة الأولى أو الخاتم البنفسجي لمكتبة عامة.

وعد نفسه اليوم بأن ينجز عملاً هاماً. مضى زمن طويل كان فيه يشتهيه، لكنه نهض أولاً، ليذهب لغسل كأسه وصحنه ونفض الغطاء وكنس فتات الخبز على الأرض. ذهب، أيضاً، ليرى ما هيأته لويز للغداء، ورضي عن ذلك لأنه لن يحتاج سوى إلى إعادة تسخين يخنة الأمس.

عندما صعد إلى الطابق الأول مجتازاً المخزن الذي لم يكن يشعل، فيه، يوم الأحد، الغاز الذي كان أزرق مخضراً، كانت خطى ترن في الطريق في حين كان صوت الأجراس يغطي كل المدينة.

كان الخياط الصغير الذي لم يكن قد اغتسل بعد يرتدي بنطالاً دون حمالات فوق قميص النوم. كانوا يبدؤون، دائماً، بغسل الأطفال كي لا يزحموا الطريق. لكن الصعوبة كانت، عندما يصبحون جاهزين، منعهم من توسيخ ثيابهم اللائقة.

كانت البكر، استير، تلك التي تعمل في مخازن السعر الموحد، تتجول في الشقة بتنورتها الداخلية، وكان السيد لابيه يستطيع تمييز القسم العلوي من صدرها. كانت لا تزال نحيلة، خاصة في الوركين، ولكن صدرها كان أقرب إلى الامتلاء ككثير من بنات عمرها.

هل كانت تدع نفسها تداعب، مساء، في الزوايا المظلمة، على العتبات أو تحت البوابات، من جانب عشاق؟ كان ذلك محتملاً. كان يصدم السيد لابيه – لم يكن ليستطيع أن يقول لماذا – أن يستمتع رجال مع ابنة كاشودا، مع لحم كاشودا.

لم يكن الخياط الصغير الذي كان وجهه متعباً يعرف أين يقف. كان المرء يحس بأنه ليس على مايرام. يجب أن يكون ضميره يعذبه بقدر ما تعذبه معدته. كان يفيد من الأحد، كالعادة ليرتب ورشته، لكنه كان يفعل ذلك دون رغبة وذهنه في مكان آخر، واتفق له، مرات عدة، أن نظر إلى البيت المواجه حيث كان القبعاتي غير مرئي وراء الستائر. ما فائدة القلق من ناحيته؟

لن يقول شيئاً. لقد كان مذعوراً. هل يستطيع رجل مثله أن يذهب إلى الشرطة ويصرح باللكنة التي لم يتخلص منها:

– القاتل الذي تبحثون عنه هو جاري، القبعاتي.

– حقاً؟

– لقد رأيت قطعة صغيرة من الورق على أسفل بنطاله، حرفين اقتطعا من جريدة.

– عظيم جداً بالفعل!

– تبعته وخنق الآنسة ايرين مولار تحت بصري.

– جميل! جميل!

– ثم قال لي بصوته الطبيعي:

«إنك ترتكب غلطة يا كاشودا».

سيرتكب غلطة فعلاً. ألن تخطر لهم فكرة سؤاله عما إذا ما كان يتفق له، مصادفة، أن يرتدي معطفاً مطرياً أسمر اللون. ألم يكن أمثال كاشودا، في كل الأزمنة، وفي كل بلدان العالم، مشبوهين مختارين؟

هيا! حان وقت العمل، ذلك أن اقتطاع الحروف، واحداً بعد الآخر أحياناً، والبحث في كل المقالات واللصق بصورة متناظرة كانت عملاً بطيئاً حتى حين يكون المرء معتاداً عليه.

لم يكن السيد لابيه يكتب مسودة. كان شعاع شمس يتسرب من النافذة ويسقط على الجدار، تجاهه، زهور الستارة المخرمة المحززة. وفضلاً عن ذلك، كان هناك اسطوانتان صغيرتان من الشمس تتحركان كحيوانين حيويّيْن، تبدوان كأنهما تلعبان على خزانة الأكاجو.

كانت، في شارع ميناج، أبواب تفتح وتنغلق، وكانت أسر تتوجه نحو كنيسة المخلص الأقدس، بين القناة والمرفأ. كانت تسمع صفارات المراكب. كان الصيادون يفيدون، دون الانشغال بالأحد، من تبدد الضباب ليخرجوا إلى البحر، وكان عليهم أن يتعاقبوا في صف أحادي في الممر.

كانت المدينة مشرقة بأصفر ذهبي في الشمس. وكان لون المرفأ أزرق موحداً. بعد قليل، ستخرج أسرة كاشودا بدورها، الأولاد يمشون في المقدمة بثيابهم الجميلة، ثم كاشودا وزوجته اللذان كانا يبدوان مرتبكين قليلاً في هذا اليوم، أقل ارتياحاً منهما في قلب الأسبوع. سيمرون، بعد القداس، بمتجر بيع الحلويات في شارع العقادين، والخياط الصغير هو الذي سيحمل، أثناء العودة، العلبة من الخيط الأحمر الذي ربطت به.

«مذكرة صغيرة بصدد ضحايا الخناق»

استخدم الكلمة عمداً، دون أن يخلو ذلك من سخرية، لأنها الكلمة التي كان يستعملها الناس. لا أهمية لكونهم يفهمون أو لا يفهمون.

صعد، قبل أن يبدأ، على كرسي ومد يده إلى ما فوق الخزانة حيث أخذ شيئاً، صورة فوتوغرافية مجلدة بالورق المقوى في إطار رفيع من الخشب الأسود. كانت، قبل شهرين، معلقة على جدار قرب سرير ماتيلد حيث كان لا يزال يمكن رؤية مستطيل أفتح على ورق الجدران.

كانت صورة صف في دير الحبل دون دنس في يوم توزيع جوائز. كان هناك حوالي خمس عشرة فتاة. غالباً ما عدهن السيد لابيه، وكان قادراً على وضع اسم على كل وجه. كن، جميعهن، بين السادسة عشرة والثامنة عشرة من العمر. وكن يرتدين الزي الموحد الكحلي نفسه، تنورة بطيات، بشعور مضفورة وحول عنق كل واحدة شريط يحمل ميدالية، كانت تقف وسطهن راهبة نحيلة

وشاحبة،متقشفة كانت تشبه صورة تقوى وتخفي يديها في كميها. وعلى حد قول ماتيلد، كانت جملاً حقيقياً على الرغم من ابتسامتها الملائكية.

كانت فتيات الصف الثاني واقفات على نوع من منبر مغطى بسجادة، وكانت نبتات خضراء تحيط بالجميع.

عاد إلى العمل والصورة أمامه على محبرة نحاسية لم تعد تستخدم على اعتبار أنه كان لديه قلم حبر، وكان يمرر لسانه بين شفتيه أحياناً.

«جاكلين دو لوبيل أرملة نقيب مشاة» كانت الثالثة إذا بدأنا من اليسار، سمراء قصيرة، ذات نظرة ماكرة وأنف مدبب، كان يبدو أنها كانت تمسك نفسها عن الضحك بالنظر إلى المصور الذي كان يجب أن يكون رأسه مندساً تحت قماشة سوداء.

«أسرة طيبة، ابنة كاتب العدل دولوبيل الذي كتب عدة مؤلفات في التاريخ المحلي. عاشت مع زوجها في مدن عسكرية متنوعة منها بيزانسون، أنجبت ولدين، ابنة متزوجة من مستورد من مرسيليا وابن ملازم في السباهي حالياً. كانت تعيش وحدها في شقة في شارع العقادين، فوق تاجر حبال وبراميل. كانت متخاصمة مع ابنتها. معاش تقاعدي صغير. لم تكن تقبل مالاً من ابنها وكانت تبيع سراً بياضات مطرزة».

أضاف بعد برهة تأمل:

«لم تأت ابنتها إلى الجنازة. ابنها الموجود مع حاميته في سورية لم يمكن إعلامه في الوقت المناسب».

هذا بالنسبة للأولى. لم تجشمه مشقة. لم تكن، أبداً، في صحة جيدة. كانت تحرم نفسها لتستطيع أن تعيش. كانت تجري، مساء، في المدينة لتسلم أشغالها، ومن الصعب، في لاروشيل، الانتقال من شارع تجاري إلى آخر دون المرور بأزقة مظلمة.

من حسن حظه أنه بدأ بها. ربما كان سيخطئ ضربته مع امرأة قوية مثل ليونيدبرو. وبالفعل لم تكن قد خطرت له، بعد، فكرة تثبيت وتر الفيولونسيل في قطعتين خشبيتين صغيرتين مثل تلك التي مازال بعض الباعة

يضعونها للرزم بمثابة قبضات. على الرغم من ضعف مقاومة السيدة دولوبيل، انعدام المقاومة نفسه، فقد آذى أصابعه إلى حد سال معه الدم منها.

كاد يقترف خطأ آخر. الأمر تم غير بعيد عن القناة، وراء كنيسة المخلص الأقدس، وخطرت له فكرة دفع الجثة إلى مياه القناة. كان المد يهبط، وكان التيار قوياً، لم يكن سيعثر على السيدة دولوبيل إلا بعد عدة أيام، عدة أسابيع، وربما لا يعثر عليها أبداً.

وكان من شأن هذا أن يغير كل شيء لأنه لم يكن، بعد ذلك، ليستطيع أن يفعل الشيء نفسه مع الجثث الأخرى. هل يمكن أن يقال أنه لن يكون هناك، إذ ذاك، تناظر؟ لم يكن ذلك تماماً. على كل حال، لن يكون للأمر الطابع نفسه.

استطاع، بعد ذلك، أن يذهب إلى مقهى الأعمدة ويلعب شوطاً من البريدج وهو يشرب كأس البيكون بالرمان.

«السيدة كوجا / روزالي، صاحبة مكتبة في شارع العقانين، زوجة رونيه كوجا، الموظف في البلدية».

ابنة أسرة طيبة أيضاً، سجل ذلك بأمانة. كان يستطيع أن يقول، ببساطة، أنها نشأت في دير الحبل بلا دنس، وهو الشيء نفسه، لكنه كان خطراً. وفضلاً عن ذلك، فإن من الطريف أن لا يكون أحد قد انتبه إلى كون العجائز المخنوقات في فترة بضعة أسابيع قد نشأن في الدير نفسه.

وحده الصغير جانتيه الذي كان ذكياً هو الذي لاحظ أنه كان لهن العمر نفسه وأنه كان بينهن ما يشبه صلة عائلية.

على الصورة، كانت الصغيرة كوجا، احتمالاً، أجملهن، بجمال بارد قليلاً. وسجل ما يلي:

«كان أبوها العمدة المساعد للاروشيل خلال عشرين سنة» كانوا أثرياء. كانت تستطيع أن تحصل على أفضل زواج. لماذا انتظرت أن تبلغ الثامنة والعشرين لتتزوج؟

كانت ماتيلد بقول بحدة:

– كانت صعبة جداً. لم تكن تريد إلا الحب الكبير.

وكانت ماتيلد تضيف دون حرارة:

- كما لو كان لهذا وجود.

في عمر الثامنة والعشرين تزوجت كوجا لأن أباها كان قد مات تاركاً إرثاً معقداً ولأن إخوتها كانوا متعجلين للخلاص منها. كان كوجا قد جرب عشرين مهنة قبل أن يدخل إلى البلدية. لم يكن جميلاً، ولم يكن على ذكاء خاص، كان عليلاً، وكانت زوجته هي التي تتكفل بالبيت.

كان السيد لابيه يعرف جيداً المكتبة الصغيرة التي يذهب للتنقيب في صندوقي كتبها المستعملة اللذين يمتدان على طول جدارها عندما لا يجد شيئاً على ذوقه في صالة المبيعات. لم تكن مكتبة هامة. كانت تباع فيها خاصة بطاقات بريدية، وأقلام حبر ورصاص ومماحٍ. إلا أنه كانت هناك صالة خلفية لا يدخلها إلا خاصة الزبائن، وكان القبعاتي يعلم أن بعض أصدقائه، مثل أرنو، رجل السردين، يتزود من هناك بالكتب الجنسية.

كان يعلم أيضاً أن هناك في آخر المكتبة باباً يؤدي إلى درب مسدود.

وبما أنه لم يكن للسيدة كوجا خادمة، وأنها لم تكن تخرج أبداً بعد إغلاق المخزن، إلا مع كوجا لتذهب من حين إلى آخر، إلى السينما، فقد كان يستطيع أن ينتظر شهوراً فرصة مفاجأتها خارجاً في الظلام.

من أجل ذلك، دخل إلى الدكان الخلفية. وقد تكشفت قطعتا الخشب في طرفي وتر الفيولونسيل عن كونهما عمليتين إلى أقصى حد. كانت أكثر عصبية من السيدة دولوبيل. وقد تساءل، عندما خرج، عما إذا كان قد ضغط خلال وقت كاف، ولم يطمئن إلا في الغد لدى قراءة الجريدة.

ذات مرة، منذ إحدى عشرة أو اثنتي عشرة سنة، قالت ماتيلد لصاحبة المكتبة وهما تتحدثان عما آلت إليه رفيقاتهما القديمات:

- ليست الحياة ظريفة.

وأجابت السيدة كوجا بهدوء:

- ولماذا تكون ظريفة؟

لوهذا ما أراد السيد لابيه الإشعار به، لكن ذلك كان صعباً. كان يبحث لكل منهن، عن صيغة. وكتب بالأحرف المقتطعة:

«كانت تعد الحياة محنة».

لم يكن ذلك ليبرئ نفسه. لم يكن يحتاج إلى ذلك. كان الأمر أهم من هذا، لكنه كان يتبين أن المهمة التي كان ينجزها دون إحباط كانت مستحيلة تقريباً. قبل بضعة أشهر، حلم حلماً غريباً، وربما كان يعمل اليوم، بسبب هذا الحلم.

وجد نفسه في قاعة تشبه قاعة تكريم، وكانت كل شخصيات المدينة مصطفة على المقاعد. كان، هو، على المنبر. لأنه كان يلقي محاضرة مع إسقاطات ضوئية.

ما يسقط على الشاشة كان الصورة المأخوذة سابقاً في الدير، وكان يدل على الفتيات واحدة بعد الأخرى.

كان قد بدأ، بخفة، باستبعاد عجول:

– لن نتحدث عن الأموات.

كانتا اثنتين. الأولى بنمش على وجهها وشعر قصير مجعد حول أذنيها وعند بداية ضفائرها، وكانت قد ماتت بالسل في عمر الثانية والعشرين، في مصحة في سويسرا. الأخرى كانت ذات عينين متقدتين، كانت امرأة منذ أيام المدرسة، تزوجت صاحب مصنع أسلحة مهم في المدينة وماتت لدى أول ولادة. الولد عاش وأصبح، بدوره، بائع أسلحة في بوردو.

بقي ثلاث عشرة. إحداهن عاشت في كل عواصم أوروبا مع زوجها القنصل وتقيم الآن في تركيا. لم يكن يعرف عن واحدة ثانية سوى إنها رحلت عن بيتها في عمر التاسعة عشرة وأن ذلك أحدث فضيحة. أمها ماتت بسبب ذلك، وأبوها تزوج ثانية.

بقي إحدى عشرة. كان حضور القاعة يستمعون إليه دون أن يفهموا كثيراً وكان يسعى، عبثاً، إلى جعلهم يفهمون فكرته. بين حين وآخر، كانت تبدل اللوحة في جهاز العرض عندما يقرع المنبر بعصاه فتظهر صورة بانورامية لمدينة لاروشيل، منظر لم يكن له وجود لأنه كانت تظهر فيه كل الأزقة، كل المنازل، المارة، وحتى، وهنا المعجزة، الناس في البيوت.

واحدة من آنسات الدير تزوجت، في باريس، وزيراً وتزوجت ابنتها ارستقراطياً نمسوياً. غالباً ما ترى صورتها في الجرائد. دخلت، مؤخراً، إلى عيادة من أجل عملية لم تحدد.

عادت أسرة كاشودا، وكانت ملابس الصغار تخلع عنهم ليرتدوا ملابس كل الأيام. بعد الغداء، سيأكلون حلوى سانت أونوريه مع قهوة بالحليب. سيبدل كاشودا،أيضاً، ثيابه ويعتلي طاولته إلا إذا أفاد من يوم الأحد ليجري حساباته التي كانت صعبة عليه دائماً.

كان ذلك اليوم الوحيد في الأسبوع الذي يمرّ فيه الجميع بالورشة باستثناء استير التي ستأتي صديقات لاصطحابها بعد قليل، متوقفات عند النوافذ ومناديات:

- أوهو.......

العاشرة.... ارتبك قليلاً كان ينبغي أن يسجل ملاحظات حين كانت ماتيلد لا تزال حية، هي التي كانت تعرف هذا على رؤوس أصابعها. فلننظر...... كانت هناك واحدة عملت في المسرح، ليس في باريس، بل في جولات في المحافظات. هناك اثنتان أيضاً... كان يصوب نحو الصور رأس قلمه كما فعل في حلمه بعصاه. تلك التي أصيبت بجدري الماء.... كانت الأولى في دار أزياء في لندن، وعادت عدة مرات إلى لاروشيل لترى أمها التي كانت لا تزال حية ومحطمة تماماً.

الأخيرة من اللواتي غادرن المدينة كانت تسكن في ليون، وهذا كل ما يعرفه عنها.

بقيت ست فضلاً عن ماتيلد، ويصبح الحساب مضبوطاً. لأنه لم تكن راهبة الصورة التي تدعى الأم سانت جوزفين والتي ماتت منذ زمن بعيد موضع بحث.

«الآنسة آن – ماري لانج، تاجرة خرداوات في شارع سانتيون»

كانت أسرة كاشودا على المائدة. بعد هذا سيذهب لتناول الطعام بدوره، لديه بعد الظهر للأخريات.

امرأة ضخمة كانت تحشو نفسها بالمعجنات، وكان بيتها مليئاً بالقطط. كانت شقراء وورديّة، ترتدي الألوان الفاتحة دائماً، ذات صوت مرتفع بتنويعات ترتيليّة.

«أسرة طيبة، أبوها.......»

كان أبوها يجري وراء العاملات الصغيرات، وهذا ما سبب له متاعب. كانت هناك فضائح اقتضى الأمر أن تخنق. استمر في ذلك في عمر الخامسة والسبعين، واضطرت أسرته أن تراقبه وتقتفي خطاه في نزهاته ولم تترك معه أي مال، وقد طردت الخادمات ولم يتم الاحتفاظ إلا بالخدم الذكور في المنزل. هو، الآن، ميت. إحدى ابنتيه كانت في الولايات المتحدة. كانت آن ماري التي لم تتزوج، تعيش في متجر الخردوات مع معلمة سابقة ذات مظهر متسلط، وكانت الألسنة الخبيثة تزعم أنهما كانتا مستغنيتين جداً عن الذكور.

كان ذلك ممكناً. بالنسبة لها على كل حال، الصيغة كانت سهلة. لم يكن عليه سوى أن يستمد من الجريدة.

«كشف التشريح عن وجود ليف وورم كان يحتمل أن يتحول إلى سرطان».

كان المطر ينهمر غزيراً يوم الآنسة لانج، التي استطاع أن يهاجمها في وسط شارع غارغولو على مسافة خطوتين من «أوتيل دي فرانس». كان ذراعاها محملين برزم صغيرة انتثرت على الرصيف، ومن بينها زجاجة قشدة طازجة تحطمت.

كان ينبغي أن يذهب ليأكل. نزل ليسخن يخنته. ألقى بنصفها في المرحاض لأنه لم يكن يستطيع، دائماً، أن يأكل عن اثنين. لم يكن في حاجة، يوم الأحد، إلى أن يصعد بالصينية، وهذا مكسب دائماً. بعد ذلك، غسل الصحون، كانت لويز قد اقترحت:

– تستطيع تركها وسأغسلها عندما أعود.

كان يستطيع ذلك فعلاً. لكنه لم يكن يحب الأمور غير المنجزة وخاصة الصحون المغطاة بالدهون. وفضلاً عن ذلك، كان هذا يشغله. كان جزءاً من طقوس الأحد.

عاد إلى الصعود وغسل يديه بعناية. كان الصغار، عند كاشودا، يلعبون على الأرض. كانت السيدة كاشودا مشغولة بترقيع جوارب صوفية، وكان الخياط يحاول إجراء حساباته مبللاً، بين حين وآخر، قلمه بلعابه وطارحاً سؤالاً على زوجته:

– سبعة وتسعة؟

كان يتفق للسيد لابيه أن ينام القيلولة على مقعده، وهو مقعد مغطى بالمخمل القرمزي كمقعد ماتيلد، لكن عمله اليوم، يثيره. كان يقترب من النهاية. سيكون قد انتهى من الأمر غداً مساءً إذا سار كل شيء على ما يرام. كان يحس، في الوقت نفسه، بفراغ الصبر وبشيء يشبه شعوراً مسبقاً بالفراغ.

لن يكون لديه، بعد ذلك، سوى أن يفكر في تفاصيل صغيرة كانت قد أصبحت روتيناً ولم تعد تشغله.

لم يكن، حتى الآن، قد اقترف غلطة واحدة. كان واثقاً من أنه لن يقترف غلطة. حتى الحادث الطارئ الذي وقع مع كاشودا كان بدون عاقبة. لم يكن هذا يخيفه. على العكس من هذا، كان مسروراً بذلك تقريباً. ربما كان، قبل ذلك، وحيداً أكثر مما ينبغي.

كان قد جازف، عمداً، مع لويز بشيء من التهور.

من الآن فصاعداً، كان هناك أحدٌ ما يعرف، وكان ذلك شيئاً ممتازاً. سيقرأ كاشودا، بعد غد، تقريره في «*صدى الشارانت*».

ربما كان، الآن، يفهم بعض الأمور. «*السيدة جوفروا – لامبير، أرملة رئيس صندوق التعويضات*».

جوستين! هكذا كان كل الناس يدعون شقيقة صديقه جوليان لامبير، رجل التأمين. لقد مشى في جنازتها، مشى في كل الجنازات على اعتبار أن الأمر يتعلق بأشخاص يعرفهم!

هذه أرملة أخرى. كان هناك كثير من الأرامل. صحيح أن جوستين قد تزوجت رجلاً يكبرها بعشرين سنة، شخصاً غنياً، هاماً كان يملك في شارع ريو مور أجمل مسكن عائلي في المدينة وآخر في باريس حيث كان يعيش القسم الأكبر من السنة.

كان واحداً من هؤلاء الموظفين الكبار الذين تبقى مهماتهم سراً بالنسبة للناس العاديين. كان قد مر على التفتيش المالي، وكان مستشار دولة، ويزعمون أنه كان أكثر رجل خدعته زوجته في فرنسا.

وعلى كل حال، عُرفت جوستين، منذ وفاته، بحبها للفتيان إلى أقصى حد. كانوا يشربون، لديها، بنهم ويرقصون حتى الفجر ولم يظهر لديها في عمر الستين، أي اتجاه إلى التخلي عن اللعبة.

كان عندها سائق قيل بأنه عشيقها، لكنه لم يكن أمامها، كي تتنقل في مخازن شارع القصر حيث كانت، بصوتها الحاد، تتصرف كملكة، سوى مسافة قصيرة تجتازها، لحسن الحظ على قدميها.

كانت هي التي كبدته أكبر المشقة. كانت تمسك بمظلة كاد سيخُها أن يقلع له عينه عندها هجم عليها. أمسك بها، أولاً، من ذقنها، بوتر الفيولونسيل، وتخبطت ورفسته بحيث كان على أهبة أن يهرب دون أن يتم مهمته.

ومع ذلك، أنجز عمله. كانت تلك المرة الوحيدة التي كان عليه، فيها، أن يركض لأن باباً قد فتح على مسافة أقل من عشرة أمتار منه، وكان يعتقد، أيضاً، أنه سمع صوت رجل يقول بأدب:

– شكراً يا سيدتي. سأضع، ذلك، في اعتباري، بالتأكيد. أستطيع أن أؤكد لك أنه لو كان الأمر في يدي وحدي، لكنت، منذ زمن طويل بلغت ما تريدين.

لا شك في أنه كان ممثلاً لأحد المتعهدين أو شيئاً من هذا القبيل.

لم تكن جوستين مريضة، لم تكن شقية ولا مستسلمة. لم تكن لديها أية رغبة في الانتقال إلى عالم آخر. كان القبعاتي ينفر من أن يكتب مثلاً:

«هل هي خسارة للمجتمع؟».

ليست كذلك حتى بالنسبة للأسرة التي كانت تعيش في الرعب من فضيحة ممكنة إلى حد كانت، معه، ابنتها المتزوجة من شخصية مرموقة تحرم عليها أن تضع قدميها في باريس.

اكتفى، بعد أن أوجز ترجمة حياتها، بوضع إشارة استفهام.

«ليونيد برو، ٦١ سنة، قابلة في فيتيي.....».

كانت أسرة برو قد امتلكت عشرين مزرعة وقصرين، وآل الأمر بليونيد إلى أن تعيش في فيتيي، وهي ضاحية للمدينة، قرب مصنع الغاز، يسكنها عمال في الخطوط الحديدية وموظفون صغار وعمال...

هل كان أبوها الذي خسر ثروته في مضاربات مضحكة، مجنوناً حقاً كما كان يزعم بعضهم؟ هل كان زوجها الذي مات في الحادية والأربعين من عمره مصاباً بداء الزهري؟ على كل حال، ماتت لهما ابنة مشوهة في عمر مبكر، وابنهما لم يكن كالآخرين. ومع ذلك، تزوج، وكان يعيش، دون أن يفعل شيئاً، لدى أهل زوجته الذين كانوا يستثمرون كرماً صغيراً في الدوردون.

كان برو، في حياته، يبات خارج البيت نصف الوقت وكان يتفق له أن يعود إلى بيته بصحبة نسوة كان يلتقطهن من أي مكان، ومن حي الثكنات أحياناً، وقد ضرب، ذات ليلة، ليونيد أمامهن بذريعة أنه كان يكره أن يراها تبكي، وأنها كانت تبكي عمداً لتسمم حياته.

كان عليها أن تخضع للعلاج. وفي المستشفى، تعلمت مهنة القابلة. كان شعرها رمادياً، وكان لبشرتها لون الجص. كانت هادئة، جليدية، كان يقال أنها بارعة جداً في مهنتها. لم يرها أحد، قط، تضحك أو تبتسم، وكانت لها طريقة في الإمساك بالمواليد من أقدامهم كانت ترتعد لها الوالدات.

الصعب كان إفهام كل هذا، ما كان يعنيه، في بضع جمل لأنه لم يكن يستطيع أن يقتطع حروفاً من الجريدة إلى ما لانهاية.

لم يكن القول بأنه ربما هتف لها، صحيحاً. كان قد التقاها مصادفة وهو يطوف حول بيتها ليطلع على روحاتها وغدواتها. بل إنه كان قد تردد في حمل وتره. كان البيت صغيراً جداً مع ضوء فوق الباب.

خرجت ليونيد حين لم يكن هناك إلا منذ بضع دقائق، وكانت تحمل حقيبة بيدها. تبعها حتى مصنع الغاز، انتظر مرور سيارة. تعرفت عليه، تسنى لها الوقت لتدير رأسها، ولكن الوقت كان قد فات. لم تظهر أية دهشة، أي خوف. لم يجرؤ على أن يقول أنها قد استراحت، وهو ما كان صحيحاً تقريباً.

أما بالنسبة لآيرين مولار، فقد كتب، في الغداة، إلى الجريدة بما كان عليه أن يقول. كانت، في الصورة، كما حين خرجت من آخر درس بيانو لها، تجعله يفكر في طائر وقع من عشه. كان عيشها إلى هذا العمر معجزة.

لم تبق سوى واحدة، ارمانتين دوتبوا، الأم المقدسة أورسولا، التي كانت، في صور أخرى لتوزيع الجوائز ظهرت فيها مع فتيات أخريات، تلعب بدورها الدور الذي لعبته، في السابق، الأم سانت جوزفين.

كانت هذه الأخيرة قد انتقلت، نوعاً ما، من الصورة إلى الدير. لم تتجشم عناء العيش، ولا المحاولة فقط ومع ذلك كانت غنية. كان لها إخوة وإخوات شقوا طريقهم في العالم.

سوف يتم الأمر غداً لأنها لم تكن تغادر دير الحبل بلا دنس سوى مرة في الشهر، الاثنين الثاني لتذهب إلى دار الأسقفية. لن تكون وحدها. الراهبات لا يخرجن، أبداً، وحيدات. بالكاد سيكون أمامها خمسون متراً تجتازها في الظلمة، وكان السيد لابيه مرغماً على وضع خطة على درجة كافية من التعقيد.

هل سيتبعه كاشودا من جديد؟ في الحقيقة، كان يرغب في ذلك إلى حد كاف.

إذا جرت الأمور كما كان يتوقع، فسوف ينتهي كل شيء غداً، في الساعة السادسة.

لم يكن يريد أن يفكر في لويز. الإغراء كان مضحكاً. لم يكن يعني شيئاً.

كرر لنفسه عدة مرات وهو يضع حطبات في المدفأة ويسدل الستائر لأن الليل قد حل.

- على وجه الخصوص ليس لويز.....

نزل ليصب لنفسه كأساً من الكونياك الذي كانت زجاجته في خزانة الطعام. جلس ليشربه على مهل، بجرعات صغيرة، بعد أن أعاد السدادة إلى مكانها كي لا يغرى بتناول كأس أخرى.

(٥)

وقعت أكداس من أشياء صغيرة ساعته، أزعجَتْهُ، وذلك منذ الصباح. وصل فالانتان متأخراً نصف ساعة إلى عمله وحول عنقه كمادة وعيناه لامعتان من الحمى. كان زكامه قد بلغ أبعاداً لم يعد، معها، يضيع الوقت في إعادة منديله إلى جيبه. كان المستخدم يسيل، بالمعنى الحرفي للكلمة، طيلة النهار. كان يرى وهو يميع، وكان صوته مجروحاً إلى حد لم يكن المرء يكاد أن يفهم ما كان يقوله.

كان ينبغي على القبعاتي أن يعيده إلى بيته. كانت أم الفتى تعتبره، احتمالاً، وحشاً لأنه كان يحتفظ به في العمل في هذه الشروط. فالانتان نفسه توقع أن يحرر. وما هو أكثر من ذلك هو أن السيد لابيه كان يشفق عليه. لم يكن يفوته أن رأس الفتى المسكين كان يدور به أحياناً.

- هل تناولت الأسبرين يا فالانتاين؟

- نعم يا سيدي.

- هل هناك في حنجرتك بقع بيضاء؟

- كلا يا سيدي. أمي نظرت هذا الصباح. حنجرتي حمراء جداً، لكن ليس فيها بقع.

هذا أفضل لأن السيد لابيه كان يلتقط بسهولة، نزلة صدرية ولم يكن هذا الوقت المناسب. وكان يزيد في غرابة زكام فالانتان أن السماء لم تعد تمطر، أن السماء كانت صافية. صحيح أن الطقس كان بارداً إلى حد كان، معه، تنفس المارة، في الساعة التاسعة صباحاً، يشكل بخاراً.

عندما ذهب ليشتري جريدته، عاد ومعه سكاكر بالنعناع من أجل فالانتان. مرتين أو ثلاثاً قال له من آخر دكانه الخلفية:

– استرح قليلاً. لا تقف إلى جانب الواجهة. اقترب من النار.

كان الهواء جليدياً إلى جانب الزجاج.

كانت لويز، أيضاً، تشغل باله. كانت، في الأمس، قد عادت، كعادتها، في الساعة التاسعة، ومنذ ذلك الحين تسيطر عليها حالة يسميها رأس العجل. كان ذلك دورياً، وربما كان يتطابق مع بعض وظائفها العضوية. ومع ذلك، فقد لاحظ أن ذلك كان يلي، عامة، إحدى زياراتها لشارون.

يجب أن يكون أحد هناك، أهلها أو عاشق أو صديقة، يوسوس في ذهنها. كان السيد لابيه يدفع لها جيداً. لم يناقش في الأجر الذي طلبته. كان يدعها تأكل ما تريد. ونادراً ما وجه إليها ملاحظة. وعلى الرغم من ذلك، كانت لديها فكرة خفية، وربما ضغينة. من الذي يستطيع أن يخمن ما كان يجري وراء جبهتها العنيدة ؟

كان هذا المزاج يعرف من مجرد مشيتها، من طريقتها في تحريك الأشياء. ماذا كان تأثير ذلك في القبعاتي؟ كان قد ألقى، تعويضاً عن هذه المتاعب الصغيرة، بتقريره في صندوق البريد المركزي ووجد، في الصفحة الأولى من الجريدة، إعلاناً تجشموا عناء وضعه ضمن إطار. «عمدة لاروشيل، الضابط في جوقة الشرف، يرجو، بإلحاح، السكان أن يكونوا أكثر حذراً من أي وقت مضى مساء الاثنين في ١٣ كانون الأول. إن الشخص الذي يرهب المدينة منذ أكثر من شهر والذي أوقع ست ضحايا قد أعلن، حتمًا على سبيل التحدي، عن جريمة جديدة سيرتكبها في هذا اليوم. نطلب إلى السيدات، خاصة، أن لا يخرجن بعد هبوط الليل، ومن الأمهات أن يمنعن الأطفال من الخروج.

«وسوف تنظم البلدية خدمة إعادة موظفات المكاتب والبائعات والعاملات إلى بيوتهن.

«وسوف تعزز الدوريات»

نظر إلى الجهة المقابلة. لم يكن هناك ما يستحق الذكر من جهة كاشودا. كانت قد انتابت هذا الأخير حمى العمل، ولم يكن يكاد أن يرفع رأسه.

أكان هذا كل شيء؟ كان هناك تفصيل آخر: فمنذ الساعة الثالثة من بعد الظهر، وفي حين كانت السماء تميل إلى اللون الوردي، كان يشاهد، فعلاً، قمر ضخم مفضض.

ولم يتصرف كاشودا، أخيراً، في المساء، كالعادة.

- سوف تغلق المخزن يا فالانتان.

- نعم سيدي.

نظرة إلى المنزل الآخر. تباطأ قصداً. انتهى الخياط الصغير إلى الخروج من بيته، ولكن فقط بعد أن اجتاز القبعاتي حوالي مائة متر. في الأمسيات الأخرى، لم يكن ينتظر إلى هذا الحد.

دخل السيد لابيه إلى مقهى الأعمدة، صافح شنترو وكاييه ولود وصاحب المقهى، أوسكار. قال الأخير وهو ينهض:

- أخذت الورق في انتظارك.

- ليس لدي وقت للعب اليوم.

ألح الدكتور قائلاً:

- جولة واحدة يا ليون.

- ماتيلد مصابة بالزكام. وقد وعدتها بأن أعود فوراً.

ماذا كان كاشودا يفعل؟ لم يفتح باب المقهى. في الأيام الأخرى، كان يدخل بعد القبعاتي ببضع ثوان. استثار ذلك الأخير. أراد غبرييل، كالعادة، أن ينزع عنه معطفه، لكنه لم يدعه يفعل، بسبب قطعة الأنبوب الرصاصي التي كانت تثقل جيبه.

- لن أبقى سوى بضع دقائق.

وكان لود هو الذي مزح ببلاهة:

- يخيل إلى المرء، أنك، أنت أيضاً، خائف من الخنّاق. إذا استمر هذا، فسوف تصبح المدينة هستيرية.

ماذا كان يمكن لكاشودا أن يفعل؟ كان وراءه عندما انعطف عند زاوية شارع ميناج. ابتلع كأس البيكون بالرمان. رجاه شنترو من جديد قائلاً:

- جولة واحدة في انتظار أن يصل رابع.

كان مرغماً على الرفض. فقد حان وقت الرحيل. كان بلاط الشارع أبيض تقريباً، تحت ضوء القمر الذي كان يبرز الظلال بجلاء صفائح الحديد. كانت تلك هي المرة الأولى التي تثور فيها أعصابه. تكّون لديه الانطباع، وهو ذاهب، بأنهم كانوا يتحدثون عنه. لكي يقولوا ماذا؟ اجتاز ميدان السلاح ليمضي في شارع ريومور، وعند ذلك، فقط، سمع خطوات وراءه، التفت ولمح طيف الخياط الصغير.

هكذا، إذن غيّر هذا الأخير، عمداً، طريقة تصرفه، لم يدخل إلى المقهى. فبما أنه قد قرأ في الجريدة، كجميع الناس، أن القاتل سيقضي، في هذه الليلة، على الضحية السابعة، فقد تراءى له أن القبعاتي لن يمكث إلا قليلاً في مقهى الأعمدة. كان يريد أن يتجنب الخروج، مرة أخرى، على عقبيه، وهو ما كان سيلاحظ أخيراً.

أم هل كان قد صادف أحداً في لحظة الدخول، المفوض بيجاك مثلاً؟ لم يكن هذا محتمل الوقوع. فيحتمل أن لا يأتي المفوض إلى المقهى في ذلك اليوم. كان عليه أن يقود، من مقره العام، تعزيزات الشرطة ودوريات المتطوعين.

مر السيد لابيه أمام مبنى المحافظة ووصل إلى الميدان الصغير تجاه دار الأسقفية، ولم يعد عليه سوى الانتظار. كان هناك نور في البناء الحجري الرمادي القديم. كان كاشودا يقف بحذر، على مسافة حوالي خمسين متراً. كانت أعصاب القبعاتي فائقة الاستثارة إلى حد كاد معه أن يعدل عن عزمه ويعود إلى البيت. لكنه لم يكن يستطيع أن يعود إلى المقهى بعد الذي قاله عن حالة ماتيلد. كان لديه الإحساس المحبط بظلمٍ كان يقترف بحقه. لقد فعل كل ما استطاع فعله. لم يسمح لنفسه، خلال أسابيع، باسترخاء، فكر في كل شيء، في أتعس التفاصيل. بفضل ذلك، وبفضل العناء الذي تحمله، نجح دون أية عقبة.

وصل إلى الهدف. هذا المساء كان يجب أن ينتهي كل شيء. كان قد قبل، دون تردد، مجازفة إضافية على اعتبار أن راهبة أخرى ستصحب الأم المقدسة أورسولا. كان أنبوب الرصاص مخصصاً لتلك الراهبة، سوف يضربها بقوة بحيث يغمى عليها، وهو ما سيمنحه الوقت للإجهاز على المدعوة، سابقاً، ارماندين دوتبوا. لن تستطيع أبداً، بسبب ثوبها ذي الطيات المتعددة أن تركض. ولم يكن يتصورها، كذلك، تصرخ بأعلى صوتها.

كان ذلك، دقيقاً، صعباً. كان يقتضي الدقة ورباطة الجأش. في الأمس، فقط كان يفكر في ذلك بشيء من المتعة ويواجه، دون عصبية، حضور الخياط الصغير.

لماذا كان يحس، منذ الصباح، بما يشبه مؤامرة ضده؟ كان وسط الميدان في بياض الحليب. مرت دورية في الطريق وميز طيف تاجر أسماك كان سكراناً دائماً، وكان معروفاً بوحشيته في الأحوال الطبيعية. كان يجب أن تكون الراهبتان، في هذه البرهة، في الأسقفية. كان ذلك يوم الأم المقدسة أورسولا. لم تكن لتفوته أبداً. لم يقتصر الأمر على أن ماتيلد غالباً ماقالت له ذلك، بل إنه تأكد من ذلك في الشهر الماضي.

في آخر مرة، كانت قد غادرت الأسقفية في الساعة السادسة إلا الربع. لكن السادسة إلا الربع كانت قد مرت وبقيت الأضواء كما هي في المبنى الحجري، ولم يكن يسمع أي صوت. كان السيد لابيه يحدق، عبثاً، في الباب الذي لم يكن يفتح، في حين كان كاشودا، بين حين وآخر، يضرب الأرض بنعليه ليتدفأ.

كان القبعاتي، هو أيضاً، بارد القدمين وفجأة، فكر، بمزيد من الكثافة، بالأم المقدسة أورسولا. ألم تلاحظ، هي، أن كل ضحايا الخناق كن رفيقات صف سابقات؟

ألم تكن تقرأ الصحف؟ في هذه الحالة، لا بد من أنهم حدثوها عن ذلك. الأسماء كانت مألوفة لديها. في أقصى الأحوال، كان يمكن تفسير كون الآخرين لم يجدوا هذه المقاربة. أما هي؟

لم يعد ٢٤ كانون الأول بعيداً. هذا التاريخ سوف يحيي ذكرياته حتماً. لم يكن يستطيع أن يذهب للقرع على باب الأسقفية والسؤال عما إذا كانت الراهبة موجودة. دقت الساعة السادسة. بماذا كان كاشودا يفكر خلال كل هذا الوقت؟ ذلك أنه كان يفكر. بل كان لدى السيد لابيه الانطباع بأنه أخذ يفكر بطريقة جديدة. والدليل هو سلوكه الجديد.

كان يريد العشرين ألف فرنك. كان هذا إنسانيا. إذا كان يتبع القبعاتي فذلك لأنه كان يأمل في أن ينتهي هذا الأخير بارتكاب خطأ، بتزويده بدليل يسمح له بالذهاب والمطالبة بالجائزة.

ولكن ماذا عن تعرجات أفكاره؟ هذا ما كان السيد لابيه يريد أن يعرفه. الأسقفية مثلاً؟ بماذا كان ذلك يذكر رجل الشرق الأدنى البسيط؟ لم تظهر الأم المقدسة أورسولا. يحتمل أن لا تكون هناك. لم تغادر ديرها. لا أهمية لكون ذلك عن حذر أو عن أي سبب آخر. قد يكون الأسقف مسافراً، لكن الأمر ليس كذلك لأن السيد لابيه كان يقرأ الجريدة بانتباه، وتحركات رجال الدين كانت تذكر فيها بانتظام.

ربما كانت الحقيقة أبسط من ذلك. قد تكون الراهبة، مثل فالانتان، مصابة بالزكام، بألم في حنجرتها.

كان من المستحيل البقاء هناك إلى ما لانهاية. انتظر الربع، ثم بدأ المشي وهو فريسة لانزعاج لم يكن من القلق فقط.

والحق هو أن ذلك لم يكن قلقاً بالمرة. لم يكن يهم ما كان يفكر، فيه، كاشودا. لقد قدم له طرف خيط. سوف يعمل ذهن الخياط الصغير على خط الأسقفية هذا. وخصوصاً بالنسبة لشخص أمضى طفولته في المدينة، شخص قد تكون له أخت في الدير، ربما يوصله ذلك، عند الضرورة، إلى نتيجة ما لم تكن هذه حالة خياط أرمني صغير. لم يكن السيد لابيه خائفاً من كاشودا، لم يكن خائفاً من أحد. الدليل هو أنه جعل مهمته أصعب وأخطر، عمداً، بإعلانه عن موت الضحية السابعة في هذا الاثنين.

لم يكن يريد أن يعود إلى البيت أبكر من المعتاد بسبب لويز. لم تكن هي الأخرى قادرة على التفكير. كان واثقاً من ذلك، لكنه لم يكن يريد أن يدع شيئاً للمصادفة، لم يكن يرغب في قراءة الدهشة في عيني الفتاة الفارغتين.

مر تحت الساعة الضخمة وأفاد من عدم وجود أحد قريباً منه ليلقي بأنبوب الرصاص في مياه المرفأ. كان على الرصيف كميات من المقاهي الصغيرة التي كانت أبوابها مفتوحة، وبارات يرتادها الصيادون على وجه الخصوص. كان يرغب في أن يدخل إل أحدها ليشرب شيئاً. وكان مرغماً على ضبط نفسه.

لم يكن خائفاً. كان الأمر أكثر تعقيداً وإثارة للقلق. في المرات الأخرى، حتى في تلك التي كان كاشودا، فيها، شاهداً، كان واثقاً من نفسه. كان في كل كينونته ما يشبه موجات ثقة بذاته، موجات سكينة.

حرص كاشودا على البقاء بعيداً عنه إلى درجة كبيرة، من يدري؟ ربما لم يكن، اليوم، مخطئاً، في التزامه الحذر.

كان ذلك غبياً. لم يكن السيد لابيه يريد المضي إلى مثل هذه الأفكار، ومع ذك، لم يكن يتوصل إلى طردها تماماً. كان يعطي نفسه مبررات جيدة.

- مهما يكن كاشودا مرعوباً، فسوف، ينتهي، حقاً، بأن يتكلم.

أولاً، لم يكن ذلك مؤكداً. ربما صح هذا لو كان له أصدقاء. ولكنه كان منعزلاً. فأسرة كاشودا كانت تشكل ما يشبه جزيرة صغيرة أجنبية في المدينة. لم يكن يلعب الورق مع أحد، لم يكن ينتمي إلى أية مجموعة، إلى أي مجتمع، لم يكن، في لاروشيل ،آخرون من جنسه. كان أفراد الأسرة يعيشون فيما بينهم، بمطبخهم، بعاداتهم، بروائحهم. ماذا يفيد القضاء عليه بدلاً من الأم سانت أورسولا؟ وفضلاً عن ذلك، فسوف يركض مثل أرنب منذ أن يتظاهر السيد لابيه بأنه يقترب منه.

ما الذي وضع هذه الفكرة في ذهنه؟ كان يمشي على الرصيف ويداه في جيبه عندما التقت به دورية. قال له اللحام الذي كان يواجه مخزنه بأدب:

- مساء الخير ياسيد لابيه.

مر قرب القناة، هناك حيث هاجم السيدة دولوبيل، وأحس بحنين إلى عهد أنقضى إلى حد أنهكه ذلك تقريباً.

هل سيصبح رخواً، قلقاً، متردداً؟ كان ذلك جسدياً أكثر منه معنوياً، كبعض أنواع التعب التي تنقض على المرء فجأة كنزلة البرد.

هذا محتمل، فقد كان فالاثنتان مصاباً أساساً بنزلة برد والتقط السيد لابيه العدوى. عزته الفكرة. لم يكن بعيداً جداً عن دير الحبل دون دنس، وتساءل من جديد لماذا لم تخرج الأم المقدسة أورسولا. كان كاشودا لا يزال يتبعه من بعيد، وفكر القبعاتي في أنه يود أن يكلمه.

كان، اليوم، الإنسان الوحيد الذي يستطيع أن يكلمه. كان يعلم. لكن، كيف كان يفسر أفعاله؟

بالطبع، كان غير قادر على الفهم. لن يفهم، لا هو ولا أي شخص آخر، وكان ذلك أيضاً أحد همومه. انطلاقاً من الأسقفية ربما كان في مقدور كاشودا، مع شيء من العبقرية، أن يصل إلى الحقيقة، هو الذي كان، منذ سنوات، يرى خيال ماتيلد ساكناً وراء الساتر الحديدي وروحات القبعاتي وغدواته في الغرفة.

كان للحام المشهد نفسه، تقريباً، تحت بصره. على كل حال، لم يكن يصعد، أبداً، إلى الطابق الثاني إلا لينام. وفضلاً عن ذلك، كان، اعتباراً من الساعة الثامنة، نصف سكران.

ولويز؟ هذه الأخيرة لم تكن تفكر. كان يكرهها. كانت كراهيته لها تزيد كل يوم دون سبب محدد. كانت، في بيته، كشوكة في جلده. وجودها، وحده، كان كافياً لأن يسبب له توعكاً جسدياً.

مر إلى جانب مكتبة السيدة كوجا حيث كان الأرمل قد وضع فتاة وراء المكتب. كانت تعد وجبات موظف البلدية وتنام في البيت. سوف ينتهيان إلى أن يناما معاً.

فكر السيد لابيه في الآنسة بيرت وتأسف لكونه لا يستطيع أن يذهب ليراها. كان ذلك مستحيلاً اليوم. لقد فات الوقت. كان قد أعلن لأصدقائه أنه كان، بسبب زوجته، مرغماً على العودة إلى بيته مبكراً.

سيزورها غداً. سيكون مسلياً أن ينتظره كاشودا على الباب، في شارع غارغولو، أثناء مضاجعته لها.

لكنه...... لحسن الحظ، كان يفكر في كل شيء، كان أول من دهش لذلك. كان هناك من التفاصيل التي يجب مواجهتها ومن احتمالات يجب توقعها ما يجعل نسيان شيء ما أمراً مبرراً.

اكتشف فجأة، أنه لم يعد يستطيع أن يذهب إلى الآنسة بيرت، كما اعتاد أن يفعل مرة أو مرتين في الشهر، وذلك بسبب كاشودا! فيمكن لهذا الأخير. فعلاً، أن ينتابه الهلع ويتوهم أنه سوف يخنق الفتاة، وأن يركض لإخطار الشرطة.

كان كاشودا مربكاً، ومع ذلك، كان لا يزال ضرورياً. حتى وقع خطاه وراءه، أصبح أمراً لا غنى عنه تقريباً بالنسبة له.

انعطف عند زاوية شارع ميناج وهو يحس بنفسه متزايد الإحباط، ولا يزال يبحث عن السبب. وراح السخط الذي يولده ذلك في نفسه يتحول إلى قلق. كان يحس، في المرات السابقة، بكثير من الامتلاء وهو يصل إلى جوار بيته.

لم يكن ليعترف بهذا لأحد، ولا حتى لكاشودا الذي كان يعلم. كان لديه، اليوم، مايشبه الشعور بالإثم، شعور من لم ينجز المهمة التي كلف نفسه بها.

ربما سيتحدث، ذات يوم، إلى الخياط الذي لن يستطيع، أبداً، أن يخنقه. لم يكن وارداً على القائمة، أولاً، وكان، ثانياً، يسكن تجاهه وربما بدأ الناس في التفكير في القبعاتي.

سحب رزمة مفاتيحه من جيبه وأعاد إغلاق الباب بعناية ووضع عليه القفل. كانت الحرارة عالية في المخزن حيث كانت لا تزال هناك رائحة الأوكاليبتوس التي كانت تشبه رائحة زكام فالانتان.

– هل نامت السيدة؟

– كلا يا سيدي.

هل لاحظت لويز أن سيدتها التي لم ترها قط لم تكن تنادي أبداً في غياب السيد لابيه؟ ماذا كانت تقول يوم الأحد، لأهلها وصديقاتها؟

كانت تطهي ملفوفاً. كانت تعلم أنه لا يحب الملفوف، وكانت، مع ذلك، تعده له. كانت هكذا. عندما يوجه لها ملاحظة حول ذلك، كانت تنظر إليه بهدوء دون أن تقول شيئاً، دون أن تعتذر.

كانت، هي، تحب الملفوف!

خلع معطفه وقبعته ودس وتر الفيولونسيل في تجويف رأس خشبي في آخر الدكان الخلفية. ثم صعد السلم الحلزوني وهو لا يزال يحس بنفسه حزيناً، دون ميل، دون حيوية.

كان قلقه يتزايد بسبب ذلك. فعل كل ما كان عليه أن يفعله، اتبع كل الطقوس بعناية: الستائر، المقعد، ثم العشاء الذي كان يجب أن يلقي به في المرحاض وطارد المياه. لم ينس التحدث بصوت منخفض، وعندما نزل ثانية، نظر إلى لويز بكراهية، وكان الإغراء من القوة بحيث كاد يذهب ليجلب وتر الفيولونسيل من الورشة.

لم يستمر هذا لحسن الحظ. كان ذلك، حقاً، آخر شيء يجب أن يفعله، خاصة في بيته! خاصة مع أسرة الفلاحين الشكاكين هذه التي سيسلطها عليه. سأل مستعيداً تماسكه:

- هل أتى أحد؟

- لا أحد.

كان يبدو عليها أنها تقول:

- ما جدوى هذا السؤال ما دام لا أحد يأتي على الإطلاق؟

لا أحد على الإطلاق! منذ سنوات وسنوات! لأن كل الناس كانوا يعلمون أن ماتيلد لم تعد تستطيع أن تتحمل وجود كائن بشري غير زوجها وأن أدنى ضجة مبهمة في البيت تضعها في ارتعاش. كان لا يزال، على الرغم منه، يطوف في قاعة الطعام ناظراً، أحياناً، نحو الفتاة البدينة البلهاء، بحقدٍ، وانتهى بفتح البوفيه ليخرج منها زجاجة الكونياك. سحقاً لما قد تفكر فيه!

سحقاً له، هو أيضاً، لأن قيامه بهذه الحركة، صعوده السلم مع الزجاجة وفي يده كأس كان يزيد، أيضاً، من قلقه ومن شعوره بالإثم.

لم يكن أبداً يشرب كحولاً في المساء بعد عشائه. لماذا يشرب اليوم؟ وزاد في اضطرابه كونه، عندما أزاح الستار، لم ير كاشودا في دكانه على الطاولة لأن الوقت تسنى للخياط كي يتعشى. بحث عنه، عبثاً، بعينيه في الغرفة. كان باب المطبخ مغلقاً كما لو كانت تلك مصادفة. ماذا كان يدبر؟ هل أغلق على نفسه كي يطلع زوجته على الأمر؟

كان يجب قطعاً أن يتمالك السيد لابيه نفسه. زادت نقمته على ذاته عندما كاد أن يشرب جرعة من الكونياك من الزجاجة نفسها وأرغم نفسه على المضي نحو طاولته ليملأ كأسه على مهل ويفرغه بجرعات صغيرة.

عندما عاد إلى النافذة وأزاح الستار من جديد. كان كاشودا هناك. كان يبدو أنه لم يغادر مكانه أبداً إلى حد تساءل القبعاتي معه، عما إذا كان قد نظر جيداً منذ قليل. كان يجب أن يكون كل شيء قد انتهى في هذه الساعة. لطالما وعد نفسه بهذا الانفراج! كان يفكر فيه منذ أسابيع، يوماً بعد يوم! وها أن شيئاً لم ينته. كانت الأم سانت أورسولا حية في ديرها. ربما تكون قد احتفظت، أيضاً، بصورة توزيع الجوائز. كان يكفي أن تقع نظرتها على هذه الصورة لكي تفهم.

فجأة، تجمد وسط الغرفة وزال كل التشنج من قسمات وجهه واسترخت عضلاته. مرت برهة قصيرة كاد، فيها، أن ينفجر ضاحكاً. وفي نهاية المطاف، ابتسم فقط، لكن ذلك كان الشيء نفسه.

يخيل إلى المرء أنه فكر في كل شيء، يتفنن في عدم نسيان شيء، ويكون هناك شيء صغير يهمل أخذه في الحسبان. كان ذلك بسبب الصورة. كان قد بدأ مستنداً إلى الصورة، بمساعدة هذه الأخيرة وضع قائمته. الصورة استمرت في السيطرة على أفعاله وحركاته، وكذلك على أفكاره.

لماذا تعجل إلى هذا الحد بحيث قضى على امرأتين في أسبوع واحد إن لم يكن ذلك بسبب ٢٤ كانون الأول؟

إلا أن الأم المقدسة أورسولا، لم تطأ، قط، أرض مخزن القبعات، لا في ٢٤ كانون *الأول* ولا في *أي تاريخ* ألم تقل له ماتيلد أنه كان ممنوعاً عليها الدخول إلى بيت أمها حتى عندما كانت هذه الأخيرة تحتضر؟

اكتفت بإرسال صورة دينية مع رسالة من أربع صفحات، بكتابة أنيقة ومنتظمة تنتهي، دائماً، بعبارة:

– *أصلي إلى الله كي يحفظك في حراسته المقدسة.*

إذن؟ لم يكن قد فكر في هذا، وتسبب لنفسه بهموم لا ضرورة لها، أضاع وقته في الوقوف تجاه الأسقفية. لم يكن هناك أي سبب لوضع الأم المقدسة أورسولا على اللائحة. هل كانت هناك أشياء أخرى، من هذا النوع، فاتته؟ عاد إلى القلق، وضع حطبات في المدفأة، عاد إلى النافذة، تأكد من كون الخياط الصغير في مكانه، ومن الباب المنفرج في آخر الغرفة، لمح السيدة كاشودا التي كانت تغسل ثياب طفل في حوض المطبخ. كان ينبغي أن يستعيد كل شيء منذ البداية، ولكنه كان عاجزاً عن ذلك هذا المساء. لقد أتى على شرب ثلاث كؤوس كونياك واحدة بعد الأخرى وكان ذلك يشعره بالخزي راح يتذكر،بمرارة، الأسابيع الماضية حين كان يشعر بثقة كبيرة بنفسه وبأنه متفوق على كل الناس.

صعدت لويز الدرج وهي تجر قدميها محدثة، كعادتها، جلبة على المنبسط وتشنجت أصابع السيد لابيه كما لو كانت تريد أن تتشنج على حنجرتها.

سوف يكفي هذا للإيقاع به. سيوقع بنفسه، حتماً، إذا ترك نفسه يمضي إلى هذا الحد. وماذا بعد؟ ألن تكون فرصة لشرح كل شيء لهم؟ شرب أيضاً. لم يمس كتابه. كان ينبغي أن يكون قد غاص، بسلام، منذ نصف ساعة،في محاكمة مشعل حرائق الجورا.

كم تجشم من عناء في عرض فكرته في رسائله إلى الجريدة، عدة مرات لا مرة واحدة، بإلحاح، معرضاً نفسه لأن تقتفي الشرطة أو الفتى جانتيه أثره؟

«بأن الأمر كان يدور حول ضرورة»؟
كان قد قال لهم إجمالاً:

- أنتم تعتبرونني مجنوناً، مهووساً (كان قد جرى الحديث عن هوس جنسي أيضاً، على الرغم من أن واحدة من العجائز لم تغتصب). أنتم واهمون. أنا رجل سليم العقل تماماً. وإذا كانت أفعالي تبدو لكم غير سوية، فذلك لأنكم لا تعلمون. وللأسف، فإن شاغل سلامتي الشخصية يمنعني من إطلاعكم. ربما سوف تفهمون هناك سبع نساء على اللائحة، وأنا لم أحدد هذا العدد بالمصادفة. أنا أتصرف بصورة منطقية لأنه ينبغي ذلك. سوف تلاحظون ذلك بعد أن تموت السابعة. لن يحدث شيء بعد ذلك وسوف تستعيد لاروشيل طمأنينتها.

لم يقتل السابعة. الجريدة ستعلن ذلك غداً صباحاً. وبذلك لن يعودوا يصدقونه. ولم يقتصر الأمر على أنه لم يقتلها، لكنه أتى على اكتشاف كون موت الأم المقدسة أورسولا نافلاً.

ماذا سيقول الناس؟ إنه يكتب أي شيء كان لجعل نفسه مهماً؟ إنه كان يختار ضحاياه بالصدفة؟ إنه خاف؟ إن إعلان العمدة قد أعطى مفعوله؟

كان ينتعل خفيه ويرتدي الرداء المنزلي كالأمسيات الأخرى. أشعل غليونه، ذاك الذي كان يدخنه، عادة، في هذه الساعة والذي كان له مذاق مختلف عن مذاق الغلايين الأخرى. وجلس في مقعده، مع كتابه، لكنه احتفظ بالكونياك في متناول يده. كان ذلك يكفي ليدله على أن شيئاً ما قد اختل.

إذا كان قد أحس بنوع من العاطفة حيال الفتى جانتيه،فذلك لأن هذا الأخير كان يعطيه فرصة مناقشة حالته الخاصة. كان سجالاً حقيقياً قد انعقد على صفحات جريدة «صدى الشارانت» يبحث كل منهما، فيه، دائماً، حججاً جديدة.

بل إن جانتيه ذهب إلى بوردو ليسأل طبيباً نفسياً مشهوراً عن رأيه. وقد تنبأ هذا الأخير، بعد تأملات علمية طويلة، قائلاً:

- لن يتوقف إلا عندما سيقع.

وأضاف، بعد برهة تفكير - كان جانتيه هو الذي ركز على ذلك - قائلاً:

- إلا إذا انتحر........

كان القبعاتي قد رد بثقة قائلاً:

- لن يقبض علي، ولن انتحر، ليس لدي أي سبب لأفعل ذلك. عندما يقضي على الشخص السابع في اللائحة سينتهي كل شيء.

كان قد كرر:

- إنها ضرورة.

لم يعد قتل السابعة ضرورة على اعتبار أن الأم المقدسة أورسولا لم تكن، في ٢٤ كانون الأول تضع قدميها في بيت شارع ميناج.

فبموجب ما كان قد أعلنه، هو نفسه، إذن، مع فارق وحيد، فقد انتهى الأمر ولم يعد أمامه سوى أن يسترخي. كان يستطيع الاستمرار في لعبة القط والفأر مع كاشودا الذي لن يفهم شيئاً وهو يراه يعيش، بعد الآن، حياة طبيعية تماماً.

سوف يستمر في متابعته كل يوم. في مراقبته في مقهى الأعمدة. مرت، في الطريق، دورية من ثلاثة أو أربعة رجال كانت خطواتهم ترن على بلاط الشارع المتجمد. ربما كان هناك عشرون دورية عبر المدينة كان الشرطيون المتطوعون يتوالون، يذهبون ليتدفؤوا، كل بدوره. قرب مدفأة مخفر الشرطة الضخمة. كان العمدة مداوماً باستمرار في مكتبه الذي كانوا يهتفون إليه فيه بتقارير سلبية. كان جانتيه باقياً في المطبعة، قرب الآلات التي لن تلبث أن تدور من أجل أن يستطيع كتابة مقال صغير عند بداية الطبع.

انتصب السيد لابيه واقفاً متوتر الأعصاب. كان على أهبة التحرك، فعل أي شيء لشدة تأثير الجمود عليه، في هذه الغرفة التي كان الهواء فيها صلباً تقريباً لفرط سكونه.

أخطأ عندما شرب، وكان، الآن، مرغماً على الاستمرار وإلا لكان قادراً على الخروج، على المشي في الشوارع، وربما كان قادراً على أن يأخذ معه وتر الفيولونسيل وقطعتي الخشب.

سمع صرير السرير الحديدي في غرفة الخادمة وبلغت كراهيته للفتاة الضخمة درجة من الحدة أصبحت معها، مثيرة للإشفاق.

ظن أنه يهدئ نفسه بالإمساك بمقصاته وبالجرائد التي كان يقتطع منها الحروف والكلمات، بفتحه زجاجة الصمغ، بوضعه ورقة بيضاء أمامه.

سيقول لهم..........

ماذا يقول لهم؟ توقف هنا والمقص في الفضاء، وللمرة الأولى، منذ سنوات، أحس فجأة برغبة في البكاء، كان يحس بشعور ضاغط بمكر الحظ. لقد فعل أكثر مما ينبغي، ببساطة، بشجاعة، رتب كل شيء بالصبر والحذر، فكر في كل شيء، لقد...

هذا المساء، كان يجب أن ينتهي كل شيء، وها أن شيئاً لم ينته. سيسخرون منه، وهم الذين سيكونون على حق.

لم يكن الخياط الصغير القاطن تجاهه هو الذي كان يبعث فيه الاضطراب بتفكيره الشحيح الذي لن يؤدي إلى شيء، ولا الأم المقدسة أورسولا الارستقراطية، المترفعة، في سكينة ديرها.

لم يكن خائفاً من أحد، هذا ما كان يجب أن يقولوه لأنفسهم جميعاً، المفوض بيجاك، أولاً، والعمدة الذي كان يظن نفسه شخصية كبيرة وجانتيه الصغير معهما.

«لم يكن أحد يخيفه».

إلا هو نفسه. ذلك أنه بدأ يفهم ماذا حدث له منذ قليل، بالضبط عندما كان يمشي على رصيف دوبيريه. كان قد اعتقد، أولاً، أن مزاجه السيء كان ناجماً عن كون الراهبة قد أفلتت منه في الأسقفية.

لم يتوقف انزعاجه، بعد ذلك، عن التفاقم، وخلال ثانية، فكر في استبدال الأم أورسولا بالخياط. كان ذلك يثبت أنه أخطأ. لماذا حام، بعد ذلك، حول لويز؟

لم تكن تلك هي المرة الأولى، اكتشف ذلك الآن. اتفق له أن قال لنفسه وهو ينظر إليها:

– ربما فيما بعد، عندما أنتهي من الأخريات.

شرب. كان في حاجة إلى الشرب. كان يحس بأن دواراً يلفه. ما كان يلمحه كان مخيفاً. ظن أنه سيستعيد رباطة جأشه، أنه سيرغم نفسه على التفكير بمزيد من الهدوء إذا ذهب ليحضر الصورة، ولكن وجوه الفتيات المتجمدة في تعبير صنعي لم تعد توقظ لديه أي شيء.

لم تكن هذه البغي لويز تنام، ولا تكف عن التقلب بثقل في سريرها كما لو كانت تشم رائحة خطر في البيت. فلتطمئن! لن يفعل لها شيئاً. كان هادئاً، عاد إلى الهدوء. كان ببساطة، يحتاج إلى التفكير، ولكن لا فائدة من أن يحاول ذلك اليوم. كان قد شرب. بئس الأمر! الأفضل أن يستمر لكي يخدر نفسه، كي ينام نوماً ثقيلاً، وغداً سيكون في خير.

سوف يثبت لهم، إذ ذاك، أنه سليم العقل كما هو سليم الجسد. لم يكن فيه أية عاهة، تأكد من ذلك عدة مرات باستشارة أطباء جديين. أبوه كان قد مات بداء في القلب، في الثانية والسبعين من عمره وهو في كامل قواه العقلية. كان قبعاتياً في المخزن نفسه، في الشارع نفسه، في عهد كان، فيه، شارع ميناج شارعاً لتجار المدينة، وكان شخصية هامة وعضواً في المجلس البلدي.

بدأ ابنه دراسة الحقوق في بوانتييه، وبرضاه الكامل، قرر، في السنة الثالثة، استعادة مخزن القبعات.

كان هذا من شأنه. لم يكن من شأن أحد سواه.

كان سليم العقل تماماً.

كان لا يزال هناك نور لدى الخياط الصغير، ولكنه لم يعد على طاولته. كان يسند ظهره إليها، ويدخن سيجارة أتى على لفها، وراح يثرثر، بهدوء، مع زوجته التي جلست برهة قصيرة.

لن يدع السيد لابيه أحداً يرهبه.

– فليقولوا ما يشاؤون، فليفكروا، فليكتبوا مايريدون!

كان قد شرب ما يقرب من نصف الزجاجة وبدأ يفهم. لم تكن مصادفة أن يكتب هذا أو ذاك عنه. كان ذلك جزءاً من خطة مسبقة. كان الأمر يدور حول دفعه إلى الهاوية، حول تحطيم أعصابه ليوقعوا به بشكل مؤكد.

كان جانتيه والعمدة وبيجاك، وحتى صديقه كاييه، متفقين. كانت لديهم خطة. ربما كانت مقابلة الطبيب النفسي في بوردو خدعة، هذا إذا لم يدخلوه في اللعبة هو نفسه.

كانت لويز تستطيع أن تتقلب كما تشاء في سريرها الذي يئن. إنه لن يتحرك.

سيذهب للنوم بعد قليل. ماذا بقي عليه أن يفعل؟ لا ينبغي نسيان شيء. كان رأسه ثقيلاً. من الغباء أن يلتقط عدوى نزلة البرد من فالانتان، وكان من الأفضل أن يرده إلى أمه.

أعاد الصورة والمقصات والجرائد إلى أمكنتها وسد زجاجة الصمغ.

لقد أخطأ الأم المقدسة أورسولا، فليكن! فما دامت لا تأتي، أبداً، في ٢٤ كانون الأول، فليس لذلك أهمية.

لقد انتهى إذن.

هذا ما كان يجب أن يكرره. لقد انتهى. لم يكن عليه سوى أن ينام، أن يشرب، عند الحاجة، جرعة أخيرة من الكونياك، وهذه المرة شربها من الزجاجة.

هل استحق ذلك أم لا؟

انـــ ـــ ـــتـــ ـــ ـــهى!

مهما فعلوا!!

لماذا، إذن، كان يضم وسادته بتشنج كطفل سيبكي.

(٦)

كان يقوم بكل الحركات ولا ينسى شيئاً. ولكنه كان يتفق له، بصورة متزايدة، أن يتجمد كما لو كان في حالة وجد وأن ينظر حوله بهيئة قلقة، أولاً، ثم وجيعة. في ذات مرة، أراد فالانتان أن يساعده.

- هل نسيت شيئاً؟

نظر إليه السيد لابيه كما يجب أن ينظر المرء إلى البشر عندما يكون خارج الكوكب، دون أن يكلف نفسه عناء الرد عليه. بالكاد هزّ كتفيه. بعد ثوان، عاد الاتصال. عرف من جديد ما الذي يجب عليه أن يفعل واتجه نحو الخزانة المغلقة بالمفتاح ليسحب الحبل.

في صباح الثلاثاء، كان شاحباً، متعب الوجه، محمر الجفون. مر عليه زمن طويل لم يشرب فيه كما فعل مساء الأمس وكان رأسه فارغاً وارتعشت أصابعه وهو يحلق.

الغريب كان أن الخياط الصغير هو الذي كان، من بين الاثنين، مريضاً. ربما لم يكن مرضه خطيراً. لم يكن السيد لابيه يستطيع بعد أن يعلم. كان يخمن، من أدنى روحات البيت وغدواته، أن أمراً غير عادي يجري. كانت السيدة كاشودا هي التي شوهدت أولاً ثم خرجت استير، أبكر من المعتاد بكثير، في كامل لباسها، من المطبخ.

من الطريف أن يرى كيف يتخذ مسكن ما سمات الكارثة، بسهولة، منذ أن تضطرب الطقوس. نزلت الفتاة وأمضت برهة طويلة في سحب أقفال المخزن، ثم ابتعدت على الرصيف، كانت هناك، في ذلك الصباح، على بلاط الشاعر، طبقة زلقة من الجليد الأبيض. كيف فهم السيد لابيه، حالاً، أنها كانت

ذاهبة إلى الصيدلية؟ ربما كان ذلك لأنه لا يوجد ما يمنع رجالاً مثل كاشودا من أن يكونوا في مواقع عملهم سوى المرض أو الموت.

كانت زوجته تستعجل الصغيرتين اللتين كانتا ترتديان ثيابهما للذهاب إلى المدرسة. كان على استير أن تذهب إلى عدة صيدليات قبل أن تجد واحدة مفتوحة. عندما عادت، كانت في يدها رزمة، وبينما كانت تصعد السلم، ظهر كاشودا في الورشة على الرغم من احتجاجات زوجته. كان ينتعل خفين ويرتدي بنطالاً وسترة قديمين فوق قميص نومه ويضع شالاً أسود لزوجته حول عنقه. كان يرى أنه محموم، وكان يفهم، من طريقته في الكلام، حتى عبر الشارع، أنه كان مبحوحاً.

فتحت رزمة الصيدلية. أعطت استير، بزلاقة لسان، توضيحات. وضعت السيدة كاشودا في فم زوجها ميزان الحرارة الذي أحضروه وفكت ألغاز التعليمات على زجاجة وعلبة صغيرة. سوعد المريض على ارتداء معطفه، لا لأنه كان يريد الخروج، بل لأنه بدأ يرتجف على الرغم من النار المشتعلة في المدفأة.

كانوا،هم الثلاثة، رزينين وهم يقرؤون ميزان الحرارة. كانوا يتناقشون. يجب أن يكون قد اقترح استدعاء طبيب، وكان كاشودا يرفض ذلك بشدة. ذهبت استير إلى عملها. قادت أمها الصغيرتين حتى الرصيف واتجهتا نحو المدرسة متماسكتين باليدين. كان على رأس أصغرهما طاقية من الصوف الثقيل الأحمر المنسوج، وفي يديها قفازان من اللون نفسه.

بدا على السيدة كاشودا، وهي تعود إلى زوجها، أنها تقول:

- الأمر بيننا، نحن الاثنين، الآن.

وضعت ماء للتسخين على النار وهيأت كمادات وأعطته أقراصاً يحتمل أنها مسهلة ليبتلعها. أما الخياط الصغير الذي تعطّل عن عمله، فقد كان ينظر، بأسى، إلى طاولة عمله ويحاول، ما أن يترك وحده، النهوض عن مقعد الخيزران الذي وضع فيه أمام المدفأة.

لا بدّ أنه مصاب بنزلة برد أو نزلة صدرية مثل فالانتان الذي كان يتمخط دون توقف.

هل خافت لويز، حقاً، من القبعاتي عندما دخل إلى غرفة الطعام وهي تعد المائدة؟ وعندما رفعت رأسها بشيء من السرعة، بدت متفاجئة لرؤيته أمامها، بعد صمت سألته بدلاً من أن تحييه قائلةً:

– ماذا بك؟

كان جاف الحلق بالتأكيد، لكن الذي كان به، خاصة، هو أنه كان يتفحصها بعينين جديدتين. لم يكن يفحصها فقط، بل كان، أيضاً، يشتم رائحتها وهو فريسة اشمئزاز هائل، حقد لم يعد يتخلص منه. كم مرة أغري مساء الأمس بالنزول إلى المطبخ، ثم، فيما بعد، حين كانت نائمة، بأن يوافيها إلى غرفتها وينتهي منها؟

الآن، كان يراها، يزنها، يقيسها. كان يتخيلها على الأرض وشعر بالغثيان من جراء ذلك. كان يحقد عليها، وربما سيحقد عليها إلى الأبد لما كاد يفعله.

كان هذا يذكره بأولى تجاربه الغرامية عندما كان في السابعة عشرة من عمره. قاوم طويلاً قبل أن يغوص في حي الثكنات حيث توجد خمسة بيوت أو ستة بأرقام كبيرة، مع نساء على العتبات. كان يبدأ بالمرور سريعاً، ينعطف عندما يصل إلى آخر الزقاق ليعيد اجتيازه من أوله. كان يعد نفسه، في كل مرة، بأن يختار، ولكنه ينتهي بالدخول، وفي أذنيه طنين، إلى أول رواق يصادفه.

وبعد ذلك، يُمضي ساعات كارهاً لهنّ، جميعاً من أجل الخجل من ذاته ومن الجنس البشري الذي كنّ يتسببن له به. هن اللواتي كان يأخذ عليهن أنه انصاع للإغراء، وكان هذا الشعور من القوة بحيث كان يخلق لديه اندفاعات إجرامية.

مع هذا العجل، لويز، كاد يقع أيضاً أمام الإغراء، أمام إغراء آخر، وكان أخطر. حتى ذلك الحين، لم يفعل سوى ما كان قد قرر أن يفعله، ما كان ضرورياً، لا غنى عنه، كما كتب إلى الجريدة.

خلال الصباح، فكر في أن يطردها، ولكن ذلك لم يكن يتصف بالحذر. هل كان فالانتان قادراً على تمييز الفرق؟ هل كان الفتى الأصهب، ذو الأنف المدمى، تقريباً، أهلاً للملاحظة؟

كان القبعاتي أكثر ثقلاً. في السابق، كان خفيفاً، حتى حين يبقى صامتاً ومستغرقاً في التفكير، مهما بدا ذلك غريباً. كان يبدو، بالتأكيد، رصيناً، ولكن بسكينة. كان يعيش وحيداً، في الداخل، لكن ذلك دون أن يعطي الإحساس بوجود أية معركة، أي قلق.

إذا كان، هذا الصباح، أقل قلقاً مما كان عليه في العشية، فالاضطراب، مع ذلك، دخل فيه.

لا يفكر بوضوح. كانت صورة لويز المقيتة تلاحقه، وكانت تعود إليه، بسبب ما كاد يحدث وبسببها، صور أخرى للحي، للثكنات وأخيراً، حتماً، ذكرى السيدة بينه.

كان يعمل، في الدكان الخلفية، في ترطيب القبعات وتجهيزها. ذهب مرتين في ساعة إلى المخزن لخدمة زبائن مع نظرات قصيرة إلى البيت المواجه.

وفجأة، وهو ينظر إلى الديكور المألوف، الرفوف البنية، الرؤوس الخشبية، مدفأة الغاز، اسمه الذي كان يستطيع أن يقرأه، مقلوباً، على الواجهة، شعَر بأن شيئاً ما، هنا، قد توقف كساعة.

لم يكن شيء قد تغير، حوله، منذ أن امتلك المخزن.

كان آخرون قد حاولوا، على الأقل، التحرك في اتجاه ما. حتى بول شنترو، الدكتور، تخبط طويلاً.

كان، هو، قد عاد، في عمر الثالثة والعشرين، من بواتييه التي كان يدرس فيها ليتلطى هنا كما تغوص بعض الحيوانات، لدى الإعلان عن الشتاء، في أوكارها.

حسناً! كان ذلك بسبب السيدة بينه. لم يقل ذلك قط. لم يسلم به أبداً. لم يكن ذلك صحيحاً تماماً. ومع ذلك، فقد كان أقرب شيء إلى الحقيقة.

كان يعيش لديها في بواتييه. كانت أرملة، هي أيضاً. كان قد أتى على تبين عدد الأرامل الكبير وحدتهن.

كانت في الرابعة والثلاثين أو الخامسة والثلاثين من عمرها. كان زوجها، في حياته، موظفاً على درجة كافية من الأهمية، وكانت تملك بيتاً جميلاً في أعلى المدينة كانت تعيش فيه مع ابنها ألبير الذي كان، في ذلك الحين، تلميذاً في الرابعة عشرة من عمره.

كانت قد قررت، لزيادة دخلها، أن تؤجر غرفة لطالب. علمت والدة السيد لابيه بذلك. كيف؟ لقد نسي. تم ذلك عبر العلاقات، جرى تبادل مراسلات، التقت المرأتان وعادت السيدة لابيه إلى لاروشيل مطمئنة على وضع ابنها.

كانت السيدة بينه سمراء اللون. كان اسمها جان، وكان ابنها السيئ التربية إلى حد بعيد يناديها باسمها.

جرى ذلك، أول مرة، بالضبط حين كان ليون لابيه مصاباً بنزلة صدرية. كان، في كل سنة، يصاب، حوالي الخريف أو بداية الشتاء، بنزلة صدرية. لم يذهب إلى دروسه. كانا وحدهما في البيت. كانت السيدة بينه ترتدي منشفاً أزرق صارخاً كانت تلمح الدانتيلا من انفراجه.

كانت حرارته مرتفعة قليلاً. كانت الغرفة عابقة برائحة الأوكاليبتوس – كانت تعتني به بإلحاح. ألحت كي تضعه في السرير، ولم يمنع سلوكها الأمومي كونهما انتهيا إلى ممارسة الجنس.

كانت تلك المرة الأولى التي يحصل له فيها ذلك خارج حي التكنات. خاف من عنف شريكته، مما جرى لها بسرعة كبيرة وشوه ملامحها. كان، وهو يفكر في الفتى الذي سيعود، بعد قليل، يحس بالإثم.

دام هذا سنتين ونصف السنة، المدة التي أمضاها في بواتييه. كان أصدقاؤه في الجامعة يسمون المؤجرة: بينيت[١] وكانوا يزعمون أنه لم يكن الأول. وبما

---

(١) La Binetle بالفرنسية وتعني معزق أو قدّوم.

أنه كان، في ذلك العهد، نحيلاً، فقد كانوا يؤكدون أنها كانت تستنزف حيويته، وربما كان ذلك صحيحاً، فهي لم تكن تدعه في سلام، وكانت تلحق به إلى غرفته في حين كان ابنها يستطيع أن يسمعها، وتهتاج بصورة لم يشهد، فيما بعد، امرأة عليها. كانت فاحشة إلى الحد الذي يستطيع إنسان أن يكونه. كانت تفعل ذلك عمداً، بشراسة. وعندما تبلغ درجة النشوة، كانت تستخدم أقذر الكلمات، كلمات لم يسمعها إلا في المباغي وكان يحمر لها خجلاً.

لم يجرؤ على تغيير مسكنه لأنه كان عليه، في هذه الحالة، أن يقدم تفسيراً لوالديه. وفضلاً عن ذلك. فقد كان من شأنها، دون شك، أن تلحق به في الأمكنة الأخرى.

أصبح شيئاً مزعجاً أن يسميه رفاقه في الدراسة «بينه البينيت»[1]. وفي السنة الثالثة حدس أنه سيرسب في الامتحانات. خجل من ذلك. وعندما عاد إلى لاروشيل ليمضي عطلة الفصح، أحس بالأمان في مخزن قبعات شارع ميناج. تردد، أيضاً، يومين أو ثلاثة. كانت تلاحقه ذكرى ألبير الذي أصبح، آنذاك، في السابعة عشرة من عمره والذي كان يعرف كل شيء ويحدثه، بصفاقة عن أمه.

قال، ذات يوم، لأبيه:

– ما دمت قد تمنيت مني، دائماً أن أستلم مخزن القبعات، فإني أظن أني سأتخذ هذا القرار.

وكان ذلك كل شيء.

هذا ما كان يفكر فيه اليوم، وفي أشياء أخرى ليست ألطف بكثير لأنه كان يحس بحاجة إلى وضع كشف بالحساب. اتفق له، عدة مرات، أن ينظر إلى نفسه في مرايا المخزن، وكانت رؤية وجهه تجعله عابساً. وجدَ نفسه مسناً. كان مهتماً بصحة الخياط الصغير. شد الحبل عدداً من المرات أكبر من المعتاد لتوفر له فرصة الصعود إلى فوق، حتى أن فالانتان المسكين استجمع شجاعته وسأل:

---

(١) ربما تعني قبضة المعزق، أو أسطوانته. والغاية من اللعب على الألفاظ هو السخرية.

- أليست السيدة لابيه على مايرام؟

حدق في عينيه دون أن يجيب. عبثاً بدت السماء في صفاء قشرة صدف المحار، فقد خيّم الضباب، مع ذلك، حولها وشوه هيئة الناس والأشياء.

هل لاحظت هذه البهيمة القذرة، لويز، أن زجاجة الكونياك لم تكن في البوفيه؟ لقد تركها فوق وذهب، قبل الظهر بقليل، ليشرب منها جرعة.

أخر برهة شراء الجريدة من زاوية الطريق لأنه كان يعلم أن هذا سيزيد مزاجه قتامة.

كتب جانتيه، بوقار، قائلاً:

«لأول مرة لم ينجز القاتل ما كان قد أعلن عنه»

واستخلص، من ذلك، عموداً كاملاً من الافتراضات: خديعة؟ مرض؟ خوف من الانتشار الاستثنائي للشرطة؟

«مالم يكن أن الضحية السابعة تبعت تعليمات العمدة فلم تخرج من بيتها»

واندفع جانتيه في ميدان الفرضيات.

«هل كانت هناك ضحية سابعة محددة؟ هذا ما سنعرفه خلال بضعة أيام. لقد حاول الخناق، منذ البداية، الإيهام بأنه لم يكن يهاجم أية امرأة، بالمصادفة، بل إنه كانت لديه قائمة موضوعة، وأنه كان يتبع خطة مسبقة.

«هل هذا صحيح؟ هل هو مزيف؟ ألا ينبغي أن لا نرى في ذلك سوى تفسير معطى بعد الحدث، بل سوى حيلة لتحويل الشكوك أو لإعطاء الذات شيئاً من المكانة؟»

الناس يوسخون كل شيء، هذا أقوى منهم.

هل سيضطر للإيقاع بنفسه كي يشرح لهم الحقيقة، ليقدم إليهم أدلة؟ ساوره إغراء بأن يفعل. ربما لم يكن قوياً جداً، لم يكن صادقاً جداً، ولكنه ساوره. من يعلم ما إذا لم يكن هذا أفضل؟

كان كاشودا لا يزال في مقعده، وكانت زوجته تغير له، كل ساعة، كمادته الرطبة. عند الظهر، قدمت له بيضاً بالحليب أكله ببطء. بملعقة صغيرة، واضعاً الصحن على ركبتيه. نزلت زوجته مرة، عندما سمعت جرس المخزن وناقشت زبوناً لا بُدَّ أنها أوضحت له أن زوجها كان مريضاً.

حوالي الساعة الثانية، قرر السيد لابيه أن يفيد من ذلك. كل شيء قد ترابط. كان قد فكر، بسبب الخادمة، في حي الثكنات، ثم في السيدة بينه، وعاد، مرتين، إلى فوق ليشرب.

كان رأسه يؤلمه كثيراً. لم يجد الأسبيرين فتيلاً. كان يحتاج إلى شيء آخر. ناضل حتى حوالي الساعة الرابعة، في برهة إشعال المصابيح، وعند ذلك، ارتدى معطفه واعتمر قبعته.

– لدي عمل أنجزه يا فالانتان. إذا لم أعد قبل الساعة السادسة أقفل المخزن.

كانت يده على مقبض الباب عندما عاد واتجه نحو الدكان الخلفية. انزلقت يده في تجويف الرأس الخشبي. تجمدت لحظة. قاوم، وهو خائف، لأنه مازالت لديه قوة المقاومة.

مضى دون أن يأخذ شيئاً واتجه نحو شارع غارغولو.

كان يذهب إليه، بين حين وآخر، حوالي مثل هذه الساعة دائماً. قبل ميدان السلاح بقليل، كان هناك، إلى اليسار، بيت من القرن الثامن عشر آوى شخصيات مشهورة. كانت البوابة الكبيرة لا تزال يعلوها شعار يحيط به حجران. كانت هناك ردهة مبلطة ومساكن على جوانبها الثلاثة، وكان البيت مقسوماً الآن إلى عدة شقق. كانت حتى ترى رقاع نحاسية عند المدخل. في آخر الطابق الأول، كانت هناك عيادة طبيب أسنان كان السيد لابيه قد عرفه في المدرسة. وكانت، في مكان آخر، شركة تبيع برادات، وفي الأعلى، كانت هناك شقة موظف أرشيف المحافظة.

لم يكن للجناح الأيسر سوى طابق واحد، وله مدخلان. كان الباب الثاني ينفتح مباشرة على سلم يؤدي إلى الدور الأول، وهذا الباب هو الذي توقف القبعاتي عنده.

في كل مرة جاء فيها إلى هنا، أحسَّ بالقلق الصغير نفسه الذي كان يحس به، سابقاً، عندما كان يدخل إلى حي الثكنات. ومع ذلك، لم يكن الوحيد الذي كان يتوقف عند هذه العتبة. الآخرون، بمن فيهم الدكتور، لم يكونوا يحسون بأي خجل من التحدث عن ذلك. كان شنترو يقول بفجاجة عندما يصل متأخراً عن اللعبة:

– ذهبت لمضاجعة بيرت.

لم يكن جوليان لامبير يقول شيئاً لأنه كان بروتستنتياً نقياً، وخاصة لأنه كان يخاف جداً من زوجته، لكنه لم يكن يذكر، بدوره، ويكاد أن لا يتستر.

كم كان عدد الذين يترددون على الشقة الناعمة المنجدة، بكاملها، بالساتان الباهت مع عدد كبير من السجاد والوسائد والكراسي الواسعة المنجدة والتحف الهشة والجميلة؟

سبعة أو ثمانية. لم تكن الآنسة بيرت مومساً عمومية. لقد كان ينفق عليها، لمدة سنتين، ريست تاجر السلاح، ريست البكر لأنه كان هناك أربعة أو خمسة ريستات وكانوا يشكلون عشيرة في المدينة، بروتستانتيون أيضاً، يملكون إحدى أضخم ثروات البلاد.

كان ريست البكر في الستين من عمره آنذاك. كان ابنه وابنتاه متزوجين، أحد الصهرين كان يدير مكاتب باريس.

كانت كل الأسرة تعلم، ولم يشاهد، قط أحد أفراد أسرة رست في مقهى ولا في كازينو على الساحل.

ربما لم يعرف ريست البكر أبداً حتى عمر الستين، امرأة غير زوجته التي جفت إلى حد كانت تسمع معه طقطقة مفاصلها.

كان هو الذي استأجر شقة الآنسة بيرت وأثثها. بدا متحفظاً بالقدر الممكن، ومع ذلك، كان ملاحقاً خلال سنتين من جانب كل القبيلة، بمن فيها أولاده وصهراه.

يزعمون أنه كانت هناك مشاهد ملحمية، أنه مضى إلى درجة توسله إليهم، جاثياً على ركبتيه، أن يدعوه يحصل بسلام على قليل من المتعة في أيامه الأخيرة.

انتهت العشيرة إلى كسب الجولة. وفي ذات مساء، أقسم أمام كل أفراد أسرة ريست مجتمعين، رسمياً، على أن لا يضع قدميه، أبداً، في بيت شارع غارغولو وعلى أن لا يرى، ثانية، الآنسة بيرت.

ولا حتى ليعلمها بالقرار الذي اتخذ. كان أحد الأصهار هو الذي تولى المهمة وناقش، بشدة، مسألة المال.

منذ ذلك الحين، كان ريست البكر يذهب، مرة في الشهر بقطار الليل إلى باريس، ويزعمون أنه كان مسموحاً له بالذهاب إلى بيت مواعيد في حي نوتردام دولوريت.

حافظت الآنسة بيرت على أوضاعها الوادعة، على حياتها المرفهة كامرأة ينفق عليها، ولكن، بما أن أحداً في المدينة، لم يكن يستطيع أن يحل محل تاجر السلاح، فقد فتحت بابها لبعض أفراد مختارين بعناية.

رأى السيد لابيه نوراً من خلال شقوق الستائر وعلم أنها كانت في بيتها. كانت، دائماً، تقريباً، في بيتها، إلا أنه يبقى اجتياز اختبار الجرس الكهربائي. أكانت تلك فكرتها أم فكرة أحد عشاقها؟ المهم هو أن الجرس جهز بقاطع. فعندما يكون لديها زائر، كانت تقطع الوصلة ولم يكن أحد يلح لأن كل واحد يعلم معنى ذلك.

مد السيد لابيه ذراعه، ضغط على الزر ولم يسمع أي صوت من الجانب الآخر للباب. كان هناك أحدهم، ربما الدكتور، وزاد مزاجه سوداوية. لم يكن يشعر بأنه على ما يرام. كان في حاجة إلى شيء، ولا يعرف ماذا بالضبط.

ظن أنه وجده هنا ولم يكن يستطيع، كذلك، أن يهيم على وجهه في الحي ويعود، بين حين وآخر، ليقرع الجرس.

لم يكن قد أتى بوتر الفيولونسيل، لكن هذا لم يكن يعني، بالضرورة، أنه قد اتخذ قراراً. في الواقع، لم يكن وتر الفيولونسيل لازماً إلا في الخارج، حين يكون مرغماً على التصرف سريعاً جداً، دون صوت وبالمفاجأة.

لم يستعمله مع ماتيلد التي كانت راقدة. الحقيقة هي أنه لم يكن قد قرر شيئاً وهو قادم. راح الآن يمشي ببطء على طول الأرصفة متهدل الكتفين. لم يكن

يريد أن يشرب كحولاً أمام أصدقائه لأن ذلك لم يكن من التقاليد. ولأنه ماضٍ في الحذر. يستطيع، في أقصى الظروف، أن يدخل إلى مقهى آخر. سبق أن فعل ذلك. كانت هناك عدة مقاهٍ حول السوق المغطاة. مر إلى جانب سلال بائعات السمك وتعرف على إحداهن التي كان قد اشتهاها سنتين على الأقل، وهو ينهي دارسته الثانوية. لم يكلمها أبداً. كانت في ذلك الحين صبية صغيرة ذات ثديين منببين. رآها عدة مرات في زوايا مظلمة مع رجل. كان رفاقه يعرفونها، كان معروفاً عنها أنها تفعل كل ما يطلب منها، مع أي شخص كان، لا من أجل المال، بل للمتعة. كانت قد أعطيت لقباً يصف، بفجاجة، إحدى مواهبها.

لم يجرؤ أبداً، وهاهي، الآن، عجوز جالسة على كرسي نقال أمام بسطة من سمك الميرلان. كانت تعرف من يكون، ككل الناس في المدينة. ما لم تكن تعرفه هو أنها احتلت هذا المكان في أفكاره وأنه بسببها، غالباً ما ذهب يسعى وراء الاشمئزاز في المباغي إلى جانب الثكنات.

شرب كأسين من الكونياك، وكانت نظرة النادل تربكه. مع أن النادل لم يكن يبدو أنه كان يفكر في شيء.

قطع عهداً على نفسه بأن لا يعود إل شارع غارغولو. كان يعلم أن المكان لن يكون، بعد، حراً. دخل إلى الردهة وضغط على الزر الكهربائي عبثاً.

كانت يده في جيب معطفه تبحث آلياً عن وتر الفيولونسيل الذي لم يكن فيها. دخل، مثقل النظرة، كمرتاب، إلى مقهى الأعمدة، ولم يكن ممتعاً أن لا يحس بالخياط الصغير وراءه.

كان بالغ الهدوء، بالغ التحكم في أعصابه في الأسابيع السابقة! من المؤكد أنه كان عليه أن يفكر في كل شيء أن يحسب أدنى أفعاله وحركاته ولكنه كان واثقاً، كان يمضي إلى الأمام ببطء، بثقة، قائمته في رأسه كرجل فرض على نفسه مهمة ولا شيء يمكنه بعد الآن أن يؤثر فيه.

كان الطبيب هنا. لم يكن هو، إذن، الذي يزور الآنسة بيرت اليوم، ولا جوليان لامبير الذي كان يربت على الورق، في حين كان، مع أرنو ينتظران بصبر، لاعباً رابعاً.

لماذا قطب شنترو حاجبيه لدى رؤية القبعاتي يجلس؟ لأن الموعد لم يكن قد حل بعد؟ سأل غبرييل، الذي كان يبدي رعاية أمومية للمجموعة الصغيرة:

– الشيء نفسه سيد لابيه؟

– هل تلعب؟

كان لديه كل الوقت للعب، فلا شيء لديه قبل الساعة السابعة مساء. بعد الآن، لن يكون لديه مايفعله وكان هذا يبعث فيه إحساساً بالفراغ يسبب الدوار تقريباً.

بل إنه لم يعد عليه أن يتخذ احتياطات!

لاحظ بول شنترو، وهو ينظر إليه من فوق ورقه:

– تبدو متعباً.

– لا أدري.

– هذا غريب. زملائي يدعون أن الرطوبة ضارة. إلا أنني ألاحظ هنا، كل سنة، الظاهرة نفسها. الناس يصمدون خلال الأمطار. ثم، منذ أولى التجمدات، لا تعود نزلات البرد وآلام الحنجرة تحصى. استقبلت،هذا الصباح أحد عشر مصاباً بها.

لم يكن السيد لابيه مصاباً بنزلة برد، كان، الآن، متأكداً من ذلك. ولم يقلل هذا من شراسته. كان يحقد عليهم جميعاً، دون أن يعرف بالضبط، لماذا، كما كان يحقد على لويز منذ ساعة، كما كان يحقد على الآنسة بيرت.

ومع ذلك، لم يكن مصاباً بهوس الاضطهاد، لم يكن مجنوناً. لم يتوصل جانتيه الصغير إلى التأثير فيه بمحاكماته ولا بمعارفه الحديثة تماماً في الطب النفسي.

لم يكن جانتيه، ولا رب عمله كابيه، هنا. وفي الواقع، ربما كان كابيه، ببطنه الكبير وكل شعر جسمه، هو الذي كان في سرير الآنسة بيرت.

حقد عليه أيضاً. وحقد على الخياط الصغير الذي بقي كرسيه شاغراً.

كان جوليان لامير هو الذي لاحظ، بعد برهة طويلة، وهو ينظر إلى الساعة التي تشير إلى الخامسة والربع:

– هه! لقد فقدت كلبك.

لم يفهم القبعاتي حالاً. وبما أنه كان يصاب بالرعب من عدم الفهم، فقد جعله ذلك فظاً. زمجر قائلاً:

– لم يكن لدي كلب قط.

الآخرون الذين فهموا انفجروا ضاحكين:

– كاشودا ليس على كرسيه. إنه يصل، في العادة، على أعقابك. ارتاب في كونه يضبط ساعته على ساعتك، أو أنه ينتظرك على عتبته.

هل كان لدى جوليان لامبير فكرة خفية وهو يتكلم هكذا؟

– كاشودا مريض.

– كيف تعرف ذلك؟

– رأيته من النافذة.

وبما أن أرنولد لم يكن يحب الثرثرة أثناء اللعب لأنه يرتكب أخطاء بسهولة فقد قال بنفاذ صبر:

– قلت ثلاثة سباتي! بول مرر دوره، اندريه قال: واحد ديناري وليون مرر دوره، أنا قلت: ثلاثة سباتي. جاء دورك يا جوليان.

كان الجو دبقاً. لم يكن في مقدور السيد لابيه أن يقول لماذا هو دبق.. كان الطقس جافاً والطرقات مغمورة بضوء القمر. لم يكن دخان التبغ قد غزا المقهى بعد. ولم يكن أوسكار، صاحب المقهى، المزروع وراءهم قد أحس، بعد، بشعرة على لسانه.

ومع ذلك، كان الجو دبقاً، دبقاً كفخ غربان. ينبغي أن يعود إلى التفكير بصورة مستقيمة دون أن يدع الإحساسات الباعثة على الاضطراب تكتسحه.

ومع ذلك، فقد كان الشرب يفيده. كان قد أفرغ كأسه التي تدوم، عادة، نصف ساعة، وأشار إلى غبرييل ليملأها:

– كيف حال ماتيلد؟

كان هناك، دائماً، من يطرح عليه هذا السؤال. كيف ستبدو وجوههم لو أنه أجابهم بهدوء:

- ماتت منذ ستة أسابيع.

نادراً ما كان كاييه هو الذي يستعلم على هذه الصورة لأنه كان، قبل القبعاتي، خطيباً لماتيلد. لم يكن أحد يعرف، بالضبط، لماذا فسخت الخطوبة. جرى ذلك بهدوء قبل زواج السيد لابيه. هل تضاجعا؟ كان الأمر محتملاً. إلا أن أمه كانت قد قالت له:

- فتاة طيبة ذات تربية ممتازة.

كانت فعلاً، قد ربيت في دير الحبل بلا دنس. كان أبوها في الجمارك برتبة عالية إلى درجة كافية. وكانت أمها ميتة.

- لن أكون هنا، دائماً، لأدير البيت.

كانت السيدة لابيه شخصاً صغيراً مغموراً، وكانت تجتاز كيلومترات يومياً لا لشيء سوى العدو بين الغرف، عندما كانت تمر قرب أحدهم، عندما يكون هناك زبون في المخزن، عندما كانت تسبب أدنى ضجة، كانت تتعجل إلى القول متلعثمة:

- عفواً.

كان يشبه أمه أكثر مما يشبه أباه، جسدياً على كل حال. أبوه كان رجلاً هادئاً، قوياً، واثقاً من نفسه.

- أنت تعلم جيداً يا ليون ما قال الطبيب.

قال أنه لم يبق لها وقت طويل. دام ذلك عشر سنوات، عشر سنوات لم يبق خلالها للسيدة لابيه الأم وقت طويل. قال لها ذلك طبيب غبي واستخدمته في نوع من الابتزاز.

- لماذا لا تتزوج ككل الناس؟ أبوك كان في عمرك، متزوجاً.

هل كان أبوه راضياً إلى الحد الذي كانت تحمل على افتراضه؟ على كل حال، لم يكن يتدخل أبداً في هذا النوع من المناقشات التي أصبحت يومية تقريباً، في النهاية.

كانوا يملكون دارة صغيرة في فورا قرب المكسر قرر السيد لابيه، الأب، الذي كان يحب الصيد أن يقيم، فيها، ذات يوم.

- بسببك أنت لن نذهب منذ الآن لنعيش فيها.

- أنت مخطئة. يمكنني، حقاً، أن أتدبر أموري، جيداً، وحدي.

كان ذلك صحيحاً. لم يكن على أبويه سوى أن يدعا له الخادمة التي كانت في البيت منذ عشرين عاماً.

- ألم تلاحظ، أبداً، أن كورتوا الصغيرة مغرمة بك؟

كورتوا الصغيرة كانت ماتيلد التي كان أبوها يرتاد البيت. كانت سمراء، كالسيدة بينه. في ذلك العهد، لم تكن تشبه أرملة بواتييه وإلا لانتبَه ربما إلى ذلك. إلا أنه كان لها البؤبؤان الداكنان جداً، اللامعان جداً ذاتهما اللذان ينظران بإلحاح إلى الناس والأشياء كما لو كان ذلك للسيطرة عليها أو تمثلها.

لماذا انتهى إلى أن قال نعم؟ ربما لأن صحة أمه ساءت، وأن عدة نوبات كانت تصيبها في اليوم. كانت تعاني كثيراً، تنطفئ بمرأى من العين.

- سأمضي وأنا أكثر اطمئناناً بكثير إذا علمت أنك متزوج.

خطب، وماتت أمه قبل العرس بثلاثة أسابيع. فات الأوان. أبوه كان متعجلاً إلى شيء واحد هو الانسحاب إلى بيته في فورا. كان قد اشترى مركباً صغيراً كان يستخدمه في أيام آحاد الصيف.

سأله شريكه حين أتى على الإلقاء بورقة الستة الدينارية:

- أليس لديك ورق طرنيب؟

نظر إلى أوراقه واضطرب:

- عفواً! لدي منه.

- بماذا كنت تفكر؟

- بلا شيء.

كان شنترو يراقبه، بين حين وآخر، خلسة، بعين حادة كما لو أنه قد كلف بوضع تشخيص. كان، على الرغم من لحيته الشعثاء وهندامه غير

المعتنى به، أذكى الجميع، وكان، حتى عندما يشرب، بل خاصة عندما يشرب، مقلقاً في حدة نفوذه.

تردد القبعاتي في طلب كأس ثالثة من البيكون. كان في حاجة إليها. كان يعيش، أمام أصدقائه، مغامرة مروعة. كان هناك، هادئاً جداً في الظاهر، الورق في يده، يبذل جهده في متابعة اللعب، متوصلاً إلى ارتكاب الحد الأدنى من الأخطاء.

وفجأة اندلع شيء فيه: أخذت أصابعه ترتعش وبصره يضطرب، شعر بأنه يتراخى، بأن أعصابه تخونه، بأنه معرض لخطر فادح في بقائه جالساً في حرارة المدفأة، بأنه ينبغي عليه، بأي ثمن، أن ينهض، يتحرك، أن يقوم بحركة محددة.

– غبرييل!

– نعم يا سيد لابيه.

لماذا كان شنترو ينظر إليه؟ ألا يحق له أن يشرب ثلاث كؤوس من البيكون؟ هل كان يبدو سكراناً؟

ربما لم يعد هناك أحد في شقة شارع غارغولو. ذكره ذلك بذكرى مقيتة، عندما مارس الجنس مع امرأة قرب الثكنات، بعد جندي مباشرة. لم يكن لهذا أن يحدث مع الآنسة بيرت. ربما كانت، من بين كل اللواتي عرفهن على وجه الاحتمال، تلك التي كان يمكن لها أن تكون ألطف زوجة. كانت عذبة، مبتسمة دائماً. كانت، غريزياً، تحترم الرجال، ومع ذلك كانت تعرفهم جيداً، كان لديها ما يشبه تسامحاً خفياً. كان طبعها، كبشرتها، ككل منحنيات جسدها، كتماسك لحمها، كالإطار الذي أعَدّته لنفسها.

بعد قليل، سيجد نفسه أمام لويز، في قاعة الطعام التي لم تكن مضاءة جيداً، وحيث كان النور الكهربائي مصفراً دائماً. يجب أن يقاوم لأن الأمر عاد يساوره. كان يرغب في الانتهاء منه. كان ذلك مبهماً. لم يكن يعني شيئاً. كان السؤال هو عما إذا كان الشرب يفيده أم على العكس، يزيد في دواره.

كان يستطيع طرح السؤال على شنترو. كان يرغب في ذلك تقريباً. ما الذي كان يمنعه من أن ينتظر أن يذهب بول، وهو ما لن يؤخره كثيرا، ويخرج معه كما لو كان الأمر مصادفة؟

- قل يا بول!

كان يحق له، قطعاً، أن يطالب باحترام السر المهني. وكان ذلك، إذن، أقل خطراً من الكلام مع كاشودا.

- هناك نصيحة أطلبها منك. في ذات مساء قتلت ماتيلد.

بهدوء، ينبغي، خاصة، أن يشرح له أنه فعل ذلك بهدوء، بأعصاب باردة. كان قد أتى بالضبط على شراء مجلدات محاكمات القرن التاسع عشر المستعملة، من صالة المبيعات. كان قد بدأ بمجلد السيدة لافارج التي لم يكن يعرف قصتها إلا بصورة مبهمة إلى درجة كافية. في كل ربع ساعة، على الأقل، حين يكون جالساً أمام النار، كان يسمع صوتاً جافاً، شريراً، ينادي:

- ليون!

لم يكن يجدي أن يتظاهر بعدم السماع. اللهجة متسلطة. مضى زمن طويل تبنت خلاله، هذه اللهجة، قبل مرضها بكثير، بعد زوجهما فوراً، تقريباً، في الوقت نفسه، تقريباً، الذي أخذت، فيه، تشبه السيدة بينه. ذلك أنه اكتشف، ذات يوم، هذا التشابه الذي لم يبرز له من قبل. كان الصوت ذاته، الثقة بالنفس ذاتها، وكان خاصة، ملامح التملك ذاتها.

ما كاد يبدأ فصلاً ، حتى لفظت، دون أن تتحرك، وهي تكاد أن لا تحرك شفتيها:

- ليون!

كان مرغماً على النهوض. كانت تأخذ وقتها قبل أن تقول ما تريد، كأس ماء حيناً، رفع الغطاء أو تصحيح وضعه حيناً آخر، أو أن يمرر لها وعاء التبول أو إعطاؤها واحدة من أقراصها. كانت تشعر بالحر الشديد أو بالبرد الشديد، أو أيضاً أن الضوء كان يجرح عينيها.

كل ذلك كان زائفاً. كانت تستمتع بالاختراع، تمضي وقتها، منذ أن يعود إلى الجلوس، في اختراع شيء جديد. كانت تلاحقه، وهو يطيعها، بنظرة قاسية، ولم تكن تقول شكراً أبداً. منذ زمن طويل وهي ترتاب فيه، منذ السنة الرابعة أو الخامسة لمرضها، وكانت تزعم أنه كان ينوي أن يسممها ليتحرر منها.

لم يكن هذا، بدوره صحيحاً. لم تكن تصدق ذلك حقاً. كان، أيضاً، اختراعاً لتعذيبه.

– أكلت من جديد بصلاً، عمداً، كي تجعلني أمرض من رائحة نفسك. لا تستعجل لم يبق لي وقت طويل.

كان يندر أن يتوصل إلى قراءة صفحتين دون أن تقاطعه. كان مرغماً على إعادة قراءة المقطع نفسه مرتين أو ثلاث مرات وينتهي إلى الخلط بين الأسماء والتواريخ.

– ليون!

كانت تعلم أن هذا الكتاب يشوقه، ومنذ أن بدأ قراءته، كانت تتفنن في مضاعفة الذرائع.

– أقرأ لي مقطعاً بصوت مرتفع.

كان ينفر من ذلك، خاصة حين كانت تطلب منه إيضاحات حول الفصول السابقة، لا تفهم شيئاً وتجبره على العودة إلى الوراء.

– ليون!

لم تكن ظمآنة. لم تكن تحتاج إلى وعاء التبول. كانت تتظاهر ولهب ماكر صغير في عينيها.

كان مُلْكاً لها! لم تعد تملك سواه في العالم، لكنها كانت تملكه حقاً، وكانت في حاجة إلى أن تتأكد من ذلك باستمرار. وهذا هو السبب الذي لم تكن تريد، من أجله، ممرضة أو خادمة في غرفتها، السبب الذي، من أجله، كانت ترفض رؤية أي كان. كانت تملكه بصورة أفضل هكذا. لم يكن لديه أي عذر ليذهب كي يتنفس، ولو لحظة، هواء غير هوائها.

– ليون!

خلال خمس عشرة سنة لم يقرأ كتاباً واحداً بسلام، وكان هذا، مع ذلك، ملاذه الأخير.

لم يكن قد وصل إلا إلى منتصف قصة السيدة لافارج، بالضبط إلى شهادة الصيدلي الذي باع السم.

– ليون!

كانت الرواية رمادية، دون شعاع شمس. كان كل شيء يجري داخل الجدران الخانقة، وليس هناك شخص واحد يبتسم مرة واحدة ككل الناس.

– ليون!

عند ذلك، نهض ذات مساء، نهائياً، وأغلق كتابه. هل فهمت ما الذي تغير فيه. هل أحست بأنه انتهى، أخيراً، إلى اتخاذ قرار؟

– أنت ترى يا بول، كنت هادئاً جداً، هادئاً بصورة مخيفة. كنت أعلم، منذ وقت طويل أن هذا يجب أن يحصل.

كيف كان يمكن أن تكون ردة فعل الدكتور؟

أتى القبعاتي على كسب شوط صغير، آلياً، بقوة العادة. راح شنترو ينظر إليه من جديد، بصورة ملحة. كلا! لن يفهم. كان ذلك يعني جهداً لا جدوى منه. وفضلاً عن ذلك، لم تكن لحالته أية علاقة بالطب. لم يكن مريضاً، لم يكن مجنوناً. لم تكن لديه أية عاهة.

– غبرييل!

سحقاً! قل تفكيره بلويز التي كانت تذكره بلحاف ريفي ضخم. كان يراها هائلة، كما يكون الأمر عندما يصاب المرء بحمى، عندما يحس بانتفاخ في أصابعه، في يديه، في كل جسده، سنفتح، ويتكون لديه الانطباع بأنه يملأ الغرفة.

ضحك لأن الفتى جانتيه كان في مكانه. لم يكن قد رآه يدخل. كان هناك، يسّود، بوقار، ورقاً على طاولة الرخام.

لا بدّ أنه يعد نفسه شخصية عظيمة.

(٧)

مساء ذلك اليوم، الثلاثاء في ١٤ كانون الأول، بدأ يكتب. لم ينتظر شنترو كي يخرج من مقهى الأعمدة. يذكر أنه فكر وهو يفتح الباب:

– ماذا سيقولون، الآن، وقد أدرت ظهري؟

كان هناك شيء يعرفه ولا يسره. لم يلمح إليه أبداً. وفضلاً عن ذلك لم يكن لذلك سوى أهمية قليلة جداً. عندما كانوا يتكلمون عنه. في غيابه – وقد سمعهم في ذات مرة لم يكونوا يعرفون، فيها، أنه حاضر – لم يكونوا يقولون «لابيه» ولا «ليون» بل «القبعاتي».

لم يكن ذلك يستحق حتى مجرد التفكير فيه، بالتأكيد، كان يمكن أن يجيبوه بأنهم كانوا أيضاً يقولون «الدكتور» و«السيناتور» لكن ذلك كان مختلفاً لأن هاتين الكلمتين كانتا تترددان كلقبي شرف. والدليل هو أنه لم يخطر لأحد أن يقول: «المؤمّن» أو «الطباع»

مضت عشر سنوات، على الأقل، منذ أن عثر، مصادفة، على هذا الاكتشاف الصغير: لم يتحدث عنه إلى أحد، ولم يأخذ عليهم ذلك، مما يدل على أنه لم يمس.

كان شارع ميناج خالياً بصورة بشعة، دون صوت، دون خطوة أمامه أو خلفه. كان للنور الفج على نافذة الخياط الصغير، شيء حزين.

فعل ما كان يجب عليه أن يفعل، ولكنه فعله، للمرة الأولى، من فوق، بازدراء متعال، ناطقاً بالكلمات دون أن يصدقها، كما يستمر بعضهم في تلاوة صلواته.

– هل نادت السيدة؟

لم تكن الفتاة القذرة تحتاج إلى أن تخاف: فهو لن يمسها. كان واثقاً من نفسه الآن. مهما حصل، فليست هي التي سيحمل عليها.

صعد، تكلم من طرف شفتيه، لم ينس أي طقس. بدل موضع مقعد ماتيلد. ذهب ليلقي نظرة من النافذة وتلقى صدمة عندما رأى، في الورشة المقابلة، السيدة كاشودا تتحدث مع الدكتور مارتينز.

لم يكن كاشودا في الغرفة. لا بدّ أنهم وضعوه في السرير. يجب أن يكون الأمر خطيراً ليستدعي هؤلاء القوم الدكتور. تذكر ولادة أصغر الأبناء قبل أربع سنوات. لم تصل القابلة إلا عندما انتهى كل شيء. كان يرى جيداً، أنها تتكلم بصوت خافت، أنها تطرح أسئلة وأن الدكتور مارتينز - من جيل ما بين الأربعين والخمسين - يجيب بارتباك.

هل سيموت كاشودا؟ خاف السيد لابيه من ذلك إلى حد كاد معه حقّا أن ينزل لينتظر الدكتور في الطريق ويسائله بدوره.

مرة أخرى، وبعد انصراف مارتينز أرسلت استير إلى الصيدلية، مع وصفة هذه المرة، ورأى تردد الفتاة، وفهم، فجأة، أنها كانت تخاف من الخنّاق. كان ذلك بلا معنى. كان يود أن يصيح بها بأنها ليست عرضة لأي خطر.

أكل. صعد بالصينية. ألقى بطعام ماتيلد في المرحاض وسحب طارد الماء عدة مرات. كان مشغول البال. كان تعبير وجهه، كل الوقت، تعبير رجل لديه مهمة ساحقة، مسؤولية كبيرة.

ربما لاحظت لويز أن رائحة الكحول تنبعث منه. ألم تعترف بأن أباها كان يسكر كل يوم أحد وأنه كان ينبغي في معظم الوقت حملُهُ إلى سريره بكامل ملابسه والاكتفاء بسحب حذائه الضخم من قدميه؟

لم يكن ينبغي نسيان شيء. لم ينسَ شيئاً. نزل إلى القبو وجلب زجاجة كونياك أخرى، وأرغم على الاقتراب أقلّ من مترين من ماتيلد، لكنه لم يفكر في ذلك. وبعبارة أصح، فكر في ذلك في قفص الدرَج وهو يصعد ثانية.

لاحظ أنه لم يكن يثير، فيه، أي انفعال أن ينزل إلى القبو، أو أن يتذكر ما حدث في ٢ تشرين الثاني، غداة عيد جميع القديسين.

لو كان اتبع الطقوس بدقة، لكان بدأ، بعد وضع الحطب في المدفأة وارتداء ثوبه المنزلي، باقتطاع حروف مطبوعة ليرد على مقال الجريدة. لكن ذلك كان عبثاً كلياً! لم يكن يستطيع أن يقول شيئاً، تقريباً، بهذه الصورة.

دار حول نفسه مثل كلب يبحث عن مكان يلقي بنفسه فيه. دخن غليوناً كاملاً تقريباً دون أن يثبت في موقع، ذهب مرة أخرى، لينظر من النافذة ورأى المرأتين، السيدة كاشودا واستير جالستين قرب طاولة الخياط وتتحدثان بصوت منخفض وتلقيان، من وقت إلى آخر، نظرة قلقة على الباب الداخلي.

عند ذلك، جلس أمام المكتب الصغير، أخذ ورق رسائل من الدرج، ورقاً يحمل اسم مخزن القبعات، وهو ما كان يثبت أنه كان، بعد الآن، يسخر من الاحتياطات. سكب لنفسه كأس كونياك وغمس، فيها، شفتيه قبل أن يكتب.

«لا أهمية لما سوف يقال وما سوف يجري التفكير فيه.......»

لم يكن ذلك صحيحاً على اعتبار أن كان يتجشم عناء الإمساك بالقلم. ولم يكن زائفاً، كلياً، كذلك. رسالته لم تكن موجهة إلى أي كان. لكنه، مثلاً، لم يكن يريد أن يرحل الخياط من دون أن يعرف.

كان ذلك معقداً إلى أقصى حد، وكان يعاني من رأسه، كان رأسه يؤلمه طيلة النهار. اضطرب عندما رأى كتابته. كانت الحروف غير منتظمة، وكان بعضها يتداخل بسبب الكحول، احتمالاً، وبسبب ارتعاش أصابعه.

كان الجو في الغرفة حاراً كالعادة. إلا أنه كان يتلقى نفحة باردة على خده الأيسر لأنه كان على مسافة متر من النافذة، ولأن الزجاج كان جليدياً.

ما كان يجب البرهان عليه، بوضوح، هو أنه تصرف، حتى الآن بصفاء ذهن، عن وعي تام للأمر. ظن أنه قد وجد الجملة:

«تحملت مسؤولياتي ومازلت أتحملها».

لم يكن هذا صحيحاً تماماً بدوره. فليكن أنه قد تحملها. ولكن هل كان واثقاً من تحملها في المستقبل؟ ألم يكن هذا، على وجه الدقة، ما يخيفه؟ مهما قيل، فقد تحمل، طيلة حياته، مسؤولياته بهدوء. لم يكن صحيحاً تماماً أنه أصبح قبعاتياً بسبب هذه «البينيت» التي كان يكرهها كراهيته للويز تقريباً.

سوف يشرح هذه النقطة. كلا، هذا يعني الرجوع إلى زمن أبعد مما ينبغي. لن يعود ينتهي من ذلك. هذا لم يكن يهم سوى بضعة أشخاص. كان يفهم نفسه. كان الأمر واضحاً جداً في ذهنه. ما الذي جرى، مثلاً، لفتيات الصورة، للخمس عشرة اللواتي تخرجن، في السنة نفسها، من دير الحبل بلا دنس؟ بعضهن رحلن وبقيت أخريات. كانت بينهن من تزوجت وأخريات بقين عازبات.

إحداهن تخلت عن الدنيا، حالاً، من تلقاء ذاتها، بكامل رضاها ودون أن يرغمها على ذلك أي شيء خارجي. إنها هي التي كانت في الدير باسم الأم المقدسة أورسولا.

حسناً! بالنسبة للرجال، حدثت الظاهرة نفسها، تكررت في كل جيل. كان مؤسفاً أن لا توجد صورة لزمرة من بلغوا، الآن، عمر الستين.

هناك، من جهة، أمثال شنترو وكايبه وجوليان لامبير والسيناتور لودو ولوسيان أرنو وبضعة آخرين لم يكونوا يرون في مقهى الأعمدة ولا يصادفون إلا نادراً، ولكنهم ظلوا أوفياء للمدينة.

وهناك، من جهة أخرى، من رحلوا ليجربوا حظهم في بوردو وباريس وغيرهما. بل إنه يذكر بينهم من أصبح شخصية عالية جداً في إدارة الهند الصينية.

بعضهم كان يعود إلى الظهور بين وقت وآخر، لمناسبة زواج أو جنازة، ليروا أسرهم التي بقيت في المدينة. كانوا، عامة، يطلون إطلالة قصيرة على مقهى الأعمدة. وكان يبدو عليهم أنهم يريدون إحاطة أنفسهم بهالة. تصرفاتهم كانت، في وقت واحد، أليفةً وقصيّة، كانت بالمختصر متنازلة.

- إذن، كيف حال مدينتنا القديمة الطيبة؟

كان ذلك يصدر، خاصة، عن الذين نجحوا، الذين كانت تنشر أخبارهم، أحياناً، في الصحف. كانوا يتنهدون:

- لديكم الحياة الطيبة هنا!

يقولون ذلك وهم حريصون على أن يفهم أنهم لا يؤمنون بذلك. كان بينهم محام أصبح اختصاصياً مشهوراً في علم الجريمة وكانوا يتحدثون عنه بوصفه نقيب المحامين المقبل.

أتيح الاختيار للسيد لابيه أيضاً، لكنه اختار مخزن قبعات شارع ميناج. وبالمناسبة، كان بعضهم يتصور أن ذاك كان البيت الذي ولد فيه. كان ذلك غير صحيح. لقد ولد، حقاً، في شارع ميناجٍ، في بناء شبيه تماماً بذاك الذي كان يسكنه الآن، لكنه يبعد عنه خمسين متراً، وكان في الثامنة من عمره حين بدل أبواه سكنهما.

أثارت مدام بينيه اشمئزازه، مثلما باتت لويز تثيره بعد أربعين سنة. ومع ذلك، كان يستطيع أن يبقى في بواتييه، على الرغم منها، أو حتى أن يذهب إلى باريس.

اختار لاروشيل. لم يكن ذلك خوفاً من النضال. لم يكن يخاف، لم يكن يخاف من شيء.

من الذي اختار أن يؤدي خدمته العسكرية في سلاح الفرسان، في حين لم يكن قد مس جواداً خلال كل طفولته؟ كان هو. بل إنه استبق الاستدعاء ليستطيع أن يختار السلاح.

ومن الذي طلب، خلال حرب ١٩١٤، أن ينتقل إلى الطيران. كان هو أيضاً، ليون لابيه. عندما اندلعت الحرب، وبعد عمليات نقل غامضة، ألحق بلواء مشاة. عرف الخنادق. عانى منها في الوحل، في الحشد، في الكتلة الغفل التي كانوا يحركونها كأنها مادة.

عندما أصبح طياراً، لم يخف أبداً: كان لا يكاد يتنازل وينشّط نفسه بكأس كحول عندما يذهب في مهمة، بمفرده في طيارة مقاتلة.

كان يعيش في عالم على حدة، مع نخبة. كان لديه وصيف يعنى به، بثيابه وبحذائيه.

لم يصبه حتى جرح، كانا أفضل عامين، في حياته، تناغماً.

ولكنه لن ينتهي إذا عاد إلى ذلك العهد على الرغم من أنه كان يرى ذلك ضرورياً لملفه. كتب على ورق مخزن القبعات، وهو يسمع لويز تصعد لتنام:

«لقد اخترت عن تصميم دائماً، وأنا مستمر، وسوف أستمر في الاختيار».

ما لم يفعله لم يكن يسمى تخلياً عن المعركة، أو تراجعاً أو انسحاباً.

على العكس من ذلك، بقدر ما كانت تنقضي السنين كان هو الذي يبتسم بمزيد من الازدراء عندما كان يرى جماعة باريس يعودون لبضعة أيام إلى البلد ويخيل إليهم أنهم مرغمون على التظاهر.

كان يعلم جيداً أنه كان على صواب، أنه سلك الدرب القويم.

«فيما بعد، اخترت أن أتزوج».

كان ذلك صحيحاً، تقريباً، أيضاً، لأنه تلزم امرأة للبيت، ومن الباعث على الاشمئزاز أن يذهب الرجل، من وقت إلى آخر، ليرتوي حيثما كان. في ذلك العهد، لم تكن هناك آنسة بيرت في شارع غارغولو، وكان يجب الانحدار إلى مستوى هابط جداً، في القذارة.

لم يكن قد اختار ماتيلد. كان ذلك، أيضاً، غير صحيح. اختار أن لا يتصارع مع أمه، اختار أن يرضيها لأنها كانت مريضة، لأنه كان يرى أن الفرق بين فتاة وأخرى لم يكن يستحق أن يضيع وقته ويؤلم الآخرين من أجله.

بعد أن أسس نادي الطيران المدني - لأنه هو الذي أسسه - اختار أن ينسحب منه لأنهم سموا تاجر السلاح بوران رئيساً له، معتذرين منه، لأن بوران الغني والمتكبر، كان قابلاً لأن يغذي الصندوق بسخاء.

كان يستطيع أن يكون أميناً عاماً، نائباً للرئيس. فضل أن لا يكون شيئاً. لم يكن ذلك عن غيظ ولا نقصاً في القتالية. لو تحمل عناء القتال ضد بوران لانتصر. كان هو، وهو وحده، الذي حكم بأن هذا لم يكن يستحق العناء.

كان من المستحيل، تقريباً، أن يعرض هذا الشعور البالغ القوة في سريرته الداخلية. كان يحس، يرى ما يشبه خطاً متصلاً في حياته، كان يستطيع أن يرسمه بطرف ريشته. إلا أن الكلمات كانت تشوش كل شيء، تقول أكثر مما ينبغي أو لا تقول ما يكفي.

وبدأت البهيمة القذرة لويز جلبتها اليومية المقرفة: كانت، وحدها، ضمن مساحة ثمانية أمتار مربعة، تحدث من الجلبة بقدر ما يحدثه كل جنود مهجع. كان يسمع صوت وقوع فردَتَيْ الحذاء، واحدةً بعد الأخرى، على الأرضية، كان يمكن تخمين الثوب الذي كانت تُدخله من رأسها، وهي تلهث ووجهها الذي يخرج من هذه الحركة أحمر تماماً، بل كان يظن أنه يراها تفرك ثدييها بعد خلع حمالة صدرها، ثم الخط الأحمر الذي كان مطاط سروالها يتركه على خصرها.

كان اختياراً، أيضاً، أنه لم ينم معها. كان يستطيع ذلك. من يعلم ما إذا كان هذا هو ما انتظَرَتْه دوماً؟ كان يمكن أن تستسلم منصاعة. وهي، بلا شك، لم تكن تفهم لماذا لم يأت إليها.

كان قد أحس بأنه كاد يفعل في البداية، وكان لايزال ينقم على نفسه لهذا الإغراء.

كانوا يدعونه «القبعاتي» كما لو كانت تلك شتيمة، كلمة مضحكة على كل حال، شيئاً هازلاً.

إلا أنه اختار كل شيء دائماً. وبالتالي، فقد كان، هو، الأقوى، أليس كذلك؟

اختار، أيضاً، أن ينتهي من ماتيلد، ولم يحس بالانفعال أمام جثتها، لم يشعر بأي تبكيت ضمير. لم يضعف لحظة حين كان يضغط عليها وكانت تنظر إليه بذهول أكثر مما كانت تنظر بخوف.

ربما كان ذلك، في الحقيقة، مقرراً، خفية عنه، منذ زمن طويل جداً. كان قد قال لنفسه:

– إذا تجاوزت الحدود.....

كان قد وضع هذه الحدود بعيدة جداً، من أجل أن يمنحها فرصة. صبر خمس عشرة سنة. ترك الخيط سائباً إلى حد ظنت، معه، أن كل شيء كان مسموحاً لها به.

لم يقض عليها بسبب السيدة لا فارج، بل لأنها بالغت.

كانت لويز التي كانت جديدة في البيت لا تزال تنام في غرفة استأجرها لها في المدينة، سقيفة في ميدان السوق، فوق مخزن أقمشة.

بعد ذلك، كانت لديه ليلة كاملة، وقد أخذ كل وقته من أجل أن لا يدع شيئاً للمصادفة.

لم تكن أرضية القبو مفروشة بالاسمنت، كان أكثر من ثلث المساحة، تحت الكسوة مغطى بالفحم.

تجشم عناء ليهيئ جزئياً على هذه المساحة ويحفر الأرض إلى عمق ما يقرب من متر. كان قد أنزل جثة ماتيلد على ظهره، وهو ما لم يكن سهلاً في السلم الحلزوني، ثم عاد إلى الصعود ليجلب غطاء من الغرفة، بدافع الحشمة.

بل إنه لم ينس، وهو يعمل، أن يسد الكوة لأنه يمكن أن يُدهَش أحد من رؤية الضوء في القبو طيلة الليل. في الساعة الخامسة صباحاً، كان الأمر قد انتهى، كان الفحم قد عاد إلى مكانه وفتحت الكوة. غسل درجات السلم واحدة واحدة، ثم نظف ثيابه في المغطس.

في تلك البرهة، كان يظن أن مهمته قد انتهت. أوقف احتياطاته، وهو ما كان سهلاً على اعتبار أن ماتيلد لم تكن تريد أن ترى أحداً، ولأنه كان، منذ سنوات، الكائن البشري الوحيد الذي كان يدخل إلى الغرفة.

«سيدعي بعضهم أني أردت أن أتحرر. هذا غباء».

كان يعلم، قبل أن يتصرف، أنه لن يكون أبداً أكثر حرية من ذي قبل، على اعتبار أنه سيكون عليه أن يتصرف كما لو أنّ زوجته على قيد الحياة، وبالتالي أن ينجز، يومياً، الحركات نفسها، أن يبقى في بيته في الساعات نفسها.

لقد جاوزت الحدود، ولم يكن هناك شيء آخر يقال.

في اليوم الأول، كان مرحاً تقريباً. فقد كان طريفاً أن يصعد بالوجبات ويلقي بالطعام في المرحاض، أن يستمر في عدم أكل الأسماك لأن ماتيلد لم تكن تتحمل رائحتها، أن يشد حبلاً لتقليد صوت عكاز على الأرضية، أن يدفع بالرأس الخشبي إلى أمام النافذة ويتكلم بمفرده وهو يروح ويجئ في الغرفة.

- هل نادت السيدة؟

لم يشك فالانتان في شيء، ولا لويز أيضاً. على كل حال، لم تدع شيئاً يظهر عليها.

اليوم الخامس هو الذي توقف، فيه، أمام صورة المجموعة. كانت لا تزال معلقة على الجدار في تلك البرهة. عند ذلك، وخلال لحظة، خانته أعصابه، أصبح شاحب اللون، خاف حقاً.

ذلك أنه لم يكن صحيحاً، تماماً ،أن أحداً لم يكن يدخل الغرفة.

كان تقليداً، منذ أن لازمت السرير، أن تزورها، في عيد ميلادها، في ٢٤ كانون الأول، رفيقاتها في المدرسة الداخلية اللواتي كن لا يزلن يعشن في المدينة ويقدمن لها تمنياتهن وهداياهن.

لم يعدن سوى عجائز، عوانس، ومع ذلك كن، في ذلك اليوم، يغردن كتلميذات صغيرات.

كان عليه أن يواجه الموقف بأعصاب باردة. كان يستطيع أن يذهب لرؤيتهن، الواحدة بعد الأخرى، قبل عيد الميلاد ببضعة أيام، ويعلن لهن أن ماتيلد لم تكن في حالة جيدة وتفضل أن لا ترى أحداً.

كان يجب أن يعاود في السنة التالية، ثم في السنوات الأخرى إلى أن يمتن جميعهن، وكان ذلك مهدداً، في نهاية الأمر، بأن يبدو غريباً.

كان أمامه ستة أسابيع. كان يعرف تاريخ كل منهن وعاداتهن. كان ذلك الحديث الوحيد لماتيلد تقريباً. عندما تكون في حالة طيبة، كانت تروي، بلا نهاية، قصص الدير بحماسة كما لو كان ذلك قد حدث في الأمس. كان يتفق لها، أيضاً، أن تحلم بالأم المقدسة جوزفين بعد أكثر من أربعين سنة.

- هذا الليل، حلمت بأن ماري لانج كانت تقول لي.......

كانت غالباً ما تقفز من الماضي إلى الحاضر دون مرحلة انتقال.

- أتساءل عما إذا كانت روزالي كوجا سعيدة. في هذه الساعة، يجب أن تكون في مخزنها في سوق العقادين.

فكر كثيراً. أكثر ما فاجأه لدى موت ماتيلد هو السرعة التي تم بها ذلك.

الأخريات كن في صحة جيدة بالتأكيد. ولكنهن كن في العمر نفسه تقريباً. انقضت عليه عدة أيام قبل أن يفكر في وتر الفيولونسيل الذي ذهب ليحضره من الطابق الثاني مروراً بالزقاق الضيق. كان قد اختار. لم يختر، بجبن، أسهل الدروب. كان قد واجه كل الاحتمالات وما قرره لم يكن محبباً على نحو خاص.

كتب حوالي الساعة العاشرة والنصف مساءً:

«أقسم على أنني لم أجن أية متعة غير سوية»

لم يكن سكراناً. كان مقتنعاً بأن لا علاقة للكحول فيما كان يحسه. والدليل على ذلك أنه أحس به منذ الصباح، بل وفي مساء الأمس على رصيف دوبيريه، في حين كان الخياط الصغير في أعقابه.

خطرت له مقارنة، سجلها لأنه كان يعتقد من المفيد، بعد الآن، أن يسجل كل شيء. كان يعلم أن الأمور ربما لن تكون، في الغداة، بمثل هذا الوضوح في ذاكرته.

إلا أن المسألة كانت بالضبط مسألة وضوح. عندما كان صغيراً، كانت له عينان قويتان جداً. وكانت الصور بالنسبة إليه، إذن، جلية تماماً، وكل شيء كان يرتسم بدقة، حدود الأشياء، الألوان، أدنى التفاصيل.

في ذلك العهد، كانت لا تزال لديه جدته - والدة أبيه - وكانت تضع نظارتين بإطارين من فضة. كان زجاجها سميكاً كعدستين مكبرتين، وكان يتسلى، أحياناً، بوضعهما أمام عينيه، وفي الحال، كانت الأشياء تغدو غائمة وتتغير أبعادها ويكتشف العالم كما لو كان ذلك عبر نقطة ماء.

حتى حادثة الأسقفية - غياب الحادثة، في الواقع، لأنه لم يجر شيء - كان كل شيء كامل الوضوح، بل وأكثر وضوحاً من السابق، مع ألوان فجة، بياضات وسوادات ذات حدود قاطعة، خطوط كما لو كانت مرسومة بالحبر.

كان يمضي في دربه بصورة مستقيمة، يفعل ما قرر أن يفعله، ولم يكن، أبداً، في حاجة إلى الشرب ليوطد رباطة جأشه، وهذه الكلمة، بالذات، لم تكن تخطر في ذهنه.

عندما كان يعود، كان يمحو، في ذهنه، اسماً من اللائحة، رأساً من الصورة متذوقاً مسرة كونه قد أنجز مهمة.

وصل، الآن، إلى اعتبار هذه الفترة من حياته إحدى أسعد الفترات، أكثرها امتلاء، وربما كانت تعادل، في زمنها، تلك التي أمضاها في الطيران حين كان أيضاً يعد بهدوء الطائرات المعادية التي يسقطها والسعفات على صليبه الحربي.

وكما في الطيران، كان يلامس، دون انقطاع الخطر. كان يجب أن يفكر في كل شيء، أن يمتلك ارتكاسات متينة، أن لا يدع شيئاً للمصادفة.

وكما في أثناء الحرب، أيضاً، كان يقول لنفسه:

- في بضعة أسابيع سوف ينتهي كل شيء وسوف أكون مطمئناً.

لم تكن لديه كوابيس، لم يكن مضطرباً. تعود على شيء من الحمى كان يساوره في برهة الخروج في إحدى حملاته، على انطباع الارتياح الذي كان يحس به عندما يعود بعد ذلك إلى بيته.

هل كان سيصبح كذلك، أيضاً، الآن لو كانت الأم المقدسة أورسولا قد خرجت يوم الاثنين كما كان يجب أن تفعل، ولو استكمل لائحته؟

كتب بحركات متقطعة من يده التي لم يكن قادراً على التحكم فيها:

«لا شيء تغير على اعتبار أن موتها، في الواقع، غير ذي فائدة. إنها لم تدخل، أبداً، إلى المنزل. في ٢٤ من هذا الشهر، ستكتفي، كالسنوات الأخرى، بإرسال تمنيات وصورة دينية. وكنت أنا، دائماً، الذي يرد، باسم ماتيلد، لشكرها.

وليس لدي، من جهة أخرى، أي سبب للنقمة عليها، ليست لدي أية مصلحة في موتها.

وبالتالي، فقد انتهت مهمتي. أنجزت، بالضبط، ما فرضته على نفسي».

لم يكن ذلك صحيحاً، وهذه النقطة هي التي كان يضطرب عندها، يذقب، نوعاً ما، في زوايا نفسه، قلقاً، غير مرتاح في جلده.

كان مرغماً، الآن، على الشرب ليحتفظ برباطة جأشه، كي لا يحس، مرة أخرى، بأعصابه تنثني، ليتجنب هذا الهلع الداخلي الذي لم تكن له أية علاقة بالخوف.

ذلك لأنه لم يكن يخاف من شيء، ولا حتى من أن يعتقل. سيكون هذا، على العكس من ذلك، فرصة لكي يفصح عما يريد قوله. ينبغي أن يستمعوا إليه، وسيأخذ كل وقته. اتفق له، أحياناً، أن يرغب، عمداً، في ارتكاب زلة كي يلامس الخطر كما كان قد طار، بطائرته، على مستوى الأرض، فوق الخنادق المعادية على الرغم من الأنظمة.

ما كان يجب الإلحاح عليه، ما كان هاماً، أكثر أهمية من كل شيء في العالم، هو أنه بقي صافي الذهن.

لماذا، إذن، تعطلت الآلية، فجأة، دون سبب؟ لم يكن لديه أوهام. اعتبَر هذا بداية نزلة برد، لكن ذلك لم يكن صحيحاً. كان فالانتان مزكوماً، وكان كاشودا مريضاً. أما هو فلا........

ومع ذلك، فقد بدأ العالم حوله يشبه ما كان يراه، سابقاً، من خلال نظارتي جدته.

لم يكن قد ذهب إلى منزل الآنسة بيرت بحالته الذهنية المعتادة. كان صريحاً مع نفسه: عندما ذهب لم تكن لدي أية رغبة في ممارسة الجنس، لم يكن قد قرر، كذلك، أن يفعل شيئاً آخر ولم يأتِ بوتر الفيولونسيل.

كان ذلك، بالضبط الشيء الخطير. الأمر نفسه كان مع لويز. لم يفعل شيئاً للويز، كان مقتنعاً بأنه لن يفعل لها شيئاً، لكن الإغراء كان باقياً، لا في ذهنه الذي كان يسخر من هذه الفتاة الضخمة البلهاء، بل في ما يعلمه الله من ثنايا لحمه.

كان جانتيه قاسياً في روايته لأقوال طبيب ليون النفسي:

«لن يتوقف عن القتل إلا حين سيقبض عليه».

لماذا؟ هذا الرجل لم يره قط، لم يكن يعلم عنه شيئاً، وكان يسمح لنفسه، من بعيد، من فوق، بالحسم في مصيره بثقة شيطانية.

نهض وذهب لينظر من النافذة، وكان لايزال هناك نور تجاهه. كانت السيدة كاشودا وحيدة، تغفو على مقعد الخيزران. وعلى طاولة الخياط وضع منبه.

كان الأمر إذن خطيراً أو أن هناك دواء يؤخذ بفواصل منتظمة. ربما كان مصاباً بالتهاب رئوي: كان السيد لابيه واثقاً من أن الخياط الصغير رفض أن ينقل إلى المستشفى.

هؤلاء الناس يتشبثون ببيوتهم، يولدون ويموتون فيها.

لماذا كانت فكرة موت جاره المحتمل تصيبه بالذعر؟ لم يكن كاشودا يفيده في شيء. كانا لا يكادان أن يكونا متعارفين. وها هو يبدو متشبثاً به.

كان هناك شيء مختل، كل شيء كان مختلاً.. أقسم، ثلاث مرات، هذا المساء على أنها الكأس الأخيرة التي يشربها قبل أن ينام، وفي كل مرة كان يصب لنفسه كأساً أخرى.

ترك النار تنطفئ، ملأ بالكتابة صفحتين كان مرآهما يسبب له توعكاً. متى بدأ بالكتابة بهذا الشكل الرديئ، بحروف ناقصة وأخرى متداخلة؟ كان قد سمع عن علم الخطوط. نوقش أمره في مقهى الأعمدة. تذكر أن بول شنترو قال:

- يبالغون كثيراً، لكن هناك شيئاً من الحقيقة العلمية. الذين يدعون اكتشاف الماضي والمستقبل في الخط دجالون أو سذج. ومع ذلك، فمن المؤكد أنه يمكن أن يميز فيه طبع رجل، وحالته الصحية غالباً. إن مريضاً في القلب لا يكتب كمصاب بالسل مثلاً.

لا أهمية لما قاله، فالسيد لابيه لم يكن مريضاً قط، خارج التهابات الحلق السنوية، ولم يكن مريض قلب. لقد تمّ فحصه فحصاً معمقاً قبل ستة أشهر.

لن يشرب بعد، لأن ذلك كان خطراً، وكان يتلف له أعصابه، وبالفعل، فإن شنترو نظر إليه، في المقهى، بصورة غريبة.

على اعتبار أن مهمته قد انتهت، فلن يقرأ، بعد، الصحف. كان جانتيه يستطيع أن يواصل المماحكة حول حالته. أما بالنسبة للصحفيين الآخرين فسوف ينتهون، لكونه لن يحدث شيء بعد، إلى الملل. ذلك أنه قد جاء من باريس ستة أو سبعة منهم أقاموا في «فندق الأجانب» واختاروا مقهى البريد، تجاه البلدية، مقراً عاماً لهم.

وبما أن الوقت قد طال، فقد رحل بعضهم، لكنه يجب أن يكون قد بقي منهم ثلاثة على الأقل، بينهم مصور كان يصادف، في الطرقات، مع آلته على بطنه، وغليون ضخم.

وكان هناك، أيضاً، مراسِلَيْ جريدة من بوردو وجريدة من نانت، لكن هذين كانا يسكنان المدينة ويمضيان معظم أوقاتهما في بار قرب الساعة الضخمة. وكان الاثنان يعرفان السيد لابيه ويحيّيانه باسمه.

كان يكفي أن يصمد. كل ما أتى على كتابته كان غبياً. لم يكن يفسر شيئاً. لم يجد الكلمات. خيل إليه أنه سيكون أوضح إذا ركز على بعض المقاطع، لكن ذلك لم يكن يعني شيئاً لسواه. سيعاود الكتابة، سيأخذ الأشياء من بدايتها، بهدوء، مستريح الذهن.

يحتمل أن لا يقرأه أحد أبداً. لم يكن لذلك أهمية. كانت تلك أموراً كان يحتاج إلى أن يقولها ولو لم يكن ذلك إلا لنفسه.

ما أن أتت النار على الانطفاء حتى اكتسح البرد، الغرفة، وبالكاد انتبه القبعاتي إلى أنه يذرع أرض الغرفة ويداه في جيبيه، وأن عقارب المنبه كانت تدور وأنه جاوز ساعته منذ وقت طويل.

هل كان هادئاً إلى حد كاف؟ شرب أيضاً جرعة وأحس بنفسه في حال أفضل. كان يتزايد اقتناعاً بأن كل شيء سيتدبر. الخياط الصغير سوف يشفى. ربما سيتحدث إليه، ببساطة، ببساطة كبيرة، ذات يوم.

سيقول له ليطمئنه، ليعيد إليه السلام:

– *هل تعرف يا كاشودا؟ انتهى كل شيء، لم يعد ينبغي التفكير فيه.*

الغريب هو أنه كان يبدو له أن الخياط الصغير مرض بسببه وأشعره ذلك بالندامة. كان يود أن يحصل على أخباره. ما الذي يمنعه من أن يذهب غداً للسؤال عنه؟ كانا جارين يتبادلان التحية كل صباح عبر الشارع. عندما سيقرع الجرس، ستنزل السيدة كاشودا.

ثم ستذهب لتقول لزوجها:

– القبعاتي جاء ليسأل عن أخبارك.

سيشعر كاشودا بالخوف. الله يعلم ماذا سيتصور. كان ذلك مستحيلاً. لم يكن ينبغي أن يقدم عليه.

لم يعد ينبغي أن يفعل شيئاً سوى الالتزام بجدوله اليومي، بالحركات التي فرضها على نفسه سوى أن يتبع جدوله بدقة، هذا كل شيء.

أصاخ السمع، كانت الزجاجة، بالضبط في يده. كانت آخر جرعة. غداً سيلقي بالكونياك في القمامة ولن يشرب سوى كأسي البيكون اليوميتين، أثناء لعبه البريدج.

أحدهم كان يمشي في البيت. كان صوتاً غير مألوف. كان هناك حفيف على الباب. قال صوت قبيح:

– ألا تستطيع أن تدع الناس ينامون؟ ماذا بك لتتنزه طيلة الليل كحيوان؟

بقي لحظة جامداً، جامداً تماماً. لم يكن بعيداً عن الباب. لم يكن عليه سوى أن يمد ذراعه ليدير المفتاح في القفل.

– لا ينبغي، خاصة، بأي ثمن، أن أفعل!

فعل ذلك، فتح الباب تماماً ورأى في إطاره بالضبط كلوحة، لويز التي لم تكن مضاءة جداً والتي كانت في قميص قطني أبيض، شعرها على ظهرها، حافية القدمين – لم يكن لخطواتها الوقع المعتاد نفسه لأنها كانت حافية.

كانت الزجاجة لا تزال في يده. والزجاجة هي التي حدقت، فيها، بدهشة، ثم حدقت في وجه القبعاتي. لم تكن خائفة بعد. وبما أنها كانت دون

ماكياج، فقد كانت لها شفتان غريبتان شاحبتان. وكان ثدياها، تحت قميص النوم، منتفخين كضرعي بقرة.

لم يتحرك. كان جامداً تماماً، وربما لم يتنفس خلال كل هذا الوقت. كانت ترى الغرفة وراءه وانزلقت نظراتها على السريرين الخاليين وتوقفت على المقعد، على الرأس الخشبي.

عند ذلك، فتحت فمها إلى أقصى حد من أجل صرخة لم تخرج. يجب أن تكون قد أرادت الهرب بكل سرعة، شعر بذلك. لكنها لم تكن تستطيع أن تتحرك أيضاً.

كان هو أول من انتزع نفسه من جموده. تحطمت زجاجة الكونياك على الأرضية.

بدلاً من المقاومة، سقطت لويز مرتخية تماماً، ووقع فوقها، رأسه على المنبسط وإحدى قدميه عالقة بين قضبان قفص السلم. كانت لا تزال حارة ودبقة. كانت لإبطيها رائحة قوية. أمسكت إحدى يديها بأذن القبعاتي كأنها كانت تحاول انتزاعها.

ترنح عندما نهض. لم تتيسر له القوة لأكثر من أن يدخل الغرفة، ويرتمي على حافة سرير ماتيلد دون أن يعيد إغلاق الباب. لم ينظر إلى الساعة، لم يعرف، أبداً، كم من الوقت دام ذلك، حصل لديه الانطباع بأنه يتدحرج نحو قعر هاوية، كما في كابوس، وكان يحدّق في السجادة ولم يجرؤ على رفع رأسه.

أول إحساس محدد شعر به كان إحساساً عنباً وفاتراً. الدم الذي يسيل من أذنه الممزقة كان ينزلق على عنقه ويدغدغه.

حرك رأسه قليلاً ورأى قدمي لويز الحافيتين وساقيها وبطنها العارية وقميصها الممزق.

كانت زجاجة الكونياك حطاماً.نهض متراخي الجسم، أسرع إلى الحمام ليشرب كأس ماء وتسنى له، بالضبط، الوقت لينحني على الحوض ليتقيأ.

(٨)

هذا الصباح، أيضاً، لم يستطع أن يهتف عبْر الطريق:

- نهارك سعيد كاشودا.

لم يكن وضع الخياط الصغير، دون شك، أفضل. إذا كانت الصغيرتان قد ذهبتا إلى المدرسة، فلم يكن يبدو على البكر، استير، أنها كانت تستعد للذهاب إلى المخزن. فهي لم تكن، في الساعة الثامنة والنصف قد بدأت في ارتداء ملابسها، وكانت ترتب البيت في حين كانت أمها، دون شك ترتاح.

كان ذلك يوم السوق الصغيرة، كانت تسمع ضجة من جهة السوق المغطاة. وفي شارع ميناج، كانت هناك بعض العجائز، ذاتهن دائماً، في الأمكنة ذاتها، مع كرسي نقال، وبعض سلال الخضار، كستناء وطيور حية.

عندما وصل فالانتان، كان السيد لابيه ينهي كنس المخزن ودفع النفايات إلى الطريق من الباب المفتوح.

لم يلاحظ المستخدم شيئاً غير طبيعي. قال له معلمه بصوته الوقور - كان له صوت جميل:

- نهارك سعيد يا فالانتان. كيف حالك؟

ونظر إليه باهتمام. رد الفتى الأصهب قائلاً:

- أعتقد أني في حال أفضل يا سيدي. أسعل قليلاً هذا الصباح، لكن أمي تقول أن ذلك يخرج عن طريق الحنجرة.

كان كل شيء منظماً في البيت. كانت مدفأة الغاز مشتعلة. كان السيد لابيه هادئاً، أقرب إلى العطف، وهو ما كان يتفق له بين وقت وآخر. كان،

في تلك الأيام يبدو أبوياً مع فالانتان، يتحدث بصوت أكثر عذوبة ويتفنن أحياناً، في إضحاكه.

كان حليق الذقن كعادته، يرتدي قميصاً نظيفاً وينتعل حذائين لامعين وربطة عنق معقودة جيداً.

– أنا قلق إلى حد ما يا فالانتان. مساء أمس،حين كنت قرب السيدة، سمعت لويز تخرج. ظننت أنها على موعد مع عاشق في زاوية الشارع، وانتظرت كي أقفل الباب. إلا أنها لم تعد إلى البيت.

– أتعتقد أنه قد خُنِقَت؟

– سأخطر الشرطة على كل حال.

مرة أخرى، فعل ما كان يجب أن يفعله. وعلى العكس من توقعه، لم يكن وجهه منتفخاً، كما كان في العشية، ولم تكن نظرته آبقة. لم تكن يداه ترتعشان. كان هادئاً، ورصيناً، دون قلق كما يتفق للمرء عندما لاينام جيداً.

ذلك أنه قد نام. عندما خرج من الحمام، جلس على المقعد، أمام النار الخامدة، ولم يكن أبداً، خلال حياته، قد شعر بمثل هذا الخواء. ألم يأت، حرفياً، على إفراغ نفسه بكل الصور الممكنة؟

لم يكن ينظر إلى شيء، ولا يفكر في شيء، وبعد خمس دقائق، كان يغط في نوم دون أحلام. عندما فتح عينيه، كان المنبه الموضوع على المدفأة يشير إلى الساعة نفسها التي كان يشير إليها لدى استيقاظه كل يوم، وكان هو نفسه فعلاً مثلما يُشاهَد الآن، هادئاً، هادئاً جداً، بطيء الحركات قليلاً، مع تعب كبير في داخله، ولكن مع ارتياح كبير أيضاً.

انطلق تفكيره بصورة طبيعية جداً. كان يحتاج إلى التأمل، إلى أن يجمل الوضع، لكنه لم يكن يأخذ شيئاً على صورة مأساوية.

فات الوقت على إنزال الجثة إلى القبو، وفضلاً عن ذلك، لم يجد الشجاعة اليوم على تحريك كومة الفحم. كان قد سحب لويز إلى الغرفة من

قدميها ودفع بها إلى تحت سرير ماتيلد. كان من غير المفيد إخفاؤها. إذا دخل أحد على الغرفة فسوف ينكشف، بالضرورة، كل شيء.

لم تكن الخادمة هي التي تهم، بل كانت ماتيلد. إلا أنه كان يفضل أن لا يرى الفتاة الضخمة كل مرة يكون عليه، فيها، أن يصعد.

أشعل النار، فعل ما يفعله في الأيام الأخرى، وفوق ذلك، أعد قهوته، بل اتفق له أن تكلم في روحاته إلى الغرفة وغدواته منها، في حين أن ذلك لم يكن، اليوم، لازماً.

كان لايزال هناك ضوء تجاهه. السيدة كاشودا التي لم تنم في الليل تتناول، بلا مبالاة، طعام الإفطار.

أكثر ما أثر فيه كان الذهاب إلى غرفة الخادمة، لكن ذلك كان ضرورياً. كان السرير غير مرتب، مع بقع على الأغطية. كان عليه أن يرتبه. كان المشط مليئاً بالشعر. كانت الرائحة تقلب معدته. كانت الملابس مبعثرة في كل مكان وكانت هناك، في زاوية حقيبتان رخيصتان.

من الأفضل أن لا يدعي أنها قد رحلت مع حوائجها. كان يكفي أخذ الملابس التي كانت ترتديها في الأمس، السروال، حمالة الصدر، التنورة الداخلية، الثوب، وكذلك المعطف لأنها ما كانت لتخرج دونه في هذا الجو البارد.

كاد يفسد كل شيء. كان على أهبة أن ينزل عندما فكر، بأعجوبة، بدبابيس الشعر، وهي أكثر ما كان ينفر من مسه. ألقى بها في المرحاض كما كان يفعل في الأيام الأخرى، بطعام ماتيلد. أما بالنسبة للملابس، فقد اكتفى بأن دسها تحت السرير مع الجثمان.

ألم ينس شيئاً؟ عاد إلى غرفة لويز، فتح درج طاولة الليل، رأى علبة مغطاة بأصداف. كانت تحتوي على خواتم وسوارات مما يشترى من أسواق الملاهي، بطاقتين أو ثلاث بطاقات بريدية، مفتاح هو، دون شك، لإحدى الحقيبتين، بعض القطع النقدية وصورة شاب بشعر كثيف، منفوش، فلاح في ثياب الأحد تصور على طائرة من ورق مقوى مدهون، تركها في مكانها.

كان ذلك كل شيء. عدا ذلك كان الأمر مجازفة لا بد من قبولها، وكان واثقاً. أكثر ما كان يشغل باله كان مرض كاشودا. فاجأ مرتين السيدة كاشودا تنظر من النافذة المواجهة إلى مخزن القبعات.

هل قال لها الخياط الصغير شيئاً؟ هل سألها، ببساطة:

- ماذا يفعل السيد لابيه؟

ربما كان يهذي. وماذا لو أحس بأنه مصاب إصابة خطيرة، ألا يستقدم كاهناً؟

كان يتمنى أن يذهب ليراه. كان ذلك مستحيلاً تقريباً. الخطوة لم تكن تتوافق مع علاقاتهما الرسمية.

مع ذلك، بقيت الفكرة في زاوية من رأسه.

- يحتمل أن أعود خلال نصف ساعة يا فالانتان. لا أظن أن السيدة ستنادي.

- حسناً يا سيدي.

ارتدى معطفه واعتمر قبعته، كاد يتلف وتر الفيولونسيل. فكر، أيضاً، في الحبل الذي كان يطلق، من الخزانة، إشارة الطابق الأول. ما الفائدة؟ في كل الأحوال سوف يكتشفون الحقيقة إذا بدؤوا في تفتيش البيت. كانت الشمس فاترة تقريباً، كان للمدينة هذا الصباح، مظهر مرح جداً، لم يكن قد شرب، حاذر، جداً، من أن يشرب. بالكاد أحس بالرغبة في ذلك.

اجتاز ميدان السلاح موارياً، سار في شارع ريومور، وصل إلى البناء الذي كانت، فيه، مكاتب بيجاك. لم يكن بناءً إدارياً حقيقياً، بل كان بيتاً خاصاً، واسعاً جداً، جميلاً جداً حولوه، في تاريخ حديث جداً، إلى مكاتب. كانت، في الطابق الأرضي، مكاتب التأمينات الاجتماعية حيث كانت تعمل، على نحو خاص، فتيات.

صعد إلى الطابق الأول. كان هناك باب مفتوح. كان ثلاثة رجال يتحركون في جو دخان كثيف. لم تكن المدفأة تعمل، وكانت ترد كل الدخان

إلى الغرفة التي اقتضى الأمر فتح نوافذها المطلة على الباحة. كان بيجاك ينتظر جالساً على حافة المكتب مرتدياً معطفه وقبعته. قال:

- من؟ القبعاتي؟

- نهارك سعيد يا سيد بيجاك.

كان هناك باب آخر مفتوح يطل على حمام ترك مغطسه واكتفي بتركيب رفوف كانت مليئة بالملفات.

سعل السيد لابيه بسبب الدخان. كان بيجاك يسعل أيضاً، وكان مفتشاه يعالجان المدفأة.

- اعذرني على استقبالك بهذه الصورة. انقضت خمسة عشر يوماً على طلبي تنظيف المدفأة ولا أرى أحداً قد أتى. هل تريد أن نذهب إلى المنبسط؟

لم يكن ذلك مؤثراً، بل كان العكس.

- أية ريح طيبة ساقتك إلينا يا سيد لابيه؟

- أخشى أن تكون ريحاً سيئة يا سيدي المفوض. الحق هو أني لا أدري. ربما كنت على خطأ في قلقي.

كان واثقاً من نفسه إلى حد كاف لأن ينمق عباراته.

- يجب أن لا أكون أول من يزعجك عبثاً منذ الأحداث الأخيرة. لدي خادمة، ككل الناس، فتاة ريفية، من شارون بالضبط. أنت تعرف، دون شك، الحالة الصحية لزوجتي التي لا تريد، منذ سنوات، أن ترى أحداً وتعيش محبوسة في غرفتها. حتى الأوقات الأخيرة، وبسبب ذلك، كانت الخادمة تنام خارجاً، في غرفة استأجرتها لها في ساحة السوق.

كان بيجاك يصغي وهو ينظر إليه بانتباه، بل ببعض الإلحاح، لكنه كان ينظر إلى كل الناس على هذا النحو معتقداً أنه يعطي لنفسه، بذلك، مزيداً من الأهمية. كانت تسمع ثرثرة الموظفات الصغيرات، تحت، في مكاتب التأمينات الاجتماعية.

ذلك كله لم تَبدُ له هيئة جدّية.

– منذ هذه الجرائم التي أرعبت السكان طلبت مني هذه اللويز أن أسمح لها بالنوم في البيت كي لا يكون عليها الخروج بعد هبوط الليل. وعلى الرغم من نفور زوجتي، كنت مرغماً على الموافقة وإلا لكانت تركتنا.

– منذ كم من الوقت تنام في بيتكم؟

– منذ حوالي ثلاثة أسابيع. إذا كانت ذكرياتي مضبوطة، فقد كان ذلك بعد موت السيدة كوجا مباشرة.

– وهل تنام في الطابق نفسه معكم؟

– نعم، في الطابق الأول، في غرفة صغيرة تطل على الردهة. مساء أمس، في الساعة التاسعة تقريباً، لا أستطيع أن أكون دقيقاً لأني كنت مشغولاً بزوجتي، سمعتها تنزل. ظننت أنها نسيت شيئاً في المطبخ أو أنها كانت تحضر مشروباً ساخناً لها.

– هل كان هذا يتفق لها؟

– كلا، ولهذا انتهيت إلى الإحساس بالقلق. نزلت بدوري، ولم أجدها. لاحظت أن مزلاج المخزن كان مسحوباً، وهكذا علمت أنها خرجت لأني كنت قد أغلقت المزلاج قبل أن أصعد.

– ألم تعد؟

– كلا، لا في الليل، ولا في هذا الصباح. انتظرتها إلى وقت متأخر إلى حد كاف. واليوم، وجدت غرفتها كما كانت في الأمس. السرير بقي مرتباً.

– هل أخذت حوائجها؟

– لا أظن. رأيت حقيبتين وأثواباً في الخزانة.

– أكانت فتاة رصينة؟

– لم يكن لدي، أبداً، أي سبب للشكوى من سلوكها.

– أهي المرة الأولى التي تخرج، فيها، مساء؟

– منذ أن سكنت لدينا، نعم.

– سأرافقك.

دخل بيجاك إلى المكتب الذي كان لايزال رمادياً من الدخان وقال بضع كلمات لمفتشيه. ثم جعل السيد لابيه يتقدمه على الدرج. كان مهذباً، لكنه كان بارداً. في الطريق، وضع القبعاتي على يمينه دون قصد منه احتمالاً.

– هل تعرف أسرتها؟

– أعرف فقط أن أهلها مزارعون صغار من شارون. كانت تذهب لتراهم كل يوم أحد، تذهب صباحاً وتعود مساءً.

– في أية ساعة؟

– في الباص الذي يصل إلى ميدان السلاح في الساعة التاسعة، حوالي التاسعة وخمس دقائق، دائماً، كنت أسمعها تعود.

مر أمام مقهى الأعمدة حيث حياهما غبرييل الذي كان يفرك الزجاج بالطبشور.

توافقت خطواتهما. كان إحساساً طريفاً، بالنسبة للسيد لابيه، أن يجتاز المدينة هكذا في صحبة المفوض الخاص. كان في حاجة إلى أن يكون طبيعياً، إلى أن لا يتكلم كثيراً.

كان بيجاك هو الذي قال:

– ربما سنجدها قد عادت.

– هذا ممكن جداً. لم أكن لأزعجك لولا ما جرى هذه الأسابيع الأخيرة.

– حسناً فعلت.

هذا هو الأمر. كان ينبغي، خاصة، أن لا يقلق. كانت هناك تسعون فرصة من مائة في أن تستمر الأمور بهذه البساطة. ومع ذلك، عندما رأى السيد لابيه بيت كاشودا. من بعيد، خطرت له فكرة ضايقته.

لم يكن الخياط الصغير هناك ليراهما. لكنه كان يمكن، حقاً، لزوجته أن ترى الرجلين. هل استيقظت. لم يكن من شأنها أن ترتاح طويلاً. ليس هذا نوع هؤلاء الناس. يمكن لإستير، أيضاً، أن تتعرف على بيجاك الذي ظهرت صورته عدة مرات في الجريدة والذي يجب أن تكون قد رأته في مخازن السعر الموحد.

إن قال أحدهم لكاشودا:

- المفوض أتي على الدخول إلى بيت القبعاتي.

لم يكن ينبغي نسيان جائزة العشرين ألف فرنك. الخياط الصغير سيقلق على الرغم من حمّاه. من يدري ما إذا كان سيريد إحراز قصب السبق؟

- ادخل يا سيدي المفوض.

لفتهما الحرارة حالاً. كان السيد لابيه معتاداً عليها، وكذلك على الضوء الباهت الذي كان يسود البيت، وعلى الروائح. هل كانت الرائحة على درجة من الخصوصية كافية لأن تملأ خياشيم بيجاك؟

- مستخدمي فالانتان. لقد وصل في الساعة التاسعة، كالعادة، إنه لا يعرف شيئاً.

تقدم السيد بيجاك ويداه في جيبيه ولفافته ملتصقة بشفته السفلى.

- افترض أنك تريد زيارة غرفتها.

لم يقل الآخر لا ولا نعم، وصعد، وراء القبعاتي، السلم الحلزوني.

- هذه غرفة زوجتي التي لم تغادرها منذ خمسة عشرة سنة.

كان السيد لابيه يتكلم بصوت خافت، وقلده المفوض، كان ذلك مثيراً للفضول: كان يبدو مشمئزاً، كما كان من شأن السيد لابيه أن يبدو، مثلاً، لو شم روائح بيت كاشودا.

- من هنا.

اجتازا الممشى، وفتح السيد لابيه باب غرفة الخادمة.

- كان يمكن أن أجعلها تقيم في الطابق الثاني حيث توجد غرف كبيرة خالية، لكن لا مدخل له إلا من الخارج وهو ما لم يكن عملياً.

كان الآخر ينظر حوله متخذاً مظهر الأهمية، أخرج يده من جيبه ليفتح الخزانة. لم يكن قد خلع قبعته. مس، بلا مبالاة، ثوباً وردياً قانياً وتنورة من المخمل الأسود مهترئة إلى درجة كافية وقميصين أبيضين على علاقتين. كان

هناك، على الأرض، زوج من الأحذية المبرنقة، وعند طرف السرير، حذاء مشوه لا يصلح إلا للقمامة.

- على وجه الإجمال، لم تأخذ حوائجها.

- كما ترى.

ليته يفتح الدرج ويرى الصورة في علبة الصدف!

فعل ذلك.

- هل لمحت الفتى في هذه النواحي؟

تظاهر السيد لابيه بفحص الصورة باهتمام.

- اعترف لك بأني لا أتذكر. كلا.

- هل كنت تعلم أن لها عاشقاً؟

- كلا، كنت قليل الانشغال بها. كان لها طبع منغلق إلى حد كاف، أقرب إلى التذمر.

- سآخذ هذه الصورة.

نسها في محفظته، جرب المفتاح في الحقيبتين، لكنه لم يفتحهما. ربما كان مفتاح خزانة في شارون.

- أشكرك يا سيد لابيه.

نزل. في المخزن توقف قليلاً.

- ربما يجدر بي أن ألقي نظرة على المطبخ. هؤلاء الفتيات يدسّسْن حوائجهن في كل مكان.

كانت قاعة الطعام، في هذه الساعة،أكثر إظلاماً من بقية البيت، وبدا المفوض مشمئزاً حقاً.

سأل وهو يدخل إلى الحجرة الصغيرة التي كانت تستخدم مطبخاً:

- أهو هنا؟

لم يجد شيئاً.

- هل أقدم لك كأساً! لدي نبيذ أبيض ممتاز في القبو.

- شكراً.

لم يدل بتعليقات. كان هذا نوعه، ولم يعلق السيد لابيه بدوره. كان هادئاً تماماً. طبيعياً كلياً.

- أفترض أنه ليس علي إخطار أسرتها. وأنكم ستتولون هذا الأمر.

- بالمناسبة، ما اسمها؟

- شابو، لويز شابو.

سجل اسمها في دفتره الذي أعاد إغلاقه بمطاطة، وأعاد تزرير معطفه قبل أن يخرج. لم يكن هناك من هو متأثر سوى فالانتان المسكين.عندما أعيد إغلاق الباب المزجج، نظر إلى المفوض يبتعد وسأل:

- هل يعتقد أنها خنقت؟

- لا يعرف أكثر مما نعرف نحن.

يوم غريب. كل شيء كان صافياً، خفيفاً، براقاً، ومع ذلك كان ينسحب ما يشبه سحابة خفيفة على الناس والأشياء.

- هل نادت السيدة؟

- كلا يا سيدي.

صعد، لم يلق نظرة واحدة على السرير الذي كان الجسد لا يزال تحته. ذهب إلى النافذة بالضبط في اللحظة التي وقفت فيها سيارة الدكتور الرمادية عند حافة الرصيف. السيدة كاشودا التي سمعتها أسرعت على السلم. كانت استير تهز أخاها الصغير الذي يبكي، مشيرةً بإلحاح، نحو طرف الشقة، مكررة له، دون شك، أنه يجب أن لا يحدث ضجة من أجل أبيهما.

كانت الزيارة طويلة. وضع ماء للغلي في المطبخ، من أجل حقنة احتمالاً. كانت السيدة كاشودا تبكي فيما كان الطبيب العائد من الغرفة يتحدث إليها، ومسحت عينيها بمنديلها عدة مرات.

لمح القبعاتي، على الطاولة، الصفحات التي كان قد كتبها مساء الأمس وأمسك بها ومزقها وتوجه نحو المدفأة كي يحرقها.

كان فالانتان الذي كان يسكن مع أمه، بعيداً عن المدينة معتاداً على جلب طعامه في علبة حديدية. كان يسخن قهوته في إبريق صغير على مدفأة الغاز الموجودة في المحل، ويأكل وحده في الدكان الخلفية. وهو يقرأ مجلة رياضية في أغلب الأحيان.

تردد السيد لابيه في تحضير غدائه لنفسه وقرر أخيراً أن يرتدي معطفه وقبعته.

- سأكون هنا بعد ثلاثة أرباع الساعة.

توجه نحو ساحة السوق التي يوجد فيها، عدة مطاعم صغيرة. اختار واحداً ينزل إليه بدرجة وكانت تقوم بالخدمة، فيه، فتاة طويلة سمراء بمريولة بيضاء، كانت تعرف كل زبائنها. كان هناك، من بين آخرين، موظفان أو ثلاثة من البلدية والبريد وموظف لدى الكاتب بالعدل وعانس كانت تعمل في وكالة سفريات.

اختار طاولة بعناية، لا ليوم واحد، بل كما لو كان ينوي أن يصبح زبوناً منتظماً. كانت قائمة الطعام مكتوبة على لوح، وكانت هناك خزانة لمناشف الزبائن المعتادين.

في الواقع، كانت تلك هي المرة الأولى منذ خمس عشرة سنة، التي كان يأكل فيها في المطعم. نظر إليه صاحب المطعم بدهشة ووافاه إلى طاولته.

- أية مصادفة أن أراك هنا يا سيدي القبعاتي.

ربما كان قد نسي اسمه، لكنه كان يعلم أنه قبعاتي شارع ميناج.

- أنا دون خادمة اليوم.

نادى صاحب المطعم ملتفتاً نحو النادلة:

- هنرييت!

وأضاف قائلاً:

- لدينا أضلاع عجل وطبق إضافي من حلزون بورغونيا

- سآخذ حلزونات.

كان إحساساً لطيفاً. شعر كما لو كان معلقاً في الهواْء. كان فيه شيء هوائي، شيء طافٍ. لم يكن الناس والأصوات والأشياء تبدو له واقعية جداً.

- زجاجة بوجوليه؟

- من فضلك.

- زجاجة يا هنرييت.

كان لذيذاً، بل لذيذاً جداً. لم يكن لما تطهيه لويز طعم. كاد يأخذ دزينة أخرى من الحلزون، ولم يفطن، إلا وهو يتناول الجبن، إلى أنه كان يفترض في ماتيلد أن تأكل أيضاً.

- قولي لي ياهنرييت.

كان الجميع ينادون النادلة باسمها الأول

- أود أن آخذ معي غداء لزوجتي، هل لديكم وعاء ما؟

- سوف أرى.

تحدثت إلى صاحب المطعم. اختفى هذا الأخير وعاد بطنجرتين صغيرتين مطليتين لهما قبضة.

- هل ينفع هذا؟

كانت الشمس تلعب على طاولته. لم تكن توضع أغطية على الطاولة، بشكل أدق كانت الأغطية من ورق عسلي اللون يتم تغييره مع كل زبون. كانت هناك سلة في زاوية كان يلقى بها فيها.

- هل أضع لها حلزوناً؟

لم لا؟ سيأكلها. اجتاز الطريق الذي يفصله عن بيته حاملاً الوعائين من القبضة. كان ذلك شيئاً مسلياً.

- هل نادت السيدة؟

- كلا يا سيدي.

صعد، ألقى بالضلع والخبز والبطاطا المقلية، لكنه أكل الحلزونات دون أن يفكر، لحظة، في أن لويز لا تزال هناك. وفضلاً عن ذلك، كان يفضل أن لا يفكر فيها بسبب العمل الذي ينتظره في ذلك المساء.

في مخزن كاشودا، كانت زوجة الخياط تشرح الموقف لزبون بحركات حزينة. بدا الزبون مزعوجاً. يجب أن يكون قد وعد بتسليمه بزته اليوم، والبزة لم تكن جاهزة ربما كانت تلك التي تُشاهَد على طاولة الخياط دون أكمام ولا بطانة.

نعس السيد لابيه، لكنه لم ينم. فكر كثيراً في كاشودا وهو يعمل على قبعاته. كان يفتقد جاره. لماذا كان لديه، حياله، ما يشبه الشعور بظلم؟ ظلم كان هو، السيد لابيه، يقترفه. كان يود أن يذهب لرؤيته.

كان يبدو له أنه يستطيع طمأنته، التشديد من عزمه. بل كانت هناك فكرة في ذهنه، وهذه الفكرة كانت تتزايد تجسداً. كان لكاشودا،إجمالاً، الحق في جائزة العشرين ألف فرنك. كان مريضاً جداً، ولا بدّ أنه في عسر. ماذا ستفعل أسرته إذا مات؟ ستكون زوجته مرغمة على الخدمة في البيوت. والصبي ذو السنوات الأربع؟ والبنتان اللتان كانتا تعودان من المدرسة في الساعة الرابعة؟ كان لدى السيد لابيه مال. كان يستطيع، دون أن يضايقه ذلك، أن يسحب عشرين ألف فرنك من مصرفه أو أن يستخدم الأوراق المالية في المحفظة القديمة: التحرك لإعطائها كان أصعب. هل كان ذلك مستحيلاً؟ لو ذهب إلى الجهة المقابلة، فإنه يحتمل أن يدعوهما وحدهما. سيدس ببساطة، الأوراق في يد الخياط الصغير.

سيكون هذا شيئاً رائعاً. كان الوقت قد فات على الذهاب إلى المصرف. سيفعل ذلك غداً صباحاً. لديه حتى ذلك الحين، الوقت للتفكير.

توقفت شاحنة قديمة تجاه مخزن القبعات. بقي سائقها والذي يرتدي ملابس حدّاد قروية وراء المقود، في حين نزل رجل أصهب الشاربين وكثهما، متقد النظرات، فتي المظهر. دفع الباب. تقدم منه فالانتان. وعندما اقترب السيد لابيه قال:

– أنا والد لويز.

لا بدّ أنه لم يتجاوز الأربعين بكثير. كان قد شرب في منزله، أو على الطريق، لأن نفسه كان يحمل رائحة الخمر.

– هكذا، إذن، يبدو أنها رحلت؟

كانت الشرطة قد ذهبت، فعلاً، إلى شارون. الرجل أتى إلى المدينة في سيارة أحد الجيران.

– هل احتفظت بحوائجها؟

– بقيت في غرفتها.

– حسناً، حسناً، جئت لآخذها.

لم يكن قد نزع عمرته عن رأسه. اتفق له أن بصق على الأرض نافورة من اللعاب الأصفر لأنه كان يمضغ تبغاً: كان يبدو أنه جاء بنوايا عدائية، لكن هدوء البيت أثر فيه.

– أهنا، إذن، كانت تمضي الأسبوع؟ ورحلت،هكذا، دون أن تقول شيئاً؟

كرر السيد لابيه وهو يقود زائره في الدرج:

– دون أن تقول شيئاً.

– هل صحيح أنه كان لها عاشق؟

وبما أن صوته أصبح مهدداً، اكتفى السيد لابيه بأن يجيب قائلاً:

– لم تحدثني عنه قط، لم أره!

– أزوجتك هي المريضة؟

– نعم، إنها زوجتي. أطلب منك أن لا تتحدث بصوت مرتفع لأنها وراء هذا الباب.

لم يقع شيء. الرجل كوم حوائج لويز في الحقيبتين، وكان القبعاتي هو الذي سلمه علبة القواقع التي كانت في الدرج. تعمد الفلاح أن يمشي متثاقلاً. ربما كان قد أعلن، وهو يغادر شارون، إنهم سيرون ماذا سيحدث.

– هل تعتقد أن الخناق أمسك بها؟

– لا أدري، لم أسمع شيئاً.

على الرغم منه، مشى على رؤوس أصابعه وهو يمر أمام باب غرفة ماتيلد، وكاد أن يقع على الدرج الحلزوني الذي كان غداراً بالنسبة لمن لم يعتد عليه.

– على كل حال، إذا وجدوها فلا تعتمد عليها بعد الآن. هذه آخر مرة أدع، فيها، إحدى بناتي تعمل في المدينة.

لم يقل وداعاً واكتفى بملامسة عمرته بصورة أرادها وقحة ولم تكن إلا خرقاء.

صدم إطار الباب بالحقيبتين، وضعهما في الشاحنة وركب إلى جانب السائق. لم يعد الرجلان، حالاً، إلى شارون لأن الشاحنة توقفت، بالضبط، في زاوية الشارع، تجاه خمارة. كانت تلك ساعة إشعال المصابيح، ساعة الصعود إلى ماتيلد لرؤية ما إذا كانت تحتاج إلى شيء وإسدال الستار.

الصغيرتان، في البيت المواجه، عادتا من المدرسة منذ قليل، وكانتا تذكّران في كل لحظة، بأنهما يجب أن تتكلما بصوت منخفض. إحداهما كانت تكتب وظائفها ودفترها موضوع على طاولة الخياط التي حررت جزئياً.

– أرجو يا فالانتان، أن تتلطف بإغلاق المخزن.

البيت سيبقى خالياً وأحدث ذلك فيه أثراً غريباً، خاف قليلاً كما لو أن شيئاً كان يمكن أن يحدث فيه، في غيابه. لم يعد لديه سبب ملح لأن يعود في هذه الساعة، لا في تلك. سيذهب للعشاء في المطعم الصغير الذي تغدى فيه.

كان يستطيع، لو أراد، أن يذهب إلى السينما، ولكن ذلك لم يكن يتّصف بالحذر.

فضلاً عن ذلك، كانت لديه رغبة في أن يكتب من جديد، ولكن ليس بلهجة الأمس. كان أقل قلقاً، وعلى صفاء ذهن مختلف، وعندما دخل إلى مقهى الأعمدة وألقى عليه صديقه بول نظرة متسائلة، أحس بما يغريه بالابتسام.

لم يبتسم بالتأكيد. كان يجب أن يتخذ مظهر الظرف لأن الخبر عرف من قبل. جلس دون أن يقول شيئاً، مستعداً للعلب، رأى، حالاً، أن بيجاك كان على طاولة الأعمار بين الأربعين والخمسين، ونهض للذهاب كي يتحدث إليه، سأله:

- هل عثرتم عليها؟

- لا شيء بعد...

- ألا تعتقد أن......

كان بيجاك يلعب الورق ويجيبه دون انتباه. شعر القبعاتي بأنه أقل ارتياحاً بقليل. لم يكن ذلك بسبب المفوض الذي يكاد أن لا يكون مهذباً، - كان ذلك، من جانبه، تصنعاً- بل لأنها كانت الساعة السيئة.

كان ذلك يحدث، دائماً، عند حلول الليل، مع الفوانيس التي تشعل في الشوارع والخطوات التي تسمع على بلاط الشارع قبل رؤية ظل على الرصيف بكثير.

كانت، في شارعه، واجهة سيئة الإنارة، ضوؤها أزرق مخضر، كانت رؤيتها تسبب له انزعاجاً أصم دائماً. كان ذلك صعب التحليل، كان نبقاً، هل كانت هذه الكلمة تعني شيئاً؟ كانت تباع، في هذه الدكان، أحذية، وكان لديه انطباع بأن الناس لم يكونوا يتكلمون، بأنهم كانوا يحركون شفافهم دون صوت، كأسماك في حوض.

كل المدينة كانت، في هذه الساعة، هكذا، علبة أعيد إغلاق غطائها. الناس الذين لم يكونوا أكبر من نمل كانوا يتحركون بلا طائل.

كان الأمر مقلقاً حتى في ضوء مقهى الأعمدة. عندما يحدق في مصابيح السقف التي ذهب طلاؤها - كان هناك خمسة منها - كان ينتهي إلى أن يصاب بالدوار.

كان ذلك، إلى حد ما، كما لو أن الزمن قد توقف، كأن كل شيء قد توقف. الحركات، الأصوات، الضجات، كل ذلك لم يعد يعني شيئاً، مات. كان استمرار الأشياء راجعاً إلى القوة المكتسبة، ولكنها كانت تدور بلا طائل.

هذا ما سيحاول تفسيره بدلاً من الجمل المشوشة التي كتبها أمس.

اليوم لن يدع نفسه عرضة للإغراء. كان هادئاً. وعد نفسه بأن يكون هادئاً، بأن يلعب اللعبة حتى نهايتها، كما لو كان ذلك حقيقياً.

لم يعد يستثير أعصابه أو يقلقه أن يرى شنترو، الطبيب الملتحي، يراقبه خلسة. لماذا كان يتفق له أن يحدق في يديه؟ لم تكونا ترتعشان. كانت له يدان جميلتان، بيضاوان، ناعمتان، بأصابع مربعة وأظافر معتنى بها. قيل ذلك دائماً. وقالته ماتيلد نفسها في البداية.

قال كاييه الذي كان يخلط الورق:

– يجب أن يكون قد ألقى بها في القناة.

سوف يفتشون فيها، إلا أنه من المحتمل أن يكون المد قد حملها إلى البحر.

تمتم شنترو الذي لم يكن يبدو على ما يرام.

– سيدهشني ذلك.

– ما الذي سيدهشك؟

– القناة. هذا لا يبدو ملائماً. هؤلاء الناس لا يغيرون تقنيتهم إلا......

وصمت. ألح كاييه قائلاً:

– إلا ماذا؟

– يصعب شرح ذلك. إلا إذا كانت سلسلة أخرى، إلا إذا لم يعد لذلك المعنى نفسه.

– أي معنى؟

– لا أدري. دور من في اللعب؟

تجنب، وهو يتحدث على هذا النحو أن ينظر إلى القبعاتي، واحمر هذا الأخير قليلاً لأنه كان يحس بأن شنترو كان يرتاب فيه.

لماذا؟ هل ارتكب خطأ؟ أكان ذلك مرئياً؟ هل كان يجب الاعتقاد بأن طبيب بوردو النفسي كان مصيباً؟

كان جانتيه، من جديد، في مكانه، قرب الزجاج. كان يكتب بشكل محموم، وكانت خصلة من شعره الطويل، على طريقة الفنانين، تقع على وجهه.

من العطر، عرف السيد لابيه أن الآنسة بيرت قد دخلت وجلست على طاولتها المعتادة. بذل جهده في أن لا ينظر جهتها.

لم يكن لديها ما تخشاه: كان سيد نفسه. لم يكن قد أتى بوتر الفيولونسيل، ما جرى مع لويز لم تكن له أهمية كان قد كرهها دائماً. لم يعد يستطيع، في النهاية، أن يتحمل وجودها. أما ما جرى بعد ذلك، فإنه يكاد أن لا يتذكره.

- اثنان ديناري.

- منذ البداية؟

- قلت اثنان ديناري.

كل شيء كان يتغير باعتباره سيتناول وجباته خارجاً. لم يكن ينوي استخدام خادمة جديدة. ستكفيه امرأة تتولى تنظيف البيت وترتيبه، وليس كل يوم أيضاً، أو لمدة ساعتين يومياً، مثلاً. ولولا كلام الناس لفضل أن يستغني عنها.

كان جوليان لامبير يزعجه بتوجيه ابتسامات مسموعة إلى الآنسة بيرت. هل ذهب إليها بعد ظهر هذا اليوم؟ هذا محتمل لأن هندامه كان أفضل من المعتاد وكان قد مرّ على الحلاق. كانت رائحة كولونيا خفيفة تنبعث منه.

بعد ثلاثة أرباع الساعة، لم يكن القبعاتي قد أفرغ كأسه الأولى وكان هذا يسرّه، يمنحه الثقة.

كانوا قد انتهوا، جميعهم، مع الصحف، إلى التأثير فيه. تغير الوضع: لم يكن هناك أي سبب كي يستمر الأمر. كان يكفيه، أن يكون حذراً، مع نفسه أكثر منه مع الآخرين.

لماذا كان شنترو ينظر إليه نظرات غريبة في الوقت الذي كان فيه، على وجه الضبط، طبيعياً تماماً، بل ومنطلقاً؟ وقع حادث أغرب، أكثر إثارةً للحيرة. في برهة ما، أخطأ الدكتور ووضع على الطاولة ورقة سباتيه بدلاً من ورقة البستوني الذي كان ورق الكرنيب، في حين كانت، في يده، ورقتان بستونيتان. احتد أرنو الذي كان دون رأفة لدى أخطاء الآخرين:

– ماذا بك؟ بأي شيء كنت تفكر؟

عند ذلك، تمتم شنترو كما لو كانوا ينتزعونه من حلم عميق:

– المسكين.

يجب أن يكون قد شرب كثيراً في هذا اليوم، لأنه كان عاطفياً.

– أي مسكين؟

رفع شنترو كتفيه وزمجر قائلاً:

– أنتم تعرفونه جيداً.

– الخناق؟

– لم لا؟

– أترثي له؟

لم يرد، قطب حاجبيه واستعاد ورقته من على الطاولة وألقى ببنت بستونيه. للمرة الثانية في هذا اليوم نفسه، وبسبب الدكتور في المرتين، أحس السيد لابيه بوجهه يحمر، ومن أجل تماسكه، أشار إلى غبرييل ليملأ كأسه.

(٩)

حين كان يتجه نحو باب المقهى، طويلاً متراخياً وبطيئاً، توقف لحظة أمام الطاولة الأخيرة ونظر، بوقار،من فوق إلى تحت إلى الفتى الذي كان لايزال يكتب والذي رفع رأسه عندما رأى ظلاً فوق ورقته. كان هو أكثر من آذاه بفكرته عن الذهاب لإجراء مقابلة مع طبيب بوردو النفسي وتعنته، منذ ذلك الحين، كل يوم تقريباً، في العودة إلى التشخيص ليعلق عليه، ليفسر أحداث الأمس ويتوقع أحداث الغد.

لم يتعمد جانتيه ذلك. كان طفلاً. لم يكن شريراً. لم يكن السيد لابيه يحقد عليه. هل سيجلس، بعد أربعين سنة، بدوره، على طاولة ما بين الأعمدة، قرب المدفأة؟

لم يتبادلا كلمة. لم يكن لدى أحدهما ما يقوله للآخر. كانت هذه السنوات الأربعون، بالضبط، هي التي كانت بينهما، ربما لم يكن بينهما شيء آخر، وربما كانت بينهما أكداس من أشياء أخرى. تنهد القبعاتي تنهيدة خفيفة ومد يده نحو مقبض الباب. رفع جانتيه كتفيه وقطب حاجبيه محاولاً أن يستعيد تسلسل جملته

كان المراسل قد بدأ، وهاهو، الآن، صديقه بول يتدخل بدوره. هل تعمد أن يتكلم كما فعل؟ هل كانت أقواله التي بدا أنه يتلفظ بها دون أن يعلق عليها أهمية، في الحقيقة، رسالة؟

كان السيد لابيه يكاد أن لا يحس بالبرد. كان هناك من الرطوبة في الجو ما يزيد قليلاً عن الأمسيات السابقة، كان هذا يرى من الأضواء، من الفوانيس، التي كانت عيونها كما لو أنها مقنعة.

كانت كلمتا شنترو المخيفتان تلاحقانه، كانتا على كتفيه كحجرين ثقيلين لم يكن يتوصل إلى الخلاص منهما، ومع ذلك، كانتا كلمتين بريئتين في الظاهر.

- المسكين!

جانتيه، أيضاً، كان فتىً بريئاً ووجه إليه أقسى ضربة ممكنة.

لم يكن يحقّد على هذا ولا على ذاك. لم يكن يحقّد على أحد. كان يسير على الرصيف الأيمن لشارع ميناج، لأنه لم يكن عائداً إلى بيته، كان يجب أن يذهب للعشاء، في ساحة السوق، في المطعم نفسه الذي كان، فيه، ظهراً.

ولكن، هاهو ما كان يشبه ثقباً مضيئاً على الرصيف، على مسافة كافية، وهاهو القبعاتي يحس بمزيد من القلق كلما اقترب منه.

كان باب دكان الخياط مفتوحاً وكان يستطيع، الآن، أن يميز ظلين خارجاً، تعرف على الاسباني الذي كان يملك دكان فواكه على مسافة بيتين وزوجته احتمالاً.

عندما أصبح قريباً جداً، سمع صوتاً يشبه نباح كلب يبكي في ضوء القمر، توقف عند قطعة النور، نظر إلى الداخل ورأى السيدة كاشودا منهارة على كرسي في وسط المخزن كانت هي التي كانت تصرخ بهذا الشكل وهي تحدق أمامها، في حين كانت زوجة اللحام تمسك بكتفيها وتحاول تهدئتها.

في أسفل السلم، كانت استير ترتعش وعلى كتفيها شال لأن الدكان لم تكن مدفأة. لم تكن تبكي، لم تكن تقول شيئاً. لم يكن ممكناً قراءة شيء سوى نوع من الرعب البهيمي في نظرتها.

خرج أناس آخرون من المنازل المجاورة،وكانوا عديدين حول السيد لابيه، جامدين، متأثرين. نزلت امرأة لم يعرفها، وبين ذراعيها الطفل، وكانت تعاني مشقة في حمله أعلنت وهي تمر:

- أنا آخذه.

أفسحوا لها المجال، دخلت بيتاً يبعد بضعة أبواب. ماذا فعلوا بالبنتين؟ هل أخذوهما أيضاً؟ من بقي فوق؟ كان للعويل تأثير صفارة المرفأ في ليالي الضباب.

لم ينقض على ذلك وقت طويل لأنه سمع صوت محرك، توقفت سيارة عند طرف الرصيف، اجتاز الدكتور المجموعة مستعجلاً، نظر لحظة إلى السيدة كاشودا، وعاد على أعقابه ليغلق الباب.

كان هذا كل شيء. مات كاشودا. عندما أغلق الباب، بدأ الناس يتكلمون بلهجة الانتحاب، وابتعد القبعاتي يساوره الشعور نفسه بالظلام الذي ضغط على صدره، منذ قليل، عندما تمتم صديقه بول:

– يا للشخص المسكين!

لم يعد جائعاً. كان يمكنه أن يعود إلى بيته حالاً. التفت لينظر إلى بيته، القبعة العالية الأطراف الهائلة التي كانت تسيطر على الواجهة، إلى النافذة المضاءة في الطابق الأول، مع خيال جامد يبرز عبر الساتر المعدني.

هذه اللحظة هي التي تولد لديه حدس بأنه لن يضع فيه قدميه بأنه لن يراه ثانيةً دون شك، أبداً. لم يقبل بذلك في الظاهر، كان هو نفسه في كل الأيام، الشخص الذي كانه في المقهى منذ قليل. لم يحدث شيء أمكن أن يمسه شخصياً.

مع ذلك، كان لديه، هذه الليلة، عمل كثير في بيته. لم ينس شيئاً كان يعرف المهمة المقيتة التي كانت تنتظره تحت سرير ماتيلد. سوف ينبغي أن ينزل إلى القبو، أن يحرك، مرة أخرى، كومة الفحم، أن يحفر ثم، خاصة، أن ينزل الجسد الثقيل الضخم، يعيد غسل الدرجات، يعيد غسل كل المنزل تقريباً. لم يفسر شنترو أقواله،ولكنه كان يحزر ما يعنيه.

– أهلاً! بالسيد القبعاتي. أراهن على أنك نسيت إحضار الوعائين. لدينا هذا المساء نقانق جيدة مع هريس البطاطا.

ابتسم بأدب. ذهب ليجلس في مكانه. خدمته الفتاة. كان الناس أقل مما كانوا عليه ظهراً. القاعة كانت شبه خالية. كان يعتبر، منذ الآن، زبوناً ويتم تناول منشفته من أحد الأدراج، كما يفعل بوابو الفنادق مع مفاتيح الزبائن.

كان قد أعلن في الجريدة أن كل شيء سينتهي مع السابعة مؤكداً، بصدق، إن السابعة، كالأخريات، كانت ضرورية. إلا أن السابعة لم تكن الحقيقية. كان حانثاً. كانت من مجال آخر، من سلسلة أخرى.

إلا أن أحداً غيره لم يفكر في ذلك. هل فكر، فيه، المفوض بيجاك؟ جانتيه، على كل حال، سيفكر، فيه، عاجلاً أم آجلاً.

سوف ينطلق، إذن، من فكرة كون موت لويز ضرورياً للقاتل، «لا غنى عنه» كما كتب القبعاتي.

ما الاستنتاجات التي سوف يستخلصها؟ لم يكن يهتم، في الحقيقة،كثيراً، بما كان الآخرون يفكرون فيه. كان المهم مايفكر، فيه، هو، لابيه.

لم يلاحظ الطريق بسبب ما كان يجري في بيت كاشودا. كان عليه أن يفعل. ربما كان بيجاك قد وضع مفتشاً في محيط مخزن القبعات. ربما كان هناك من يتبعه. لم يكن ذلك شيء غير محتمل وكان، وهو يأكل، يحاول أن يرى عبر زجاج المطعم الصغير.

كان غريباً كم كان تعباً فجأة. كان كئيباً، تلك كانت الكلمة. كانت له الهيئة العاطفية نفسها التي كانت لشنترو في نهاية اليوم، عندما شرب كثيراً.

كان يفكر في بيته ويحس بالمرارة لدى التفكير في أنه لا يجرؤ على دخوله، في أنه ربما لن يدخله أبداً. لماذا؟ ما فعله مرة، كان قادراً على أن يفعله أيضاً. هل كان ذلك لأن لويز أوحت له، دائماً، بنفور لم يكن يمكن تجاوزه؟ أم بسبب كاشودا؟

كان يرغب بالاستغفار، ليس من الخادمة، بل من الخياط. كان نادماً لأنه لم يمر بالمصرف بعد الظهر. لو كانت هناك أوراق نقدية في جيبه لوضعها في مظروف وأرسلها حالاً إلى الأسرة. لو عاد إلى بيته لأرسل مال المحفظة، لكن لم يكن يصدق ذلك.

كان صاحب المطعم بلا مشاكل، ولا أشباح. كان يعبئ خمراً في زجاجات. ذكره ذلك بأنه كان يمكن أن يشرب، أنه سبق أن فعل وأن ذلك هدأه برهة.

كل ذلك كان بعيداً. كانت الأمور تمضي بسرعة. كان فزعاً من السرعة التي راحت الأمور تسير بها، نادى النادلة، ودفع حسابه. رأى منشفته تصف في الدرج وجعل هذا قلبه ينقبض دون سبب. أعطاها إكرامية كبيرة وشكرته بدهشة.

- ألن تأخذ شيئاً لزوجتك؟

- ليست جائعة هذا المساء.

- إلى الغد أيها السيد القبعاتي.

- إلى الغد.

كما في المساءات الأخرى، كانت دوريات تجوب المدينة. صادف واحدة منها وهو خارج من المطعم وحيوه. التفت ليرد التحية بدوره لأنه كان مشتت الانتباه، ورأى أنهم كانوا يلتفتون إليه. لماذا؟ هل كان هناك شيء غريب في مظهره أو مشيته؟

حاول أن يرى إذا كان متبوعاً، مشى نحو دار البلدية متحفز الحواس، لكنه لم يميز أي صوت خطوات قريباً منه. مر أمام دكان السيدة كوجا الذي كان، في هذه الساعة، مغلقاً.

لم يكن يعرف، بعد، إلى أين هو ذاهب. كان مدركاً، تماماً، لوجود احتمالات في أن يلتقي دوريات أخرى، أن يندهش أناس معتادون على توقيته من رؤيته في الساعة التي يفترض أن يكون، فيها، في غرفة ماتيلد.

قبل هذه المجازفة، كان يزدريها بعبارة أصح. كانت لديه، في رأسه، هموم أخرى، هم آخر، وحيد، وعندما انعطف يساراً، لدى وصوله إلى رصيف الميناء، فهم ما قرر أن يفعله.

كان الدكتور يسكن بيتاً صغيراً في حي المحطة، وراء القناة. كان بيتاً ضيقاً، ليس قديماً ولا حديثاً، قبيحاً جداً، محصوراً بين بيتين مشابهين له تقريباً.

اتفق للسيد لابيه أن يذهب لرؤية صديقه بول، مساءً، من أجل استشارة، لأنه كان دائماً قلقاً على صحته. كان هناك حاجز في زاوية من المكتب، وهو يتذكر أنه التصق عاري الجذع، وراء اللوح الجليدي بينما كان شنترو يطفئ المصابيح.

- لا شيء يا صديقي، لديك جسم يعيش مائة سنة.

بعد ذلك، راحا يشربان كأساً، كأسين وهما يثرثران، وكان بول يرفض، بالطبع، أن يدعه يدفع أجرة الاستشارة.

سيقول له أي شيء، إنه متألم من نقاط في جنبه، مثلاً وهو ما كان، منذ بضعة أيام، صحيحاً تقريباً. ربما حدثه عن هذه الأنواعِ من الهلع التي كانت تستولي، أحياناً، على أعصابه، لكن ذلك كان أشد خطراً.

سيصلان، بصورة طبيعية، إلى ذكر الأحداث الراهنة، الرجل الذي كانوا يبحثون عنه.

- لماذا وصفته بأنه «شخص مسكين»؟

كان ذلك لعباً بالنار. شنترو كان ذكياً إلى درجة كافية لأن يخمن. ألم يخمن فعلاً؟ ولن يجرؤ على أن يقول شيئاً. كان السيد لابيه مقتنعاً بأن صديقه لن يجرؤ على قول شيء.

إذا كان قد تحدث عن شخص مسكين. فذلك لأنه كان، في حالته، شيء قاتل، وهذا ما كان يريد التأكد منه. أليس ذلك، أيضاً، ما يتبين من المقابلة التي أجراها جانتيه؟ لم يكن يتوصل إلى التخلص من هذه الفكرة. في الأيام الماضية، رافقته كألم أصم لا ينتبه إليه المرء في بعض الأحيان، لكنه يعود، من وقت إلى آخر، لاذعاً.

عند رصيف دوبيريه، حين كان الخياط لا يزال حياً وكان يتبعه، فهم، فجأة، أنه ربما كان طبيب بوردو النفسي على صواب.

في الظلام، كان مركب صيد على أهبة تشغيل المحرك، مع مصباح ضخم من الأسيتيلين على الجسر، خيالات تتحرك، وأشياء ثقيلة تُحمل. كان

وراءه مقهيان، قرب الساعة الضخمة. كانا مقهيين من نوع مقهى الأعمدة مع زبائن كانوا يأتون في ساعات ثابتة ويلعبون بالورق أو النرد أو بالشطرنج. إلا أنهم لم يكونوا المجموعتين ذاتهما. كانوا ينتمون إلى الواحدة أو إلى الأخرى كان، هو، جزءاً من مقهى الأعمدة.

في المحطة، كان محرك قطار يشتغل، لم تكن الردهة مضاءة إلا جزئياً. مرت سيارات أجرة في الشارع. كان يمكن رؤيته وربما التعرف إليه على ضوء الكشافات.

انعطف يساراً، ثم يميناً في شارع الدكتور، شارع أناس بسطاء. كان بيت الزاوية مسكوناً من صانع براميل، وكانت براميل تعيق السير على الرصيف.

لم ير نوراً لدى شنترو، نظر، وهو ينحني، من القفل ولمح باب المطبخ المزجج في آخر الممشى، وكان مضاء.

قرع الجرس وهو مدرك جيداً لعدم جدوى خطوته. كان، وراء الباب، جرس صغير معلق على سلك حديدي. لم يكن يمكن عدم سماعه بسبب الصمت الذي يسود المنزل، ومع ذلك لم يتحرك أحد.

كانت الساعة الثامنة مساء. قرع الجرس من جديد، رأى ظلاً يرتسم على زجاج المطبخ وعرف أنها أوجيني، خادمة الدكتور العجوز.

لم يكن هذا الأخير قد عاد وإلا لكان هناك نور في الطابق الأول أو في مكتبه في الطابق الأرضي. كان يجب أن يتوقع السيد لابيه ذلك. منذ قليل، في مقهى الأعمدة، كان بول، عندما غادره، قد شرب كثيراً. في هذه الحالات، لم يكن يعود للعشاء. وبسبب نوع من الشعور بالكرامة، كان يغادر مقهى ميدان السلاح ويأخذ في دخول الخمارات الصغيرة التي لا يخشى أن يصادف فيها أصدقاء.

عادت أوجيني إلى الجلوس. لم تأت لتفتح. لن تفتح. كانت خائفة هي أيضاً. لا شك في أنها كانت ترتعش. لو ألح، فإنها يمكن أن تلجأ إلى الشرطة هاتفياً. فتحت نافذة في البيت المجاور. كان أحدهم ينظر إليه. فضل أن

يذهب، وكانت تلك من أشد لحظات حياته مشقة. حتى بول تخلى عنه. خطرت له فكرة أن يسرع إلى المحطة. ما زال لديه الوقت للقيام بذلك. كان يسمع لهاث القاطرة. كان ذلك قطار باريس الذي سيرحل بعد بضع دقائق. كان معه ما يكفي من المال ليشتري بطاقة.

وبعد؟ ما الفائدة؟

كاشودا مات وربما كانت هذه الميتة الوحيدة التي يحس حيالها، بالذنب.

لم يكن التفكير في لويز يوحي إليه إلا بالقرف. ذكرى ماتيلد والأخريات كانت تدعه هادئاً، تعطيه فقط، الرغبة في المناقشة الهادئة ليثبت أنه كان على حق، أنه اكتفى بفعل ما كان عليه أن يفعله.

لماذا لم يذهب إلى المصرف؟ أو لماذا لم يحمل معه مال المحفظة؟

في برهة اجتياز القناة، سمع وقع خطوات دورية، ودون أن يفكر، استدار. تبين، حالاً، أن تلك كانت غلطة، لكن الوقت قد فات. لو استأنف اتجاهه الأول لتساءلوا عما كان يفعل.

حث أفراد الدورية خطاهم. حاولوا. دون نجاح، أن يصلوا إليه بضوء مصباح كهربائي. ارتمى في زقاق صغير، كاد يركض، مشى بمزيد من السرعة، وكان لايزال يسمع الخطوات، بل سمع صوتاً يقول:

- من أين يمكن أن يكون قد هرب؟

تلطّى في إطار باب مظلم. كان يعلم أن ذلك سخيف، لكنه لم يكن يستطيع شيئاً حياله. خدمه الحظ، مر الرجال الأربعة على مسافة حوالي عشرين متراً بعيداً عنه دون أن يرتابوا في مخبئه. وبعد عشر دقائق، كان يستطيع أن يستأنف دربه.

كانوا جميعاً ضده، بمن فيهم جاذتيه، بمن فيهم بول شنترو، جعلوا من المدينة نوعاً من فخ بدأ في التخبط فيه.

كان متعباً حقاً. لم يكن، تقريباً قد نام في الليلة السابقة. لم يكن يستطيع أن يعود إلى بيته.

كان قد دار حول شارع المخلص الأقدس، وخلال لحظة، خيل إليه أنه ملاحَق.

من يعلم ما إذا كان المفوض بيجاك خلال تلك الساعة، قد خلع باب مخزن القبعات؟ أول ما ستفعله الشرطة هو الصعود إلى الطابق الأول ودخول غرفته.

لو كان شنترو في بيته لكانت أمامه فرصة لاستعادة هدوئه. كان يلزمه القليل. ربما كان، لولا موت كاشودا، قد عاد إلى شارع ميناج على الرغم من كل شيء.

ساعتان سيئتان يجب أن يمضيهما، ومتى أصبحت لويز في القبو، كل شيء سينتهي.

خاصة لو لم يتحدث شنترو، منذ قليل، خلال اللعب، عن شخص مسكين. ألم تكن هذه الكلمة تتضمن أنه لم تكن هناك نهاية ممكنة؟

لن يكن يحقد عليهم، لا على كاشودا، ولا على الدكتور، ولا على المفوض الذي بدى مهذباً، إنما بارداً، ولا حتى على لويز.

كانوا يؤذونه كثيراً. كانوا يطاردونه كحيوان. إنما لم يدعوا له سريراً ليرتاح. من المؤكد أنهم قد وضعوا شرطياً قرب بيته.

لو فهموا لتصرفوا بصورة مختلفة. لكنهم لم يفهموا. وهو لم يساعدهم. برر نفسه بصورة سيئة جداً في رسائله إلى الجريدة.

ما الذي سيفكرون فيه لو ذهب ليطلب غرفة في فندق؟

كل خطوة يقوم بها، الآن، في المدينة تعرضه للخطر لأنه لم يكن موجوداً حيث كان يجب أن يكون، لأن الجميع يعلمون أن مكانه الطبيعي كان عند سرير ماتيلد.

هل كان يستطيع أن يصيح بهم أنه لم تعد هناك ماتيلد، أنّ من حقه، الآن، أن يتصرف كالآخرين؟

بل كان يحق له أن يذهب إلى السينما! كانت هناك واحدة غير بعيدةٍ عن المكان الذي كان فيه. كان يرى أنوارها، إعلاناتها، كان يحس بلهاثها الحار. مضى زمن طويل لم يذهب خلاله إلى السينما! كان يربكه أن يتقدم نحو القفص الزجاجي الصغير ويمد يده بالنقود. كان يعرف صاحبها الذي يتردد على مقهى الأعمدة والذي لا بد أنه واقف إلى جانب الصندوق.

كان متعباً حقاً. كان يود لو يأخذ حماماً ساخناً ويتمدد على سرير، في أغطية نظيفة. كان يود لو أن أحداً، لو أن امرأة عذبة إلى جواره، تتحدث إليه بمودة.

فكر، فجأة، في الآنسة بيرت، خيل إليه أنه يشم عطرها. كان قد فكر فيها، من قبل، خلال الأيام السابقة. لم يعد يعلم ما الذي فكر فيه بالضبط. ألم يتردد في حمل وتر الفيولونسيل؟

لو كان بول على صواب، لو كان الطبيب النفسي على حق لما كان هناك موجب للنضال ، لكنه لم يكن يريد أن يسلم بذلك، ودار على عقبيه وسار، مرة أخرى، موازياً للأرصفة.

كان يقامر على فرصته، فرصته الأخيرة، كان يعي ذلك. كانت الساعة أقل من التاسعة بقليل، وربما كان شنترو قد اكتفى. من يعلم ما إذا كان سيجده في بيته؟ حتى لو كان سكراناً. فإن ذلك قد ينقذه. لم يكن يعلم ماذا سيقول له. لم يكن لذلك أهمية. كان يقوم بانعطافات خوفاً من الدوريات. شرطي واقف في زاوية شارع، في الظلام تابعه بعينيه برهة. يجب أن يكون قد تعرف عليه.

لم يكن يرى نور في الطابق الأول. من جديد لمح من القفل، باب المطبخ. قرع الجرس.

بعد أن انتظر برهة، انصرف وكانت مشيته مهزوزة كمشية سكران.

(١٠)

- آلو بيرت!

كان يتكلم بصوت خافت وقد كّور يده على جهاز الهاتف. كان يستطيع أن يرى الناس في البار، وراء الزجاج. كان ذلك، عند آخر الرصيف، غير بعيد عن سوق السمك، باراً صغيراً لم يتذكر أنه وضع، فيه، قدميه قط ولم يكن يشاهد فيه غير الصيادين. في الصباح، كانت نساء السوق يشربن فيه قهوة، وسلال القشريات تتكدس في الزوايا، و خيوط ماء تسيل على البلاط الأحمر القاني.

- من يتكلم؟

- ليون!

كانت تناديهم، جميعاً، بأسمائهم الأولى. لم يكن ذلك من قبيل رفع الكلفة، بل، على العكس من ذلك، كان نوعاً من الاحترام، نوعاً من التحفظ على كل حال. لم تسمح لنفسها، أبداً، في أية لحظة، بأن ترفع الكلفة معهم في الكلام.

- أنا أسمعك.

كان خجلاً قليلاً لم يكن صوته ثابتاً. قال متلعثماً:

- أود أن أمر بك برهة.

- في هذه الساعة؟

كان يتخيل الغرفة الداقئة، الحرائر، التحف، ستائر التول، السيجارة ذات الطرف الذهبي التي لا بدَّ أنها تدخنها.

- أرغب كثيراً في أن أراك!

ضحكت قليلاً، تمتمت:

- هذا مستحيل يا صديقي المسكين، أنا راقدة فعلاً، وأقرأ رواية مدهشة.

- أرجوك!

- ماذا أصابك فجأة؟

- لا أدري. أفعلي هذا من أجلي.

فهم أنها كانت مترددة. لم تكن خائفة مثل خادمة الدكتور.

- كنت أظن أنك إلى جانب زوجتك.

- إنها نائمة.

- وأنت هربت مثل تلميذ؟ من أين تهتف لي؟

- من مقهى.

- بحيث يعرف كل الناس أنك هتفت لي.

- كلا. أنا في حجرة هاتف. أتكلم بصوت خافت.

كان متلهفاً. كان قادراً على أن يتوسل إليها جاثياً. كان متشبثاً بالجهاز كما كان يمكن أن يتشبث، منذ قليل، بالدكتور.

- أعدك بأن لا أبقى طويلاً.

ما كان يريده كان قضاء الليل عندها. هذه الرغبة ساورته فجأة عندما فكر فيها، في شقتها، في السرير الكبير المبطن الذي لم يتفق له، أبداً، أن نام فيه حقاً.

- اسمعي يا بيرت....

- كلا يا صديقي. أنت لطيف جداً. أنت تعلم أني أحبك كثيراً.

كان صحيحاً أنها أبدت، دائماً، حياله، شيئاً من الإيثار، وربما كان ذلك لأنه كان يبدي لها صنوراً من المراعاة، يبدي، حيالها، الاحترام، يجلب لها زهوراً أو هدايا صغيرة.

- أنت تعرف جيراني، إنهم لا يجهلون أني لا استقبل أحداً، أبداً، مساء.

- لمرة واحدة.

- أخيراً، أنا أشعر بالتعب. لو تعلم كم أنا مرتاحة وحدي في سريري مع كتاب مشوق.

كانت تمزح بلطف.

- بيرت!

- هيا! عد بتعقل لتنام وتعال بعد ظهر الغد للسلام علي.

لم تكن تفهم أكثر مما يفهم الآخرون. لم ينقم عليها ولا على الآخرين أيضاً. كان ذلك مخيفاً. كانت تجهل إلى أي حد كان ما تقوله مخيفاً.

- أتوسل إليك.

- سأدلي إليك باعتراف وأنا واثقة من أنك لن تلح بعده. لقد أتيت على إنهاء اغتسالي الليلي، ورؤيتي بشعة دون ماكياج وطبقة من المعجون على وجهي وشعري في ملاقط التجعيد. هذا هو الأمر! أعتقد أنك ستكفّ عن الحديث في الموضوع الآن.

- سآتي للقرع على بابك مع ذلك.

- لن أفتح.

- بلى.

- كلا.

- سأقتحم الباب.

- لاتكن شريراً يا قبعاتي الصغير.

ربما أخطأت في التلفظ بهذه الكلمة، ومع ذلك، قالتها من دون سخرية، دون خبث. كانت، من جهتها، أقرب إلى المداعبة.

- أنا قادم.

لا بُدَّ أنها كررت كلمة «لا» وهو يغلق سماعة الهاتف. خرج من قفصه المزجج، اتجه نحو البار في حين كان صيادون ينظرون إليه دون أن يفكروا في شيء.

كان يجب أن يشرب شيئاً لأن المرء لا يدخل باراً ليهتف دون أن يشرب. كان هناك صفان من الزجاجات نظر إليهما متردداً. كان يرى على إحدى الزجاجات صورة زنجي. كان ذلك روماً نادراً ما شرب منه إلا كمشروب ساخن عندما يصاب بوافدة برد.

- كأس روم.

- كأس كبيرة؟

لماذا سكت الجميع؟ كان يمكن أن يقال أن هؤلاء الناس الذين كانوا، مع ذلك، لا يعلمون شيئاً يفهمون احتفالية الوقت الذي يمر.

سيكونون شهودا، وكذلك رجال الدورية وأوجيني، خادمة الدكتور. ثم الشخص المجهول الذي فتح نافذة عند سماعه القرع بإلحاح.

في الساعة الفلانية كان يفعل هذا..... في الساعة الفلانية انعطف عند زاوية الشارع الفلاني...... في الدقيقة الفلانية، هرب لدى سماعه خطوات واختبأ في الظل....... سوف يعيدون رسم روحاته وغدواته. كان ذلك سهلاً. كان نوع العمل الذي يحسنه بيجاك.

مرت برهة غادر، فيها، اللعبة التي لعبها خاسراً بكامل وعيه. أكان ذلك عندما خرج من المطعم الصغير؟ عندما دخل إليه؟ عندما تابع طريقه نحو ساحة السوق، بدلاً من أن يعود إلى بيته، عندما كانت السيدة كاشودا تولول على الميت؟

ألم يكن ذلك في الأمس؟ ألم يكن، فعلاً، قبل يوم أمس عندما كان، هو والخياط الصغير، يرقبان خروج الأم المقدسة أورسولا وهو يحدق في باب الأسقفية؟

لم يكن لهذا أهمية. كان يستطيع أن يذهب، مرة أخيرة، ليتأكد من أن شنترو ليس في بيته، لكن المكان بعيد وقد يصطدم بدوريات جديدة. ماذا سيقول له الآن؟

كانت الآنسة بيرت تنتظره. كان مقتنعاً بأنها ستنتهي بفتح بابها له. كان الروم قوياً جداً. كان خجلاً لكونه يشرب. كان يبدو له أن صاحب البار والصيانين يتابعون كل حركاته بانتباه.

لا شك في أن الزبائن المعتادين على المكان لم يكونوا يكتفون بكأس واحدة لأن المعلم لم يترك الزجاجة ولم يكن ينتظر سوى إشارة ليصب من جديد.

قام بهذه الإشارة، ليس لأنه كان يرغب في الكحول، بل بدافع احترام إنساني.

كان يمكن أن يدخل شنترو إلى البار. أمكنة كهذه هي التي يرتادها مساء. كان القبعاتي يتمنى ذلك. كان يسره أن يرى الباب يفتح ويتعرف على صديقه بول.

– كم؟

دفع وترك إكرامية. لكن المعلم استوقفه وارتبك من جراء ذلك. لم يتذكر أنه لا تدفع إكراميات في مثل هذه المقاهي. قيل له:

– ليلة سعيدة.

كان ذلك دون سخرية. وأصبح خارجاً. كانت هناك ظلمة. لم يكن القمر قد ظهر. في الحوض، وعلى الرغم من عدم وجود ريح، كان يسمع صرير بكرات بسبب المد الذي كان يرفع المراكب.

كانت له أنصبة في واحد من هذه المراكب، «هيلين الجميلة». ربما كان ذاك الذي كان يرى صواريه ترتسم بلون أسود على السماء الرمادية القاتمة.

مر أحدهم به، نظر إليه، التفت، كان رجلاً لايعرفه.

شاهد آخر.

مر تحت قبة البرج الذي كان فيه نور في الطابق الأول، يضيء نافذة مسكن الحارس التي كانت على شكل كوة. يجب أن يكون أصيص إبرة الراعي في مكانه. فقد رأى، دائماً، أصيص لإبرة الراعي على هذه النافذة.

كان شرطي يقف تجاه «سيدات فرنسا»، في شارع القصر.كاد أن يمر أمامه. ولم لا؟

كان الشرطي يعرفه. كانا عضوين في رابطة المحاربين القدماء نفسها.

قال له:

– مساء الخير يا سيد لابيه.

هل كان يجهل أنه كان على هذا الأخير أن يكون قرب سرير زوجته؟ كل الناس كانوا يعرفون ذلك. بعد بضع لحظات، سيتذكر الشرطي ويتساءل ما الذي جرى للقبعاتي.

كان يرسم أثره عبر المدينة بوضوح، رسم عقلة الإصبع لطريقه بحجارته، وكان يشعر، من جراء ذلك. بمسرة مريرة.

من زاوية شارع غارغولو، كانت ترى أنوار مقهى الأعمدة. في هذه الساعة تظهر الشعرة على لسان أوسكار، المعلم، وتكون عيناه زرقاوين مائلتين للخضرة ومشيته حذرة. لم يبقَ في القاعة سوى المجموعة الأخيرة من المداومين. بعد قليل، سيحين موعد الخروج من السينما المجاورة: التزاحم كما لو كان ذلك بعد قداس كبير، الناس يزررون معاطفهم وينتظر بعضهم بعضاً، النساء يعلقن أيديهن في أذرع أزواجهن، محركات السيارات التي تُدار والكشافات التي تضيء.

كان لا يزال يمكن أن يلتقي شندرو، أو حتى جوليان لامبير، أو أي شخص آخر. ربما كان يريحه أن يرى ظل المفوض بيجاك الذي لم يكن يحبه. لم يكن يعلم ما الذي كان سيفعله على وجه الضبط، لكن لديه الانطباع بأن ذلك كان سينتهي. لو لم يكن كاشودا قد مرض، لو أن كاشودا لم يمت، لكان الخياط الصغير استمر في متابعته ولما كان على القبعاتي سوى أن ينتظر، سوى أن يكلمه.

لم يعد أمامه مكان أبعد يمضي إليه، وكانت فرصه تتضاءل دائماً، تصبح غير موجودة تقريباً. لو كانت الآنسة بيرت امرأة تبقى في سريرها وتدع الجرس يرن عبثاً.

كان واثقاً من أنها ستنزل. لن يكون ذلك حالاً. ستكون، أولاً، سيئة المزاج. كانت البوابة مفتوحة. لم تكن تغلق إلا حوالي الساعة الحادية عشرة. كان هناك ضوء لدى طبيب الأسنان، وتسمع موسيقى حاكٍ أو راديو في الطابق الثاني لدى الأرشيفي العازب الذي كثيراً ما جمع في شقته فتياناً وفتيات.

مد ذراعه... لماذا لم يخطر لها أن تنزل بعد هاتفه وتفصل الجرس كما كانت غالباً ما تفعل بعد الظهر؟

لم تكن قد فكرت في ذلك. رن الجرس. تركته يرن ثلاث مرات، ثم سمع حفيفاً على الدرج وصوتاً كان يسأل عبر الباب:

- من هذا؟

- ليون.

- كن لطيفاً يا ليون. لاتلح هذا المساء.

- أتوسل إليك أن تفتحي لي.

أدارت المفتاح في القفل، ومنذ ذلك الحين انقضى كل شيء. لم تفعل أكثر من جعلها الباب ينفرج. كانت تعتمر طاقية من الدانتيل فوق مجعدات الشعر وترتدي ثوباً منزلياً مبطناً من الساتان الوردي.

- لست لطيفاً. لم تكن كذلك قط.

دفع المصراع بصورة بطيئة لا تقاوم. ولم يكف عن سماع موسيقى الطابق الثاني. كانوا يرقصون هناك، فوق. كانت تسمع خبطات النعال على الأرضية.

- هل شربت؟

- كأساً من الروم فقط.

لم تكن قلقة، كانت فقط مندهشة. وكما توقع، لم يستمر سوء مزاجها. كان ذلك أقرب إلى لعبة. تظاهرت بالحرد. كان كتابها مفتوحاً على طاولة الليل التي ينيرها مصباح. كان هذا المصباح لعبة، وكان ثوبها الواسع يحجب النور.

رقص ضيوف الأرشيفي حتى الساعة الواحدة صباحاً: أحدثوا، وهم ذاهبون، كثيراً من الضجة في الردهة ووجدوا مشقة في إيقاظ البواب ليفتح لهم البوابة. خلال كل هذا الوقت، كانوا يضحكون. كانت ضحكات الفتيات حادة.

في الساعة السابعة والنصف، كالمعتاد، وصلت جنفييف، خادمة الآنسة بيرت التي تسكن لدى ذويها، في فيتيي، على دراجة تركتها في زاوية من الباحة فيها مسند للدرجات.

كان معها مفتاح. صعدت السلم ودخلت، أولاً، إلى المطبخ. لم تكن تدخل الغرفة عادة مع القهوة بالحليب، وتفتح الستائر إلا في الساعة التاسعة.

هذا الصباح، خيل إليها أنها سمعت ضجة غير عادية. وفي الساعة الثامنة والنصف فتحت الباب، مدفوعة بقلق دون سبب محدد، ورأت رجلاً على السرير.

كان نائماً. كانت الآنسة بيرت راقدة في وضع عرضاني على السجادة.

لم تفكر جنفيف في الاقتراب، ولا في استعمال الهاتف، خرجت راكضة، تدحرجت على الدرج، أخطرت البواب والناس الذين كانوا مارين في الطريق ذاهبين إلى أعمالهم. لم يجرؤ أحد على الصعود قبل وصول شرطي، وكان الجميع ينظرون من تحت إلى النافذة بصمت.

الشرطي نفسه تردد على عتبة الغرفة، وأشهر مسدسه. كان شرطياً فتياً تماماً، مغطى الوجه بحب الشباب. كان لاعباً في فريق لكرة القدم. أصبح الرجال وراءه مهددين، وكانت النساء تحرضهن، وشوهد السيد لابيه يجلس على طرف السرير، يمرر يده على وجهه، ويرد شعره إلى الوراء.

خلال لحظة، تمتم وقد اعتراه الخوف أمام كل الناس.

- لا تضربوني.

توفر لديه حضور الذهن ليضيف، وهو يشير إلى جهاز الهاتف المبرنق باللون الأبيض، قائلاً:

- اهتفوا إلى المفوض.

لم يكن أحد يستطيع أن يعلم بماذا كان يفكر، ما الذي كان يشعر به. نظر إلى السجادة بتعبير كئيب على وجهه. ربما كانت الأمور ستجري بصورة مختلفة لو أن بيجاك لم يمر، وهو ذاهب إلى مكتبه، بميدان السلاح.

كان أناس يركضون في الشمس. كان غبرييل قد أتى على فتح باب مقهى الأعمدة. شوهد المفوض يبعد، ببرود، الحشد الذي كان يزحم السلم، والذي يتحمس. وقف عند إطار الباب وتوارى الشرطي ليفسح له المجال.

نظر إلى السيد لابيه الذي كان لا يزال جالساً على حافة السرير. كان القبعاتي في كامل ملابسه، بحذائيه وربطة عنقه المحلولة وسترته المجعدة. تبادل الرجلان النظر وبذل السيد لابيه جهداً لينهض، فتح فمه، تمتم أخيراً:

- إنه أنا.

الذين كانوا على المنبسط وسمعوه، ادعوا أنه تلفظ بهاتين الكلمتين كما لو كان ذلك بارتياح وأن ابتسامة خجولاً جعلت ملامحه تسترخي بينما كان يمد يديه لقيود المفوض.

على السلم، فيما بعد، عندما أبعد الجمهور، قال أيضاً:

- لا تدفعوني. لا تضربوني. أنا آت..........

الخياط الصغير والقبعاتي

هذه القصة، في نسختها الانكليزية ربحت، تحت عنوان «طوبى للبسطاء» جائزة ايلري كوين الأمريكية لأحسن قصة بوليسية. وقد نشرت ترجمتها، في فرنسا، مجلة «ميستير ماغازين».

إلا أننا فضلنا تقديم الصيغة الأصلية الفرنسية المختلفة إلى حد كاف.

(١)

حيث يخاف الخياط الصغير ويتشبث بجاره القبعاتي

كاشودا، خياط شارع «الكهنة الشرعيين» الصغير كان خائفاً، كانت تلك واقعة لا تنكر. ألف شخص، عشرة آلاف شخص بعبارة أصح - على اعتبار أنه كان في المدينة عشرة آلاف شخص - كانوا أيضاً خائفين باستثناء الأطفال الصغار جداً، لكن معظمهم لم يكن يعترف بذلك، بل لا يجرؤ على أن يعترف به لنفسه أمام المرآة.

منذ عدة دقائق، أشعل كاشودا المصباح الكهربائي الذي كان سلك حديدي يسمح له بسحبه وتثبيته فوق عمله تماماً. لم تكن الساعة قد بلغت الرابعة من بعد الظهر، لكن الظلام قد بدأ لأننا كنا في شهر تشرين الثاني. كانت السماء تمطر. على بعد مائة متر من الدكان، في السينما المضاءة باللون الخبازي والتي يسمع جرسها يهتز، كان يمكن أن يرى، في أخبار فرنسا والخارج، أناساً يتجولون في الشوارع بقوارب، مزارع معزولة وسط سيول حقيقية تحمل أشجاراً كاملة.

لكل ذلك حساب. لكل شيء حساب. لو لم نكن في الخريف، لو لم تظلم منذ الثالثة والنصف، لو لم يتدحرج المطر من السماء من الصباح إلى المساء، ومن المساء إلى الصباح، إلى حد لم يعد، معه، لدى كثير من الناس شيء جاف يلبسونه، لو لم تكن هناك، فوق ذلك، زوابع تندس في الأزقة الضيقة وترد المظلات كقفازات لما خاف كاشودا ويحتمل فضلاً عن ذلك، أن شيئاً ما كان ليحدث.

كان جالساً متربعاً، جلسة الخياط - لأن تلك كانت مهنته - على طاولة كبيرة صقلها بفخذيه منذ ثلاثين سنة كان يجلسن خلالها، طيلة اليوم، هذه الجلسة. كان في الدور الأوسط فوق دكانه مباشرة. كان السقف منخفضاً جداً. تجاهه، على الجانب الآخر من الشارع، كانت هناك قبعة هائلة عالية الأطراف، حمراء، تقوم مقام لافتة للقبعاتي، معلقة فوق الرصيف. من تحت القبعة، كانت نظرة كاشودا تغوص، عبر الواجهة، في مخزن السيد لابيه.

كان المخزنٍ سيء الإنارة. كانت المصابيح الكهربائية مغطاة بغبار يجعل النور كامداً. لم يكن زجاج الواجهة قد غسل منذ زمن طويل. لهذه التفاصيل أهمية أدنى، لكنها تلعب دورها أيضاً. كان مخزن القبعات قديماً. الشارع كان شارعاً قديماً. كان الشريان التجاري سابقاً، في الزمن البعيد الذي لم تكن، فيه، المخازن الحديثة، كمخازن السعر الموحد وغيرها، برفوفها المتوهجة، قد أنشئت في مكان آخر، على مسافة أكثر من خمسمائة متر، بحيث أن الدكاكين التي بقيت في هذا الطرف من الشارع سيئ الإنارة كانت دكاكين قديمة ويمكن التساؤل عما إذا كان أحد يدخلها.

وهذا سبب إضافي للخوف. حلت، أخيراً، ساعته. في هذه البرهة من اليوم، كان كاشودا يبدأ في الشعور بانزعاج مبهم يعني أنه في حاجة إلى كأسه من النبيذ الأبيض، أن عضويته التي تعودت عليه منذ زمن طويل كانت تطلبه بإلحاح.

وعضوية السيد لابيه، في الجهة المقابلة، كانت تحتاج إليه أيضاً. حانت الساعة بالنسبة إليه أيضاً. والدليل على ذلك أنه كان يرى القبعاتي يوجه بضع كلمات إلى ألفريد، مستخدمه الأصهب، ويرتدي معطفاً ثقيلاً بياقة من مخمل.

قفز الخياط الصغير من على طاولته، ارتدى سترته، عقد ربطة عنقه وهبط السلم الحلزوني وهو يصيح بأشخاص غير مرئيين:

- سأعود بعد ربع ساعة.

لم يكن ذلك صحيحاً. كان يبقى، دائماً، نصف ساعة، وغالباً ما كان يغيب ساعة. لكن سنوات انقضت كان، فيها، يعلن على هذا النحو أنه سيعود بعد ربع ساعة.

في البرهة التي كان، فيها، يرتدي معطفاً واقياً من المطر نسيه عنده زبون ولم يطالب به أبداً، سمع جرس الباب المقابل. اتجه السيد لابيه، ويداه في جيبه، وياقته مرفوعة نحو ميدان غامبيتا ملاصقاً للبيوت.

رن جرس الخياط الصغير بدوره. انطلق كاشودا تحت المطر الذي يصفعه، على مسافة حوالي عشرة أمتار وراء جاره المهيب. لم يكن يوجد، بالضبط سواهما *في الشارع الذي كانت الفوانيس، فيه، متباعدة جداً، بحيث ينتقل المرء من ثقب أسود إلى ثقب آخر أسود.*

كان يمكن لكاشودا أن يخطو بضع خطوات مستعجلة ليدرك القبعاتي. كانا متعارفين، كانا يتبادلان التحية عندما يتفق لهما أن يرفعا الستائر في وقت واحد. كانا يتحدثان مع بعضهما في مقهى السلام الذي سوف يوجدان فيه، معاً، بعد بضع دقائق.

ومع ذلك، كانت، بينهما فروق في المرتبة. السيد لابيه كان السيد لابيه، وكاشودا لم يكن إلا كاشودا. هذا الأخير كان، إذن، يتبعه، وهو ما كان كافياً لطمأنته، ذلك أنه إذا هوجم في هذه البرهة، فيكفيه أن يصرخ لينبه القبعاتي.

وماذا إذا أطلق القبعاتي ساقيه للريح؟ فكر كاشودا في ذلك. كان ذلك يبعث الرعشة في جسده، وخوفاً من الزوايا المظلمة والأزقة العمياء المناسبة لكمين، راح يمشي في وسط الشارع.

وفضلاً عن ذلك، لم يكن الطريق يستغرق سوى بضع دقائق. في آخر شارع الكهنة النظاميين، يوجد الميدان، أنواره، المارة فيه الأكثر عدداً على الرغم من العاصفة، وفيه شرطي مناوب.

انعطف الرجلان، الواحد بعد الآخر. يساراً. في البناية الثالثة، كان مقهى السلام بواجهتيه المنارتين بشكل لامع وحرارته المطمئنة وزبائنه في مكانهم والنادل، فيرمان، الذي كان يتفرج عليهم وهم يلعبون الورق.

خلع السيد لابيه معطفه ونفضه. أخذه فيرمان وعلقه على العلاقة. دخل كاشودا، بدوره، لكن أحداً لم يساعده على خلع معطفه. لم يكن لهذا أهمية. كان طبيعياً: لم يكن سوى كاشودا.

اللاعبون والزبائن الذين كانوا يتابعون اللعبة صافحوا القبعاتي الذي جلس وراء الدكتور تماماً. هم أنفسهم وجهوا هزة رأس - أو لاشيء على الإطلاق - إلى كاشودا الذي يم يجد كرسياً إلا تجاه المدفأة والذي أخذ البخار ينبعث من أسفل بنطاله.

بل إن ذلك البنطال الذي يطلق ماءه بخاراً هو الذي، بسببه، حقق الخياط الصغير اكتشافه.

نظر إليه برهة وهو يقول لنفسه إن القماش الذي لم يكن من النوعية الأولى سوف يتقلص. ثم نظر إلى بنطال السيد لابيه بعين خياط ليرى ما إذا كان نسيجه أفضل. ذلك أن السيد لابيه لم يكن، بالطبع، يلبس من عنده. لم يكن واحد، بين زبائن الساعة الرابعة الذين كانوا، كلهم، وجهاء، يلبس من عند الخياط الصغير.

في أحسن الأحوال، كان يعهد إليه بتصليحات أو بقلب ملابس.

كانت هناك نشارة خشب على الأرض. تركت عليها الأقدام المبللة رسوماً غريبة مع كومات صغيرة من الوحل هنا وهناك. كان السيد لابيه ينتعل حذائين فاخرين، وكان بنطاله رمادياً قريباً من السواد.

عند ثنية الساق اليسرى تماماً، كانت هناك نقطة بيضاء. لو لم يكن كاشودا خياطاً لما اهتم دون شك، بها. لابد أنه ظنها خيطاً لأن الخياطين اعتادوا على سحب الخيوط. ولو لم يكن في هذه البساطة لما خطرت له، كذلك، فكرة الانحناء.

نظر إليه القبعاتي يفعل وهو مدهوش قليلاً. التقط كاشودا الشيء الأبيض الذي انزلق إلى الثنية والذي لم يكن خيطاً. بل قطعة ورق صغيرة. تمتم:

- اعذرني.

ذلك أنه كان يعتذر دوماً. لطالما كان آل كاشودا يعتذرون. اعتادوا هذه العادة الحذرة منذ قرون وهم يُنقَّلون كأنهم طرود، من أرمينيا إلى سميرنة أو إلى سورية.

ما تجدر الإشارة إليه، هو أنه لم يكن يفكر بشيء وهو ينهض ممسكاً بقصاصة الورق بين الإبهام والسبابة. بدقةٍ أشد، كان يفكر: «ليس هذا خيطاً...».

كان ير ى أرجل اللاعبين وأقدامهم، قوائم طاولات الرخام، مربول فيرمان الأبيض. وبدلاً من أن يلقي بقصاصة الورق أرضاً، مدّها للقبعاتي مردداً:

– اعذرني...

ذلك أنه كان يمكن للقبعاتي أن يتساءل عما كان يبحث عنه في ثنية بنطاله.

عند ذلك، وبينما كان السيد لابيه يمسك بها بدوره – لم تكن الورقة، أبداً، أكبر من نثرة – أحس كاشودا بكل كيانه يتجمد، وشعر برعشة مقيتة إلى أقصى حد تعبر عنقه من الجانبين.

ما هو أبعث على الخوف، هو، على وجه الضبط أنه كان ينظر إلى القبعاتي وأن القبعاتي كان ينظر إليه. ظلا هكذا برهة طويلة يحدق، فيها، كل منهما في الآخر. لم يكن أحد مهتماً بهما. كان اللاعبون والآخرون يتابعون اللعبة. كان السيد لابيه رجلاً ضخماً ثم هزل. كان لا يزال كبير الحجم إلى حد كافٍ لكنه كان يبدو واهياً. لم تكن قسماته المتراخية تتحرك كثيراً. ولم تتحرك في هذا الظرف الهام.

أخذ قطعة الورق ودعكها بين أصابعه صانعاً منها كرة لا يتجاوز حجمها، أبداً، رأس دبوس.

– شكراً يا كاشودا.

يمكن مناقشة ذلك إلى ما لا نهاية ولا بدّ أن الخياط الصغير فكّر فيه أياما وليال: هل كان صوت القبعاتي طبيعياً؟ هل كان ساخراً؟ مهدداً؟ متهكماً؟

كان الخياط يرتعش وكاد يقلب كأسه التي أمسك بها ليتماسك.

لم يعد ينبغي أن ينظر إلى السيد لابيه. كان ذلك أخطر مما ينبغي. كانت مسألة حياة أو موت بقدر ما يمكن أن تكون، أيضاً، مسألة حياة بالنسبة لكاشودا!

بقي على كرسيه جامداً في الظاهر، ومع ذلك، كان يحس بأنه يقوم بقفزات حقيقية. كانت هناك برهات كان عليه، فيها، أن يمسك بنفسه بكل قوته من أجل أن لا يطلق ساقيه للريح.

ماذا كان سيحدث لو نهض صارخاً: «إنه هو»؟

كان يحس بالحر والبرد معاً. كانت حرارة المدفأة تحرق جلده، وكان يمكن، أيضاً، لأسنانه أن تصطك. تذكر فجأة شارع الكهنة النظاميين وتذكر نفسه، هو كاشودا الذي كان يتبع القبعاتي مقترباً منه إلى أقصى حد ممكن لأنه كان خائفاً. حدث ذلك عدة مرات، وحدث منذ ربع ساعة. لم يكن هناك سواهما في الشارع، وكان الجو مظلماً.

لقد كان هو! كان الخياط الصغير يود أن ينظر إليه خلسة، لكنه لم يكن يجرؤ. ألم يكن يمكن لنظرة واحدة أن تكون الحكم عليه؟

لم يكن ينبغي، خاصة، أن يمرر يده على عنقه كما كان يرغب إلى حد أصبح الأمر معه مقلقاً، كما يحدث عندما يقاوم المرء رغبة في حك جلده.

– كأس أخرى من النبيذ الأبيض يا فيرمان.

غلطة أخرى. في الأيام الأخرى، كان يمضي نصف ساعة قبل أن يطلب كأسه الثانية. ماذا كان يجب أن يفعل؟ ماذا كان يستطيع أن يفعل؟

كان مقهى السلام محاطاً بمرايا يرى فيها دخان الغلايين والسجائر يتصاعد. لم يكن هناك من يدخن السيغار غير السيد لابيه، وكان كاشودا يتنفس منه عبقات أحياناً. كانت هناك، في آخر المقهى، إلى اليمين، قرب المغاسل، حجرة هاتف. ألم يكن يستطيع أن يدخل إلى هذه الحجرة متظاهراً بأنه ذاهب إلى المغاسل؟

– آلو!...الشرطة؟....إنه هنا!

وماذا لو دخل السيد لابيه وراءه إلى الحجرة؟ لن يسمع أحدٌ شيئاً. كان ذلك يجري دائماً دون ضجة. لم تصرخ ضحية، ضحية واحدة من الست. كن عجائز، لكن القاتل لم يتعامل إلا مع العجائز. من أجل ذلك، كان الرجال

يتبجحون، يجازفون بأنفسهم أكثر في الشوارع. ولكن ما الذي يمنعه من القيام باستثناء؟

- إنه هنا!...تعالوا لأخذه بسرعة.......

وبالمناسبة، سيقبض عشرين ألف فرنك. إنها مقدار الجائزة التي كان كثير من الناس يحاولون كسبها إلى حد لم تعد الشرطة تعرف، معه، بماذا تفكر وقد أنهكتها أشكال من الاتهامات الأشد فنتازية.

مع عشرين ألف فرنك سيستطيع........

لكن من الذي سيصدقه أولاً؟ سيؤكد:

- إنه القبعاتي!

سيردون عليه.

- أثبت ذلك.

- لقد رأيت حرفين...

- أي حرفين؟

- حرف n وحرف t

بل لم يكن واثقاً من حرف t

- فسر ما تقول يا كاشودا.......

سوف يتحدثون معه بقسوة. يتحدثون دائماً بقسوة إلى كل كاشودات الأرض.....

- ... في ثنية بنطاله.....جعل منها كرة صغيرة........

وأين هي الآن، هذه الكرة التي بحجم رأس دبوس؟ اذهب للعثور عليها. ربما تركها تقع على الأرض وسحقها في النشارة تحت عقبه! ربما ابتلعها! ماذا كان هذا يثبت؟ أن القبعاتي اقتطع حرفين من صفحة جريدة؟ حتى هذا لا يثبت. يمكن أن يكون قد التقط هذه الورقة من مكان آخر دون أن يعرف. وماذا إذا كان يطيب له أن يقتطع حروفاً من جريدة؟

كان هناك ما يبعث الحمى في رجل أمتن من الخياط الصغير، في أي واحد من الذين كانوا هناك، أناس لائقين، ومع ذلك تجار كبار، طبيب، عامل في مضمار التأمين، تاجر خمور. أناس ميسورون يستطيعون أن يمضوا في لعب الورق جزءاً كبيراً من بعد الظهر ويتناولوا عدة كؤوس يومياً.

لم يكونوا يعلمون. لم يكن أحد، خلاف كاشودا.

والرجل يعرف أن كاشودا......

كان يتعرق كما لو كان قد تناول عدة جرعات ساخنة وابتلع كثيراً من أقراص الاسبيرين. هل لاحظ القبعاتي اضطرابه؟ هل بدا على الخياط أنه فهم طبيعة الورقة الصغيرة؟

أن تحاول التفكير في أشياء لها مثل هذه الأهمية، في حين، يدخن الآخر سيغاره على بعد أقل من مترين منك ويفترض فيك أنك تنظر إلى لاعبي البيلوت

- نبيذ أبيض يا فيرمان........

دون أن يريد. تكلم دون أن يريد، لأن حلقه كان جافاً. ثلاث كؤوس من النبيذ الأبيض، هذا أكثر مما ينبغي. أولاً لأن ذلك لم يحدث له أبداً إن صح هذا القول. حدث لدى ولادة أبنائه فقط. كان لديه ثمانية أبناء وينتظر التاسع. لا يكاد يولد واحد حتى تحمل امرأته بآخر. لم يكن الخطأ خطأه. كان هناك أناس ينظرون إليه مستائين في كل مرة.

هل يقتل رجل لأن له ثمانية أبناء وينتظر تاسعاً، وسينتظر عاشراً بعد ذلك، فوراً.

أحدهم - رجل التأمين - الذي يوزع الورق، كان في ذلك الحين يقول:

- هذا غريب..... هذه ثلاثة أيام تنقضي ولم يقتل عجوزاً..... لا بُدَّ أنه بدأ يخاف.........

سماع هذا ومعرفة ما كان كاشودا يعرفه والتوصل إلى عدم النظر إلى القبعاتي! لكن حظه سيء. كان ينظر بصورة مستقيمة أمامه، متعمداً، بجهد

مؤلم، وهاهو أمامه، في المرآة، وجه السيد لابيه الذي التقته عيناه. كان السيد لابيه يحدق فيه، هو كاشودا، وبدا للخياط الصغير أن ابتسامة مبهمة كانت تلوح على شفتي القبعاتي. بل تساءل عما إذا كان لن يوجه إليه غمزة، غمزة عين تواطئية، بالطبع، كما لو كان ليقول: «هذا مضحك، أليس كذلك؟»

سمع كاشودا صوته الذي قال:

– أيها النادل.......

لم يكن ينبغي ذلك. ثلاث كؤوس كانت كافية، أكثر من كافية، خاصة أنه لم يكن يتحمل الشرب.

– سيدي؟

– لا شيء......شكراً......

كان هناك تفسير ممكن بعد كل شيء. كان مبهماً قليلاً في ذهن كاشودا، لكنه متماسك. لنفترض أن هناك رجلين بدلاً من واحد: قاتل العجائز الذي لا يعرف عنه شيء على الإطلاق خلاف أنه وصل، في ثلاثة أسابيع إلى ضحيته السادسة، من جهة، ومن جهة ثانية، واحد كان يريد أن يتسلى، أن يضلل مواطنيه، وربما كان مهووساً يكتب في «بريد اللوار»، الرسائل العتيدة المؤلفة من حروف مقتطعة من الصحف. لم لا؟ هذا شيء يرى. هناك أناس تدير هذه الأمور رؤوسهم.

ولكن، إذا كان هناك رجلان بدلاً من واحد، فكيف كان الثاني، صاحب الحروف المقتطعة، يتنبأ بما سيفعله الأول؟ ذلك أن ثلاثاً من جرائم القتل على الأقل، قد أعلن عنها بالطريقة نفسها دائماً. كانت الرسائل ترسل بالبريد إلى «بريد اللوار»، وفي معظم الأحيان، كانت الكلمات المطبوعة مقتطعة من جريدة «بريد اللوار» نفسها وملصقة ببعضها بعناية.

«عبثاً يجري اللجوء إلى الكتيبة السيارة.العجوز الثالثة غداً».

بعض الرسائل كانت أطول. كان ذلك يقتضي وقتاً لإيجاد الكلمات المطلوبة من الجريدة، لجمعها كلغز.

«المفوض ميكو يظن نفسه، لأنه جاء من باريس، ذكياً جداً، في حين أنه ليس سوى طفل جوقة ترتيل، يخطئ إذا شرب أكثر مما ينبغي من مارك بورغونيا الذي يجعل أنفه يحمر».

وبالفعل، ألم يكن المفوض ميكو الذي أرسله الأمن الوطني لإدارة التحقيق يأتي، بين وقت وآخر، ليشرب كأساً في مقهى السلام؟ الخياط الصغير رآه هناك. كان يجري بشكل اعتيادي توجيه الأسئلة إلى الشرطي الذي كان يميل، فعلاً، إلى مارك بورغونيا.

- ماذا، إذن، يا سيدي المفوض؟

- سنمسك به، لا تخافوا. هؤلاء المهووسون يذتهون، دائماً، إلى ارتكاب غلطة. إنهم راضون عن أنفسهم أكثر مما يذبغي. يجب أن يتكلموا عن منجزاتهم.

وكان القبعاتي حاضراً عندما نطق الشرطي بهذه الكلمات

«أغبياء لا يعلمون شيئاً من شيء يزعمون إني، عن جبن، لا أهاجم إلا العجائز. وماذا إذا كنت أشمئز من العجائز؟ أليس ذلك من حقي؟ فليعلموا أيضاً، وسوف أقتل، كي أرضيهم، رجلاً، بل رجلاً كبيراً، بل قوياً، الأمر، بالنسبة لي، سيان سيرون، حقاً، إذن......»

وكاشودا الذي كان قصيراً جداً، هزيلاً، وليس أقوى من غلام في الخامسة عشرة من عمره!

- هل ترى يا سيدي المفوض.......

ارتعد الخياط. كان ميكو قد أتى على الدخول بصحبة بيجوليه، طبيب الأسنان. كان بديناً ومتفائلاً. أدار كرسياً ليجلس مفرشخاً تجاه اللاعبين الذين قال لهم بتنازل:

- لا تزعجوا أنفسكم...

إنها تتقدم، تتقدم.

- هل وجدتم أثراً؟

كان كاشودا يرى، في المرآة، السيد لابيه الذي كان لا يزال ينظر إليه. وعند ذلك، اعتراه خوف آخر. وماذا لو كان السيد لابيه بريئاً، بريئاً من كل شيء، من العجائز والرسائل. ماذا لو كان قد التقط قطعة الورق في ثنية بنطاله مصادفة، من مكان لا يعلمه إلا الله.. كما يلتقط المرء برغوثاً؟

يجب أن يضع نفسه مكانه. كاشودا انحنى والتقط شيئاً. السيد لابيه لم يكن يعرف حتى من أين، بالضبط، التقطت قطعة الورق هذه. ما الذي يثبت أن الخياط الصغير نفسه ليس مَن أوقَعَها، حاول أن يخفيها واضطرب فمد يده بها إلى محاوره؟

نعم، ما الذي كان يمنع القبعاتي من الشك في جاره كاشودا؟

- كأس من النبيذ الأبيض!

سحقاً! لقد سبق أن شرب الكثير، ولكنه لايزال يحتاج إلى كأس أخرى. كان يبدو له أنّ في المقهى مقداراً من الدخان أكبر من المعتاد وأن الوجوه أشد تلاشياً. أحياناً كانت طاولة اللاعبين تبدو له بعيدة بعداً غريباً.

يا له من أمر غريب... ماذا لو كان يرتاب في السيد لابيه؟ وكان السيد لابيه يرتاب فيه؟.... هل سيفكر القبعاتي، هو أيضاً، في جائزة العشرين ألف فرنك؟ كان يقال بأنه غني، وأنه يدع تجارته تنهار لأنه ليس في حاجة إلى المال. ذلك أنه كان ينبغي تنظيف الواجهات، تحديثها، زيادة الإضاءة وتجديد كل المخزون. لم يكن يستطيع أن يأمل في أن يأتي الناس لشراء قبعات من طراز ما قبل عشرين سنة كانت تزحم الرفوف ويتكاثف عليها الغبار.

ربما كانت ستغريه العشرون ألف فرنك لو كان بخيلاً.

فليتهم كاشودا... حسناً! لأول وهلة، سيصدقه الناس لأن كاشودا كان من هؤلاء الأشخاص الذين يرتاب فيهم الآخرون طواعية لأنه ليس من المدينة، بل ليس من البلاد، لأن له وجهاً غريباً، لأنه كان يعيش وسط أطفال يتزايدون باستمرار ولأن زوجته لا تكاد تتكلم الفرنسية.

ولكن ماذا بعد؟ لماذا سيهاجم الخياط الصغير العجائز في الطريق دون أن يكلف نفسه سرقة مجوهراتهن أو حقائبهن؟ كان كاشودا يقول ذلك لنفسه، ثم سرعان ما يعترض قائلاً:

ولماذا سيحس السيد لابيه الذي جاوز عمره الستين، بعد حياة مواطن نمونجي، فجأة، بالحاجة إلى خنق الناس في الأزقة المعتمة؟

كان ذلك معقداً بصورة بشعة. جو مقهى السلام المألوف لم يعد، هو نفسه، مطمئناً، وكذلك وجود المفوض ميكو.

فليؤكد أحدٌ لميكو أن ذاك كان كاشودا وسوف يصدق.

أمّا إذا قيل له أنه السيد لابيه..........

يجب التفكير في ذلك جدياً. إنها مسألة حياة أو موت. ألم يعلن القاتل، عن طريق الجريدة، أنه قد يهاجم رجلاً؟

وهناك ذلك الشارع، شارع الكهنة النظاميين غير المنار جيداً الذي يجب اجتيازه! وهو يسكن تجاه مخزن القبعات الذي يمكن أن تراقب منه أدنى أفعاله وحركاته.

أخيراً، كان يجب أن يحسب حساب العشرين ألف فرنك التي هي أكثر مما يكسبه في ستة أشهر.

- قل لي يا كاشودا.

أحس بأنه يحط على الأرض قادماً من عالم بعيد، بين أناسٍ نسي وجودهم منذ عدة دقائق. وبما أنه لم يتعرف على الصوت، فقد كانت ردة فعله الالتفات نحو القبعاتي الذي كان يراقبه وهو يمضغ سيغاره. ولكن القبعاتي لم يكن من ناداه، بل المفوض.

- أصحيح أنك تنجز العمل بسرعة بسعر ليس غالياً؟

في لمحة عين، رأى فرصة غير مأمول فيها وكاد يلتفت مرة أخرى إلى السيد لابيه ليطمئن إلى أن الأخير لم يقرأ الفرح على وجهه.

الذهاب إلى الشرطة أمر لم يكن يجرؤ عليه. كان سيتردد في الكتابة لأن الرسائل تبقى ويمكن أن تثير متاعب. لكن ها هو الرئيس الكبير، ممثل النظام، القانون، يعرض، في معجزة، أن يحضر إليه. قال، وهو يخفض عينيه بتواضع:

– بالنسبة لأحوال الحداد، أسلم البزة في أربع وعشرين ساعة.

– إذن، فلنقل أن الأمر يتعلق بالحداد على العجائز الست واصنع لي بزة بالسرعة نفسها. لم آت، تقريباً، بشيء من باريس، وهذه الأمطار جعلت بزتي في حالة سيئة. هل لديك على الأقل جوخ من الصوف الخالص؟

– سيكون لك أفضل أجواخ إلبوف.

ياالله! كم كان تفكير الخياط الصغير يمشي بسرعة! ربما كان ذلك مفعول كؤوس النبيذ الأبيض الأربع. تباً! سيطلب كأساً خامسة بصوت أكثر ثباتاً من المعتاد. سيجري شيء رائع: فبدلاً من أن يعود، وحده، إلى بيته – ألم يكن سيموت رعباً وهو يفكر في السيد لابيه وأثناء مروره بزوايا شارع الكهنة النظاميين المظلمة؟ – سيرافقه المفوض من أجل أن يأخذ قياسه. وعندما يصل إلى بيته ويغلق الباب... كان ذلك رائعاً، غير مأمول فيه، سوف يقبض الجائزة، عشرين ألف فرنك دون التعرض لأي خطر.

– إذا كانت لديك خمس دقائق لترافقني إلى البيت الواقع في الجوار تماماً.....

كان صوته يرتعش قليلاً، هناك فرص يعتمد عليها المرء دون أن يجرؤ على المبالغة في الاعتماد عليها عندما يكون هذا المرء كاشودا، ويكون معتاداً، منذ قرون، على الرفسات في مؤخرته وعلى مزحات القدر السخيفة.

– سآخذ قياسك وأعدك بأنك، غداً مساءً، في الساعة نفسها.......

كم يطيب الانطلاق على هذه الصورة! كل الصعوبات ذللت، كل شيء يتدبر، كما في حكاية جنيات.

أناس يلعبون الورق... رأس فيرمان الطيب - كل الرؤوس تصبح، أيضاً، طيبة في هذه البرهات - الذي يتابع اللعبة... القبعاتي الذي يبذل جهده كي لا يتابع...

سيأتي المفوض..... سيخرجان معاً....... سيدفعان باب الدكان....... لا أحد يستطيع أن يسمع..

- اسمع يا سيدي المفوض، القاتل هو الخ.....تكفي جملة واحدة كي تطيح بكل شيء.

- أحتاج إلى حوالي ساعة لأكون جاهزاً.........

المفوض يرغب في أن يلعب البيلوت، هو أيضاً، ويعلم أن أحداً سوف يترك له مكانه ما أن ينتهي الشوط.

- سآتي لرؤيتك غداً صباحاً... افترض، أنك دائماً في البيت.... فضلاً عن أنه مع هذا الجو.....

لم يبق شيء. القصة الجميلة تهاوت. كان هذا، مع ذلك، سهلاً جداً! وغداً صباحاً، ربما كان كاشودا ميتاً! زوجته وأبناؤه لن يقبضوا العشرين ألف فرنك التي كانت من حقه.

ذلك أنه يحس، بصورة متزايدة، بأن له حقاً فيها، يعي ذلك، يثور.........

- إذا جئت هذا المساء، فإني سأستطيع الإفادة من.........

لم ينجح هذا معه، لا بد أن السيد لابيه يضحك. انتهت اللعبة فعلاً وأعطى رجل التأمين مكانه على المائدة الخضراء للمفوض ميكو. لا ينبغي أن يكون للمفوضين الحق في لعب الورق. يجب أن يفهموا من تلميحه....لا يستطيع كاشودا، مع ذلك، أن يتوسل إليه ليأتي من أجل أخذ قياسه.

كيف يذهب الآن؟ إنه لا يبقى، عادة، سوى نصف ساعة، وأكثر من ذلك بقليل أحياناً، في مقهى السلام. كانت هذه تسليته الوحيدة، جنونه. ثم يعود. الأبناء كاملو العدد - الصغار عادوا من المدرسة - ويثيرون ضجة

جهنمية. تنتشر في البيت رائحة المطبخ. دولفين – تحمل اسماً فرنسياً بصورة مضحكة، في حين لا تكاد تتكلم هذه اللغة – تصيح بالصغار بصوت حاد وهو يجلس إلى طاولته في الطابق الأوسط، ويقرب المصباح من عمله ويخيط طوال ساعات.

كانت رائحته سيئة. ويعرف ذلك جيداً. تفوح منه، في الوقت نفسه، رائحة الثوم الذي يستهلك منه الكثير في البيت ورائحة من الأقمشة التي يعمل عليها. هناك أشخاص في مقهى السلام، يرجعون كراسيهم إلى وراء عندما يجلس حول طاولة المعتادين.

هل هذا سبب كي لا يأتي المفوض حالاً؟ ليت أحداً يكون ذاهباً في اتجاهه. لكنهم جميعاً، الحاضرون هنا يسكنون باتجاه شارع القصر، كلهم ينعطفون يساراً، في حين أن عليه الانعطاف يميناً.

مسألة حياة أو موت........

– الشيء نفسه يا فيرمان.

كأس أخرى من النبيذ الأبيض. كان خائفاً جداً من أن يخرج القبعاتي في أعقابه! ثم، حين طلب الكأس، فكر في أنه إذا خرج السيد لابيه أولاً، فربما سيكون ذلك لينصب له كميناً في إحدى الزوايا المظلمة في شارع الكهنة النظاميين.

الخروج قبله خطر

الخروج بعده أخطر أيضاً.

إنه لايستطيع، مع ذلك، البقاء هنا كل حياته.

– فيرمان......

تردد. كان يعلم أنه مخطئ، إنه سيسكر ولكنه لم يعد قادراً على غير هذا

– الشيء نفسه.

ألن يكون هو من سيرتابون فيه؟

(٢)

حيث يشهد الخياط الصغير نهاية آنسة مسنة

- كيف حال ماتيلد؟

أحدهم قال هذه الجملة الصغيرة، لكن من هو؟ في هذه البرهة،كان رأس كاشودا قد أصبح ثقيلاً، وربما طلب كأسه السابعة من النبيذ الأبيض إلى حد أنه سُئِل عما إذا كان يحتفل بولادة جديدة. يحتمل أن يكون جيرمان، البقال، هو الذي تكلم. وفضلاً عن ذلك، فلم يكن لهذا أهمية. جميعهم في العمر نفسه تقريباً، بين الستين والخامسة والستين. معظمهم كانوا معاً، في المدرسة، أولاً، ثم في الثانوية. لعبوا بالكريات معاً، يرفعون الكلفة بينهم في الخطاب. حضروا زيجات بعضهم بعضاً. لا شك في أنه كان لكل منهم، في الخامسة عشرة أو في السابعة عشرة، الحبيبة التي أصبحت زوجة صديقه.

وهناك آخرون، مجموعة من تتراوح أعمارهن بين الأربعين والخمسين وتستعد لأخذ مكان الأولى، من أجل العهد الذي لن يعود فيه الأكبر سناً موجودين، ويلعب أفرادها الورق في الركن الأيسر من مقهى السلام. إنهم أكثر ضجيجاً بقليل ولكنهم يصلون بعدهم، في الخامسة، لأنهم لم يكسبوا، بعد، كل مراتبهم.

- كيف حال ماتيلد؟

إنها جملة صغيرة سمعها كاشودا كل يوم تقريباً. طرح هذا السؤال من أطراف الشفاه كما كان يمكن أن يقال «أما زالت السماء تمطر؟»

لأنه انقضى أبد على تحول ماتيلد، زوجة القبعاتي، إلى نوع من أسطورة. لا بد أنها كانت، ذات يوم، فتاة مثل الأخريات. ربما كان بعض اللاعبين قد غازلوها وقبلوها في الزوايا. ثم تزوجت وذهبت، دون شك، إلى قداس الساعة العاشرة، كل يوم أحد، بأبهى ملابسها.

تعيش، منذ خمس عشرة سنة في طابق أوسط مشابه لطابق كاشودا، تجاهه، ونادراً ما تزاح ستائره. هو نفسه لا يراها ويكاد يرى بقعة وجهها أيام التنظيف الكبير.

- ماتيلد بخير..

وبعبارة أخرى، لم تصبح حالتها أسوأ، لا تزال مشلولة، يستمرون في وضعها، كل صباح، في مقعدها، وكل مساء في سريرها، ولكنها لم تمت بعد.

تحدثوا عن ماتيلد وعن أمور أخرى.. لم يتحدثوا طويلاً عن القاتل لأنهم، هنا، في مقهى السلام، يتظاهرون بعدم الاهتمام بمثل هذه الأمور إلا من فوق.

لم يجرؤ كاشودا على الذهاب خوفاً من أن يرى القبعاتي يخرج وراءه ويتبعه. عند ذلك، شرب. كان على خطأ. لكن ذلك كان أقوى منه. لاحظ، مرتين أو ثلاثاً، أنّ السيد لابيه ينظر إلى الساعة الباهتة المعلّقة بين مرآتين، ولم يتساءل لماذا. على هذا النحو، فقط، عرف أن الساعة بلغت الخامسة وسبع عشرة دقيقة، تماماً، عندما نهض القبعاتي وضرب طاولة الرخام بقطعة نقوده وهي عادته في المناداة على فيرمان.

- كم؟

إذا كان يحيّي مصافحاً عند الوصول، فإنه يكتفي، عند الرحيل، بوداع إجمالي. بعضهم يقول «إلى الغد»، وبعضهم يقول «إلى المساء»، لأن هناك من يلتقون بعد العشاء لجولة جديدة من اللعب.

«سوف ينتظرني في زاوية من شارع الكهنة النظاميين وينقض عليَّ لدى مروري...»

ليته يستطيع دفع حسابه في الوقت المناسب، ويخرج على أعقاب القبعاتي ولا يجعله يغيب عن عينيه! إنه الأقصر والأضعف من الاثنين. هناك فرص لأن يكون الأسرع ركضاً. الأفضل هو متابعة الآخر على مسافة قصيرة مستعداً للهرب عند أدنى حركة مريبة.

خرج الرجلان وبينهما فاصل من بضع ثوان. الشيء الطريف هو أن اللاعبين لم يلتفتوا إلى القبعاتي، ولكنهم فعلوا ذلك، حقاً، بالنسبة للخياط الصغير الذي بدا لهم على غير ما يرام.

من يعلم؟ ألم يتمتم أحدهم:

– ماذا لو كان هو؟

كانت الريح تشتد في زوايا الشارع، كان المرء يتلقى الريح كصفعة قوية تجعله ينطوي إلى الأمام أو يرتد إلى الوراء. كانت السماء تمطر. كان وجه الخياط الصغير مبللاً، وكان يرتجف تحت معطفه الواقي قليل السماكة.

لا يهم. كان يتعقب الآخر. كان يجب أن يتبعه عن قرب. كان ذلك خشبة خلاصه الوحيدة. بقي أمامه ثلاثمائة متر، مائتا متر، مائة متر، ويصبح في بيته، سيستطيع أن يغلق على نفسه، أن يتحصن في انتظار زيارة المفوض صباح الغد. كان يعد الثواني، وهاهو القبعاتي يتجاوز مخزنه حيث يرى، بصورة مبهمة، وراء الطاولة المستخدم الأصهب. كاشودا، بدوره، تجاوز دكانه دون أن يعلم، تقريباً، لأن قوة كانت تدفعه إلى المتابعة دائماً.

لم يكن هناك، كما منذ قليل، سواهما في شوارع الحي المتزايدة الإقفار التي كانا يغوصان فيها. كان كل منهما يسمع، بوضوح، خطوات الآخر كأصداء لخطواته. فالقبعاتي كان يعرف، إذن، أنه متبوع.

وكاشودا كان ميتاً من الخوف. كان يمكن أن يتوقف، يدور على عقبيه ويعود إلى بيته. لا شك في ذلك. إلا أنه لم يكن يفكر في ذلك فقط. مهما بدا ذلك غريباً، فقد كان أكثر خوفاً من أن يفعل.

كان يتبع. كان يمشي على مسافة عشرين متراً وراء رفيقه. كان يتفق له أن يتكلم وحده، في المطر والريح.

- ماذا لو كان هو؟

هل كان لايزال يشك؟ هل كان يقوم بهذه الملاحقة ليطمئن قلبه؟

بين حين وآخر، كان الرجلان يمران، بفاصل بضع ثوان، أمام دكان مضيئة، وكان كل منهما بدوره يغوص في الظلمة، ولا يعود لهما من نقطة استناد سوى صوت خطواتهما.

- إذا توقف توقفت........

توقف القبعاتي فتوقف. عاد القبعاتي إلى المشي، فعاود الخياط الصغير السير بتنهدة ارتياح.

كانت هناك دوريات في المدينة، كميات من الدوريات إذا صدقت الجريدة. كانت الشرطة قد أنشأت، كي تهدئ السكان، نظام مراقبة يزعم أنه يستحيل خرقه. وبالفعل، فقد صادفا - الواحد منهما وراء الآخر دائماً - ثلاثة رجال في زي رسمي يسيرون متثاقلين، وسمع كاشودا.

- مساء الخير سيد لابيه.

أما هو، فقد صوبوا إلى وجهه ضوء مصباح جيب ولم يقولوا له شيئاً.

لا عجائز في الطرقات. كان ذلك يحمل على التساؤل أين سيجد القاتل عجائزه ليقتلهن. كان يجب أن يأوين إلى بيوتهن وأن لا يخرجن إلا في وسط النهار مع مرافقة بقدر الإمكان. مرا أمام كنيسة القديس يوحنا التي كانت بوابتها ضعيفة الإضاءة. إلا أن المسنات كففن حتماً عن الذهاب إلى الخلاص منذ ثلاثة أسابيع.

أصبحت الطرقات متزايدة الضيق، كانت هناك أراضي خلاء وأسيجة بين بعض البيوت.

«إنه يستدرجني إلى خارج المدينة كي يقتلني.......».

لم يكن كاشودا شجاعاً، كان خوفه يتزايد. كان مستعداً للصراخ طلباً للنجدة لدى أدنى حركة من القبعاتي. إذا كان يتبعه، فليس ذلك عن رغبة منه.

شارع هادئ، مع بيوت جديدة، الخطوات دائماً، ثم، فجأة، لا شيء، لم يعد هناك شيء، لأن كاشودا قد توقف في الوقت نفسه الذي توقف فيه الرجل الذي يتبعه ولا يراه.

أين ذهب القبعاتي؟ كانت الأرصفة مظلمة. لم يكن هناك في الشارع سوى ثلاثة فوانيس متباعدة. كانت هناك، أيضاً، بعض النوافذ المضيئة، ومن أحد البيوت كانت تتعالى أنغام بيانو.

الجملة الموسيقية نفسها دائماً، تمرين دون شك - لم يكن كاشودا يفهم في الموسيقى - يعيده التلميذ باستمرار، مع الغلطة ذاتها دائماً في النهاية.

هل توقف المطر؟ على كل حال، لم يعد يلاحظ أن السماء تمطر. لم يكن يجرؤ على التقدم ولا على التراجع. كان قلقاً لدى أدنى صوت. كان خائفاً من أن يمنعه هذا البيانو الملعون من سماع الخطوات. الجملة تستعاد خمس مرات، عشر مرات، ثم، فجأة، الاصطفاق الجاف لغطاء البيانو. كان الأمر واضحاً. انتهى الدرس. كانت هناك ضجة، صرخات في البيت، بنت صغيرة تحررت لا بد أنها مضت لتوافي إخوتها وأخواتها.

كان هناك شخص ما يلبس كي يخرج، يقول، دون شك للأم: «إنها لتحرز تقدماً. لكن اليد اليسرى.... يجب، إطلاقاً، أن تعمل على يدها اليسرى....»

وذلك الشخص - فُتِح الباب ورَسَم مستطيلاً من نور أصغر - كان آنسة مسنة.

- ....أؤكد لك يا سيدة باردون......... بالنسبة لمائة متر يجب أن اجتازها......

لم يعد كاشودا يجرؤ على التنفس. لم يخطر له أن يصرخ: «ابقي حيث أنت.... لا تتحركي أبداً خاصة!....».

مع ذلك، بات يعلم. فهم، الآن، كيف يجري ذلك. أُعيد إغلاق الباب. كانت الآنسة المسنة التي يجب، مع ذلك، أن تكون منفعلة قليلاً تنزل من على عتبة من ثلاث درجات وبدأت في العدو ملاصقة للبيوت.

كان ذلك شارعها، أليس كذلك؟ كانت في بيتها تقريباً. ولدت فيه، في هذا الشارع. لعبت على كل العتبات، على الأرصفة، كانت تعرف أصغر حجارتها.

خطوتها السريعة، الخفيفة.... ثم لم تعد هناك خطوات! هذا، تقريباً، كل ما سُمع: انعدام الخطوات، الصمت. شيء مبهم كحفيف ثياب. هل كان من شأنه أن يستطيع التحرك؟ وهل كان ذلك سيجدي شيئاً؟ ولو كان قد صرخ. فهل سيقوم أحدهم ببطولةِ الخروج من بيته؟ التصق بالجدار، والتصق قميصه بجسده بسبب عرقه وليس بسبب المطر الذي كان قد اخترق معطفه.

- أوف!

هل كان هو الذي تنهد. أم ربما تنهدت العانس أيضاً - تنهيدتها الأخيرة في هذه الحال - أم القاتل؟

سمعت من جديد خطوات، خطوات رجل، في الاتجاه المعاكس. خطوات تأتي نحو كاشودا الذي كان واثقاً من الركض أسرع من القبعاتي والذي لم يكن يتوصل فقط إلى انتزاع نعليه عن الرصيف.

سوف يراه الآخر. لكن ألم يكن الآخر يعلم سلفاً أنه هناك؟ ألم يشعر الآخر به وراءه منذ مقهى السلام؟ لم تكن لذلك أهمية. على كل حال، كان الخياط الصغير تحت رحمته. كان هذا، بالضبط، انطباعه الذي لم يحاول أن يناقشه. كان القبعاتي يتخذ فجأة، في عينيه، أبعاداً غير بشرية، وكان كاشودا على استعداد لأن يقسم له، جاثياً على ركبتيه إذا لزم الأمر، على الصمت طيلة حياته، على الرغم من العشرين ألف فرنك!

لم يتحرك، وكان السيد لابيه يقترب. سوف يتلامسان. هل ستكون لدى كاشودا، في الدقيقة الأخيرة، القوة على الركض؟

وإذا فعل، أليس هو الذي سيتهم بالجريمة؟ لن يكون على القبعاتي سوى أن يطلب النجدة. سوف يُقتفى أثر الهارب. سوف يتم الإمساك به.

- لماذا كنت تركض؟

- لأنني.........

- اعترف بأنك قتلت الآنسة العجوز.....

لم يكونا، في الطريق، سوى اثنين، ولم يكن هناك ما يدل، جملة، على أن أحدهما، وليس الآخر، هو القاتل.

السيد لابيه كان أذكى من الخياط الصغير. كان رجلاً هاماً ولد في المدينة، يرفع الكلفة في كلامه مع الأشخاص المتواجدين في المكان، وله ابن عم نائب.......

- ليلة سعيدة يا كاشودا!

مهما بدا الأمر غير قابل للتصديق، فهذا كل ما جرى. لابد أن السيد لابيه وجد عناء في تمييزه في الظلام. وكي تقال الحقيقة كاملة، كان كاشودا قد صعد عتبة بيت وأمسك بحبل الجرس مستعداً لسحبه بكل قواه.

إلا أنه، ها هو ذا القاتل يحييه بهدوء، وهو يمر، بصوت أصم قليلاً، لكنه ليس مهدداً على نحو خاص.

- ليلة سعيدة يا كاشودا!.....

حاول أن يتكلم أيضاً. كان يجب أن يكون مهذباً. شعر بضرورة ملحة لأن يكون مهذباً مع رجل كهذا ويرد له تحيته. كان يفتح فمه عبثاً فلا يخرج منه صوت. كانت الخطوات تبتعد.

- ليلة سعيدة سيدي القبعاتي!..

سمع نفسه يقول هذا، قاله بعد فوات الأوان، عندما كان القبعاتي قد أصبح بعيداً، لم ينطق بالاسم تهذيباً، كي لا يورط السيد لابيه. سلوك فائق.

بقي عند عتبته. لم يكن لديه أدنى رغبة في رؤية الآنسة المسنة التي كانت، قبل نصف ساعة، تعطي درساً في البيانو والتي يجب أن تكون قد انتقلت، نهائياً، إلى عالم آخر.

كان السيد لابيه بعيداً.

عند ذلك، وفجأة، انتابه الهلع. لم يكن يستطيع أن يبقى هناك. كان خائفاً. كان يحس بالحاجة إلى الابتعاد بكل سرعة ساقيه، ولكنه في الوقت نفسه، يخشى أن يصطدم بالقبعاتي.

كان مهدداً بأن يقبض عليه بين ثانية وأخرى. سلطت دورية، منذ قليل، ضوء مصباح كهربائي على وجهه. لقد رأوه، تعرفوا عليه. كيف سيفسر وجوده في هذا الحي الذي لم يكن له ما يفعله فيه وحيث قتل شخص منذ قليل؟

سحقاً! كان الأفضل هو الذهاب ليقول كل شيء للشرطة. راح يمشي، يمشي بسرعة وهو يحرك شفتيه.

– لست سوى خياط صغير فقير يا سيدي المفوض، لكني أقسم لك على رأس أولادي..

كانت ترتعد فرائصه لدى أدنى صوت، لماذا لا ينتظره القبعاتي في ركن مظلم كما فعل مع الآنسة المسنة؟

فرض على نفسه انعطافات، ضاع في متاهة طرق صغيرة لم تطأها قدماه قط.

«لم يستطع أن يتوقع أني سأسلك هذا الدرب....لم يكن في هذا الغباء بعد كل شيء».

– أريد، حقاً، أن أقول لك الحقيقة. لكنه ينبغي أن تعطيني واحداً أو اثنين من رجالك لحراستي إلى أن يصبح في السجن.

عند الحاجة، سينتظر في قسم الشرطة. مراكز الشرطة ليست مريحة، لكنه رأى الكثير منها خلال حياته كمهاجر. لن يسمع، في هذه الحالة، زعيق أطفاله، وهذا مكسب دائماً.

لم يكن القسم بعيداً جداً عن بيته. كان على مسافة شارعين من شارع الكهنة النظاميين. لمح الفانوس الذي كتب عليه كلمة «شرطة». يجب أن يكون هناك، كما هو الأمر دائماً، شرطي أو اثنان على العتبة. لن يعود هناك خطر يتهدده. لقد أنقذ.

– سيرتكب خطأً، سيد كاشودا...

وقف حالاً. كان الذي قال تلك صوتاً حقيقياً، صوت رجل من لحم وعظم، صوت القبعاتي. والقبعاتي كان هناك، مستنداً إلى الجدار، ويكاد وجهه الهادئ أن لا يميز في الظلام.

هل يعرف المرء ما يفعله في هذه البرهات؟ تلعثم قائلاً:

- استميحك عذراً.

قال ذلك كما لو كان صدم أحدهم في الطريق، كما لو كان قد داس على قدم سيدة. ثم،وبما أنه لم يقل له شيئاً، وبما أنه ترك لشأنه، دار على عقبيه بهدوء.

لم يكن ينبغي أن يبدو كمن يهرب. كان ينبغي، على العكس من ذلك، أن يسير كرجل طبيعي. لم يُتبَع مباشرة، أعطي الوقت اللازم للابتعاد. سُمعت أخيراً الخطوات التي لم تكن أسرع أو أبطأ من خطواته. لن يكون لدى القبعاتي، إذن، الوقت اللازم لإدراكه. هو ذا شارعه، دكانه مع أقمشة قاتمة في الواجهة وبعض نقوش الموضة. والدكان الأخرى في الجهة المقابلة.

فتح الباب وأعاد إغلاقه، بحث عن المفتاح الذي أداره في القفل، صاحت زوجته من فوق:

- أهذا أنت؟

كما لو كان يمكن أن يكون شخصاً آخر في هذه الساعة وذلك الجو.

- امسح قدميك جيداً.

عند ذلك، تساءل عما إذا كان صاحياً حقاً. قالت له، له هو، هو الذي أتى على عيش ما عاشه. في حين أن خيال القبعاتي كان يرتسم أمام باب مخزنه على الرصيف الآخر:

- امسح قدميك جيداً.

كان يمكنه، كذلك، أن يغمى عليه. أية كلمات كانت ستنطق بها في هذه الحالة؟

(٣)

حول قرارات كاشودا ورعاية القبعاتي

كان كاشودا جاثياً على الأرض مديراً ظهره للنافذة وتجاهه، على مسافة بضعة سنتمترات، ساقان ضخمتان وبطن كبير لرجل. الرجل الواقف كان المفوض ميكو الذي لم تنسه مأساة مساء الأمس بزته.

كان الخياط الصغير يقيس محيط الخصر ومحيط الوركين، يبلل قلمه باللعاب ويسجل أرقاماً على دفتر قذر موضوع على الأرضية بالقرب منه، ثم قاس ارتفاع البنطال وما بين الساقين. وفي هذا الوقت، كان السيد لابيه يقف وراء الستائر المطرزة لنافذته، في الجهة المقابلة تماماً وفي الارتفاع نفسه. أكانت تفصل بينهما ثمانية أمتار؟ بالكاد.

اعترى كاشودا، على الرغم من كل شيء، إحساس صغير بالبرد في نقْرته. لن يطلق القبعاتي النار، كان واثقاً من ذلك. لكن، هل كان يمكن للمرء أن يكون متأكداً حقاً؟ لن يطلق النار لأنه أولاً ليس رجلاً يقتل بأسلحة نارية. وللناس الذين يقتلون عاداتهم كالآخرين. إنهم لا يبدلون طرقهم طواعية. ثم أنه سيوقع نفسه، حتماً، لو أطلق النار.

وأخيراً، وخاصة، كان القبعاتي واثقاً من كاشودا. هناك كانت حقيقة المسألة. ألم يكن الخياط الصغير يستطيع، في الوضعية التي كان عليها، أن يتمتم لهذا التمثال البدين قليلاً الذي يأخذ مقاييسه: «لا تتحرك، يجب أن لا يظهر عليك شيء. القاتل هو القبعاتي المقابل لنا. إنه يراقبنا من وراء نافذته.»

لم يفعل. تصرف كخياط صغير متواضع وبرئ. كانت رائحة المكان سيئة، ولكن كاشودا لم يكن ينزعج منها لأنه تعود على الرائحة التي تطلقها الأقمشة، وكان مشبعاً بهذه الرائحة إلى حد أنه كان ينقلها معه إلى كل مكان. يجب أن تسود لدى السيد لابيه، في الجهة المقابلة، رائحة اللباد والصمغ، وهي أسوأ أيضاً لأنها أكثر بهوتاً. لكل مهنة رائحتها.

على هذا الأساس، ماذا كان يمكن أن تكون رائحة مفوض في الشرطة؟ هذا، بصورة مضبوطة جداً، ما راح يفكر فيه في هذه البرهة، وهو ما يدل على أنه قد استعاد بعض حرية التفكير.

– إذا استطعت الحضور في نهاية فترة بعد الظهر، للتجربة، فإني آمل أن أسلمك البزة غداً صباحاً.

ونزل وراء المفوض، مر أمامه في الدكان ليفتح له الباب الذي رن جرسه. لم يتطرقا حتى بالتلميح إلى القاتل ولا إلى آنسة مساء الأمس العجوز التي كانت تدعى الآنسة مولار (ايرين مولار) التي كرست لها الجريدة كل صفحتها الأولى.،

كان، مع ذلك، قد أمضى ليلة مضطربة، مضطربة إلى حد أيقظته زوجته، معه، لتقول له:

– حاول أن تهدأ. أنت لا تتوقف عن رفسي.

لم يعد إلى النوم. فكر خلال ساعات بحيث أحس برأسه مطوقاً بدائرة حديدية. في الساعة السادسة صباحاً، مل من التفكير في سريره ونهض. وبعد أن أعد لنفسه كوب قهوة على السخانة، ذهب إلى ورشته وأشعل النار.

لا بدَّ أنه أشعل النور، بالطبع، لأن الشمس لم تشرق. كان هناك، تجاهه تماماً، نور أيضاً. فمنذ سنوات، كان القبعاتي يستيقظ في الساعة الخامسة والنصف صباحاً. لم يكن يُرى، وهذا مؤسف، بسبب الستائر، لكن ما كان يفعله معروف.

لم تكن زوجته تريد أن ترى أحداً. نادراً ما كانت صديقة تتوصل إلى اجتياز بابها، ولم تكن تبقى طويلاً. كانت ترفض، أيضاً، أن تعتني بها الخادمة التي تأتي في الساعة السابعة صباحاً وترحل مساءً.

كان السيد لابيه هو المرغم على عمل كل شيء: ترتيب الغرفة، نفض الغبار، الصعود بالوجبات. وكان هو الذي يجب أن يحمل زوجته من سريرها إلى مقعدها والذي يسرع، عشرين مرة في اليوم، إلى صعود السلم الحلزوني الذي يؤدي من المخزن إلى الطابق الأول. عند الإشارة! لأنه كانت هناك إشارة! عكاز موضوع إلى جانب المقعد، وكانت لا تزال يد المريضة اليسرى لديها القوة للإمساك به للضرب على الأرضية.

كان الخياط الصغير يعمل على طاولته. كان يفكر بصورة أفضل وهو يعمل. كان يقول لنفسه:

«انتبه يا كاشودا! العشرون ألف فرنك مبلغ جيد وتركها تفلت جريمة. لكن الحياة شيء هام أيضاً، حتى حياة خياط صغير جاء من أطراف أرمينيا... القبعاتي، حتى لو كان مجنوناً، أذكى منك. إذا قبض عليه، فمن المحتمل أن يطلق سراحه لانعدام الأدلة. ليس رجلاً يلهو بترك أوراق صغيرة مقتطعة في بيته...»

كان على حق في تفكيره هذا دون عجلة، وهو يسحب الإبرة لأن ذلك يعطيه، فعلاً، فكرة. بعض الرسائل المرسلة إلى «بريد اللوار» كانت تتضمن نصاً يشغل، صفحة كاملة الوقت اللازم للعثور على الكلمات، وعلى الحروف المنفصلة أحياناً، واقتطاعها ولصقها، يعادل ساعات من الصبر.

إلا أن في مخزن القبعاتي، في الأسفل، يتواجد المستخدم الأصهب الشعر، ألفريد طوال النهار. ووراء الدكان توجد ورشة صغيرة فيها رؤوس خشبية كان السيد لابيه يضبط شكل القبعات عليها، لكن كوة مزججة كانت تصل بين المخزن والورشة.

في المطبخ والغرف الأخرى، كان الإشراف للخادمة. لم يبق سوى مكان واحد كان القاتل قادراً، فيه، على القيام بعمله الصبور بسلام: غرفة زوجته التي كانت، أيضاً، غرفته والتي لم يكن لأحد الحق في دخولها.

وكانت السيدة لابيه عاجزة عن الحركة، عاجزة عن الكلام بطريقة أخرى غير الأصوات المعبرة. ما الذي كانت تفكر فيه وهي ترى زوجها يلهو باقتطاع أوراق صغيرة؟

«فضلاً عن ذلك يا صغيري كاشودا، إذا وشيت به وانتهوا بالعثور على دليل، فإن هؤلاء الناس (كان يفكر برجال الشرطة، بمن فيهم زبونه الجديد المفوض) سيدعون أنهم هم الذين فعلوا كل شيء وسيسلبونك أضخم قسم من الجائزة........»

الخوف من فقدان العشرين ألف فرنك والخوف من السيد لابيه أصبحا من الآن وصاعداً الإحساسين الأساسيين لديه.

إلا أنه لم يعد، منذ الساعة التاسعة، يخشى، أبداً تقريباً، من القبعاتي. في منتصف الليل، لم تعد، فجأة، تسمع ضجة الماء في الميازيب وطقطقة المطر على السقوف وصفير الريح في المصاريع. وكما لو أن في الأمر معجزة، توقف المطر والعاصفة بعد ما يقرب من خمسة عشر يوماً. كل ما في الأمر هو أن مطراً خفيفاً في الساعة السادسة كان لا يزال يسقط لكنه كان خفيفاً إلى حد كان معه صامتاً وغير مرئي تقريباً.

راح بلاط الأرصفة يستعيد الآن لونه الرمادي، والناس يسيرون دون مظلات في الطرقات. كان ذلك يوم سبت، يوم سوق. كانت السوق تقام في ساحة صغيرة قديمة في آخر الشارع.

في الساعة التاسعة، نزل كاشودا، سحب قضبان الباب ووجد نفسه على الرصيف وأخذ يسحب الألواح الخشبية التي كانت بمثابة مغاليق.

كان عند اللوح الثالث – كان يجب إدخالها الواحد بعد الآخر إلى الدكان– عندما سمع صوت ألواح من النوع نفسه كانت تسحب في الجانب المقابل، عن واجهة القبعاتي. تجنب أن يلتفت. لم يكن خائفاً كثيراً لأن اللحام كان، على عتبته، يثرثر مع بائع القباقيب.

عبرت خطوات الشارع. قال صوت:

– نهارك سعيد يا كاشودا!

وتوصل هو، وفي يده لوح، إلى أن يقول بصوت شبه طبيعي:

- نهارك سعيد يا سيد لابيه.

- قل لي يا سيد كاشودا!

- نعم يا سيد لابيه.....

- هل سبق وكان في أسرتك مجانين؟

الأقوى هو أن ردة فعله الأولى كانت البحث في ذاكرته، التفكير في أخوته وأخواته، في أبيه وأمه

- لا أظن.

عند ذلك، قال السيد لابيه قبل أن يستدير وعلى وجهه تعبير ارتياح

- لابأس....لا بأس.

لقد تواصلا بكل بساطة، لا أهمية لما قاله كل منهما الآخر. تبادلا بضع كلمات كجيران طيبين. لم يرتعش كاشودا. ألم يكن من شأن اللحام، مثلاً، وهو أطول وأقوى منه بكثير - كان يحمل خنزيراً كاملاً على ظهره - أن يشحب لونه لو قيل له: «هذا الرجل الذي ينظر إليك بعينين كبيرتين وقورتين وحالمتين هو قاتل العجائز السبعة؟»

كاشودا، من جهته، لم يعد يفكر إلا في العشرين ألف فرنك. كان يفكر دون شك بنجاته بجلده لكنه كان يفكر أكثر في العشرين ألف فرنك.

أصغر أبنائه كانوا في المدرسة. ابنته البكر كانت قد ذهبت إلى مخازن السعر الموحد التي تعمل فيها بائعة. وذهبت زوجته إلى السوق.

عاد إلى الصعود إلى غرفته الضيقة، تسلق طاولته حيث جلس وبدأ يعمل. لم يكن سوى خياط ارمني صغير، تركي أو سوري - لم يكن، هو نفسه، يعرف عن ذلك شيئاً لكثرة ما جعلوهم، هناك، يعبرون حدوداً، بمئات من الأشخاص المساكين بل بألوف، كما تنقل سوائل من وعاء إلى آخر. لم يذهب، إن صح هذا القول، إلى المدرسة، ولم يعامله أحد، أبداً، كرجل ذكي.

السيد لابيه، في الجهة المقابلة، كان مشغولاً بوضع قبعات في قوالب. إذا لم يكن يبيع الكثير منها، فإن أصدقاءه في مقهى السلام، كانوا، على الأقل، يطلبون منه تجديد قبعاتهم. بين حين وآخر، كان يرى في المخزن، بصدارة وكم قميص. بين حينٍ وآخر، أيضاً، كان يسرع إلى الطابق الأوسط عبر السلم الحلزوني، مدعواً بضربة عكاز على الأرضية.

عندما عادت السيدة كاشودا من السوق وبدأت، كعادتها، تتكلم، وحدها، في المطبخ، ظهرت على الخياط الصغير بداية ابتسامة. ماذا كتبت الجريدة، بالأمس بين أشياء أخرى متفاوتة الصلة بالموضوع؟ ذلك أن الجريدة كانت تجري تحقيقها بصورة موازية لتحقيق الشرطة. كان هناك، أيضاً، صحفيون من باريس يعملون من جهتهم، على كشف القاتل.

«إذا استعدنا الجرائم واحدة واحدة يتبين لنا.........

أولاً أنها لم ترتكب في حي معين من المدينة، بل في أشد نقاط هذه الأخيرة تقابلاً. ويستنتج الصحفي، قائلاً: «فالقاتل يستطيع، إذن، أن يتنقل دون أن يلفت الانتباه. فهو، إذن، له مظهر عادي أو مطمئن لأنه، على الرغم من الظلام الذي يعمل ضمنه، يرغم، أحياناً، على المرور تحت فوانيس غاز أو أمام واجهات، إنه رجل لا يحتاج إلى مال لأنه لا يسرق.

وهو رجل دقيق لأنه لا يدع شيئاً للمصادفة. إنه، دون شك، موسيقي لأنه يستخدم، لخنق ضحاياه اللواتي يباغتهن من الخلف، وتر كمان أو فيولونسيل.

«إذا استرجعنا قائمة النساء اللواتي قتلهن..........»

ويصبح الأمر أشد أهمية في نظر كاشودا.

«..نرى بينهن ما يشبه صلة أسرية. يصعب إيضاح ذلك على وجه التحديد. من المؤكد أن أوضاعهن المدنية مختلفة جداً. الأولى أرملة ضابط متقاعد، أم ولدين متزوجين في باريس.. الثانية كانت تدير مخزناً صغيراً للخردوات وزوجها لا يزال موظفاً في البلدية. الثالثة....» قابلة، صاحبة مكتبة، صاحبة ريع، غنية إلى درجة كافية، تعيش وحدها في قصر خاص، نصف مجنونة – غنية أيضاً – لا ترتدي إلا اللون الخبازي، وأخيراً الآنسة مولار،

ايرين مولار، أستاذة البيانو. ويلاحظ الصحفي أن معظم هؤلاء النساء كن بين الثالثة والستين والخامسة والستين، وكلهن، دون استثناء، يتحدّرن من مدينتنا».

اسم ايرين هو ما أدهش الخياط الصغير. لا يتوقع المرء، عادة، أن تدعى عجوز إيرين، ويتوقع، أقل من ذلك. أن تدعى شوشو أو ليلي... لأنه ينسى أنها كانت، قبل أن تكون عجوزاً، شابة وكانت، قبل ذلك، أيضاً، بنتاً صغيرة.

لم يكن هناك شيء غريب، ومع ذلك، دار كاشودا حول هذه الفكرة الصغيرة ساعات وهو يعمل في بزة المفوض.

ماذا كان يجري في مقهى السلام مثلاً؟ كانوا أكثر من عشرة يلتقون كل بعد ظهر. كانوا يشغلون مراكز متنوعة. معظمهم كانوا ميسورين لأن من الطبيعي أن يكون الإنسان ميسوراً بعد الستين.

كلهم، تقريباً، كانوا يرفعون الكلفة بينهم في الكلام، وليس ذلك فقط، بل كانت لهم، أيضاً، مفرداتهم الخاصة، جمل قصيرة لم تكن لها معنى إلا بالنسبة إليهم، ممازحات لم تكن تضحك إلا العارفين. كان ذلك لأنهم ذهبوا إلى المدرسة أو إلى الثانوية أو إلى الخدمة العسكرية معاً!

لهذا السبب، بالضبط، كان كاشودا، وسيبقى، بالنسبة إليهم، غريباً، ولم يكونوا يدعونه إلى الإمساك بالورق إلاّ إذا نقصهم رابعٍ على طاولة. وفي الجملة، انتظر، بصبر، خلال أشهر، فرصة أن يكون رابعاً.

– هل تفهم يا سيدي... المفوض؟ أراهن على أن ضحايا القاتل السبع كن متعارفات معرفة سادة مقهى السلام هؤلاء أحدهم للآخر. الأمر هو، فقط، أن العجائز لا يذهبن إلى المقهى، وهو ما يؤدي إلى ضياعهن عن بعضهن بسهولة. يجب أن نعرف ما إذا كن ما زلن يلتقين. كان لهن العمر نفسه تقريباً يا سيدي المفوض، إليك أمر آخر! هناك تفصيل يعود إلى ذاكرتي وذكرته الجريدة أيضاً، استخدمت بخصوص كل منهن، الكلمات نفسها، قيل إنهن كن من «أسر طيبة» وأنهن تلقين «تربية ممتازة».

لم يكن يتحدث إلى المفوض ميكو، ولا طبعاً إلى أي شرطي، بل كان يتحدث مع نفسه، كزوجته، كما يفعل، عادة، عندما يكون راضياً عن ذاته.

- افترض أننا عرفنا، أخيراً، كيف كان القاتل - أعني القبعاتي - يختار ضحاياه.....

ذلك أنه كان يختارهن مسبقاً، وكاشودا رأى ذلك حقاً. لم يكن يتجول عشوائياً في الطرقات لينقض على أول عجوز يلتقيها. والدليل هو أنه اتجه، مباشرة، إلى البيت الذي كانت الآنسة مولار (ايرين) تعطي، فيه، درس البيانو.

لا بد أن الأمر كان كذلك بالنسبة للسابقات. ومنذ ذلك الحين، يجب أن نعرف كيف يضع خطته، كيف ينشئ قوائمه.

ولكن نعم! لم لا؟ كان يتصرف، بالضبط كما لو أنه وضع قائمة كاملة ونهائية. كان كاشودا يتخيله، جيداً جداً، عائداً إلى بيته، مساء، يشطب اسماً ويقرأ التالي، يحضر لضربته في أحد الأيام التالية...

كم عجوزاً أو عانساً كانت على القائمة؟ كم امرأة في المدينة، ما بين عمري الثانية والستين والخامسة والستين، هنّ من «أسرة طيبة» وتلقين «تربية ممتازة»؟

إذا عرفت الأخريات، الباقيات جملة، وإذا روقبن سراً، فسوف يقبض على القبعاتي، حتماً، في الجرم المشهود.

هذا ما كان الخياط الصغير قد وجده وحده، في غرفته الضيقة، جالساً على طاولته. ليس لأنه كان رجلاً ذكياً أو بارعاً. بل لأنه قرر أن يربح العشرين ألف فرنك، وكذلك، قليلاً، لأنه كان خائفاً.

عند الظهر، قبل أن يجلس إلى المائدة، نزل برهة ليتنشق الهواء على الرصيف وليشتري سجائر من الكشك القريب.

خرج السيد لابيه من بيته ويداه في جيبي معطفه، ولدى رؤيته الخياط الصغير، سحب إحدى يديه ليوجه إليه إشارة ودية.

كان هذا جيداً جداً. إنهما يتبادلان التحية، ويتبادلان البسمات.

كانت في جيب القبعاتي، دون شك، رسالة سوف يلقي بها في صندوق بريد. كان يكتب، بعد مقتل كل عجوز، رسالة يرسلها إلى الجريدة.

هذه الأخيرة التي استطاع كاشودا أن يقرأها، مساء، في «بريد اللوار» كانت تقول:

«يخطئ المفوض ميكو في تكوين خزانة ملابس كما لو كان عليه أن يقيم، بيننا، طويلاً. بقيت اثنتان وينتهي الأمر. تحية طيبة مني إلى صديقي الصغير المقيم تجاهي»

مقهى السلام هو الذي قرأ فيه الجريدة.

كان المفوض هناك، قلقاً على بزته لدى رؤيته أن الخياط لم يكن يعمل. كان القبعاتي هناك أيضاً، وكان، هذه المرة، يلعب مع الدكتور ورجل التأمين والبقال. إلا أنه وجد طريقة كي ينظر إلى كاشودا ويبتسم له ابتسامة ليس وراءها فكرة خفية تقريباً، وربما دون فكرة خفية إطلاقاً، كما لو كانا قد أصبحا صديقين حقاً.

عند ذلك فهم الخياط الصغير أنّ القبعاتي يستمتع بأن يكون لديه شاهد واحد على الأقل، شخص يعرف، رآه أثناء العمل، واحد يعجب به جملة. ابتسم هو أيضاً، ابتسامة مرغم قليلاً:

– يجب أن أذهب للعمل في بزتك يا سيدي المفوض.... تستطيع أن تجربها بعد ساعة.... جوستان!...

تردد. نعم أم لا؟ نعم!

– كأس من النبيذ الأبيض بسرعة.

الرجل الذي سيكسب عشرين ألف فرنك يستطيع، حقاً، أن يدفع ثمن كأسين من النبيذ الأبيض.

(٤)

حيث ينقذ خياط صغير غير مسيحي
حياة الأم المقدسة أورسولا

كان ذلك مهيباً. كان هناك، أولاً، الجرس الذي شد الخياط الصغير حبله والذي لم تتوقف موجاته عن الارتكاس في البناء الكبير الذي يبدو مقفراً. تلك الواجهة الهائلة المبنية بالحجارة الرمادية وهذه النوافذ ذات المصاريع المغلقة التي كان يتسرب منها ضوء ضعيف، والباب الثقيل والمطلي جيداً بأزراره النحاسية الملمعة. لحسن الحظ، لم تعد السماء تمطر ولم تكن قدماه ملوثتين.

خطوات خفيفة. كوة تفتح، مسيجة كما في سجن، وجه ممتلئ وشاحب لا يكاد يرى، صوت خفيف لم يكن صوت سلاسل، بل خشخشة مسبحة.

كان موضع مراقبة دون أن يقول شيئاً:

– أود أن أتحدث إلى الرئيسة من فضلك....

في هذه اللحظة خاف. ارتعش. الشارع كان مقفراً. لقد اعتمد على لعبة الورق هل كان ممكناً للسيد لابيه أن يعطي مكانه للاعب آخر؟ وهنا يتعرض كاشودا لأكبر خطر.

لو تبعه القبعاتي لو كان القبعاتي في مكان ما في الظلام، فإنه لن يتردد، هذه المرة، على الرغم من ابتسامته منذ قليل، في الإجهاز عليه كما أجهزَ على العجائز.

– الأم المقدسة أورسولا في المطعم.

– هل تسمحين بأن تقولي لها إن الأمر ملح، إنه مسألة حياة أو موت.

لم يكن وجهه، بالتأكيد، وجه مسيحي، ولم يأسف لذلك، أبداً، خلال حياته مثلما أسِفَ عندئذ. كان يحرك قدميه كرجل تسلطت عليه حاجة ملحة.

– عمن يجب أن أعلن؟

ولكن، فلتفتح الباب بحق الله!

– اسمي لن يعني لها شيئاً. اشرحي لها أن الأمر بالغ الأهمية....

بالنسبة إليه! بالنسبة للعشرين ألف فرنك!

ذهبت بخطوات خفيفة، غابت زمناً لا متناهياً، وقررت أخيراً أن تعود وتعالج ثلاثة أو أربعة أقفال مزيتة جيداً.

– اتبعني إن كنت تسمح، إلى حجرة المقابلات.

كان الهواء فاتراً، باهتاً، سكَّرياً قليلاً. كل شيء كان بلون العاج، مع أثاث أسود،وكان يسود الصمت إلى حد كانت تسمع معه تكتكة أربع أو خمس ساعات جدارية يجب أن يكون بعضها بعيداً.

لم يجرؤ على الجلوس. لم يكن يعرف كيف يقف. ترك ينتظر طويلاً، وفجأة ارتعش وهو يرى، أمامه، راهبة مسنة لم يسمعها تأتي.

تساءل: كم كان عمرها؟... ذلك أنه يصعب تقدير عمر راهبة طيبة.

– هل طلبت أن تتحدث إلي.

كان قد هتف أولاً من بيته، إلى السيد كوجا، زوج العجوز الثانية المقتولة، الذي كان موظفاً في البلدية. كان السيد كوجا لايزال في مكتبه، مكتب «الأشياء المفقودة» صاح بصبر فارغ:

– من على الهاتف؟

استغرق كاشودا بعض الوقت ليجرؤ على القول:

– هنا أحد مفتشي المفوض ميكو... نريد أن نسألك يا سيد كوجا، عما إذا كنت تعرف أين درست زوجتك....

درست في دير الحبل دون دنس بحق الله! كان ذلك محتوماً، على اعتبار أنهم تحدثوا عن تربية ممتازة...

- اعذريني أيتها الأم....

كان يتلعثم. لم يعتريه هذا الارتباك طيلة حياته أبداً.

- أود أن أحصل على قائمة بالتلميذات اللواتي مررن بمؤسستكم واللواتي يبلغن، اليوم، عمر الثالثة أو الرابعة والستين.... أو....

- عمري خمس وستون سنة.

كانت تظهر وجهاً بلون الشمع الوردي وعينين زرقاوين صافيتين. كانت، وهي تراقبه، تلعب بحبات السبحة الثقيلة التي تتدلى من حزامها.

- يمكن أن تموتي أيتها الأم......

كان يتناول الأمر بصورة سيئة. كان مذعوراً. كان كذلك، خاصة، لأنه بدأ يتأكد من الحصول على العشرين ألف فرنك.

- الآنسة مولار درست هنا، أليس كذلك؟

- كانت واحدة من ألمع تلميذاتنا.

- والسيدة كوجا؟

- ديجاردان، وهو اسم عائلتها قبل الزواج......

- اسمعي أيتها الأخت.... إذا كان هؤلاء الأشخاص في الصف نفسه....

- كنا في الصف نفسه..... ولذلك في هذه الأوقات....

لكنه لم يكن لديه الوقت للإصغاء إليها.

- إذا كنت أستطيع الحصول على قائمة بالآنسات اللواتي كن في ذلك العهد.

- هل أنت من الشرطة؟

- كلا يا سيدتي... أعني أيتها الأم..... ولكن الأمر هو نفسه..... تصوري أني أعلم!

- تعلم ماذا؟

- أي أني أعتقد أني سأعلم... هل يتفق لك أن تخرجي؟

- كل يوم اثنين كي أذهب إلى الأسقفية.

- في أية ساعة؟

- في الساعة الرابعة...

- إذا وافقت على إعطائي القائمة...

من يعلم؟ ربما كانت تعتبره القاتل. لكن لا! كانت هادئة، بل وصافية الذهن.

- لم يبق الكثير من تلميذات تلك السنة..... بعضهن متن، مع الأسف!... بعضهن متن مؤخراً.

- أعلم أيتها الأم.

- باستثناء أرماندين وأنا........

- من هي أرماندين أيتها الأم؟

- أرماندين دوبتوا....... لا بدّ أنك سمعت عنها...... هناك أخريات غادرن المدينة وفقدنا أثرهن.... لكن انتظر! .... انتظرني لحظة.

ربما كانت الراهبات، بعد كل شيء، سعيدات، أيضاً، بإيجاد تسلية. لم تغب سوى بضع لحظات. عادت ومعها صورة فوتوغرافية مصغرة لمجموعة فتيات على صفين يرتدين جميعهن اللباس الموحد، الشريط نفسه مع ميدالية ذات شكل متصالب، قبيحات وجميلات، وكانت بينهن واحدة هائلة الحجم تشبه دمية.

وقالت الأم بتواضع:

- هذه أنا.....

ثم أشارت بإصبعها إلى فتاة هزيلة وقالت:

- هذه السيدة لابيه، زوجة القبعاتي... هذه الحولاء قليلاً هي.......

كان القبعاتي على حق. من بين اللواتي ما زلن على قيد الحياة وما زلن يسكنّ المدينة، لم يبق سوى اثنتين، فضلاً عن زوجته، هما الأم أورسولا والسيدة دوبتوا.

- السيدة لابيه مريضة جداً.... ينبغي أن أذهب لأراها يوم السبت، كما في كل سنة، لأن السبت القادم هو عيد مولدها، وقد حافظنا، نحن صديقات المدرسة، على هذه العادة....

- شكراً أيتها الأم.

لقد وجد ما يريد! كسب العشرون ألف فرنك. على كل حال، سوف يكسبها! كل ضحايا القبعاتي موجودات على الصورة. واللتان لا تزالان على قيد الحياة، بالإضافة إلى السيدة لابيه، هما، بديهياً اللتان أعلن القاتل عن نهايتهما القريبة.

- أشكرك أيتها الأم... من الضروري أن أذهب حالاً... ينتظرونني.

كان ذلك صحيحاً... لن يتأخر المفوض ميكو عن المجيء كي يجرب بزته. ربما لم يكن الخياط يتصرف كما ينبغي. لم يكن معتاداً على الأديرة. لا يهم إذا اعتبر مجنوناً أو سيء التربية.

شكر، انحنى، سار نحو الباب متقهقراً. استبدَّ به خوف في البرهة التي اجتاز فيها البوابة، من فكرة كون القبعاتي ربما يكمن له في الظلام. والآن، كان، وهو خارج من حيث كان، في وضع جيد.

«أستطيع أن أقول لك، يا سيدي المفوض، من ستكون الضحية القادمة.... ستكون،على كل حال، واحدة من المرأتين اللتين سأذكر لك اسميهما.... قبل ذلك، أود أن تعطيني بعض الضمانات بخصوص العشرين ألف فرنك.......» هذا ما سوف يصرح به بصورة قاطعة، بوصفه رجلاً لايسمح بالتلاعب به. هل كان هو من اكتشف كل شيء؟

ولم يكن ذلك مصادفة، فقط، سيعرف جيداً كيف يلفت الانتباه إلى ذلك أمام الصحفيين. هناك، بالتأكيد، قطعة الورق الصغيرة في ثنية البنطال! لكن الباقي؟ ولكن الدير؟ من فكر في الدير؟ كاشودا وليس شخصاً آخر! بحيث أن الأم المقدسة أورسولا كانت تدين له بحياتها، وكذلك السيدة دوبتوا التي تعيش في قصر في الضواحي والغنية جداً.

كان يمشي بسرعة. كان يركض، و بين حين وآخر، يلتفت لينظر خلفه. بدأ يرى، فعلاً، بيته، دكانه. دخل كهبة ريح. كان يرغب في أن يصيح: «ربحت عشرين ألف فرنك!».

صعد إلى الطابق الأوسط. أضاء النور وأسرع إلى النافذة ليسدل الستائر. عند ذلك، بقي هناك، مسمراً في مكانه، مرتعش الركبتين. كانت ستائر الجهة المقابلة مفتوحة حتى آخرها، وهو ما لم يحصل أبداً. كانت الغرفة منارة وينكشف سرير كبير من خشب الجوز وغطاء أبيض ولحاف أحمر. كانت ترى، أيضاً، خزانة بمرآة وطاولة زينة ومقعدان مغطيان بالسجاد وصور مكبرة على الجدار.

كان على اللحاف رأس خشبي، وكان في وسط الغرفة، رجلان يتحدثان بهدوء. المفوض ميكو وألفريد، مستخدم القبعاتي الشاب الأصهب.

كان يجب أن يكون الجو خانقاً لأنهما لم يقتصرا على فتح الستائر، بل فتحا النوافذ أيضاً. نادى كاشودا، عبر الشارع وهو يفتح نافذته:

– سيدي المفوض....

– لحظة يا صديقي.....

– تعال.... أعرف كل شيء....

– وأنا أيضاً.

لم يكن ذلك صحيحاً. لم يكن ذلك ممكناً. أو، بالأحرى، بلى. فقد تعرف كاشودا، وهو ينظر، بانتباه،إلى صورة بعيدة قليلاً إلى يمين السرير، لمجموعة فتيات الدير.

انحنى عبر النافذة فرأى شرطياً أمام الباب. تدحرج على السلم وعبر الشارع. صاحت به زوجته:

– إلى أين؟

إنه ذاهب للدفاع عن العشرين ألف فرنك.

– ماذا تريد؟

– المفوض ينتظرني.

دخل إلى دكان القبعاتي، تسلق السلم الحلزوني. سمع أصواتاً: صوت المفوض:

- في الجملة، منذ كم من الوقت أحسست أن السيدة لابيه كانت ميتة؟

وصوت امرأة حاد:

- كنت أشك في ذلك منذ زمن طويل.. كنت أشك دون يقين... كان ذلك، خاصة،بسبب السمك.

كانت تلك هي الخادمة التي لم يرها كاشودا مواجهة لأن الجدار كان يحجبها عنه.

- أي سمك؟

- كل الأسماك: من الرنكة إلى الميرلان، إلى المورة.

- فسري كلامك.

- لم تكن تستطيع أن تأكل سمكاً.

- لماذا؟

- لأن ذلك كان يسبب لها ألماً... يبدو أن هناك أناساً هم هكذا... بالنسبة لي، الفريز والبندورة هما اللذان يسببان لي طفحاً... أكل منهما لأني أحبهما، والفريز بصفة خاصة، لكني أحك جسمي طوال الليل.

- إذن؟

- هل تعدني بأن أحصل على العشرين ألف فرنك؟

كاشودا الواقف على المنبسط شعر بالإحباط.

- بما أنك كنت أول من أخطرنا.

- لاحظ أني كنت مترددة على اعتبار أن المرء يخشى، دائماً، من أن يخطئ..وذلك دون أن نحسب أني، أنا أيضاً، عجوز... هل تفهم؟... احتجت إلى الشجاعة لأستمر في المجيء إلى هنا... على الرغم من أني كنت أقول لنفسي أنه لن يجرؤ على إيذائي وأنا المرأة التي تعمل لديهما منذ خمسة عشر عاماً.

- السمك؟

– آه! نعم، نسيت... حسناً! إني أول مرة طهوتُ له فيها، سمكاً وأردت أن أعدّ لحماً للسيدة، قال لي أن لا أتعب نفسي وأنها ستأكل الشيء نفسه... كان هو الذي يصعد بوجباتها....

– أعلم .... أكان بخيلاً؟

– كان حريصاً.

– ماذا تريد يا كاشودا؟

– لا شيء يا سيدي المفوض... كنت أعرف كل شيء..

– بأنّ السيدة لابيه كانت ميتة؟

– لا، بل بأن الأم المقدسة أورسولا والسيدة دوبتوا....

– بماذا تهذي؟

– بأنه سوف يقتلهما؟

– لماذا؟

ما جدوى أن يشرح له، أن يريه صورة الفتيات المصطفات بالميداليات فوق صدورهن، وهو الذي لم يعد الآن يستطيع الأمل في قبض العشرين ألف فرنك؟

ماذا لو يقتسمانها؟ تردد، رمق الخادمة العجوز، ولكنه فهم أنها صلبة وأنها لن تدعه يفعل..

– هناك، أيضاً، الحبل...

– أي حبل؟

– الذي اكتشفته منذ أيام وأنا أنظف ورشته. لم يشأ أبداً أن أنظف هذه الغرفة. فعلت ذلك في غيابه لأنها كانت نتنة. وراء القبعات، اكتشفت حبلاً يتدلى من السقف. سحبته وسمعت الصوت نفسه الذي كنت أسمعه حين كانت السيدة تقرع الأرضية، فوق، بعكازها... عند ذلك كتبت لك.

– ماذا عن بزتي يا كاشودا؟

– ستكون جاهزة يا سيدي المفوض... ولكن ماذا فعلتم بالقبعاتي؟

– تركت رجلين على باب مقهى السلام تحسباً لإمكان قطعه اللعبة... تلقينا رسالة من هذه السيدة الطيبة هذا الصباح.... بقي، الآن، أن نكتشف جثة السيدة لابيه المدفونة، احتمالاً، في القبو أو في الحديقة.

وجدوها بعد ساعة، لا في الحديقة بل في القبو حيث دفنت تحت طبقة من الاسمنت. كان هناك، الآن، كثير من الناس في بيت القبعاتي، مفوض الحي، القاضي، وكيل النيابة، طبيبان – بينهما زبون مقهى السلام –، وذلك دون أن يؤخذ في الحسبان أناس لم يكن لهم ما يفعلونه ويعلم الله كيف تسللوا.

كانوا يروحون ويجيئون عبر المنزل، يمسون كل شيء، كانت الدروج مفتوحة ومفرغة من محتوياتها، والفرش والوسائد مبقورة. كان في الشارع، في الساعة السابعة، أكثر من ألف شخص، وفي الساعة الثامنة، أرغم الدرك على صد جمهور غاضب كان ينادي بالموت.

كان السيد لابيه هناك، أيضاً، هادئاً ووقوراً، تائهاً إلى حد ما، والقيد في يديه

– بدأت بقتل زوجتك.......

رفع كتفيه.

– خنقتها كالأخريات.......

عند ذلك، دقق قائلاً:

– ليس كالأخريات...... بيديّ..... كانت تتألم كثيراً.

– أو، بعبارة أصح، مللت من خدمتها......

– إن شئت.....أنت أغبى مما ينبغي.....

– ثم أخذت تقتل صديقات زوجتك...لماذا؟

رفع كتفيه، صمت.

– لأنهن اعتدن على المجيء لزيارتها بين وقت وآخر، ولأنك لم تكن تستطيع، دائماً، أن ترد عليهن بأنها لا تريد استقبال أحد.......

– إذا كنت تصر على ذلك... مذ أن حسبت نفسك بالغ الذكاء.

التقت نظرته بنظرة كاشودا وبدا على القبعاتي كما لو أنه يستشهد بالخياط الصغير بحيث احمر وجه كاشودا. كان خجلاً من هذا النوع من الحميمية الذي نشأ بينهما.

كان يمكن لكاشودا أن يهمس للمفوض:

– عيد الميلاد......

عيد ميلاد السيدة لابيه الذي يوافق في يوم السبت المقبل....... ففي كل سنة، وفي الموعد نفسه، كانت كل صديقاتها، بمن فيهن الأم المقدسة أورسولا، يأتين لزيارتها جماعة. ألم يكن يجب تصفيتهن، جميعهن، من أجل هذا اليوم؟

سأل المفوض، أمام السيد لابيه، الطبيبين، بفجاجة، قائلاً:

– أهو مجنون؟ قل، إذن، يا سيد لابيه، أنت مجنون، أليس كذلك؟

رد الآخر بصوت عذب:

– هذا ممكن جداً يا سيدي المفوض.

ووجه غمزة إلى كاشودا. لم يكن يمكن أن يقوم أي شك: وجه إليه غمزة تواطؤ... كان يبدو كأنه يقول:

«الأغبياء... أما نحن، فنفهم بعضنا...»

إلا أن الخياط الصغير الذي أتى على خسارة عشرين ألف فرنك – لأنه، أخيراً، أتى، حقاً، على خسارة العشرين ألف فرنك التي كانت له تقريباً – لم يستطع أن يفعل شيئاً آخر سوى أن يبتسم ابتسامة صفراء قليلاً، لكنها ودية، رقيقة، على كل حال، لأنه كانت هناك، على الرغم من كل شيء، أمور عاشاها معاً.

الآخرون، زبائن مقهى السلام، درسوا دون شك، في المدرسة نفسها مع القبعاتي. ربما شاركه بعضهم الغرفة في الثكنة. أما كاشودا، فإنه شاركه، إن صح هذا القول، في جريمة.

وهذا خلق، على الرغم من كل شيء، حميمية أخرى!

شاطئ برادنتن، فلوريدا، آذار (مارس) ١٩٤٧

(٥)

نص مختلف

طوبى للبسطاء

ربما لم يكن يتصرف كما كان ينبغي أن يفعل. لم يكن معتاداً على الأثيرة. لا يهم إذا اعتبر مجنوناً أو سيء التربية.

شكر، انحنى، توجه نحو الباب متقهقراً، وأخذ يركض على الرصيف. لم يتوصل، إلا بمشقة، إلى استعادة مشية أقرب إلى المشية الطبيعية شيئاً فشيئاً.

عشرون ألف فرنك!... كان ما أعلن عنه هو، حقاً، عشرون ألفاً... من أجل القاتل... من أجل القاتل فقط... ألم يكن يستحق أكثر منها وهو الذي كان يحمل قائمة مفصلة وكاملة بالضحايا السابقة والمقبلة؟

ذلك أنه، أخيراً، بقيت اثنتان، اثنتان، ستبقى لهما، بفضله، سنوات أخرى تعتيان فيها احتمالاً، بكلاهما، بقلبيهما، بكبديهما، وتنتهيان إلى الموت في السرير في حضور طبيب وكاهن وأشخاص دامعي العيون حول كل منهما.

ألم يكن ذلك يستحق زيادة صغيرة؟

- أثبت ذلك!

إذا افترضنا أن يقال له:

- أثبت ذلك... أثبت أن المرأتين اللتين تتحدث عنهما ستكونان الضحيتين المقبلتين... بأي حق تزعم أن رجلاً مثل السيد لابيه ينوي قتل الأم المقدسة أورسولا؟ ... هيا أجب..

وكأنه يكفي أن يفهموا! أن يفهموا، جملة، لماذا وضعت هذه القائمة بصورة نهائية. قالت الأم الرئيسة متحدثة عن السيدة لابيه:

«..... ينبغي أن أذهب لرؤيتها يوم السبت. السبت القادم هو يوم ميلادها، وقد حافظنا، نحن صديقاتها في المدرسة، على عادة الاجتماع، في هذا اليوم في غرفتها، على سرير مرضها....».

عشرون ألف فرنك... وربما خمسون ألفاً أو أكثر... السيدة دوتريف غنية، وعندما ستعلم بأنها لا تدين بحياتها إلا للخياط الصغير المثقل بأعباء أسرته...

الفهم! فهم ما كان يدور في الرأس الضخم للقبعاتي الهادئ الذي رآه كاشودا عشر مرات يومياً، خلال عدة سنوات، دون أن يعيره انتباهاً. مسألة ليست، في الجملة، أعقد، أبداً، من تلك التي تقرأ في الصفحة الأخيرة من الجريدة والتي لا يقبض الرابح، فيها سوى مائة فرنك!

دخل باراً صغيراً لم تطأه قدماه، من قبل، لأنه لم يكن يشرب، أبداً، في البارات.

– نبيذ أبيض......

عشرون ألف فرنك....

– نبيذ أبيض.....

خمسون ألفاً!.....مائة ألف؟....من يعلم؟ ......

– نبيذ أبيض أيها النادل......

كان يفكر في هذا وهو يرسل السائل إلى أعماق حنجرته على طريقة السكارى. سحقاً! الخمسون ألفاً، المائة ألف، تستحق ذلك، نعم أم لا؟

– قل لي أيها النادل.......

– سيدي؟

– لنفترض أن زوجتك..

كان النادل يصغي إليه فاغر الفم، وسكت، ابتلع كأساً أخيرة ومضى في طريقه.

كانت زوجته تنتظره وراء الباب.

– إنه فوق..

– من؟

– المفوض...

هتف بثقة لم تعهدها فيه:

– هذا أفضل!

لم يكن قد تساءل، قط، عما إذا كان صحيحاً أنه مكتوب لكل إنسان أن يعيش ساعة كثيفة، ساعة يعطي خلالها الحد الأعلى من نفسه، ولكنه كان يعيش هذه الساعة.

– مساء الخير يا سيدي المفوض.... أسألك العفو لكوني جعلتك تنتظر، لكني كنت مشغولاً جداً.

تماماً! كان يتكلم بلهجة منطلقة مثل أهمّ سادة مقهى السلام هؤلاء. لم يصل إلى حد نسيان حركاته كخياط، لكنه كان يجريها بدرجة من البراعة، كان يبدو، معها، أنه يقوم بألعاب خفة بالأجزاء التي لم تجمع، بعد، من بزة المفوض.

– جائزة العشرين ألف فرنك هذه، ليست، على الأقل، مزحة؟

– ألديك، أنت أيضاً، فكرتك الصغيرة؟

فكرة صغيرة! المفوض يسمي هذا فكرة صغيرة في حين أن كاشودا رأى آنسة مسنة تقتل تحت أبصاره، وفي حين كان يعرف الضحايا الأخرى وغادر واحدة منهن منذ قليل....

هه! هه!....

– اسمع يا سيدي المفوض.... لو كنت واثقاً فيما يتعلق بالجائزة.....

– أستطيع أن أسدي إليك نصيحة جيدة، في حال كنت تريد أن تربحها، هي أن تستعجل.....

لم يكونوا يصدقونه. كانوا يمزحون، كانوا يسخرون منه وحق الله! أضاف المفوض قائلاً:

– هناك، بالضبط من ينتظرني في مكتبي... سيدة... من أجل الجائزة على مايبدو... هتفوا لي، منذ قليل، في المقهى...

سأل مرتاباً:

– ماذا تدعى؟

- هل يهمك هذا؟

- أليست راهبة؟

- لماذا تريد أن تكون راهبة؟

- لا يشير اسمها إلى نبالة، ولا تُدعى أرماندين؟

ذلك لأنه لم يكن مستعداً لترك العشرين ألف فرنك تسلب منه.

- إذا لم تكن هذه أو تلك فصدقني، يا سيدي المفوض، أنها ستروي لك ترهات.

وترك المفوض الكلمات التالية تصدر عنه:

- لا بدّ أنك تعرفها لأنها تعمل تجاهك......

أصاخ السمع متصلب القسمات

- إنها خادمة صديقك القبعاتي......

تُرك المفوض لنفسه دقيقتين كاملتين، محزوم الجسم، بصورة غريبة داخل بزة ليس لها سوى كم وليس فيها ياقة، ينظر إلى الخياط الصغير الذي كان، في ذروة العصبية، يروح ويجيء في الغرفة. وبين حين وآخر، كان فم كاشودا يتشنج في تكشيرة تهكمية.

لم يكن ذلك ممكناً. لم يكن هذا نزيهاً! لقد فكر في كل شيء إلا في هذه الخادمة الشريرة التي كان ينبغي على القبعاتي أن يبدأ بخنقها. ذلك أنه أي فضل كان لها، هي التي كانت تدخل إلى البيت، التي كانت تستطيع أن ترى كل شيء، أن تنقب في كل شيء؟ أكانت هل التي فكرت في دير الحبل بلا دنس؟ هل كانت تعرف الضحايا القادمة؟ ماذا إذن؟

- اسمع يا سيدي المفوض... لنفترض أني، في الحال.....

أدلة بحق الله! السؤال الشيطاني نفسه دائماً، أدلة. ربما كانت الشريرة تملك أدلة حتى لو لم تكن سوى قطع ورق صغيرة التقطتها من القمامة!

- على وجه الإجمال، وبموجب العدالة، الجائزة لمن يصل أولاً، أليس كذلك؟

- بالطبع.....

- بحيث أنه إذا علمت الحقيقة مني قبل أن ترى هذه المرأة......

في الجهة المقابلة كان هناك نور. كان هناك، دائماً، نور في هذه الساعة. لم يكن يظهر، وراء الستائر المطرزة، سوى هالة مبهمة، إلا أنه كان يمكن التعرف على شكل مقعد السيدة لابيه والبقعة البيضاء لوجهها الجامد دائماً.

- السبت عيد ميلادها

- ماذا تقول؟

لا يهم....... السبت ينبغي أن تجتمع، عادة، في غرفتها، الناجيات ممن تتراوح أعمارهن بين الثالثة والستين والخامسة والستين، ثم....

لم تكن تلك ساعة كاشودا، بل دقيقته، لأنه كان ينبغي أن يمضي سريعاً بسبب الشريرة. ما كان في رأس الخياط الصغير هو آلة خياطة، آلة تدور بكل سرعة، تكر أفكاراً بسرعة تبعث على الدوار.

- اسمع يا صديقي..

- عشرون ألف فرنك؟

- شريطة أن.....

شريطة أن يقدم دليلاً. خسارة أو ربح مضاعف!

- انتبه!

وأمسك بالمقص الثقيل، ذاك الذي استعمله في قص الجوخ الذي كان يكسو، بصورة غريبة، المفوض في هذه اللحظة. فتح النافذة، تصرف كمن أصابه مس، على اعتبار أنه قذف، عبر الشارع بالمقص، نحو النافذة المقابلة.

تجمد فجأة، ارتعشت كل أعصابه، كان الزجاج قد تحطم بدوي كبير. وكان مرغماً على التقاط أنفاسه قبل أن يبتسم ابتسامة انتصار، ابتسامة يسمح لأنفسهم، بها، مرة في العمر، صغار الخياطين من أمثاله لأن ما كانا يريانه، كلاهما، المفوض وهو، في مقعد زوجة القبعاتي المقعدة كان رأساً خشبياً على كومة من خرق.

- قولي لي يا سيدتي..

- عفواً، أنا آنسة..

فينيغر، خادمة السيد لابيه، اقتيدت إلى مركز الشرطة وفهمت جيداً، لدى رؤيتها مخدومها والقيد في قبضته، أنها وصلت متأخرة.

– أكنت تعلمين أن السيدة لابيه ميتة؟

– كنت أرتاب في ذلك.

– منذ زمن طويل؟

– منذ أشهر.....أي كنت أرتاب دون أن أرتاب في ذلك.......

– فسري كلامك.

– كان ذلك بسبب السمك...

– أي سمك؟

– كل الأسماك، من الرنكة، من المرلان، من المورة... لم تكن تستطيع أن تأكل السمك.

– لماذا؟

– لأن ذلك يؤذيها... يبدو أن هناك أناساً هكذا....لقد احتجت إلى الشجاعة، هيا، وإذا لم أحصل على قسم من العشرين ألف فرنك، فمعنى ذلك أنه لم تعد هناك عدالة....

تحرك كاشودا في ركنه، لكن المفوض وجه إليه إشارة مطمئنة.

– لا تنسوا أني امرأة عجوز، أنا أيضاً، وكان يمكن، على الرغم، من أني أعمل لديهم منذ خمسة عشر عاماً.....

– السمك؟

– حسناً! أعددت له، ذات مرة، سمكاً وأردت أن أعد لحماً للسيدة، فقال لي إن ذلك لم يكن ضرورياً.. كان هو الذي يصعد إليها بطعامها، الذي ينظف ويرتب المكان فوق.. ثم كان هناك الحبل أيضاً.....

– أي حبل؟

– ذاك،الذي اكتشفته في الأسبوع الماضي، وأنا أنظف الورشة... لم يكن يريد أن أنظف هذه الغرفة... فعلت ذلك في غيابه لأن الرائحة كانت نتنة.. ووراء القبعات، اكتشفت حبلاً يتدلى من السقف.. كان يحدث بشده، صوتاً كالذي

كانت تحدثه السيدة، سابقاً، بعكازها الذي كانت تقرع به الأرضية... فيما يتعلق بالعشرين ألف فرنك، أنبهكم إلى أني سأرى رجل قانون.

كاد كاشودا ينتصب مرة أخرى. وكان السيد لابيه يبتسم هادئاً ووقوراً.

– على وجه الإجمال، بدأت بقتل زوجتك....

رفع كتفيه

– خنقتها كالأخريات...

– ليس كالأخريات أيها المفوض... خنقتها بيدي... كانت تعاني كثيراً...

– بعبارة أصح، تعبت من خدمتها.

– إذا شئت ... أنت غبي جداً.

– ثم أخذت بقتل صديقات زوجتك.. لماذا؟ ولماذا بهذا الايقاع السريع؟

عند ذلك، ربع كاشودا إصبعه كما في المدرسة وهتف قائلاً:

– بسبب عيد الميلاد...

تدخل الشرطي قائلاً:

– أرجوك....دع السيد لابيه يتكلم.

قال هذا الأخير مؤكداً كلام الخياط الصغير:

– صحيح.... إنه على صواب... كان ينبغي تصفيتهنّ، جميعهن، قبل يوم السبت القادم...

غمزة عين، هذه المرة، لكاشودا، له وحده. لا يوجد أدنى شك في هذا الصدد، وكانت غمزة عين متواطئة. كان يبدو أنه يقول:

«سوف يستمرون، مع ذلك، في التخبط... نحن الاثنان نفهم بعضنا...»

ولم يكن الخياط الصغير الذي أتى على كسب عشرين ألف فرنك، وربما أكثر، سوف نرى ذلك فيما بعد، يستطيع أن يفعل أقل من الابتسام.

ابتسامة مرتبكة قليلاً، ولكنها ودية، عطوفاً في كل الأحوال، أثارت استنكار الخادمة.

الأيام
الأربعة للرجل الفقير

القسم الأول

يـوما شارع دو لامبـر

(١)

سألت، بصوت لا نبرة فيه، يشبه التسميع، ونظرتها تائهة في مكان ما على بياض الجدران والسقف:

– ألا يزال السيد ماغان راضياً عن عملك؟

لم يكن يتوقع ذلك. وبعبارة أصح، كان الصوت يستغرق بعض الوقت ليبلغه لأنه كان قد غرق في ضبابه. إلا أنه كان يأخذ حذره طالما بقي إلى جانبها، في المستشفى. لحظة تردد، تقطيب غير ملحوظ للحاجبين، تعرف، بعدهما، على أحد فخاخها...

– لم يستطع السيد ماغان أن يقول لي ما إذا كان راضياً أم لا لأنه ليس في باريس.

لم يكن لذلك أية أهمية. إنه الروتين. في لحظة إطلاقها النفس الأخير، سوف تحاول، أيضاً، أن تجعله يغالط نفسه.

– اعذرني يا فرانسوا. نسيت أنه ذهب إلى الشاطئ اللازوردي.

لم يكن ذلك صحيحاً. لم تكن تنسى شيئاً، أبداً، خاصة هنا في المستشفى. ربما اتفق لها، هي أيضاً، سابقاً أن تمر بشارع الغلاسيير، وأن رأت وهي تحدق في واجهة بيت يقع في الطابق الأرضي اسم أوسكار ماغان، مفتش كراسي.

هذا الاسم خطر له عندما سألته عما إذا كان قد وجد عملاً. لم يكن يكذب تماماً أبداً. كان هناك، دائماً، تفصيل صحيح على الأقل. كان يختار، طواعية الأسماء النادرة التي تبدو له أكثر إقناعاً.

كانت تعلم. كان هذا محتملاً، لكنها قد لاتقول شيئاً، كعادتها، خلال أسابيع وشهور وسنوات، ويخرج ذلك، مع الباقي، في نوبة دموع.

أو بالأحرى، كانت هناك، نظراً للحالة التي كانت عليها، فرص لأن لا يخرج ذلك أبداً.

كان ينتظر الجرس الكهربائي الذي يعلن نهاية الزيارات. وبما أن جيرمين كانت تحتل أول سرير قرب الباب وبما أن هذا الأخير كان يبقى مفتوحاً، فقد كان يستطيع، بالانحناء، أن يرى الساعة في آخر الرواق. كانت تشير إلى الثامنة إلا سبع دقائق.

كانت تلك هي الغرفة رقم ١٥، غرفة بستة أسرّة. أقرب سرير إلى الجدار الذي كان، فيه، شخص يوم الأحد السابق، كان خالياً.

عندما دخل، نظرت جيرمين إلى هذا السرير بصورة ما، وفهم. غالباً ما حدث ذلك.

أشارت إليه لينحني وتمتمت في أذنه:

– يجب أن تتحدث قليلاً إلى الآنسة ترودبل. لا أحد يأتي لزيارتها. إنها لطيفة جداً معي! في المرة القادمة، حاول أن تأتي لها بشيء ما، برتقال أو سكاكر.

كان زوجان في ملابس حداد يقفان على جانبي السرير الثالث ممسكين بيدي مريضة عاجزة عن الكلام.

– لا تقلق يافرانسوا: لست خائفة كما تعلم! أسأل الآنسة ترودبل! عندما يكون المرء أمام عمليته الجراحية السابعة في سنة! سوف ترى! كل شيء سيكون على مايرام. غداً، في الساعة العاشرة، سيأتون لآخذي، وسأعود إلى هنا قبل الظهر. لا يوجد، تقريباً، شيء ينتزعونه.

كان الصوت يأتيه من خلال ضبابه. كل ذلك كان جزءاً من الطقوس.

- الخادمة تعتني بكما على الأقل؟

لم تكن، كذلك، تؤمن بوجود خادمة. ربما كان ذلك موجهاً إلى الآنسة ترونيل أو، ببساطة، لأنها كانت، مثله، تنتظر أن تدق الساعة.

كانا يعيشان في عالمين مختلفين. ومع ذلك، لم يقطع، خلال أحد عشر شهراً، زيارة واحدة، وحده مساء الخميس، ومع ابنه بعد ظهر يوم الأحد - وكانت زيارة الأحد تدوم ساعتين.

كانت هناك احتمالات في أن لا تصمد لهذه العملية. في البداية، شرحوا، إلى حد ما، لفرانسوا حول أي شيء يدور الأمر، وخاف من سماع تعداد الأعضاء التي سينتزعونها منها. الآن، لم يعودوا يتجشمون هذا العناء. أصبح الأمر معقداً أكثر مما ينبغي. يجب أن يكونوا قد اعتبروها منتمية، نهائياً، إلى المستشفى. ربما كانوا يستخدمونها في تجارب.

إذا كان يجب أن تموت، فمن الأفضل أن يتم ذلك وهي في حالة التخدير.

- لن يكون عليك سوى أن تهتف، حوالي الظهر، إلى رئيسة الممرضات لتسأل عن الأخبار.

- سوف آتي.

- ما الفائدة من ذلك يا فرانسوا؟ ولم يمض عليك عند السيد ماغان سوى وقت أقل مما تستطيع، معه، أن تتغيب.

سيكون، مع ذلك، هناك، في الردهة الأولى، قرب كوة الاستعلامات ككل مرة أجريت لها فيها عملية.

- قبل بوب، كثيراً، عني!

- نعم.

- كن حذراً وأنت تعبر الطرقات. كنت، دائماً، مشتت الانتباه. لو تعلمين، يا آنسة ترونيل، كم هو مشتت الانتباه!

كان ذلك كل شيء تقريباً، لذلك المساء. انتهى إلى الترنُّح على ساقيه لأنه كان يبقى واقفاً دائماً، في وضعية تذكر بتلك التي كان يتخذها، سابقاً، في الكنيسة

وبداه تمسكان بقبعته أمامه. كانت تكرر له في كل مرة: «لماذا لا تضع قبعتك أسفل السرير؟». لم يكن يفعل ذلك لأنه قيل له ذات يوم، أن ذلك يجلب مصيبة.

لم يكن يؤمن بالخرافات. كان ذلك آلياً.

تردد أول قرع للجرس في الأروقة، وهو ما يعني أنه لا يزال للزوار الحق بخمس دقائق. كانت جيرمين تلح على رحيله:

– اذهب يا فرانسوا. لا تحب الممرضات انتظار اللحظة الأخيرة.

ارتاح كلاهما. كان لا يزال ينبغي، وهو ينحني لتقبيلها، أن ينتبه إلى عدم شمها رائحة فمه.

كان قد أقسم لها على أن لا يمس، بعد، كأس كحول. ما الفائدة ما دامت لم تكن تصدقه مع ذلك؟ تشجع يا فرانسوا!

فكر في تحية الآنسة ترودبل بابتسامة. ثم عني، عندما صار في الرواق، على أن يمشي ببطء كي لا يبدو في مظهر من تخلص من عبء. لم تعد تضايقه الرائحة ولا كل هؤلاء النساء المريضات في كل هذه القاعات، في كل هذه الأسرة.

منذ هذه اللحظة، وفي كل مرة كان يتساءل عما إذا كان باب الغرفة رقم ٢٧ قد أغلق. كان مسألة حظ. كان يعرف في أي مكان من الرواق يمشي كي يجد نفسه في أفضل زاوية. كان الرقم ٢٧ غرفة خاصة مليئة، دائماً، بالزهور النضرة، وضع، فيها، حاجب للنور وردي اللون على المصباح. عندما يكون الباب مغلقاً، كان يعرف ذلك منذ منعطف الرواق لأن باقات الورود تكون، إذ ذاك، مصفوفة، خارجاً، على الجدار.

خلال ما يقرب من عام، رأى كثيراً من النساء اللواتي لم يعدن يتبادلن القبل، في المستشفى، حياء. لكن نزيلة الرقم ٢٧ لم تكن مريضة. كانت لها، فقط ساق في الجص حتى أعلى الفخذ، وكانت هذه الساق، في الفترة الأولى، مسنودة في الهواء، بنوع من بكرة.

كانت فتاة أو امرأة فتية جداً، امرأة شقراء بشرتها صافية جداً. كانت تمضي وقتها في قراءة المجلات وهي تدخن سجائر. نادراً ما لمح وجهها المخبوء، دائماً تقريباً، وراء المجلة.

كانت قد اعتادت على إبعاد الغطاء وثني ساقها غير المصابة بحيث كان يستطيع، من موضع ما في الرواق، أن يرى ظلال العضو الجنسي الحميمة والندية.

رآه في ذلك اليوم واحمر خجلاً لأن ممرضة كانت آتية من الاتجاه المعاكس تابعت اتجاه نظرته.

ثم كان، بعد ذلك، الإحساس المحبط قليلاً بالوجود خارجاً، في حين أن الليل لم يكن قد غزا، بعد، الطرقات. كان شيء من الشمس باقياً على زجاج الطوابق العليا. كان الجو قد ازرق على مستوى قامة إنسان، مع نصف شفافية فقط.

دخل إلى محل بائع الخمور، تجاه المستشفى، بائع خمر أوفرني يبيع حطباً وفحماً.

- كأس مارك.

مضى زمن طويل لم يعد، فيه، يقرف من نفسه، يحكم عل نفسه، ولم يعد أكثر تعاسة فيه. أفرغ الكأس دفعة واحدة، مع غثيان لأن الكحول كانت قوية. من قبل، كان يشرب الكونياك،لكنه لاحظ أن المارك كان يسكر بمزيد من السرعة، وبالتالي أرخص من الكونياك.

لم يترك المعلم الزجاجة وملأ، ثانية، الكأس، في حين كان لوكوان يبحث عن النقود في جيبه.

كان ذلك يقتضي ترتيباً أعقد مما يظن، يشبه إعداد آلة فوتوغرافية. صوَّر كثيراً، في السابق، عندما كان بوب طفلاً رضيعاً وصور ابنته مرات أقل: فمسألة المال كانت تعقد الأمور.

في الصباح، كان يكتفي بكأسين، الأولى بعد خروجه من بيته مباشرة، منذ أن ينعطف عند ملتقى شارع دولامبر وشارع لاغيتيه. كان ذلك ملحاً لأنه كان، في تلك البرهة، يحس بنفسه فارغاً، كما لو أصابه دوار، مع الرغبة في أن ينتهي كل شيء نهائياً.

كان يمشي في الطرقات. كان يمشي كثيراً. لم يمش، قط، بقدر ما مشى منذ أن أصبح عاطلاً عن العمل. كان يجتاز الدرب نفسه، فيما عدا بعض التحويلات، مع المواقف نفسها.

كان، في الساعة الواحدة والنصف، يأخذ مكانه في الصف، تجاه الجريدة ليكون أحد أوائل من يقرؤون عروض الاستخدام.

أصبح ذلك تقليداً أكثر منه أي شيء آخر. لم يعد يسرع لأنه كان يعلم.

مضت عليه اثنتا عشرة سنة وهو يسكن في حي مونبارناس. تسع منها في شقة شارع دولامبر نفسها. لم يولد بعيداً جداً: في شارع سيفر، على الضفة اليسرى لنهر السين هو الآخر.

كان هناك، الآن، أناس على العتبات، أجهزة راديو وراء النوافذ المفتوحة، وأحياناً نور في أعماق غرفة ليس أقوى من شعاع شمس.

لم يكن، أبداً، ينعطف يميناً، من جهة المقبرة، وكان ذلك، أيضاً، نوعاً من التطير. كان يحب، على العكس من ذلك، أن يندس في جمهور شارع لاغيتيه حيث تلمع بعض اللافتات الضوئية.

كان هناك، عند زاوية الشارع، بار صغير، بار بوبول، وكانت هناك منضدة صغيرة قرب الحجرة الهاتفية كان يعدُّها كأنها خاصته تقريباً.

جلس إليها وظهره إلى الجدار المطلي باللون الأخضر الفاتح. طلب من بعيد

– كأس من المارك!

كان الجمهور، في الجهة المقابلة، يغيب في الشدق الكبير اللامع لدار سينما. كان هناك أناس يمصون، سائرين، قرصاً من القشدة المجمدة. وبما أن الرصيف لم يكن عريضاً، فقد كان يرى، عن قرب، رؤوس ركاب الباصات.

كان لكل ذلك، منذ بعض الوقت، مذاق غبار وصيف وعرق لأن الجو كان حاراً جداً. وكانت نوافذ باريس تبقى، في الليل، مفتوحة. بل إن بعضهم كانوا يسحبون فراشاً إلى شرفاتهم.

لم تكن هناك. كانت هناك اثنتان أخريان، الشقراء السمينة التي كان يسميها، بينه وبين نفسه، المساعد والخادمة الصغيرة التي تكاد أن لا تكون قد تحررت والتي تتزين بطريقة غريبة.

كان المشهد مضبوطاً كرقصة باليه. من خلال الزجاج الذي يقرأ عبره بحروف صفراء، اسم بوبول مقلوباً، كان يراهما تمشيان منفصلتين على الرصيف، كل منهما في اتجاه الأخرى.

كانتا تسيران ببطء وهما تؤرجحان حقيبتيهما بأسفل ذراعيهما. في اللحظة التي تتلاقيان فيها كانتا تتبادلان إشارة صغيرة، وليس ابتسامة، تكشيرة غالباً. كانت تكشيرة الخادمة الصغيرة تقول: «يا لقدمي المسكينتين!»

على الرغم من الحذائين الجديدين، كان عقباها يتلويان. ابتسمت لأحد المارة، توقفت لحظة رافعة كتفيها، وعادت إلى السير لتدور عند متجر القمصان، في حين بقيت المساعد، في الطرف الآخر من الدرب، لحظة، جامدة في ظلام الشارع العرضاني.

في هذا الشارع كان الفندق بنوره الضعيف فوق الباب، وإلى اليمين كوة المكتب الذي كانت تفوح منه رائحة المشمع.

ربما كانت الثالثة مع زبون في الفندق، كان يحب أن يتخيلها مع زبون، وخاصة أن يتخيلها في اللحظة التي ترفع، فيها، تنورتها وتجلس على حافة السرير.

كان يحب كثيراً، أيضاً، أن يراها عندما كانت تعود، هادئة دائماً، عندما كانت تلقي بنظرة إلى ركنه قبل أن تتكئ على البار.

– نعناع بالماء يا بوبول.

كانت الخادمة تتحدث مع رجل عند منعطف الشارع الصغير. طلب، وهو يقرع رخام المنضدة بقطعة نقود:

– كأس من المارك.

لم يكن سكراناً. لم يمضِ أبداً إلى هذه الدرجة. كان يعرف النقطة المضبوطة التي يريد الوصول إليها، النقطة التي يكون، فيها، ضبابه كافياً، بالضبط للسماح له بتشويه الأشخاص والأشياء على هواه.

إلا أنه تجمد، جاف الحلق، حين كانت نظرته تهوم على الزجاج، اللحظة التي كان يرفع فيها الكأس إلى شفتيه. كان هناك، على الرصيف، غلام التصق وجهه بالواجهة، وهذا الغلام كان ابنه الذي كان يضرب الزجاج بيديه الصغيرتين.

نهض، كاد يخرج دون أن يدفع، عاد إلى البار، وفي زاوية الطريق حيث كانت النساء وزبائنهن يلتقون، وضع بوب يده، آلياً، في يد أبيه. قال:

- هناك أحدهم في البيت.

- من هو؟

- لم يذكر اسمه. وصل منذ نصف ساعة وسألني عما إذا كنت ابنك.

- لماذا لم تنتظرني معه؟

- لا أدري، خفت.

كان هناك سؤال له أهمية مختلفة يرغب فرانسوا لوكوان في طرحه ولا يجرؤ على صياغته.

لم يكن بيتهما يبعد سوى مائتي متر، ولكنه لم يدخل، قط، إلى بار بوبول خلال النهار. مساء، كان يفترض أن ينام بوب في الساعة الثامنة. كان أبوه يجده دائماً حين يعود في سريره متظاهراً، بصورة متفاوتة النجاح، بأنه نائم حين كان ينحني ليقبله: «مساء الخير يا بني». «مساء الخير يا بابا». هنا، أيضاً، كان يهتم برائحة فمه.

- كيف هو؟

- إنه ضخم جداً دون شعر تقريباً. له طريقة غريبة في الكلام «أفترض أنك ابنه» قالها لي بقسوة، خلت، معها، أنه سيضربني!

- ماذا فعل؟ هل تركته وحده؟

- أعلنت له، أني سأذهب لآتي بك. جلس في مقعدك. سألني عما إذا كان هناك شيء للشرب.

- وماذا بعد؟

- أعطاني ورقة مالية لأذهب وأشتري له زجاجة كونياك.

- وهل فعلت؟

مد له بوب الورقة المالية التي كان قد احتفظ بها في قبضته المضمومة.

حثّا الخطي. عندما مرا ببائع خمور، توقف فرانسوا وتساءل عما إذا لم يكن يحسن صنعاً إذا اشترى الزجاجة

– أ أنت واثق يا بوب من أنك لم تره أبداً؟

– واثق.

اشترى زجاجة كونياك بثلاثة نجوم. كان شارعه يبدو له، بسبب الغريب، أقل تآلفاً معه، مع شيء إيهامي، وأصبح المارة غامضين.

– كيف.......

كلا! كان ذلك السؤال الذي لا ينبغي أن يطرحه. ألم يكن غريباً أن يأتي الغلام ليلصق وجهه على واجهة بار بوبول بالضبط؟ هل يجب أن يعتقد أنه كان يعلم؟

كانا يسكنان في أهدأ قسم من شارع دولامبر. كانت البوابة في غرفتها. كانت متباعدة الساقين وتفرط البازلاء في مريولتها مع دلو ملئ بالماء إلى جانبها. قال لها:

– مساء الخير يا سيدة بوساك.

كان يعلم أنها لن تكن تجيب وأنها ستقطب جبينها مزدرية لأنه كان مَديناً بقسطين.

لم يكن هناك مصعد، لكن الدرج كان نظيفاً، مع سجادة حمراء مثبّته بقضبان نحاسية.

ثلاثة طوابق. الباب على اليمين، بحث عن المفتاح في جيبه، ثم تبين له أن الباب منفرج، علق قبعته، آلياً، على العلاقة، ومنذ عتبة غرفة الطعام، رأى عينين كبيرتين ساخرتين كانتا ترمقانه.

– هالو فرانسوا.......

الغلام الذي كان يشد شقة من سترة أبيه وقف وراءه.

– مساء الخير يا راوول.

– لم تكن تتوقع هذا، أليس كذلك؟ هل أتيت بالزجاجة على الأقل؟ أراهن على أني أخفت هذا الفتى الصغير.

عند ذلك، التفت فرانسوا نحو ابنه وقال على مضض:

- هذا عمك بوب!

- أي عم؟

- أخي راوول، الذي كان في إفريقية.

- آه!

- لا يبدو أنه مسرور كثيراً من التعرف عليَّ.

- هذه أول مرة. يجب أن ينام، كان يجب أن يكون في السرير منذ وقت طويل. ألم يكن فيه حين جئت؟

قال الصبي:

- كنت أخلع ملابسي.

- اذهب إلى سريرك.

- نعم بابا. هل ستأتي لتقول لي ليلة سعيدة؟

- وأنا، ألا يقال لي شيء؟

- مساء الخير، يا سيدي!

- مساء الخير لمن؟

- مساء الخير ياعمي.

ترك بوب باب غرفته مشقوقاً. ذهب أبوه لإغلاقه وبقي الرجلان وحدهما. كانت الخزانة مفتوحة بين النافذتين، وكانت، على الطاولة، المستديرة، أوراق مبعثرة.

اقترح راوول دون أن يغادر مقعده:

- ماذا إن بدأنا بشرب كأس؟

كان قد نزع سترته وربطة عنقه وفتح ياقة قميصه على صدره السمين. كان قد أصبح، فعلاً، ضخماً، ممتلئاً بدهن أصفر رديء يصنع، فيه، انتفاخات دهنية في كل مكان.

كانت نظرة فرانسوا تمضي من مسودات الرسائل المبعثرة على الطاولة إلى الخزانة المفتوحة.

سأله أخوه الأكبر:

- أهذا يربكك؟ كان من شأني، مع ذلك، أن أفهم من النظرة الأولى، ودون حاجة إلى أن أنظر إليك! نحن من دم واحد، أليس كذلك؟

لم يجر فرانسوا الحساب حالاً. يجب أن يكون راوول في السادسة أو السابعة والأربعين من عمره، وهو لم يتجاوز السادسة والثلاثين. نعم، الفرق بينهما عشر سنوات تنقص أو تزيد شهوراً.

ذهب، آلياً، ليفتح البوفيه، أخرج منها كأسين وبحث في الدرج عن فتاحة الزجاجات ذات المقبض العظمي

- أمضى عليك زمن طويل في هذا؟

- في ماذا؟

- مثل جنّينا الوغدين؟

ترك فرانسوا السؤال دون جواب.

- لم أكن أعلم أنك عدت إلى فرنسا.

- لم تكن تعرف أين أنا. لابأس. تركت حقائبي تجاهك، في فندق رين وتذكرت عنوانك. تساءلت عما إذا كنت قد غيرته. هل ماتت زوجتك؟

- إنها في المستشفى. كنت، بالضبط، عائداً من...

- هل ستموت؟

- لا أدري.

- ما عمر الغلام؟

- بلغ التاسعة في الشهر الماضي.

- لماذا أسميته بوب؟ كان يبدو لي أنك أعطيته اسم جول المتناغم.

كان ذلك صحيحاً. كان اسم أبيهما، وفرانسوا حرص على إطلاقه على ابنه، لكنهم اعتادوا على مناداته باسم بوب.

– في صحتك.

– في صحتك.

راوول الذي أفرغ كأسه دفعة واحدة نهض من على المقعد لينقض على الزجاجة ويصب لنفسه من جديد.

– لست مسروراً كثيراً لرؤيتي من جديد، أليس كذلك؟

كانت ابتسامته تهكمية، واثقة. أكثر ما كان يفاجئ، يصدم فيه، كان صوته الذي أحس فرنسوا بأنه لم يسمعه أبداً.

– هل تفيد هذه الأشياء الصغيرة؟

كان يشير بذقنه إلى مسودات الرسائل التي اعتاد فرانسوا على الاحتفاظ بها.

نادى بوب في ظلام الغرفة:

– بابا!

وعندما انحنى أبوه على سريره، تمتم متلعثماً:

– لا أحبه. وأنت؟

كان عدم الإجابة أفضل. كان يجب أن يعود إلى نور غرفة الطعام الفج ويتحمل، من جديد، نظرة أخيه المفترسة.

– متى بدأت؟

– لم أعد أدري.

– هل أفلحت مع مارسيل؟

كان شقيقهما، المحامي، كما كان يقال في بداية حياته المهنية والذي كان، الآن، على رأس مكتب منازعات ومستشاراً بلدياً.

– اعترِفْ بأن الأمر لم ينجح مع مارسيل.

لا جواب.

- يا غبي! عند ذلك كنت من السذاجة بحيث توجهت إلى رينيه.

كانت رينيه زوجة مارسيل، ابنة إلدرلان العجوز، والتي ورثت ملايين الأب.

سأل فرانسوا ليحول مجرى الحديث:

- هل بقيت على صلة بهما؟

- اتفق لنا أن تكاتبنا. وهكذا عرفت، في أعماق الغابون، بموت إلدرلان. يالهذا الأخير من وغد! اشرب.

- شكراً.

- ألست سكراناً؟

- لا أسكر أبداً.

- قلت هذا أنا أيضاً.

- اسمع يا راوول..

- لا شيء بالمرة! أنت الذي ستصغي إليَّ. أخذ، عشوائياً، إحدى المسودات من على الطاولة، أمسك بها بعيداً عن عينيه كشخص ضعيف البصر.

- «*سيدي وصديقي العزيز......*».

- راوول!

- «*سيفاجئك، دون شك، تلقي هذه الرسالة بعد هذه السنوات. هل ستصدقني إن قلت لك إني احتفظت بذكرى لا تنسى عن الزمن الذي كنا، فيه، زميلين في ستانيسلاس و.....*

توسل فرنسوا إليه وهو ينظر إلى الباب الذي كان بوب نائماً خلفه:

- اخفض صوتك!

- هل يعدك ابنك رجلاً عظيماً؟

- أتوسل إليك!

- *...... لم أقرر، إلا بعد تردد طويل، أن أتوجه إليك في برهة تنقض، فيها، عليَّ محن قاسية....*

«محن قاسية تنقض»....... ألا يذكرك هذا بشيء؟ هذا أسلوب أمنا تماماً. انتظر! كم طلبت من هذا الذي يدعى آليه، ماذا يعمل؟

– معاوناً لمدير شركة تأمين.

– .... أنت تعلم أني أجريت دراسات جيدة. أنا لا أزال شاباً وشجاعاً. وأنا مرتبك لكوني أتحدث عن صفة لم يعد لها سوق في الوقت الحالي، لكني، مع ذلك، أصرُّ أن أقول لك بأنني شريف، شريف إلى حد الوسوسة. لو أردت أن أفعل مثل آخرين كثيرين......

مثل مارسيل مثلاً ؟

– مارسيل.....

– مارسيل نذل

– .... أنا واثق من أنه توجد، في باريس، وظيفة صغيرة أستطيع أن أبرهن فيها عن......

«يااللغبي المسكين!» أحبولة قديمة! وكل الباقي: إخلاص، امتنان، هه! لقد نجح الأمر مع آليه هذا أرى أنك قد كتبت بقلم الرصاص:

مائة فرنك.

– أرجوك يا راوول. ابني.....

– ماذا ابنك؟ أليس هو لوكوان مثلنا، مع، من أجل التغيير، مزيج صغير من رويل. هكذا كانت أمه تدعى، أليس كذلك؟ لوكوان – رويل. وناي من أجل أمنا العزيزة.

– أوه! اخرس!

– بالمناسبة، ماذا حل بحماتك؟ كنت أظن أنها تعيش معك.

نظر حوله كما لو كان يتوقع أن يرى، في زاوية مظلمة عجوزاً عاجزة.

– ماتت.

– هذا مكسب على كل حال.

– أنت سكران، أليس كذلك؟

– ليس أكثر من المعتاد، ليس أكثر من جدنا لوكوان، أو جدنا ناي، ينبغي ما ينبغي.

– رد إليَّ الزجاجة.

– كلا!

– هل مررت بمارسيل؟

– كلا.

– ألن تمر؟

– لا أدري بعد.

– هل أنت باقٍ في فرنسا لوقت طويل؟

– ربما دائماً.

– ظننتك متزوجاً.

– تزوجت مرتين. زوجتي الثانية يجب أن تكون، مع ابنتي في مكان ما هنا.

– أليس لديك عنوانهما؟

– هذا لا يهمني. أصابتني، في الأدغال، منذ ثلاثة أشهر، نوبة مرارة كادت تودي بي. عند ذلك، أخذت الباخرة.

– يبدو أنك غني.

– هذه أقاويل. على كل حال، لا تعتمد علي للرد على رسائل من هذا النوع.

– أرجوك!

– أؤكد لك أن هذا يستحق أن يقرأ بصوت مرتفع. استمع إلى هذا. اعتقد أنه موجه إلى مدير جريدة، إذا كنت أفهم جيداً. آخذ أجمل ما فيه:

«كنت، *دائماً، أميل إلى الكتابة*... بالضبط!، الجائزة الأولى في الإنشاء!... ومع ذلك، أنا مستعد *لقبول الوظيفة التي يرضيك أن تعهد بها إليَّ*،

ولو كانت إدارية. مع رجل مثلك، لا مكان لكل تواضع كاذب وأقول لك، إذن، بصورة قاطعة، إني أعرف قيمتي......» المدهش هو أنك تذكر رقماً! كذا في الشهر! فرانسوا لوكوان يساوي كذا شهرياً. بماذا أجابك السيد؟

– الأزمة....

– بحق الله!

– أؤكد لك يا راوول أن الأمر ليس كما تظن. لقد توالت علي كل أنواع سوء الحظ، واحداً بعد الآخر. زوجتي مريضة منذ سنة. الحقيقة هي أنها تذوي منذ أربع سنوات. كنت أنا الذي يتولى خدمة البيت عندما أعود مساء، ثم هناك الصغيرة...

– ألديك ابنة؟

– نعم، أوديل. إنها في السادسة من عمرها. اضطررنا لإرسالها إلى الجبل بسبب رئتيها. إنها تعيش لدى أسرة فلاحين في سافوا العليا.

– هل مضى عليك زمن طويل لم تدفع، فيه، نفقات إقامتها؟

– كيف عرفت ذلك؟ أخيراً هناك المستشفى. يجب أن ندفع كل شيء لأننا لسنا معدمين.

– وأنت متأخر.

– تملك جيرمين بيتاً صغيراً ورثته.

– ألم تبعه؟

– السعر المعروض لا يسدد الرهنيات، لكن الكوخ يجعلنا مصنفين بين الملاكين.

– كيف خسرت عملك! لأنك كنت تفرط في الشراب، أليس كذلك؟

– آخر رب عمل لي انسحب من الأعمال. توالت عليّ كل أنواع سوء الحظ.

– كلا.

كان فرانسوا يحني رأسه، على الرغم منه، أمام أخيه البكر. في السابق كان فرق العشر سنوات كافياً لوضعهما على مستويين مختلفين. وباستثناء لقاء قصير في باريس، لم ير أحدهما الآخر منذ ثمانية عشر عاماً.

– أعطني كأسك.

– كلا.

– أعطني كأسك. أكره أن أشرب وحدي هل تعشيت؟

– نحن نتعشى، دائماً، بوب وأنا، قبل أن أذهب إلى المستشفى.

– أ أنت الذي تعد الوجبات وتغسل الآنية وكل شيء؟

– في البداية، كانت البوابة تصعد ساعتين كل يوم.

– لم تكن بوابتك لطيفة معي. لم تدفع لها، أليس كذلك؟

كان الجو حاراً جداً في الغرفة على الرغم من النافذتين المفتوحتين. نظر فرانسوا، منحنياً، إلى الساعة الضخمة التي كانت لافتة للدكان المواجه. بلغت الساعة التاسعة والنصف. وتحت الساعة، كانت الكلمات التي كانت، دائماً، تحت بصره منذ أن سكن شارع دولامبر: باشون، خليفة غلاسنر.

في لحظة، راودته فكرة المزيد من الانحناء، أن يدع نفسه يسقط في الفراغ، على الرصيف الذي كان ينيره فانوس يقع تحته مباشرة.

كان يعلم أنه لن يفعل. عاد إلى الغرفة، لمح الزجاجة نصف الفارغة وأمسك بها، قهقه أخوه ضاحكاً:

– وأخيراً!

– أخيراً ماذا؟

– لا شيء! اشرب يا بني. أتتذكر اليوم الذي سكر، فيه، الجد ناي إلى درجة، بال، معها، في الطنجرة؟

ارتسمت على شفتي فرانسوا، على الرغم منه، ابتسامة عصبية:

– وأمنا المقدسة التي كانت لا تزال، حتى قبل وفاتها بقليل، تؤكد......

«ليس هذا صحيحاً. كان ذلك في نهاية حياته، حين كان عقله يتبدد».

«هل تذكر يا فرانسوا؟ كانت تدعي، أيضاً، أنه إذا كان قد خسر ثروته، فإن ذلك بسبب طيبة قلب خالصة لأنه وقع، متهوراً، على سندات من أجل صديق معوز.

«في ذلك المساء، يا عزيزي، مساء توقيع السندات، لا بد من أنه كان مليئاً كبرميل.

« وهو ما لايمنع من أن شقيقتها هي التي انتهت في مستشفى مجاذين.

– أ أنت متأكد؟

– هل قالت لك أمنا العكس؟

– أكدت لي أن الخالة إيما ماتت بالتهاب رئوي.

– إذا صدقناها، فلا شك في أن جدنا لوكوان لم يصب بجدري الماء يوماً.

– راوول!

– هه! أتيت على قول هذا بصوت أمنا نفسه، بالضبط. أتعلم أنك تشبهها؟

لك طريقة إمالة الرأس نفسها، كما لو كان ذلك عن خجل، كما لو كان للاعتذار عن كونك هنا. لك، دائماً، إلى حد ما، هيئة من يدخل كنيسة.

– أفضل أن لا تعود تتحدث عن أمنا.

– عن أي شيء تريد أن أتحدث؟

ولكن فرانسوا لم يستطع أن يرد: فقد اندلعت، فيه، اجهاشة بكاء كحازوقة وبقي لحظة يمسك بصدره، مبلل العينين، كما لو كان سيتقيأ.

(٢)

كانت الشمس هي التي أيقظته بوصولها إلى وجهه. وهكذا علم، قبل أن يفتح عينيه، أنه متأخر كثيراً، تماماً كما علِم وهو لا يزال كمنْ يتخبط في ذوع من وحل النوم، أن لا شيء إلا السوء ينتظره في الجانب الآخر من اليقظة.

نظرته الأولى، الآبقة والخجول، كانت نحو سرير ابنه - منذ دخلت جيرمين المستشفى، أصبحا يتقاسمان الغرفة نفسها - وصدمته البقعة الفجة في الأغطية المرفوعة، كعلامة تأنيبٍ أولى. كان بوب قد نهض وذهب، دون شك، لأن رائحة الفراغ كانت تنبعث من الشقة ذات الأبواب والنوافذ المفتوحة. كان لا يزال يمكن أن تشم في رعشات الهواء اللطيفة رائحة كاكاو مبهمة.

كانت الساعة الضخمة، فوق واجهة السيد باشون، تشير إلى العاشرة والدقيقة العاشرة، ومن فوق، كان يرى ما يشبه نقاطاً سوداء من الرؤوس حول عربات خضار وفواكه صغيرة. كان يجب أن يكون في المستشفى، في ردهة الانتظار، قرب الكوة. كما وعد، في انتظار نتيجة العملية، وكان إخلافه وعده يسبب له انزعاجاً إضافياً.

في المطبخ، على الطاولة، كوب كان قد احتوى على شوكولاه وكأس بيضة فارغة، وإلى جانبهما ورقة منتزعة من دفتر كتب عليها الغلام:

«أنا عند صديقي».

كان ذلك يعني ما يبعد منزلين ، في باحة ورشة ترصيص ولحام مزدحمة بعربات ذات أذرع وبمواد يستطيع الأطفال أن يصنعوا منها عالماً إيهامياً.

لم يكن فرانسوا متأكداً، ولكنه كان يظن أنه يتذكر أنه فتح عينيه باكراً، حين لم تكن الشمس قد بدأت في الغوص في وسط الطريق. كانت في ذاكرته،

صورة جديدة تماماً لبوب يرتدي ثيابه دون ضجة، مراقباً إياه بطرف عينه، ثم يخرج من الغرفة حاملاً حذاءه بيده. ألم يقل له فرانسوا أنه مريض؟ هل صدقه بوب؟ هل سمع أباه يشخر، وهل شم رائحة الكحول في الغرفة؟ كانت الزجاجة الفارغة والكأسان باقية على طاولة غرفة الطعام مع كميات من أعقاب السجائر. لم يكن شيء في مكانه بالضبط لم يكن له وجهه المألوف، وكان ألبوم الصور ذو الزوايا النحاسية ممدداً، مفتوحاً قرب منفضة سجائر.

لم يكن يعرف، بعد، ماذا سيفعل. كان يترنح، مريضاً حقاً، خطرت له فكرة إعداد قهوة، لكن مجرد رؤية الآثار الصفراء على القشرة البيضاء للبيضة سببت له الغثيان. عبثاً حاول أن يتقيأ. بل لم يكن قادراً على شرب كأس ماء.

بقي تحت تأثير الحلم الذي لا بد أنه رآه قبل استيقاظه بقليل. كان في محطة، ضمن جلبة كبيرة، يتناقش، بعنف، مع رجل يرتدي لباساً رسمياً أخذ منه بطاقته، وكان يمسك بيد بوب. لم يكن يفهم لماذا كان هذا الأخير يحاول أن يسحبه إلى وراء. كان ذلك مضحكاً لأنه كان لما سيقوله للموظف أهمية كبرى. كان الناس، حوله، ينظرون إليه بازدراء، ولم يكن يفهم السبب كذلك حتى اللحظة التي لاحظ فيها، أنه كان عارياً تماماً.

ولكنه لم يكن عارياً عريه الخاص. وهذا ما كان غير قابل للتفسير في حلمه. كان عارياً كخاله ليون، شقيق أمه الذي كانوا يذهبون، أحياناً، لرؤيته في ميلون عندما كان هو نفسه، فرانسوا، في عمر بوب اليوم، عارياً مثل خاله ليون الذي فاجأه، مرة، من قفل الباب، في غرفة الخادمة وبصحبتها.

إلا أن فرانسوا كان، آنذاك، أكبر من بوب بقليل. كان يجب أن يكون في الثانية عشرة من عمره. كان الخال ليون أصهب. بلحم من البياض بحيث كان يبدو ميتاً. وكذلك كانت بشرة الخادمة، في نصف ظلمة غرفة السقيفة، كامدة. لم يكن قد فكر، قط، في أن البشرة البشرية يمكن أن تكون ذات لون أبيض في هذه الفجاجة مع كل الشعيرات التي كانت كأنها مرسومة بالحبر.

كان ذلك مقرفاً. لقد رأى الثديين الضخمين الرخويين للمرأة التي كانت أكبر من أمه سناً، ورأى، خاصة، أسفل بطنها الأسود كمغارة، والذي سكنته

ذكراه سنوات وأصبح منذ ذلك غير قادرعلى عناق خاله، أو حتى على النظر إليه مواجهة.

– سوف ينبغي أن أجري لك عملية يا بني!

لم يكن الخال ليون هو الذي قال ذلك. كان أخوه راوول في الليلة السابقة. ألم تكن تلك مصادفة غريبة؟ هذه الكلمات كانت جزءاً من مفردات خاصة بهم نسيها فرانسوا تقريباً. يعود ذلك إلى العطل التي كانت الأسرة تمضيها في السين – الميناء – أو أنها، بعبارة أدق، مفردات خادم نزل ضفاف الماء الذي كان، دائماً، بملابس الصيد. كان عمله هو إعداد القوارب للصيادين، لكن المعلمة كانت تستدعيه، أحياناً، لذبح أرانب أو فراخ. كان يرى، إذ ذاك، يمر وتحت كل ذراع حيوان يقول لهما بعذوبةٍ ضارية:

– لا تخافا يا صغيريّ! سنجري لكما عملية!

راوول استعاد هذه الجملة من طفولتهما ليطبقها على أخيه. وهذه الكلمة بالذات «عملية» هي التي كان فرانسوا قد طبقها، في سريرته، على حركة الخال ليون.

ألم يكونوا هناك، في المستشفى يجرون، حقاً، عملية لجرمين؟

ناداه راوول:

– يا بنيَّ!

وهي الكلمة التي كان أبوهما يستخدمها عندما يتحدث إليهما.

وراوول أجرى له عملية مفترسة افتراس رجل السين – الميناء وقذرة قذارة الخال ليون.

ما عرّاه راوول تماماً، كما في الحلم، لم يكن جسد إنسان: كان بشرة مهيضة، شعيرات، أعضاء جنسية فاحشة كالتي نراها مرسومة بقلم الرصاص في المراحيض العامة.

الآن، يكاد فرانسوا أن لا يجرؤ، بعد، على النظر إلى ألبوم الصدور الذي بقي مفتوحاً على طاولة الجوز الملمع.

كل شيء أصبح على قسوة متعتنة كانت تذكره بوجهه هو نفسه في مرآة حجرة المغسلة التي كان ينيرها، في بعض الأصبحة، ضوء زائف بعد ليلة سيئة. كما تذكّره بجرمين على سرير المستشفى حيث كانت هناك الرائحة فوق ذلك.

كان قد وعدها بأنه سيذهب، بأن يكون في قاعة الانتظار أثناء العملية، ولم يجد الهمة لارتداء ملابسه ولا للإغتسال. كان يكاد لا يجرؤ على التحرك لأن الدوار كان يستولي عليه لدى كل حركة.

كان الجو حاراً والهواء رطباً مليئاً باهتزازات وأصوات مألوفة، ولكنه كان يتجنب لا شعورياً الالتفات نحو النوافذ كما لو كان يخشى أن يلتقي نظرة بشرية. لو لم يكن يخاف من أن يتساءل الناس المواجهون له عما يجري له لأغلق النوافذ والستائر.

كان ظمآناً. كان يحس بحاجة ملحة إلى الشرب. ألصق، باشمئزاز، شفتيه بفوهة الزجاجة الفارغة وقلبها ليتلقّى بالضبط، قطرة كحول فاترة. كانت تفوح منها رائحة السدادة وتفوح منها، أيضاً، رائحة راوول، رائحة باهتة وقوية، معاً، لا يمكن أن تكون إلا لأخيه وكانت باقية في الغرفة على الرغم من النوافذ المفتوحة وروائح الشارع.

كان من شأن راوول أن يقهقه قائلاً: «رائحة الأسرة! رائحة آل لوكوان ممزوجة برائحة آل ناي، مع شيء من رائحة آل رويل بالنسبة إليك».

ضمهم، كلهم، بغضب أصم ممزوج بالجذل. أجرى لهم «عملية» جملة وتفصيلاً.. لم يكن فرانسوا ناقماً عليه. كان، فقط، يخاف من أخيه إلى حد كان يخيفه، معه، أن يعلم أنه في المدينة نفسها، هناك في فندقه تجاه محطة مونبارناس الذي تسمع، منه، صفارات القطارات وهديرها، على مسافة تكاد أن لا تبلغ خمسمائة متر، في خط مستقيم، بعيداً عنها.

يجب أن يكون راوول نائماً نوماً ثقيلاً بعرقه. لم يكن له، لم تبق لديه مشاكل. ربما سينام طوال النهار واعداً نفسه بشوط جديد من لعبة الدمى مساء.

كان شيطانياً. كان يعرف نقاط ضعف فرانسوا أكثر من فرانسوا نفسه، مع أنه لم يره منذ خمسة عشر عاماً.

– تبذل جهدك لتشبه أبانا، أليس كذلك؟

الكائن الوحيد، الذكرى الوحيدة، الممحوة، التي كان فرانسوا يريد، مهما كلف الأمر، أن يبقيها خارج الدارة الجهنمية! لا بُدَّ أنه توسَّل. كان قادراً على أن يجثو على ركبتيه.

– دع لي بابا على الأقل!

ولكن لا شيء كان يمكن أن يوقف راوول، أن يمنعه من أن يلقي على كل واحد الضوء المميت نفسه الذي رآه فرانسوا، يوماً، على الخال ليون والطاهية.

– هل ترى يا بنيَّ........

هل كان فرانسوا سكراناً تماماً حين اكتشف أنه كان لأخيه مقامات الصوت نفسها التي كانت لأبيه؟

كان من المذهل أن يسمع هذا الصوت ويرى أمامه رجلاً ضخماً مكبوداً، نادر الشعر، منتفخ اللحم بتأثير الكحول، يخرج ساعداه المغطيين بالشعر من كمي القميص المشمورين.

– هل ترى يا بنيَّ.....

كان هو، الذي لم يدخل في السابق، أبداً، إلى هذا البيت، من ذهب ليأتي بألبوم الصور من درج المكتب. يجب أن يكون قد نقب في كل شيء، بوقاحة، حين كان بوب يركض في الطرقات بحثاً عن أبيه. لم يكن يخفي ما فَعَله. لم يكن يخفي أي شيء يفعله. على العكس من ذلك، كان يتبسط بكلامه بكياسة مرحة.

– هل ترى يا بنيَّ؟ الفرق بينك وبين والدنا هو أن والدنا لم يكن يؤمن.

– بماذا؟

– بكل شيء، بهذا!

أشار إلى الصفحة الأولى في الألبوم حيث كانت صورتان تبرزان عصرهما تظهران زوجين، هما الجدين لوكوان والجدين ناي.

أكان ذلك لأنه كان للرجلين السوالف نفسها، الشوارب نفسها، ربطة العنق السوداء المعقودة عالياً نفسها، ولأن للمرأتين الأكمام المنتفخة نفسها؟

كان يجب أن تكون أعمار الأزواج بالكاد في حدود الثلاثين سنة. لم يكونوا متعارفين بعد، لم يكونوا يعلمون أنهم سيجتمعون على صفحة من ألبوم عائلي. ومع ذلك، كان بينهم شيء يتشابهون فيه إلى حد أذهل فرانسوا الذي لاحظ ذلك للمرة الأولى.

– بداية الدحرجة، هل تفهم يا بني؟ بابا وماما كانا، من جهتهما، في الأسفل أكثر بكثير. أما نحن...

كانت هناك صور هواة صغيرة في الصفحات التالية، باهتة أو مصفرة، وبعضها كان في حالة تشقق كامل.

قهقه راوول قائلاً:

– صفحة القصور!

كانا قد سَكِرا، لكن فرانسوا لم يكن يعرف ذلك. لم ينتبه في أية برهة خلال الليل إلى أنه كان سكراناً.

لم يكن ما أشار إليه راوول قصوراً، بل كان بيوتاً ريفية هامة كتلك التي كان يملكها كبار بورجوازيي القرن الماضي.

كان أوسعها، أكثرها إدعاءً بيت ناي على ضفاف السين في بوجيفال.

– جعلوك تراها أثناء المرور، أليس كذلك؟ أنت تتذكر هيئة الماما المستسلمة عندما كانت تتنهد قائلة:

– «*هنا ولدت. كان لي، حتى الخامسة عشرة من عمري، وصيفتي الخاصة، معلمتي ومهري...*».

أتريد أن أسمع لك السلسلة؟ أنت ولدت بعدي بكثير، إلا أنه يجب أن يكونوا قد هدهدوا لك بالأغاني نفسها. ماما كانت نبعاً لا ينضب.

– «قريباً جداً منا كان بيت موباسان، من الجهة الثانية، كان يعيش ملك منفي...».

«ربما ذكرت لك اميلين دالنسون وبضع مشهورات العصر اللواتي كانت بيوتهن الصيفية في الجوار.

«مجتمع راقٍ يا بني؟

«والمسامير! لأن الناي كانوا مسامير، صناع مسامير. والد الجد كان، من قبل، يعمل في مجال المسامير،وكان يستخدم،في ورشاته، أطفالاً في الثانية عشرة من العمر ليعملوا خمس عشرة ساعة في اليوم. وكان يستخدم أيضاً بالطبع نساء، نساء كان المراقبون - وربما الجد نفسه بالمناسبة - يحَبِّلونهن سهوا ثم يلقون بهن بعد ذلك في الشارع.

«من أجل ذلك، كانت ماما حساسة جداً، «متحسسة» كما كانت تقول! نفس طيبةً! هل تتذكر النفس الطيبة؟

- «*أترون يا أبنائي، عندما تكون للمرء نفس طيبة....*

«مفترسة، كانت النفس الطيبة. بابا عرف عن ذلك شيئاً. لا تستطيع أن تتصور كم من الصعب أن تتزوج نفساً طيبة ربيت في الغلوربيت - كان ذلك اسم بيت بوجيفال - وكان لها هذا العدد من الناس في خدمتها.

«بابا كان، من جهته، من نبالة الثوب، كما كان لا يزال بعضهم يقول في ذلك الزمن. كان أفراد أسرته من أصحاب المناصب منذ أجيال، قضاة دون رأفة يملكون أراضٍ في المقاطعات وكانوا أعضاء في مجالس إدارة.

«إلا أن أسرة لوكوان فقدت المال قبل أسرة ناي. يجب أن نصدق أن الأراضي في المقاطعات أقل متانة من المسامير.

«جدنا كان مرحاً يحب الراقصات. خانه الحظ وأصيب بمرض الزهري في عهد لم يكن هذا المرض قابلاً للشفاء.

«انظر إلى نفسك يابني.

- لست مريضاً.

- أنت وسيم! كلنا وسيمون! وأذكياء مع إرادة حديدية، أليس كذلك؟ ومتفائلون إذن! ندين بذلك للوالدة.

- «*لاتنسوا، أبداً، يا ابنائي من أنتم........*

«بحق الله! من أسرتي لوكوان وناي، من أسرة ناي خاصة، بالطبع. الغلوريبيت، المعلمة، الوصيفة الشخصية والمهر...

«هل يخادن المرء أياً كان عندما يخرج من رحمٍ كهذا

«آه! رحمها! اعترف بأنك تتذكر رحمها. كانت تتحدث عنه إلى حد كافٍ لأن يظن المرء أنه لا أحد غيرها في العالم له رحم وولد أطفالاً. كانت تلومناً على ذلك كما تعلم! كانت تأخذ علينا الألم الذي تحملته في حملها بنا، ثم في ولادتنا وكل الأوجاع بعد ذلك، وأننا كنا فاسدين فعلاً، وكنا نتعمد البكاء ليلاً لمنعها من النوم!

«يا لأمنا! والدنا المسكين لم يكن يقول شيئاً....

- هل تزعم أن بابا لم يكن سعيداً؟

- أيها الغبي اللطيف! انظر إلى صوره. انظر إذن! اقلب الصفحة.

كان طويلاً ونحيلاً، بجبين أصلع وشاربين فاتحين يتهدلان على جانبي فمه. من خلال نظارتيه، كان ينظر أمامه بصورة مستقيمة نظرة حازمة وعذبة معاً وظل ابتسامة على قسمات وجهه.

- ألا تتعرف على هذه الابتسامة؟

قال فرانسوا لا، لكنه شعر، في الوقت نفسه، بأنه كان يكذب لأنها كانت ابتسامة غالباً ما رآها على وجهه في المرآة.

- اعلم، إذن، يا بنيّ، أن الناس الذين يبتسمون هكذا، بهذا النوع من العذوبة، هم أناس تخلوا، بصورة نهائية، تخلوا عن النضال، هل تفهم؟ عن توقع شيء ما من الآخرين. يغلق واحدهم الباب ويبقى وحده.

- بابا كان يحبنا.

- بالتأكيد. من أجل هذا، حقاً، لم يكن مرحاً.

– ماذا تعني؟

– لأنه كان يعرفنا، أفهم إذن! كان يعرف، جيداً، من جانبه، إلى أين كنا ماضين.

– كان يحب ماما.....

– كان لطيفاً معها. لم يكن يرفع صوته أبداً، أليس كذلك؟ لأنه كان يعلم أن ذلك لا يجدي نفعاً. عند ذلك صنع لنفسه سعادة صغيرة في الداخل. كان، كل صباح، يذهب إلى الوزارة بخطوات محسوبة، وكانت هناك الشمس أو المطر ليعطياه فرحاً صغيراً. كان يصنع لنفسه أفراحاً صغيرة، هذا هو الأمر، أفراح له وحده، وهذا، خاصة، ما كان يغضب أمنا.

«يبدو، جيداً، أنك، أنت، من أسرة لوكوان!

«هل تذكر؟ ألم تعيّرك بأنك من أسرة لوكوان وهي غاضبة؟

«فكر، إذن، في معنى أن لا تعود، في نهاية المطاف، سوى زوجة رئيس ديوان في وزارة الأشغال العامة، أن لا تكون لها سوى خادمة واحدة، وأن تمضي عطلها في نزل للطبقات الوسطى.

«بالمناسبة، أكنت تراها كثيراً خلال السنوات الأخيرة؟

– كنت أذهب لرؤيتها كل أسبوع

– برفقة زوجتك؟

سكت فرانسوا.

– بالطبع أين كان عقلي؟ ابنة مرتزق.

– والد جيرمين كان تاجر عاديات.

– ها قد وصلنا! هذه ماما تتكلم.

أقسم لك، يا فرانسوا، على أنك تشبهها شبهاً عجيباً. أنا واثق من أنك، بعد قليل، عندما تصبح سكراناً قليلاً، سوف، تروي البلايا التي نزلت بك. لا بد من أنك ترويها لأي كان في الحانة. مثل ماما! يا إلهي! كم كانت تحب المصائب!

كان من شأنها أن تدسجها. كان من شأنها أن تتوسل إلى الله الرحيم كي يرسل منها مطراً فوق رؤوسنا.

«وبابا الذي كان، من جانبه، يود كثيراً أن يعيش! هل تفهم، أنت، كلمة «يعيش»؟

«ليس أن يعيش مثلك، أن يعيش مثلي. لا أزعم أني قد عشت. ليس عبثاً أن أكون من الأسرة. العيش بكل بساطة. العيش!

«هذا هو الشيء الوحيد الذي لم يعلمونا إياه، المحرم الكبير، بذاءة البذاءات.

«بابا، من جهته، يعلم معنى ذلك. كانت لديه استعدادات. لو كنت ترى عينيه عندما كنا نلتقي في الشارع فتاة جميلة ذات صدر ناهد! ولو كنت ترى عيني ماما! ذلك لأنها كانت تشم من مسافة ميل كل محاولة للحياة.

«نظرة، واحدة فقط، وكان بابا، بعدها، ينطفئ.

«لم يبق له، سوى كتبه، مساء، وجرائده. ومع ذلك، كان هذا أكثر مما ينبغي من الاستقلال.

- جول، ألم تنس إطفاء الغاز في الممشى؟

- كلا يا ماما.

«لأنه كان يدعوها «ماما» أيضاً. هذا وحده، يا بني، يتحدث بلسان فصيح.

- أ أنت واثق من ذلك؟ يبدو لي أن هناك رائحة.

«يحسن بك أن تنهض وتذهب لترى، كان من الأفضل الحصول على السلام، هل تفهم؟

«اعترف أنك، أنت أيضاً أردت السلام!

«مثل بابا!

«والآن سأقول لك شيئاً ربما أيضاً لا تعرفه. أجهل متى بدأ ذلك. اكتشفته مصادفة، كابنك، مساء أمس! وربما أنه هو أيضاً سيتذكر ذلك يوماً.

«في السنوات الأخيرة، كان بابا يذهب خلسة، عندما يغادر مكتبه، ليشرب كأساً في بار صغير عند زاوية شارع فانو.

«كانت ماما تشرح عندما يزورنا أصدقاء:

– اعذروني على عدم تقديم شيء غير الشاي، فأنا لا أريد كحولاً في البيت.

وكانت تضيف قائلة:

– جول لا يشرب.

«وكان جول يذهب، خلسة، ليفرغ، يومياً، كأساً أو اثنين وراء ربطة عنقه.

«وكان جول يذهب من حين إلى آخر، وأنا واثق من ذلك لأني رأيته، ليريح فكره في مبغى واقع في شارع سان سولبيس. ذهبت إليه، فيما بعد، بدوري. أستطيع أن أتحدث عنه. بل وأستطيع أن أقول لك بأنه كان، خاصة، مبغى لكهنة الريف.

أهكذا، إذن، كان أبوه كالخال ليون؟

– هل تفهم، الآن، يا بني؟

ماذا كان يجب أن يفهم؟

– نحن نتدحرج ولاشيء يمكن أن نفعله لمنع ذلك. بابا وماما كانا لايزالان محتشمين. والدليل هو أنك لم تلاحظ شيئاً أبداً. ولكن انظر إلى نفسك، انظر إليّ.

بعثر مسودات الرسائل.

– النصّاب الواعي والمنظم. كان يمكن لماما، بمقدار أقل قليلاً من الكبرياء، أن تكتب هذه الرسائل.

«أنا شريف يا سيدي. ولأني شريف، لم أحصل على المكانة التي أستحقها والتي يحتلها أوغاد. أنا من أسرة طيبة، لقد تلقيت تربية طيبة وتعليماً جيداً ولا أطلب سوى أن أعمل بقدر ما أستطيع».

- اخرس!

- «مكان صغير من فضلك، يا سيدي العزيز، وإذا لم يكن لديك مكان، فالأمر متروك لطيبة قلبك: *ألف فرنك، خمسمائة فرنك، مائة فرنك...لا؟ إذن، خمسون، عشرون فرنكاً....سوف أردها لك........أنا شريف كما أقول لك! لي زوجة في المستشفى وصبي يستهلك زوج أحذية في الشهر وابنة ضعيفة الصدر يجب أن أدفع نفقات إقامتها في الجبل*».

«يا صديقي المسكين!

«والرجل يذهب ليشرب كؤوساً صغيرة في الخفاء. هل تتبع المومسات في الشارع متدلي اللسان؟ كلا؟ ليس بعد؟

«سوف يأتي ذلك في حينه!

«لا تخجل. لست أفضل منك، وحبيبنا مارسيل أيضاً.

- مارسيل سعيد.

إلا أنه كان لا بد من الاستمرار في اللعبة إلى نهايتها.

- يمتاز عنا، جميعاً، بأنه نذل كامل

أحتج فرانسوا، أيضاً، من أجل المبدأ، برخاوة.

- هذا ليس صحيحاً.

- أتحب مارسيل؟ أتدعي أنك شعرت، يوماً، حيال أخيك مارسيل، بأدنى عاطفة؟

- لا أدري.

- ألم يقترض منك مالاً عندما كان طالباً؟

- بلى.

- لم تكن سوى غلام. كان يرده لك لأن مارسيل كان، من جهته، على درجة من الذكاء تكفي لأن يسدد، حتى مع الفائدة. اعترف بأنه كان يدفع لك فوائد.

كان ذلك صحيحاً. استمر ذلك لسنوات.

– في المساء كان يكوي، بنفسه سراويله ليبدو مكتمل الأناقة دائماً... ألا تتذكر كلمة لبابا؟ لم أعد أذكر ما الذي كان مارسيل قد فعله. اعتقد أنه تحدث بفجاجة عن فتاة كان قد خرج معها في الأمس أتذكر خاصة، نبرة أبينا الذي كان حزيناً أكثر منه مستاءً:

– «يا بني، أنت لست جنتلمان – لا يمنع أنه، الآن، كذلك

– كما يقول! وربما كان سعيداً! أتعلم كيف صنع مارسيل حياته المهنية؟ كل ذلك جرى أمام أنفك دون أن تفهم شيئاً. هذا هو، بالضبط، الفرق بينك وبين بابا. هو كان يعلم ولا يقول شيئاً، ولكنه كان يعلم. أنت لا تقول شيئاً لأنك لا تعلم شيئاً.

«هل سمعت عن العجوز إلدرلان في مكان آخر غير الأسرة؟ لأنهم لم يكونوا، في الأسرة، يجرؤون، بسبب ماله، أن يقولوا الكثير.

«كانت له مكاتب عفنة في باحة واقعة في شارع بواسونيير. كان يكاد أن لا يعرف القراءة والكتابة، جاء بالقبقاب من مسقط رأسه، الألزاس أو، وهو الأكثر احتمالاً، من ألمانيا. على كل حال، كانت له لكنة مخيفة.

في العلن، كان يعمل في شراء مشروعات تجارية وبيعها. إذا أرادت طاهية وسائق عملاً ثلاثين سنة لتجميع بعض المال أن يصبحا بائعي خمور في حي هادئ، فإنه كان يجد لهما ذلك، وكان الزوجان يوقعان سندات بما بقي من الثمن..

«وكما لو كان الأمر مصادفة، كانت الأعمال تسير دوماً بصورة سيئة، وبعد سنتين، كان الزوجان يجدان نفسهما، من جديد، في الشارع دون مدّخراتهما ودون المشروع التجاري الذي يبيعه إلدرلان العجوز من جديد لحمقى آخرين.

«إذا كنت متمسكاً بذلك، أستطيع أن أشرح لك الآلية.

«الأمر هو أنه كان لإلدرلان، أحياناً، متاعب صغيرة. لم يكن يحب أن يطلع أكثر مما ينبغي من المحامين على أسراره.

«قال يوماً لنفسه أنه لو كان لديه محام شاب، مرن جداً، طيع جداً، فإن هذا الآخر سيوفر عليه الوقت والمال والمخاطر.

«اختار شقيقنا.

«بالطبع، قالت ماما إن مارسيل وصل بقيمته وعمله.

«نكتة جميلة. استمع إلى الحقيقة. الذي جرى هو أن عزيزنا مارسيل أصبح، في أقل من ثلاثين سنة، نصاباً بالقدر الذي كانه إلدرلان العجوز وكان هو الذي وضع الآخر، في نهاية المطاف، في جيبه.
انتبه جيداً لما أقوله، لأن القصة رائعة.

«هناك، من جهة، إلدرلان العجوز الذي يظن نفسه أمكر أسماك القرش!

«وهناك، من الجهة الثانية، عزيزنا مارسيل بلباسه الأنيق وتملقه الكبير وحسن تربيته، الذي يبدو أنه يفعل ما يراد منه أن يفعله دون أن يسعى إلى الفهم.

«إنه من الانضباط بحيث أن زملاءه في قصر العدل لا يغالون في قسوتهم في معاملته، على الرغم من أنهم يعرفون ما ينطوي عليه، ويعدونه ساذجاً تقريباً.

«إلدرلان العجوز مليونير – كان لا يزال لهذه الكلمة معنى في ذلك الزمن – له ابنة في الثانية والعشرين من عمرها اسمها رونيه.

«رونيه فتاة على أكبر قدر ممكن من قلة التربية، وفي ذات يوم علمنا أن مارسيل تزوجها. ماما ابتهجت لأن هناك، من جديد، رائحة ملايين مبهمة في الأسرة.

«مارسيل هو الذي ربح الجولة الأولى. كنت أتمنى لو كنت هناك عندما طلبها وأنا واثق أن المسألة لم تكن مسألة حب ولا إنجاب كثير من الأطفال.

«أوراق، لا شيء سوى أوراق، أكداس من الأوراق التي تورط إلدرلان العجوز، أنت تفهم، والتي حرص شقيقنا العزيز على أن يضعها في مكان أمين.

«أقامت الأسرة الشابة في شقة جميلة على رصيف مالاكيه يستطيع مارسيل أن يرى منها، وهو يحلق، مسكن ملوك فرنسا القديم.

«إلا أن هناك الجولة الثانية، وهذه لم يربحها هو بل رونيه.

«انظر إلى الألبوم يا بني. انظر، خاصة، إلى الأزواج اعتباراً من الجدود. لاحظ كم تبدو النساء لطيفات وعذبات وخاضعات في البداية، كلهنّ، دون استثناء، يملن برؤوسهن نحو كتف الأزواج.

«اقلب الصفحات، بعد خمس سنوات، بعد عشر. لم تعد النظرة في هذه العذوبة، أليس كذلك؟

«مارسيل يمضي حياته وهو يطيع ويردد فكرة أنه ليس إلا محامياً صغيراً فاشلاً انتشلته زوجته من الوحل.

«وأنت أيها الأبله الكبير الذي تكتب له تسأله مالاً. كما لو كان يتصرف، هو، في ماله! وخاصة كما لو كان يمكن أن يسره تذكيره بفقر الأسرة!

«فعلتَ أفضل من ذلك. إنها الذروة. كتبتَ إلى رونيه وهذه يمكن أن تشهر رسالة الأخ الشحاذ.

«أراهن على أنها أرسلت لك شيئاً قليلاً ما لتشكرك على الفرح الذي أعطيتها إياه.

«كم؟

– مائة فرنك. سأردها لها.

ارتدى ملابسه لأنه كان عليه، قطعاً، أن يشرب شيئاً. كان خائفاً من أن يلتقي ابنه في الطريق. تذكر ما كان راوول قد قال له بصدد أبيهما، وربما كان ذلك أوجع جرح أصابه أخوه به.

أبوه أولاً.

ثم ابنه.

كان يتمتم، آلياً، وهو يهبط السلم:

- يا إلهي! لا تدع بوب يعلم شيئاً. اعمل على أن لا يكون قد فهم، أمس، وهو يراني في بار بوبول.

التقى، في الطابق الأول، السيدة بوساك التي كانت تنظف السلم ولا ترد على تحيته. مشى سريعاً ضمن الجمهور ليخرج على الأقل من شارعه قبل أن يدخل حانة. قال آلياً:

- كأس من المارك.

وأدار وجهه عن مرآة. لم يكن حليقاً. كانت ساعة تشير إلى الحادية عشرة والنصف، ولكن ربما كانت معطلة.

أحرقت الكحول حنجرته إلى حد تبللت معه عيناه ومد النادل له يده بكأس ماء. كان على أهبة أن يقسم لنفسه بأن لا يشرب ثانية. كان يجب اتخاذ قرارات، ولكن ليس حالاً. كان مقتنعاً بأن كأساً ثانية ستعيد له تماسكه الآن وقد أصبح هناك شيء في معدته، وشربها ببطء وحذر.

هل كان راوول تعساً؟ كان يتساءل عن ذلك. كان يبدو له مستحيلاً أن يكون حاله غير ذلك. ولكنه كان ذلك، آنئذ، بطريقة لم يكن فرانسوا قادراً على فهمها.

- هل الساعة مضبوطة؟

- تتأخر سبع أو ثماني دقائق.

ربما كانت العملية قد انتهت. ربما تكون جيرمين قد ماتت ويحاولون الاتصال به لإعلامه.

لم يكن يحس بنفسه أقرب إليها منه في الأمس. وفضلاً عن ذلك، كان، وهو يغادرها في الأمس، يواجه أمر موتها بهدوء، كحدث متوقع، مرغوب فيه تقريباً، ويرتب الأمور بدلاً من أن يعقدها.

كان في الألبوم، أيضاً، صورتهما، كليهما، يوم زواجهما، الشيء الطريف هو أنها، على الرغم من كونها واحدة من أحدث صور العائلة، كان فيها، من قبل، شيء ممحو كصور الأشخاص الموتى.

التفكير في ذلك سبَّبَ له صدمة. كان خائفاً من الموت بصورة مخيفة. عرف هذا الخوف من قبل عندما كان صغيراً جداً وكان يصرخ وهو يستيقظ مرتجفاً:

– بابا، أنا ميت!

لماذا كان يصرخ «بابا» وليس «ماما»؟ لم يكن يريد أن يموت، لم يكن يريد أن يتمنى الموت لجرمين. كانت تخاف من الموت، هي أيضاً، غالباً ما كررت له:

– «لن تدعني أذهب، أليس كذلك؟ إذا كنت هنا، وكنت تتشبث، فأنا واثقة من أني لن أموت»

– ألديكم هاتف؟

– هل أعطيك فيشة؟

كان يجب أن يفكر في شيء آخر قبل أن يهتف لأن ذلك قد يجلب الشؤم. يجب أن يفكر، مثلاً، في الدكان التي عرف فيها جيرمين، في القسم الريفي من شارع راسباي، بين شارع مونبارناس وميدان دنفير – روشرو.

كان بيتاً قديماً داخل تجويف. كان والد جيرمين يجلس، دائماً، عندما يكون الطقس جميلاً، على عتبته.

كان صحيحاً أنه كان دكان بيع متنوعات أكثر منه مخزن بيع عاديات. كان الشارع يتلقى، من هذه الجهة، الشمس طيلة بعد الظهر، وكان هناك، في الداخل، ما يشبه سحابة خفيفة من غبار مذهّب.

لا شك في أنه قد أحبها. لم يعد يعلم.

– آلو! سكرتارية المستشفى.

نقم على نفسه لأنه لم يشرب كأساً إضافيةً. كانت أصابعه ترتعش. لم يكن يحس، أبداً، بأنه على مايرام في الحجرة التي كان الجو فيها، حاراً جداً.

– هنا فرانسوا لوكوان. زوج السيدة لوكوان، من القاعة ١٥، التي أجريت لها عملية هذا الصباح. لم أستطع المجيء إلى المستشفى ... أود أن أعلم....

– لحظة.

كان الانتظار طويلاً. كان يسمع تمتمة صوت في الطرف الآخر من السلك.

من زجاج الحجرة، كان يرى جصاصين بقمصان بيض يشربون نبيذاً أحمر.

– آلو.

– لحظة من فضلك. إني أنادي رئيسة ممرضات الجناح.

كانت الآنسة تقول، بصوت خافت لأحد كان إلى جانبها:

– لم أستطع الذهاب أمس بسبب حالة عاجلة، ولكني سأذهب اليوم. يبدو أنه رائع.

ثم على جهاز آخر دون شك:

– نعم......حسناً......حسناً....نعم سأقول له ذلك.

أخيراً.

– آلو! السيدة لوكوان عادت إلى سريرها.

– هل ماتت؟

– لا تزال تحت تأثير التخدير. رئيسة الممرضات تقول لك أنه لا يمكن معرفة شيء قبل ثلاث أو أربع ساعات. ليس عليك سوى أن تهتف أو أن تحضر إلى هنا.

جيرمين. لا تزال حية، في سريرها. إلى جانب ترودیل البدينة التي كان لها، الآن، بالتأكيد، في عينيها، أهمية أكبر من أهمية زوجها.

– هل اتصلت؟

– شكراً.

كان يجب الذهاب للتسوق وتحضير الغداء. لن يتأخر بوب في العودة إن لم يكن، فعلاً، في البيت.

(٣)

- هل أستطيع وضع المائدة يا بابا؟

- تستطيع يا بوب.

كانا يشكلان، كلاهما، أسرة صغيرة طريفة. فقد أخذ الغلام، منذ لم تعد أمه هناك، يفعل، من تلقاء ذاته، بجدية، أشياء لم يكن ممكناً، قط، الحصول عليها منه.

كانت حركاتهما ووضعياتهما متشابهة إلى درجة تثير ذهول الناس، فكان المارة في الطريق، وليس، فقط الذين يعرفونهما كتجار الحي، يلتفتون إليهما.

كانا قد استمرا في وضع غطاء فوق الطاولة. كان من شأن راوول أن يقول، دون شك، أن ما يبرز هو جانب ناي، غرور ناي، «مثل ماما التي كان من شأنها أن تفضل ترك نفسها تموت جوعاً على الافتراق عن فضياتها!»

كان ذلك يثبت أن راوول لم يكن، بالضرورة، على صواب دائماً. لم يكن الغرور هو الذي كان يجعل فرانسوا يفرض على نفسه أن يحضر، دائماً، وجبات حقيقية، لحماً، خضارا، بطاطا. وأحياناً أطباقاً مطهية على نار خفيفة كان يراقبها وهو يقرأ. لم تكن بادرة لياقة، بل شعوراً بالواجب.

كان هذا بالضبط من أجل بوب. لم يكن يريد أن يرى ابنه يأكل على زاوية الطاولة، في المطبخ، أمام ورق مدهن فيه لحوم باردة.

كان السريران يرتبان والفراشان يقلبان كل يوم. لم يكن ينسى العبارة التقليدية: «اذهب واغسل يديك يا بني»

وفي المساء، كان يتفقد جوارب الصبي ويحضر الثياب الداخلية النظيفة للغد.

كان المطبخ الضيق يطل على الباحة. كان قاتماً، مطلياً بلون أخضر بشع كانت عليه، دائماً، بقع بنية. وفي الصيف كان يستخدم سخان غاز بعين واحدة لتجنب إشعال النار.

أكان الطفل لا يتحدث أبداً عن أمه بداعي الحياء أم من أجل أن لا يحزنه؟ وكان فرانسوا يصل، أحياناً إلى التساؤل عما إذا لم يكن ذلك لا مبالاة.

عندما كان أصغر سناً، كان أبوه، بالتأكيد، وحده المهم بالنسبة له، وكانت جملته المفضلة: «سأقول لأبي!».

أما زال الأمر كذلك؟ غدت معرفة ذلك صعبة. منذ بعض الوقت، قل كلامه وقلت عفويته، وكان يعطي الانطباع بأنه يزن معنى الكلمات.

– هل سيعود أخوك يا بابا؟

– لا أدري يا بوب. إذا أمضى بعض الوقت في باريس، فمن المحتمل أن يأتي لتحيتنا.

لم يلح الطفل. ماذا كان رأيه براوول؟ على كل حال، لم يتنصت، في الليلة الماضية، على الباب. تأكد أبوه من ذلك عدة مرات ووجده نائماً.

– قل لي يا بابا!

– نعم.

– أنت أذكى وأكثر تعليماً من والد جوستان، أليس كذلك؟

– أظن هذا.

– أنا متأكد. وأنت أذكى من العم مارسيل.

– لا أدري. ما الذي يضايقك؟

– لا شيء.

– كنت تريد أن تقول شيئاً.

– كلا.

كان، وهو يأكل، يفكر بشكل مرئي.

- هل العم مارسيل غني؟

- غني جداً.

- والعم الجديد، الذي أتى أمس؟

- لا أظن ذلك.

- أهو فقير؟

- لا أظن ذلك أيضاً.

- مثلنا.

- لسنا فقراء إلا مؤقتاً يا بوب، بالصدفة، إلى أن أجد عملاً.

- أعلم.

- لم ينقصك شيء أبداً، أليس كذلك؟

- كلا.

- من قال لك إننا فقراء؟

- لا أحد.

- التجار؟

- كلا يا بابا.

- هل تحدثت البوابة إليك؟

- إنها لا تكلمني أبداً.

- من؟

- كان ذلك منذ زمن طويل.

- من؟

- ماما.

- هل لهوت جيداً هذا الصباح؟

- لم نستطع، تقريباً، أن نلعب. كانت البنات في الباحة.

- لماذا لم تلعبوا مع البنات؟

- لا أحب البنات. الصبيان لا يحبون البنات أبداً.

منذ الأيام القليلة التي كان فيها الصبي في عطلة، كانت كيفيةُ شغْلِ نهاراته، مشكلةً.

- أريد أن تبقى هنا، بعد هذا الظهر، يا بوب. يجب أن تكون هناك كتب لم تقرأها.

- لماذا تريدني أن أبقى؟

- يجب أن أذهب إلى المستشفى.

- ليس يوم الزيارة.

- أجروا عملية لأمك هذا الصباح.

- أيضاً؟ لماذا يجب أن تذهب إلى المستشفى.

- لاستعلم عنها.

- ولماذا يجب أن انتظرك في البيت؟

لم يكن يستطيع أن يجيبه قائلاً: «لأنه ربما كانت أمك ميتة»

كان شبه متأكد من ذلك منذ أن رأى ساعة السيد باشون، وهو ينظر من النافذة في برهة إعداد الطاولة، واقفة عند الواحدة إلا عشر دقائق. كانت تلك هي المرة الأولى، منذ سنوات، التي يحدث، فيها، ذلك.

خيل إليه أنه يسمع صوت راوول يقول ساخراً: «مثل ماما! علامات! ودائماً، حتماً، علامات مصيبة!»

كان ذلك صحيحاً. لقد تربوا في عالم مليء بنُذُر الشر، ولم يعجب فرانسوا من ذلك أبداً إلى أن تحدث إليه أخوه عنها مساء الأمس.

- ألا تتذكر؟ رقم ٢١ العتيد عند ماما؟

وكان ذلك يعود إلى زمن أبعد، إلى أمها، وحتى إلى جدتها. كان يوم ٢١ من الشهر يوم نحسٍ على آل ناي. كان هذا اليوم هو، على نحوٍ ثابت، اليوم الذي تحدث فيه الكوارث، بحيث أنهم كانوا يستعدون لها مسبقاً.

كان أحد الصبيان يسأل أحياناً:

- لماذا تبدو ماما على هذه العصبية اليوم؟

وكان الأب يشير إلى التقويم بغمزة عين مختلسة.

كان هناك أيضاً الغربان، القطط السود، كل القطط الوطاويط البوم، الريح الغربية والرعد، وكان هناك ألم معين في مفصل المرفق منذرٌ بأنباء سيئة.

إذا لم يكن هذا قد أدهش فرانسوا أبداً، فذلك، دون شك، لأنه كان يظن أن الأمر هو نفسه في الأسر الأخرى. كان في ذهنه أن كل الأسر يجب أن تشبه أسرته بدرجات متفاوتة.

ما الذي كان يمكن أن يحدث لهم من الأشياء الطيبة، بأية معجزة، بأي انقلاب للحظ؟

- كل يا بنيّ!

كان يربكه أن يرى ابنه ينظر إليه بهذا القدر من الانتباه كما لو كان، بدوره، يجري اكتشافات.

حتى هذه الكلمة «بنيّ» التي لوثها راوول بتلفظه بها طوال الليل بصوته النشاز.

كان ذلك لا يصدق، لكنه مع ذلك صحيح: حتى الأمس، كان فرانسوا رجلاً سعيداً. لم يكن يعرف هذا آنذاك، لكنه يراه الآن. تذكر، مثلاً، غداءهما أمس، في هدوء الشقة، مع هواء الشارع وضجاته التي كانت تصله على موجات، ثم عندما كان يغسل الصحون وكان ابنه يرتبها في الخزانة التي تفوح دائماً، برائحة الممسحة الرطبة.

أمس أيضاً كان قد شرب بخجل، كأسين أو ثلاثاً، لكن هذه الكؤوس أحدثت أثرها، أعطته التغيير الذي توصل إلى موازنته بهذا القدر من الضبط.

كان في الأسفل، في أسفل السلم تماماً. استماتت القدر ضده، ولا يزال يستميت، لكن الطرقات التي كان يجرجر عليها مرارته وثوراته كانت مغلفة بالشعر. كانت خيبات حظه، ضروب بؤسه وجبنه جزءاً من عالم مألوف.

راحت كل قوى الكون السيئة تتكتل ضد فرانسوا لوكوان، وراح فرانسوا لوكوان يحني هامته، يزمّ كتفيه كما لو كان تحت مطر غزير. مع ذلك، كان يمشي على دربه المتواضع، لا يزال يمسك بالسياج بيد متشنجة ويشرب كأسه الصغيرة هنا وهناك، ويذهب ليقرع الأبواب.

- «*أأنتم واثقون من أنكم لا تحتاجون إلى رجل ذكي*، شجاع، شريف لم تنقصه، حتى *الآن*، سوى فرصة بيان قيمته؟»

هؤلاء الناس لم يكونوا يعلمون، لم يكونوا يستطيعون أن يعلموا، وكانوا يحدثونه عن الأزمة.

الدليل على أهميته هو، بالضبط، ترسانة الأسلحة التي كان القدر يستعملها ضده. سنوات مضت وهو يهاجَم على كل الجبهات، يطارَد حتى أدنى حصونه.

اعتقد الجيران والباعة أن ذلك قد بدأ عندما ذهبت جيرمين إلى المستشفى. في الواقع، كانت مريضة منذ زمن طويل جداً، منذ إجهاض بعد بالكاد ستة أشهر من زواجهما. ولماذا أفلس أرباب عمله في أحسن عملين حصل عليهما؟

نزل المنحدر، هذا صحيح. وصل إلى التحايل. صحيح أنه كتب رسائل مهينة، وصحيح، أيضاً، أنه كان يمر بسرعة أمام معظم حوانيت الحي لأنه يدين بالمال للجميع. وكانت له مقابلة شاقة مع مدير المستشفى ليتوسل إليه ليحتفظ بجرمين على الرغم من أنه لم يسدد فاتورتها منذ عدة أشهر.

كان في الأسفل، لكنه لم يكن في الحضيض تماماً، بعد. لم يكن قد خسر معنى ذاته. كان صراعاً بين فرانسوا لوكوان وكل قوى الأرض المتكتلة. ربما سيخسر الجولة، ولكن، لن يتمّ *النيل* منه حتى إذا أصبح، يوماً، كالمتشردين المتذمرين والكثيفي الشعر الذين ينامون تحت الجسور.

- لماذا لا تنهي ضلعك يا بوب؟

لم يكن يراود الغلام الشك في أن هذا قد يكون ضلعه الأخير وفي أنه ما زال مع أبيه حوالي عشرين فرنكاً في جيبه.

– لم أعد جائعاً.

– تعلم جيداً أنه يجب، مع ذلك، أن تأكل.

لماذا؟ كان يجهل ذلك. كانت جملة سمعها في طفولته ويكتفي بتكرارها.

– كل!

– لدي ألم في بطني.

– أكان بطنك يؤلمك قبل الجلوس إلى المائدة؟

– كلا. الأكل هو الذي يؤلمني. لست جائعاً.

– إذن، اذهب للنوم.

– لست مريضاً.

للمرة الأولى كان يفهم أن هذا المنطق، هذه الكلمات التي ينطق بها ليست منه، بل من أمه. كرر قولها خلال سنوات دون أن يدري. ربما، كما زعم راوول ، بقي يفكر من خلال أجيال ناي ولوكوان وليس من ذاته. كان هذا مرعباً. إذا كان راوول مصيباً، فلن يعود هناك شيء، أدنى أساس، أدنى يقين، ولا حتى أي ذكرى يستند إليها.

– حتى صورتك مع زوجتك، صورة زواجك! انظر إليها جيداً يابنيّ. لقد اتخذتما، كلاكما، خفية عنكما، وضعية الأجداد نفسها، مع الابتسامة الزائفة نفسها، تقليد السعادة نفسه لصور العرس.

كان ذلك صحيحاً. كان يمكن تطبيق صور الألبوم على بعضها، لن يكون هناك، مما لا يتطابق، سوى الأكمام المنفوخة والسوالف وأطراف الياقات.

هل كان بوب، وهو الذي لم يكن يستطيع الامتناع عن مراقبة أبيه خلسة، لكنه كان، في كل مرة، يحول عينيه أمام نظرته، هل كان يفكر، فعلاً، وحده؟

في هذه الحال، سيكون ذلك أرهب شيء.

وماذا لو كانت جيرمين ميتة في هذه اللحظة التي ينهضان فيها عن المائدة؟

لم يعد يعلم ما الذي كان يجب أن يشعر به. كان دون انفعال شخصي ولم يكن يجرؤ على استخدام الانفعالات التي علموه إياها.
قال راوول مقهقهاً:

- أجمل نهاية لامرأة، النهاية المنطقية، هي أن تترمل! لدي، من جهتي، امرأتان. لا أدري أساساً لماذا تزوجتهما، لكني عنيت بتركهما في الوقت المناسب. الأرمل شيء مختلف، فيه شيء غير لائق، وعندما كنت صغيراً، كنت مقتنعاً بأن لذلك رائحة كريهة. يجب أن أكون قد سمعت هذا من ماما التي لم تكن تحب الرجال، عامة، والتي أخذت أكثر من نصيبها من الترمل. على وجه الإجمال، إذا تجشمنا مشقة الحساب، فإنها عاشت أرملة بقدر ما عاشت متزوجة.

قال الطفل حين كان أبوه سيعقد حول وسطه المريولة التي تتدلى من مسمار:

- سأغسل الأطباق يا بابا. أحب هذا بقدر ما أحب القراءة.

- هل أنت متأكد؟

- ما دامت البنات لا ترينني.

تركه في الشقة. لم يعد يعرف أين يكمن الخير والشر. لم تعد هناك أسس، لا شيء سوى فراغ كبير حوله. كان وحده، صغيراً، جديراً بالرثاء، يدور، بعناد، في هذا الفراغ مثل حشرة تعود، دائماً، إلى السقوط في قعر الكوب الزجاجي.

لا نتوء للتشبث به.

حسناً! لقد وجد! في الأمس كانت هناك نتوءات، كانت هناك روائح، مثل رائحة الأضلاع على الموقد مع نشيش الدهن. كان لهذا معنى. كان هذا يرتبط

بروائح أخرى، بأضلاع أخرى، كان يشبه صلة بسنواته المنقضية وبطفولته. إلا أنه أتى على طهي ضلعين ولم يشم رائحتهما.

هناك بسطة بائع الفواكه مع روائحها الاسبانية - لم يكن قد رأى اسبانيا قط - لكن كل بائعي الفواكه في باريس كانوا من الأسبان، وفي حوانيتهم تشم رائحة اسبانيا.

كانت هناك، ببساطة، نفحات هواء سخنته شمس الظهر مع الإسفلت المحرق الذي كان يمزج، فيه، نصيبه من البهارات.......

أصوات، انعكاسات، حركة نادل البار الذي يمر ممسحته على التوتياء والبقع البيضاء لكمي قميصه...

ساقا امرأة أمامه أو، أيضاً، في المساء، جو المعرض الذي كان يتخذه شارع لاغيتيه، قرون البوظة في أيدي المارة، أثداء ضخمة لفتيات من بنات الشعب تنفخ صدارات من الحرير الاصطناعي بألوان فجة.....

وفي زاوية بار بوبول، النساء الثلاثة اللواتي يتصيدن في الخارج، ابتساماتهن المتعبة ومصباح الفندق المنار مبكراً فوق الباب.....

كانت هناك واحدة، تلك التي كان يجب أن تكون مشغولة مساء الأمس، التي كان يلاحظها منذ أكثر من ستة أشهر وكانت تعتريه حيالها، أحياناً، شهوة مؤلمة لشدة ما كانت حادة، مؤلمة جسدياً.

لم يكن قد تحدث إليها قط. كانت أكبر سناً من الخادمة وأصغر من المساعد. رآها تبتعد مع كميات من رجال مختلفين، وقد تخيل، في كل مرة، المشهد في أدنى تفاصيله، كمشهد الخال ليون والخادمة إلى حد ما.

سمعها تتحدث مع بوبول بصوت خفي قليلاً. كان يعرف حركتها لفتح محفظتها الجلدية الحمراء.

كانت ترتدي دائماً طقماً كحلياً وقميصا أبيض، وهذه المحفظة الحمراء كانت تتناغم مع قبعتها الكرزية التي يخرج منها قرطان بنيان.

لم تكن حزينة ولامرحة. كانت لا مبالية. كانت قد اعتادت أن تنظر إلى زاويته وهي تدخل. مرة واحدة، ألقت إليه بنظرة كانت تعني: هل تأتي؟ كان يعد نفسه، دائماً، بالمضي إليها في في اليوم التالي، واتفق له أن هيأ المال في جيب صغير في محفظته.

كان هناك، أيضاً، المساء، عندما كان يتكئ على النافذة، ويكون بوب نائماً، حين تكون الشقة مظلمة وصامتة وراءه، وهو ينظر إلى النوافذ المضاءة. كان يرى شقة من السماء، نجوماً، والقمر بين أسطح المنازل أحياناً. وسواء أُريدَ له ذلك أم لا، فقد كان جزءاً من كل حتى لو كان هذا الكل عدائياً.

اليوم، لم يعد للعالم مذاق، لم تعد له روائح، انعكاسات، وكان يتحرك بلا طائل كما يدوس المرءُ، في الملاهي، على دواسات دراجات مثبته بالأرض، ببساطة، ليدير مؤشرٍ عداد.

لم يكن ينظر حتى إلى شارع ادغار كينيه. لم يكن ينتبه إلى أن المقبرة كانت أبعد قليلاً، بجدرانها الرمادية وأشجارها. كان هناك أناس يسعدهم أن يسكنوا تجاه المقبرة بسبب الخضرة.

وكان من شأن أمه أن تضيف:

«وبسبب الهواء النقي»!

كان تعباً إلى حد قرر، معه، أن يذهب ليرقد وينام حالاً لدى عودته من المستشفى. من أجل ذلك، يجب أن لا تكون جيرمين قد ماتت، لأن موتها سيؤدي إلى تعقيدات ولم تكن لديه الشجاعة لمواجهتها اليوم....

لا تدعها تموت يا إلهي! فلتمت، إذا كان لا بد من ذلك، في الليلة القادمة أو غداً، بعد يومين أو ثلاثة.

فلتمنحني الوقت للنوم!

«أبوك متعب يا بوب. كلا، ليس مريضاً. إنه متعب جداً فقط، كُن لطيفاً، ولا تخف، لا تحدث ضجة»

سوف يمضي أربعاً وعشرين ساعة كاملة في سريره ليعيد الأمور إلى نصابها.

لم يكن يجب، أيضاً، أن يأتي أخوه لإزعاجه. كان يفضل أن يخطر راوول، أن يعطيه أي عذر.

قد يشتري زجاجة كحول صغيرة جداً. لكنه لن يبقى معه، إذ ذاك، مال بالمرة.

أصبح ضرورياً أن يتخذ، في برهة ما، قراراً بالتوقف عن الشرب حتى ولو لم يكن ذلك إلا ليبين لراوول أنه، على عكس ما كان يدعي، لم يكن هذا قدر يثقل عليه.

لو كان، فقط، لديه ألف فرنك تحت تصرفه! ثمة شهور كان يتوقع، فيها، أن يحصل على ألف فرنك دفعة واحدة، ولا يكون، فيها، تحت تصرفه، أبداً، سوى مبالغ تافهة، بحيث أن مشكلة المال كانت تطرح، من جديد، كل يوم، أو كل يومين، وأن هذا كان يستنفذ طاقته.

في برهة دخوله المستشفى، تمنى من كل قواه: «ليس اليوم!»

أمله هو أن لا تكون جيرمين ميتة، أن لا تموت اليوم. كان ذلك مثل تعزيمة، وكان يصاحبها بحركة من إبهامه ترسم صليباً صغيراً على صدره.

لم تكن وراء الكوة الفتاة الصهباء التي لم تكن تحبه، بل كانت هناك امرأة متقدمة في العمر لم يكن قد رآها بعد.

قال:

- أجريت لزوجتي هذا الصباح. اسمي لوكوان. إنها في القاعة ١٥

كان أناس ينتظرون على كراسٍ، من نوع هؤلاء الناس الذين لا يراهم المرء، أبداً، إلا في المستشفيات ويجب، مع ذلك، أن يوجدوا في مكان آخر في الحياة.

- آلو... نعم... لوكوان، جيرمين، القاعة ١٥.

كانت تتكلم بصوت منخفض جداً ويدها تلامس الجهاز.

- حسناً ..... نعم

أعادت السماعة، نظرت إليه بهدوء وقالت:

- ماتت بعد العملية بساعة......

خلال ساعة، لم يكن سوى قشة. كانوا ينقلونه دون أن يعي ذلك، يجعلونه ينتظر على كرسي أمام باب، ثم على مقعد أمام باب آخر.

وقع أوراقاً، أصغى، بذل جهوداً لكي يفهم بالضبط ما يقولونه له، ولكي يجعلهم يفهمونه، لكنه لم يكن واثقاً من أن الاتصال قد تم.

رأى جيرمين في قاعة غريبة كانت، فيها، ميتتان أخريان تحت أغطية. لم يعد إلى القاعة ١٥، لم ير السرير الفارغ إلى جانب الآنسة ترودیل التي لم يأت لها بسكاكر كما أوصته زوجته. سيفعل ذلك. وعد نفسه بأن يفعل ذلك.

- لا أدري يا سيدي. سأحصل غداً، دون شك، على مال وسوف أستطيع أن اتخذ قراراً. أنا في وضع صعب الآن. غداً بالتأكيد.....

ذلك أنه كان يجب أن يدفع لدفن جيرمين. اقترحوا عليه أن يتوجه إلى مؤسسة دفن موتى تتولى نقلها إلى شارع دولامبر وإجراء الترتيبات اللازمة.

هل كان ذلك ممكناً؟ دهشوا لرؤيته يتردد. كيف سيفعل ليعيش مع بوب، مع الجثمان في الشقة؟ لم يكن يمكن أن يوضع في غير غرفة الطعام. أين سيتناولان الطعام؟

كان يعلم جيداً أن الأمور تجري هكذا مع سجف أسود مطرز بحرف فضي على باب البناية يوم الدفن.

- نعم سيدي. أنا ذاهب حالاً.

إلى البلدية. مشى في الطريق. لم يتوقف ليشرب. كان يكلم نفسه على طول الرصيف.

- لو أمكنها، فقط، أن تنتظر إلى الغد....

كان من شأنه أن يستريح وأن يحس بنفسه، من جديد، في كامل قواه. كان دفعه واستعجاله متعمدين. لم يكن يبدو على أحد أنه يفهم. كانوا يثيرون اشمئزازه بمضايقاتهم.

- هل لديك نسخة عن صك الولادة؟

- أعتقد أن لدي واحدة في البيت، في دفتر العائلة.

- اذهب لإحضارها.

ذهب. فكر في بوب

- أمك يا بوب المسكين......

ثم وجد، عندما دخل الشقة، ابنه الذي كان ينظر إلى صور الألبوم ونسي أن يتكلم أو أنه، بالأحرى، قال لنفسه:

- أين وضعت دفتر العائلة؟

- هل ماتت ماما يا بابا؟

لم يكن بوب قد تحرك، وكانت يده اليمنى تمسك بصفحة من الألبوم بقيت معلقة.

- نعم يا بني.

كان ذاهلاً.

- يجب أن أحمل، حالاً، ورقة إلى البلدية.

- هل أستطيع الذهاب معك؟

- كلا!

- دعني أذهب.

صرخ وقد انتابه غضب مفاجئ مبعثراً أوراق المكتب واضعاً يده، أخيراً، على الدفتر:

- كلا!

وقف عند العتبة.

- ابق هنا، كن عاقلاً. أتوسل إليك يا بوب، كن عاقلاً! ليس هذا وقت إثارة أعصابي.

كان منهكاً.

- هل لديك شاهدان؟

- لدي ورقة من المستشفى وإذن بالدفن.

- يلزمك شاهدان.

- شاهدان على ماذا؟

- خذ أياً كان من قاعة الانتظار.

كان ذلك غير معقول، ولم يعد يسعى إلى الفهم. كرر اسمه ولقبه وتاريخ الولادة، ثم التفاصيل نفسها بالنسبة لجيرمين ثم تاريخ زواجهما.

- هل لديك أبناء؟

قال، أولاً، أن له ابناً واحداً لقلة ما كان يفكر بابنته التي كانت تعيش في السافوا. ثم قال:

- عفواً، اثنان!

لا بد أنهم كانوا يعتبرونه مجنوناً. مع كل هذا، لن يستطيع أن يذهب، الليلة، إلى بار بوبول. كان يجب أن يحصل على مال مهما كلف الأمر، و «مهما كلف الأمر» هذه المرة، ملح حقاً.

كان من المستحيل ترك جيرمين دون دفن. ربما كانت كل هذه التعقيدات هي التي تمنعه من التأثر.

هل سيعطيه أخوه، في مثل هذه المناسبة، مالاً؟ إذا كان صحيحاً أن لا كلمة لمارسيل في بيته، فقد كان من الأفضل التوجه، مباشرةً، إلى رونيه:

هل سيجدها في بيتها في هذه الساعة؟ سيقول: «زوجتي ماتت»

وستجيب قائلة: «مسكين يا فرانسوا»

– «أحتاج إلى مال لدفنها. إذا لم أجد مالاً، لا أعرف ماذا سيفعلون بجثتها. هل تريدين أن يقال أن عديلتك مضت في تابوت المملقين؟ الأمر سواء بالنسبة لي. إنها تحمل الاسم الذي تحملين». وبالمناسبة، كانت الحملة الانتخابية للمجلس البلدي على أهبة أن تبدأ، بل إنها بدأت افتراضياً. «لا أظن أنه يخدم مصالح مارسيل الزعمُ بأن أسرته.......»

قال له الموظف وهو يمد يده بورقة:

– مقبرة إيفري.

– لكننا نبعد خطوتين عن مقبرة مونبارناس!

– ألديكم مدفن للأسرة؟

كان هناك واحد، مدفن أسرة ناي، من رخام وردي، وجد، فيه، والداه مكاناً، لكنه امتلأ الآن. رد عليه الموظف قائلاً:

– المقبرة مليئة أيضاً. إيفري هي التي تعمل حالياً.

بحيث كان تلزمه عربة نقل وسيارات.

– هل هناك شكليات أخرى؟

– أنصحك بالتوجه إلى إدارة دفن الموتى

كان وراءه رجل في حوالي الثلاثين من عمره لم يكن يبدو أقل حيرة. كان آتياً للتصريح عن ولادة.

– هل لديك شهود؟

كان الجو حاراً جداً. كانت تشاهد، في سيارات الأجرة المتجهة نحو المحطة، مقاعد عابرة للأطلسي ومعدات صيد، وأحياناً قارب متوازن فوق السقف. كان عشرات ومئات الألوف من الناس، متواجدين على الشواطئ

بالمايوهات المتعددة الألوان، كانوا في الفنادق، يضعون الأطباق فوق الأغطية البيضاء، مع زهرتين أو ثلاث في كأس مرتفع القوائم من الكريستال أو المعدن المفضض.

لم يذهبوا، قط، إلا إلى السين – الميناء الواقعة على ضفاف السين، فوق كوربيل. استمر، وهو متزوج، في الذهاب إليها، وقطف بوب اللوز في الأدغال التي كان أبوه في عمره قد قطف منها، هناك.

كان كل شيء يتحرك في الطرقات، وكان يحس بأنه هو الذي توقف. كان يجب أن يفعل شيئاً في الحال. كان في حاجة إلى مال لدفن جيرمين. لم ينتبه أنه في شارع راسباي، ولا أنه يمر أمام البيت الذي عرف فيه زوجته. لم يعد دكان خردة. الواجهة حدثّت، طليت باللون الخبازي، وكانت لافتة مكتوبة حديثاً تعلن عن خدمات مستمرة بأسعار مخفضة خلال أشهر الصيف.

انتظر الباص عند زاوية شارع مونبارناس. ماذا لو أن رونيه ذهبت في عطلة؟ كان الأمر محتملاً، وكانت معجزة أن يجدها في باريس. فقد اعتادت على أن تذهب إلى دوفيل مع مارسيل، ثم على أن تمضي شهر أيلول في بيتهما الصيفي في لواريه.

إذا لم يكونا، كلاهما، في باريس، فمن يبقى؟ راوول؟ لم يكن واثقاً من أن لدي راوول مالاً، وكان أقل ثقة، أيضاً، من أنه سيعطيه شيئاً.

لم يعد لدى فرانسوا ما يبيعه، ولا حتى ساعته. كان خاتم زواجه مرهوناً، وكذلك مجوهرات جيرمين. جرى ذلك وهي في المستشفى بحيث أنها لم تعرف شيئاً وأنها كانت لا تزال تحدث الآنسة ترودبل عن حَجَر أوبال(*) العمة ماتيلد.

بقي على درجات الباص ومد يده، آلياً، بالنقود وهو ينظر إلى البيوت تنزلق. نزل في الأوديون، وكان هناك حيث ولد، في البناية التي تشكل زاوية مع

(*) حجر الأوبال حجر كريم لبنيّ اللون، يتغيّر لونه في الضوء.

شارع راسين، بناية فاخرة فيها، مصعد هيدرولي كان يبدو، دائماً، أنه لا بدَّ أن يتوقف بين طابقين.

نظر إلى النوافذ التي لم تعد عليها الستائر ذاتها والتي يرى منها قفص وكناري. اجتاز بقية الدرب على قدميه، اجتاز شارع سان جيرمان الذي كان أبوه يمر منه أربع مرات في اليوم، ليذهب إلى مكتبه ويعود منه - كان، صباحاً، يقرأ الجريدة وهو يمشي بخطوات بطيئة ومنتظمة مدخناً سيجارته الأولى. كان يود أن يقول لكل الناس: «جيرمين ماتت».

ربما يفهمون أن هناك شيئاً قد تغير، أن تلك لم تكن غلطته، أنه يلزمه، حقاً، مال لها وليس له.

منذ زمن طويل نسبياً، اختاروه هدفاً، وكانوا يرسلون إليه كل الكوارث.

ماذا سيفعلون، جميعاً، لو جلس هنا، على حافة الرصيف وقال لهم: سحقاً!

لم يكن لهم الحق في أن يطلبوا منه أكثر من أي أحد آخر كائناً من كان. كانت هناك حدود. ينبغي تولي أمر جيرمين، تولي أمر بوب وأوديل، البنت الصغيرة التي لم يكن يمكن تركها إلى الأبد لدى فلاحي السافوا دون دفع مصاريفها.

وتولي أمره هو.

بدؤوا، فعلاً، يلتفتون إليه، مع أنه لم يكن يومئ بحركات كثيرة، كان يكتفي بالنظر حوله بطريقة معينة، قليلاً مثل راوول. راوول كان على حق في احتقارهم، في احتقار كل الناس ونفسه فوق ذلك. كان هو المصيب. فلتكن رونيه، فقط في باريس، ولتستقبله - لأن الوصول إليها كان، أيضاً، مشكلة - وسوف نرى.

- كأس كبيرة من المارك.

حزم أمره، فجأة، حين اقترب من بلوغ الأرصفة. لم يشرب، هذه المرة، للحصول على تغيير، ولا لزيادة كثافة ضبابه، بل، على العكس من ذلك، ليرى بوضوح وتجريد.

راوول كان على حق. يجب أن يرى الحقيقة عارية. يجب أن تكون رونيه لا تزال مثيرة، عارية، على الرغم من سنواتها الأربعين وابنتيها.هاتان الأخيرتان، ماري – فرانس ومونيك، لم يكن ينقصهما شيء، لم يكن عليهما أن تخافا من الكوارث. كان يكاد أن لا يعرفهما. كان قد دعي مع جيرمين، إلى مناولتهما الأولى، وكان عليهما أن يشتريا هدايا.

مجرد لباسهما كان ينفق عليه أكثر مما يلزم لإطعام أسرة!

لم يكن في هذا الغباء! إذا قرع بابهم، فمن السهل جداً أن يقال له أن السيدة ليست هنا.

– أعطني فيشة هاتف من فضلك.

ركب رقم شقة رصيف مالاكيه. وكان صوت زوجة أخيه الذي تعرف عليه.

– أهذه أنت يا رونيه؟

ترددت، لكن الأوان قد فات.

– لقد عرفت صوتك. هنا فرانسوا

صمت.

– من الضروري أن أراك حالاً.

– مستحيل يا فرانسوا. كل الأسرة في دوفيل. كونك وجدتني كان مصادفة لأنني قمت بقفزة سريعة إلى باريس، في السيارة، لأرى طبيب الأسنان، أنا راحلة خلال دقائق.

– لا بأس في ذلك.

– سأكون في الطريق قبل أن تصل. السائق يحمّل الحقائب.

– أنا على مسافة مائة متر من بيتك.

– لكن...

– سأوافيك حالاً، جيرمين ماتت!

وبعودته إلى طاولة الشرب، طلب:

– الشيء نفسه! على وجه السرعة!

(٤)

- جيرمين ماتت!

كان يثيره تكرار هذه الكلمات بصوت منخفض، وكان يود أن يصرخ بها بملء حنجرته كما لو كان ذلك خطأهم جميعاً، أو كما لو أن هذا الحدث يرفع من مقامه شخصياً. أليست تلك هي الرعشة نفسها التي أعلن بها، سابقاً، لزملائه في المكتب:

- عندي ابن!

جيرمين ماتت وهو، فرانسوا لوكوان، ينعطف عند زاوية شارع بونابرت وحول الأرصفة، يتجه بخطوة ثابتة إلى شقة مارسيل التي هابها دائماً.

كانت جيرمين تتوسل إليه عندما كانت مناسبة شبه رسمية تجعل حضورهما ضرورياً في رصيف مالاكيه:

- اذهب وحدك يا فرانسوا! لا أرتاح في بيت أخيك.

لم تكن تقول «في بيت رونيه».

لكن هذا هو الذي كانت تفكر فيه. اضطرب، دائماً، من جراء ذلك، هو أيضاً. وكل الأسرة، جملة.

كانت أمه تقول، طواعية، للناس وهي تتحدث عن مارسيل: «ابني الذي يسكن في رصيف مالاكيه.....»

وكما كان يوجد قاموس خاص بالأسرة لم تكن لكلماته معنى لغير الذين تربوا في السراي، كذلك كانت هناك جغرافية لأسرتي لوكوان - ناي تقع كلها، تقريباً، في حي واحد من الضفة اليسرى، لكن مع تباينات دقيقة بصورة لا متناهية.

أفراد أسرة ناي، مثلاً، على الرغم من أن مستودعاتهم ومكاتبهم كانت، دائماً، في الجهة الأخرى من الماء فقد سكنوا، أيام ازدهارهم في شارع ريشار – لينوار، طابقين متصلين بسلم خاص (وهو ما كان يشكل نوعاً من قصر خاص) في القسم الهادئ من شارع سان ميشيل، تجاه حديقة اللوكسمبورغ.

كانوا هم الأغنياء في ذلك العهد، ومع ذلك، كانت أمه خجلة، دائماً، من كون أسرة زوجها، اللوكوان، تعيش في شارع سان دومينيك الأكثر أرستقراطية.

الأسرة التي نتجت من تلك المصاهرة، والمؤلفة من والد فرانسوا وأمه، استقرت من جهتها في ميدان الأوديون الذي كان، إلى حد ما، يمثل الطبقة الأدنى.

وتابع فرانسوا الانحدار، فتراجع، أيضاً، وبلغ الطرف الآخر من شارع مونبارناس. بالنسبة لأمه، كان في مون روج تقريباً.

وهكذا وصلت الأسرة، بواحد من أفرادها، إلى الأحياء الشعبية، أو، بالأحرى، إلى الأحياء المختلطة، المريبة، في حين أن مارسيل، من جانبه، قد صعد التيار من جديد وأقام في إحدى أفخم بنايات رصيف مالاكيه.

كان راوول يقهقه مبالغاً بعض الشيء:

– تجاه اللوفر.

وكان ذلك غير متوقع من حيث أن ايلدرلان العجوز، أصل الثروة الجديدة، أصر طيلة حياته على سكن فيلا غريبة، نوع من بيت ريفي صغير بحديقة صغيرة مسيجة، في قلب شارنتون نفسه.

كان الجميع قد اغتاظوا، قليلاً، من صعود مارسيل، فرانسوا كالآخرين، وأصبح كبير الخدم الذي يقدم البورتو بقفازين أبيضين نوعاً من الرمز.

نادراً ما كانت تدعى الأسرة، كان يحدث هذا عندما لا تكون هناك وسيلة للتصرف خلاف ذلك دون أن تقطع الصلات تماماً. لم يكن مسكناً يدخل إليه، أثناء المرور، لإلقاء التحية، وفي كل مرة كان، فيها، فرانسوا ينعطف عند زاوية بونابرت، كان ينظر بغضب إلى هذه البناية التي لم يكن له مكان فيها.

كانت تلك خيانة. كان مارسيل يعني، بالإطار الذي أحاط نفسه به، أنه لم يعد له شيء مشترك مع أسرته.

ولكن جيرمين ماتت الآن، وفرانسوا كان يمضي وحده ليواجه زوجة أخيه. كانت امرأة رائعة، نوعاً من جونون طويلة وجيدة التكوين، أنثى، بغياً حارة إذا صدق راوول الذي كان، وقد أمضى حياته في المستعمرات، يعرف بطريقة لا يعلمها إلا الله، كل ما يتصل بالأسرة.

كان راوول يقول، مدققاً، أنها ذات مزاج من الحرارة بحيث لم يكن يلزمها أكثر من سنتين لتمتص كل حيوية أخيهما.

كان صحيحاً أن مارسيل جف، كمدت حيويته وهو فتي جداً، وفي حين أصبح شعره نادراً قبل الأوان، اتخذ هذه الهيئة المتعبة التي لم تكن تخفى.

– أتعتقد أنها تخونه.

– إنها لا تخونه، لا تخون أحداً. إنها تمارس الحب، ببساطة، بقدر ما تستطيع، بكل لحمها، دون أن تفوّت فرصة. يزعمون أنها، في ذات ليلة، في أحد الملاهي، استثيرت من جانب أحد مرافقيها إلى حد أنها انزلقت وإياه، إلى تحت الطاولة ومارسا الجنس محميين بغطاء طاولة وسط حوالي خمسين شخصاً.

كان مارسيل في دوفيل. يجب أن تكون الصغيرتان مع مربيتهما. كانا يستأجران، كل سنة، فيلا ما لم يكونا قد اشتريا واحدة منذ قليل. كرر مرة أخيرة وهو خارج من المصعد الذي كان يشبه هيكل كنيسة:

– جيرمين ماتت.

وعندما فتحت له رونيه، نفسها، باب الشقة المصنوع من السنديان المحفور، قال، من جديد، مثل صيحة ديك، على الرغم من أنه سبق له أن قال لها ذلك على الهاتف:

– جيرمين ماتت.

– مسكين يا فرانسوا!

كانت مستعدة للخروج كما أعلنت له. لمرة واحدة، لم تكذب. كانت تعتمر قبعة مزهرة خفيفة وفستاناً حريرياً يجب أن يعده كبار الخياطين فستاناً للريف، وكان ينبعث منها عطر قوي وعنيد.

رأى سيارتها الضخمة المتلألئة في الشمس، في الأسفل، مع فيرمان، السائق الذي كان يقرأ جريدة المساء على مقعده.

– هذا رهيب، أليس كذلك؟

عند ذلك، قال وهو ينظر في عينيها، وهو ما لم يجرؤ غالباً على فعله:

– لماذا يكون أرهب من شيء آخر؟

– متى وقع ذلك؟

– حوالي الظهر، بعده بقليل.

– يا للمرأة المسكينة!

– أتظنين ذلك يا رونيه؟

– ماذا تعني؟

– كانت رغبتها في الحياة ضعيفة جداً!

كانت زوجة أخيه سمراء، ذات لحم مكتنز وشعر ثقيل كان يتهدل على رقبتها. كانا، كلاهما، واقفين عند المدخل الذي يذكر بمدخل قصر أكثر منه بمدخل شقة باريسية، وكانت الشمس مقسمة إلى قطع صغيرة بفعل زجاج نافذة قوطيّة.

– افترض يا فرانسوا أنك مرتبك وأنك كنت تود أن ترى مارسيل.

لم تعرف بعد. كانت تكلمه كما كانت تكلمه دائماً. تكرر الكلمات التقليدية سأل ببساطة:

– لماذا مارسيل؟

وبدأت تدهش. كانت دهشتها تزيد مع كل رد، في حين كانت رؤيتها تضطرب تزيده اندفاعاً.

– إنه أخوك، أليس كذلك؟

– إلى حد صغير جداً يا رونيه!

ينبغي أن تكون قد حضرت شيكاً في فسحة الوقت القصيرة بين هاتفه ووصوله، أو ربما بضع أوراق مالية. كانت أصابعها تنقر على قفل حقيبتها التي لم تجرؤ بعد على فتحها.

- متى تجري الجنازة؟

- لا أدري، لم أفكر في ذلك.

- هل أعدتها إلى بيتكم؟

- أتعتقدين أن ذلك ضروري؟ نحن لا نعرف إلا القليل من الناس! معظم الناس يمضون عطلتهم في هذه الفترة من السنة.

كان راوول، أمس، يتحدث هكذا إلى حد ما، لكن ذلك كان، لديه، أعذف وأكثر فظاظة في عدوانيته.

أما فرانسوا، فقد كان، من جهته، يبدو عليه أنه يقول أشياء طبيعية تماماً، بصوت يكاد أن لا يكون أكثر ارتعاشاً من صوته الطبيعي.

تساءلت، بالتأكيد، عما إذا كان سكراناً. لا بد من أنها كانت وحيدة في الشقة وبدت عليها، على الرغم منها، نظرة خائفة إلى الباب المنفرج وراءها. مع ذلك، كانت توجد حتى في هذا البيت طقوس لا بد من مراعاتها طواعية.

- هل تأخذ كأس بورتو يا فرانسوا؟ أعتذر عن سوء استقبالي لك، لكن هناك، في هذا المساء سهرة في الكازينو و ....

فهمت، حالاً، أن ذلك لم يكن شيئاً يقال لرجل أتى على فقدان زوجته.

- أسألك العفو.

- لا شيء أبداً. هذا شيء طبيعي تماماً. آمل أن تستمتعي جيداً.

تكوّن لديها في كل الأوقات الانطباع، بأنه يشتهي أن يعض، ولكن ذلك كان، في السابق، متخفياً، وكانت مذلته ترغمه على الابتسام

- بورتو؟ ويسكي؟

- ويسكي إذا كان الأمر لديك سواء. لا تسنح لي، غالباً، فرصة شربه.

كانت قد أملت في أن لا يتبعها إلى قاعة التدخين حيث كانت إزاحة أحد الألواح تكشف عن البار. من قبل، كان من شأنه أن يبقى في مكانه هادئاً، ولكنه، اليوم، يتعقّبها آخذاً راحته تماماً ناظراً إلى منكبيها اللذين كانا ينفخان حرير الفستان اللّبني اللون.

كانت تعلم أنه يفكر في كونها وحدها، وكانت تفكر في ذلك أيضاً.

كانت تحت رحمته. قد يقتلها، مثلاً، لم لا؟

– في صحتك يا فرانسوا! اعتذر عن عدم ذهابي لإحضار قطع ثلج من البراد لأن الخدم فصلوا الكهرباء عنه قبل أن يذهبوا. اعتقد أنه كان يسعد مارسيل، لو كان هنا، أن يساعدك......أما زلت في الوضع نفسه؟

– نعم، ما زلت عاطلاً عن العمل.

كانت تلك هي المرة الأولى التي طبق، فيها على نفسه هذه الكلمة الفجة، وكان هذا يثيره بقدر عبارته الأبدية: «ماتت جيرمين!»

– هل استعلمت عن تكاليف جنازة لائقة؟

هذه هي، حقاً، ابنة إلدرلان العجوز الذي جمع ملايين لينهي أيامه بمفرده تماماً في كوخ في الضاحية مع خادمة نصف معوقة، دون تسلية أخرى، خلاف إرواء زهوره واقتلاع الأعشاب الضارة.

– لم أفكر في ذلك بعد يا رونيه.

– إذن.....

قررت فتح حقيبتها. حدس وجود الشيك بين أصابعها: خمسمائة؟ ألف؟

لم يشعر، قط، في حياته، بهذه الإثارة البالغة. كان يود لو كان راوول هنا ليراه، بل وجيرمين أيضاً. لحسن الحظ، كانت رونيه مشاهدة قادرة على التقدير. والدليل هو أنها لا تخرج هذا الشيك، إنها لم تعد تنظر إلى ساعة يدها وأنها كانت، منذ بضع لحظات، تتجنب حتى أن تنظر إلى سلفها مواجهة.

– في الواقع، أنت ترين أن حدث اليوم الهام ليس موت جيرمين. لم تكن، كما قلت لك منذ قليل، تتمسك كثيراً بأن تعيش.

قالت بلهجة لوم، كما في المسرح.

– هل كنت تحبها يا فرانسوا؟

حتى هؤلاء الناس، حتى ابنة إلدرلان التي تمنح نفسها تحت طاولة ملهى، تحس بالحاجة إلى التعبير عن مشاعر رقيقة.

مثل أمه!

– هل تظنين يا رونيه؟

كان يستمتع باتخاذ هذه الهيئة المتأمّلة.

– حسناً! أنا لا أظن ذلك. اعتاد أحدنا على الآخر، هذا كل شيء. ولم يكن ذلك لطيفاً كثيراً.

– هل شربت؟

– قليلاً.

– اسمع يا فرانسوا، أنا.........

كان مصمماً ألاّ يستسلم. كان يرى الضربة قادمة. سوف تدفعه بهدوء نحو الباب وتمد إليه شيك القريب الفقير وهي تقول متلعثمة: «اعذرني، يجب أن أذهب قطعاً....»

كلا! ليس اليوم. هذا لم يعد ينفع. كان لا يزال يفضل الحل الآخر. الحل الذي يقوم على قتلها، لم يكن يسيئه كثيراً، لأنه كان يستطيع أن يغتصبها في المناسبة نفسها.

لقد سخروا منه ما يكفي من الزمن، خلال ست وثلاثين سنة بالضبط، والآن جاء يومه. لم يكن يرغب، لدى عودته إلى بيته في شارع دولامبر، في رؤية النظرة الوقور لابنه الذي كان يبدو عليه، منذ بعض الوقت، أنه يتساءل: «هل أبي أقل قيمة من شخص آخر؟»

ذلك أنه لم يكن واهماً. كان هذا معنى الكلمات التي تلفظ بها بينما كانا يتناولان طعام الغداء، بعد أن تردد طويلاً:

– ألستَ أذكى من والد جوستان؟ ومن العم مارسيل؟

هذا، بالضبط ما سوف يظهر. لم يكن لديه ما يخسره، وكان لديه كل ما يكسبه. لقد بلغ القاع. لم يكن في مقدوره أن ينزل إلى مستوى أدنى، وماتت جيرمين ولن تعود تلقي عليه نظرات صغيرة مرتابة عندما كان يدخل إلى القاعة ١٥، ولن تعود تطرح عليه أسئلة عويصة بصدد السيد ماغان العتيد.

كذبوا عليه إلى درجة كافية، أجبروه، بما فيه الكفاية، على أن يكذب. وإذا اضطر أن يفعل ذلك مرة أخرى، فلن يفعله بعد الآن من أجل الآخرين، من أجل أن يجنبهم الحزن أو من أجل أن يبدو حسن التربية، بل من أجل نفسه.

– لم أقل لك، بعد، يا رونيه، ما هو حدث اليوم الأشد أهمية من موت زوجتي.

– لا يمكن أن يكون هناك ما هو أهم من ذلك يا فرانسوا.

– بالنسبة إليها، ممكن، أما بالنسبة لي، فهناك بالتأكيد. بل وبالنسبة إليك.

– لا أرى ما شأني في الموضوع.

– الحدث هو، بالضبط، أنك هنا، أني هنا وأن لدي شيئاً أقوله لك.

– اسمع يا فرانسوا، ستنتهي إلى جعلي أظن أنك لست في حالتك الطبيعية.

كانت خائفة قليلاً، وكانت ترغم نفسها على الضحك. كانت تصدر عنها ضحكة صغيرة خَفيّة تؤدي صوتاً شهوانياً يكاد يكون مبهماً، كصوتها الأبح قليلاً الذي كان يحمل، بصورة لا تقاوم، على التفكير في الحب.

– ليس هذا وقت قول حماقات.

– صحيح. لديك سهرة في دوفيل، وأنا لدي موعد أعمال في الحي.

– إذن، أنت ترى.

– يجب أن أذهب وأنا خارج من هنا لأرى السيد جيانيني.

المدهش هو أنه ابتكر هذه القصة أثناء ركوبه القصير في الباص، وأن الفكرة خطرت له وهو يرى اسم جيانيني في أسفل إعلان انتخابي ممزق.

– هل تتحدث عن أرثور جيانيني؟

تغضن جبينها وتقارب حاجباها. لم يجلس أحد منهما. بقيت المصاريع مغلقة في قاعة التدخين، وكانت السجادة مكورة ومسنودة إلى جدار. بينت أن شيئاً أتى على التغير باستنادها، بردفيها، إلى حافة الطاولة، وهو ما كان يعني أنها لم تعد على التعجل نفسه إلى رؤيته يرحل.

تمتمت لتسبر الأمور:

- هل يعرض عليك عملاً في أحد مخازنه في شارع بوسي؟

لم يكن صحيحاً تماماً أنه ارتجل قصته في الطريق. أصبح من عادته، حتى في سريرته الداخلية، أن يدفع بالحقيقة إلى الأمام قليلاً. الواقع هو أنه كان يتفق له، في الزمن الذي كان يعيش، فيه، في ضبابه - وكان ذلك بالأمس القريب!- أن يروي لنفسه قصصاً دون أن يتخيل أنها يمكن أن تصبح، ذات يوم، حقيقية.

لم يكن راوول، على الرغم من كل شيء، معصوماً، وقد أخطأ حين اعتبره غبياً. قصة العجوز ذي الوسام تثبت أنه لم يكن كذلك، وأنها قصة، بين ألف، كادت، حقاً، أن تتحقق.

كان يحدث ذلك، خاصة، مساء، بين الضياء والظلمة، عندما تؤدي الأنوار الكهربائية الممتزجة بآخر ومضات النهار، إلى إعطاء المدينة صورة مسرح زائفة، كان يحدث أن يركّب، في بار بوبول، وهو يتابع بعينيه روحات البنات وغدواتهن، هذه الخطط بدقة يزيد منها أن ذلك لم يكن يلزمه بشيء، وأنها خطط غيرُ مُعَدّة للخروج من دماغه.

كان قد لاحظ، بين زبائن المساعد، سيداً عجوزاً ممتاز المظهر، حسن اللباس إلى درجة الكمال، مرتباً في أدنى تفاصيله يحمل وردة جوقة الشرف.

كان أكثرَ الجميع قلقاً حين كان يتبع الفتاة، على مسافة بضع خطوات منها، ليدخل إلى الفندق ويخرج منه.

قالت المساعد، يوماً، وهي تشرب كأساً على البار:

- عبثاً يدفع لي هذا الشخص، في كل مرة، عشرة أضعاف ما يدفعه الآخرون، فإني أود أن لا أعود أراه. إني أتساءل من أين يأتي هؤلاء العجائز بأفكارهم. هناك، على الرغم من كل شيء، أمور تثير الغيظ، وأشعر بأن الأمر سينتهي، في أحد الأيام، نهاية سيئة.

من هنا انطلق. السيد العجوز كان، احتمالاً، رب أسرة، وربما كان جَدّاً. هل كان رجلاً على رأس إدارة عمل خاص، أو إدارة حكومية كبيرة، أم ربما قاضياً كبيراً كالجد لوكوان؟

إلا أنه كانت لديه نزوات قادرة على إثارة اشمئزاز موسى متمرسة كالمساعد.

أخذ فرانسوا يروي لنفسه :«.... سوف أبدأ، بمتابعته، وهذا ليس صعباً. عندما أعرف أين يسكن سوف استعلم....»

كانت حكاياته تترافق، دائماً، بصور محددة، وكان في ذهنه أن العجوز سيدخل إلى مسكن خاص في الحي الذي يعرفه، من جهة شارع سان جيرمان، شارع غرونيل، مثلاً، أو حتى شارع سان دومينيك حيث أقام جداه.

«عندما أطلع على أعماله، لن يعود علي سوى أن انتظر في المرة القادمة خروجه من الفندق، سأكون لائقاً جداً، غير مهدد بالمرة، مبتسماً. سأخلع قبعتي وأقول له بلطف: «اغفر لي استيقافي إياك في الطريق يا سيد س.... لكني أرغب، منذ وقت طويل، في أن أعمل لحسابك وأسمح لنفسي أن أفيد من الفرصة المتاحة. أنا مقتنع (نظرة مهملة نحو الفندق المشبوه) بأننا مصنوعان لنتفق.».

تبعه، حقاً، ذات مساء، وكان الأمر أصعب مما ظنّ بسبب حركة الشارع. لم يتبعه إلى بعيد جداً، إلى محطة مونبارناس حيث ركب العجوز سيارة أجرة ولم يسمع العنوان الذي أعطاه للسائق.

كان في إمكانه أن يتبعه في مساء آخر لأن القصة قديمة فعلاً. لم يفعل لأنه لم يكن، في ذلك العهد، للخطط التي يضعها أهمية. كانت لمتعته الخاصة. كان يروي لنفسه قصصاً ويروق له أن يغيّر فيها كثيراً.

كانت هناك أخرى، أكثر براءة وأرهب، وربما لم يفقد بعضها نهائياً. كان سيدهش راوول الذي كان يظن أنه يعرف كل شيء أن يكتشف ما كان يختمر في رأس أخيه.

رونيه التي لم تكن تعرف، هي أيضاً، لكنها بدأت بالتوجس، كانت تحدثه من طرف شفتيها، وهي تعلم أن ذلك لم يكن صحيحاً، عن عمل في مخازن جيانيني، وكان يرفع كتفيه.

– هل ترينني أبيع خساً وسمكاً في الحي الذي يمثله أخي في المجلس البلدي؟

عضت شفتيها الممتلئتين اللتين كانت الصبغة الحمراء الدهنية والبراقة تجعلانهما موحيتين إيحاءً فاحشاً.

منذ تلك اللحظة، كان واثقاً من أنه كسب الجولة.

لم يعد الرجل نفسه.

جيرمين ماتت.

كان رجلاً قصيراً متين البنيان، ضخماً، متوسط العمر كان يقول عن نفسه أنه من أصل كورسيكي، أحياناً، ومن أصل إيطالي أحياناً أخرى. كان يدعي أنه بدأ حياته ببيع البوظة والكستناء المشوية في الشوارع وهو ماكان يحتمل أنه صحيح.

كان نادلاً في مقهى أيضاً، في مشرب في شارع سان ميشيل، ثم في ملهى ليلي في الضواحي.

إذا كانت شقة رصيف مالاكيه تمثل جيداً الجزء الأنيق، المترف – مع شيء من عطر الماضي – من حي سان جيرمان دي بريه، فإن مخزن جيانيني، في شارع بوسي، كان بمثابة المركز المشع لكل الأزقة الصغيرة الضيقة والمكتظة بالسكان من الحي نفسه.

كان منشأة غريبة، بين دكان لبيع منتجات الحليب وحانة، ابتلعت، من قبل، دكاكين وستبتلع أخرى. لم يكن لها، في الصيف، باب ولا زجاج واجهة. كانت نوعاً من ردهة مفتوحة على الطريق، فاقعة الألوان، مبرقشة، صاخبة، مليئة بروائح قوية كانت ربات البيوت يتدافعن فيها في ضجة لا تنقطع.

جيانيني يبيع بسعر أرخص.

كانت ترى، في كل مكان، شرائط من الورق الخشن مع كلمات مكتوبة بحروف كبيرة غير متقنة، حمراء، خضراء أو زرقاء، كان يوجد منها فوق أكوام متصدعة من البرتقال وأقراط الموز، فوق الملفوف والبازلاء والدراق والخس وقسم اللحوم وبسطة الأسماك.

وفوق المجموع شعار المنشأة:

شعب سان جيرمان دي بريه شريف

اخدموا أنفسكم بأنفسكم

ليس لدينا وقت للمراقبة

نحن نثق.

ادفعوا وأنتم خارجون.

كانت ربات البيوت يزنّ، بأنفسهن، فواكههن، يخترن من أسماك الميرلان أو شرائح سمك اللوت الذهري. وفي قسم اللحوم، كانت تتكوم قطع البفتيك مقطعة، والأضلاع، مع ورقة صغيرة تشير إلى الأسعار.

كان مكبر صوت يصدح بالموسيقى من الصباح إلى المساء ويقطعها، أحياناً، لإعلان مرح.

- لا تنسيْن، سيداتي، أن الصنف المباع، اليوم بسعرٍ بخس، هو الصابون.

كان جيانيني دائماً، في مزاج طيب، غير متكلف، ودياً دائماً، يحفظ اسم كل واحدة، و يروح ويجيء بين الجمهور كملك عطوف بين رعاياه.

هل كانت شعبيته هي التي أعطته فكرة الترشّح للانتخابات البلدية، وكذلك وجود كثير من الايطاليين في الحي؟

وعلى العكس، ألم يبدأ بالبيع بأسعار مخفضة وفي ذهنه الأرباح التي سيجنيها عندما ينتخب مستشاراً؟

لم يكن لذلك أهمية. كان منافساً خطيراً لمارسيل لوكوان إلى حد أسس، معه، هذا الأخير، قبل موعد الانتخابات بستة أشهر، جريدة صغيرة كانت تكلفه غالياً جداً.

بدأت الإعلانات تظهر على الجدران - وليس على الألواح التي لن تُنصب إلا في الخريف .

كان فرانسوا قد مر، عدة مرات، أمام جيانيني، واضطرب لرؤية الجمهور ينقض على السلعة بإيقاع مهووس، يُبرزه مكبر الصوت، وخاصةً لرؤية المال يسقط كالمطر في الصناديق المسجلة الثلاثة الموضوعة عند المخرج.

ولم يكن أقل اضطراباً لرؤيته الرجل القصير ذي الكتفين العريضين، وسط هذا الغليان، يحتفظ بهدوئه، يبتسم، يمزح وعينه على كل شيء.

كان أفراد أسرتي لوكوان وناي يتهاوون، من الأب إلى الابن، يزدادون، كل يوم، زَمّاً للأكتاف والأرداف وينتهون، تقريباً، إلى المشي موارِبة، في حين أن هذا الأخير، الخارج من السواقي يجمع المال بجذلٍ راسخ.

هل كان له أطفال، أبناء؟ هل أرسلهم إلى المدرسة؟ ربما أرسلهم إلى ستانيسلاس. لا يوجد أدنى شك في أن بعض الورثة الشاحبين والفقيري الدم للشقق البورجوازية الضخمة كانوا يسخرون منهم ومن رائحة الدكان التي تفوح منهم.

هل كان بوب سيحب أن يكون أبوه مثل جيانيني؟

كانت هذه الأفكار تعود إلى الزمن الذي كان فرانسوا، فيه، يروي لنفسه قصصاً.

كان الايطالي القصير يمارس عليه، آنذاك، جاذبية حقيقية، وكان يدور حوله، في فكره، يرسم مَساعٍ للوصول إليه.

لماذا لايؤسس، جيانيني، من أجل الانتخابات، هو أيضاً، جريدة مثل مارسيل؟

سيلزمه شخص مثقف يعرف الكتابة. «أحمل البكالوريا. اعتدت على الكتابة. فكر مسبقاً، برؤية المقالات الموقعة من شقيق خصمك»

كان يتخيل وجه مارسيل، غضبه البارد. كان يتخيل هاتفاً محتملاً جداً: «أحتاج إلى أن أتحدث إليك حالاً يا فرانسوا» - «اعذرني، ولكني مشغول جداً». عند ذلك، يخفض مارسيل من نبرته: «متى أستطيع أن ألقاك؟» «فلنر! ربما بعد غد، حوالي الساعة التاسعة صباحاً؟».

كان ذلك عن عمد لأن أخاه اعتاد الاستيقاظ متأخراً.

هل سيقبل اقتراحات مارسيل؟

ها هي كل أحلام اليقظة هذه قد جرى تجاوزها. كان يمسك بالطرف القوي. في بضع دقائق، لأن راوول اقتحم بيته، لأن جيرمين ماتت، كف عن جَرِّ خططه في الفراغ.

– كلا يا رونيه، لا يدور الأمر حول العمل كمستخدم في مخزنه، ولا حتى أمين صندوق أو محاسب. تعلمين أن لجيانيني طموحات سياسية. يزعمون أن مقعداً في المجلس البلدي يعطي أكثر من مقعد نيابي، بل وأكثر من حقيبة وزارية.

– أنت تبالغ يا فرانسوا.

أسندت أحد ردفيها على زاوية الطاولة ورأى ساقها الساطعة تتحرك بعصبية تحت الحرير.

سحبت سيجارة من علبة ذهبية وأشعلتها بقداحة ذهبية أيضاً ونفخت الدخان أمامها.

– اعذرني، لم أفكر في تقديم واحدة لك.

– لا بأس. جيانيني ليس مثقفاً جداً، وهو ما يمنعه من أن يقارب، شخصياً، ميداناً كاملاً من ميادين الدعاية الانتخابية. لا شك في أنه سمع عني من أصدقاء. إنه يفكر في إطلاق جريدة....

– يوقع على مقالاتها أحد أفراد أسرة لوكوان كما أظن؟

– مازلت أجهل إذا ما كنت سأتخذ اسماً مستعاراً. لم نصل إلى هذه النقطة. هذا المساء هو الذي يجب أن نناقش، فيه، هذه التفاصيل.

– فهمت.

– فهمت، أليس كذلك، أن كون أخي يعمل في السياسة لا يمكن أن يمنعني من التفكير في وضعي؟ لقد غيَّبت نفسي حتى هذه اللحظة.

تركت نفسها تنزلق من على الطاولة واتجهت إلى البار حيث صبت لنفسها قائلة:

– حسناً يا فرانسوا، هذه، فعلاً، أخبار.

وضحكت ضحكتها صغيرة.

– اهنئك، من المؤسف أن لا يكون مارسيل هنا ليتحدث معك عن هذا.

– لا أعتقد يا رونيه أن لحضور مارسيل فائدة ما.

– اجلس يا فرانسوا، أو، بالأحرى، صب لنفسك أولاً.

– لا أود أن أشرب هذا المساء. أشرب قليلاً جداً كما تعلمين.

– اجلس.

هل تعمدت، وهي تجلس تجاهه، في مقعد جلدي عميق، أن تكشف عن ساقيها إلى أعلى من الركبة بكثير؟

في البداية، نظرت إليه على دفعات صغيرة كما لو كان ذلك لتقيس التغيرات التي حدثت فيه.

– اعترف لك أني ظننت، عندما وصلت، أنك سكران. لاحظ أني كنت سأفهم أن تكون قد شربت تحت تأثير الانفعال.

– لم أكن سكراناً.

– أعلم.

كانت تعتاد على النظر إليه مواجهة. لم تكن، بعد، متأكدة من رأيها تماماً.

– افترض أنه ليس لديك عاطفة خاصة حيال جيانيني. بينه وبين أخيك...

– ليست لدي عاطفة خاصة حيال أخي أيضاً.

قالت ضاحكة:

– ولا حيالي بالطبع.

– بالنسبة إليك، الأمر مختلف. على أية حال هذا لايسمى عاطفة. سنرى فيما بعد.

– كم عرض عليك جيانيني من أجل حملته الانتخابية؟

– الأرقام ليست نهائية. كما ترين، يا رونيه، لدي خزانه ملابس يجب أن أعنى بها. لا أعتقد، كذلك، أني استطيع الاستمرار في سكنى مسكن شارع دولامبر. أنت نفسك لم تتنازلي بأن تضعي قدميك فيه. ستكون علي، حتماً، نفقات ضخمة لتقديم نفسي.

تهيب، فجأة، في لحظة إطلاق رقم. كان قد تعود على المهانة إلى حد كان يخشى، معه، أن ينزل إلى أدنى مما ينبغي.

الماكرة كانت تحس بذلك. لم تفعل شيئاً لتساعده على الرغم من أنها وجهت إليه ابتسامة مشجعة.

– كدت أنسى جنازة جيرمين، لأن الواقع يبقى أن جيرمين قد ماتت وأن جثمانها لا يزال في المستشفى.

– هل يعلم جيانيني ذلك؟

– ليس بعد.

كان الأمر بصدد الايطالي كما كان بصدد مقشش الكراسي العتيد، السيد ماغان. كانت كل جملة تجعله أكثر واقعية بقليل، أقرب بقليل. عما قريب.، سيتصور فرانسوا حقاً أن له موعداً معه في ذلك المساء.

– استمعي إليَّ يا رونيه. أنت مستعجلة، وأنا كذلك. من المحتمل أن لا أدخل، اليوم، في التفاصيل. سيوقع لي شيكاً بعشرة آلاف فرنك لأكثر حاجاتي إلحاحاً. وسنرى فيما بعد. قولي لمارسيل إني آسف، إني سأفعل المستحيل كي لا أكون شريراً أكثر مما ينبغي.

انتهى الأمر. أخرجت من حقيبتها دفتر شيكات صغيراً بدلاً من الشيك الجاهز المكرس للقريب الفقير. كان قلمها، كعلبة السجائر والقداحة، مثل ساعة يدها الثقيلة، من ذهب.

كتبت.

– هيا يا فرانسوا، لا أعتقد أن من الضروري أن ترى أرثور جيانيني، مخابرة هاتفية تكفي. قل له أنك فكرت، وأنك، في نهاية المطاف، تفضل أن تعمل لأخيك. لدي موعد جديد في باريس، يوم الأربعاء القادم، مع طبيب أسناني. اهتف لي إلى هنا حوالي الساعة الرابعة.

وأضافت في لحظة مصافحتها إياه على الباب:

– تعازيَّ يا فرانسوا! في الواقع، لم يعد لي ما أفعله هنا. أنا نازلة معك.

رافقها حتى سيارتها التي كان فيرمان قد أمسك بابها مفتوحاً.

– ألا تريد أن أوصلك إلى مكان ما؟

– شكراً يا رونيه. تحياتي لمارسيل.

لم تبلغ الساعة السادسة وكانت كثير من المخازن مفتوحة.

قبل كل شيء كان يتحرق شوقاً إلى أن يجدد لباسه من القدمين إلى الرأس.

قفز في تاكسي مكشوف، وكان فراغ الصبر يتعقبه إلى درجة مراقبة الساعات.

(٥)

أوقف التاكسي عند زاوية شارع مونبارناس، تجاه رصيف مقهى الدوم حيث لم يكن للناس من عمل سوى النظر إلى المارة وهم يشربون المشروبات، ودخل في شارع دولامبر باحثاً بعينيه عن ساعة السيد باشون الضخمة. كان يمسك برزمة يحمل ورقها الأسمر اسم مخزن في شارع سان ميشيل. كانت رزمة الحذاء الذي اشتراه لبوب. ذلك أنه فكر في بوب أيضاً. فكر، فيه، كل الوقت. بل إنه كان يفكر فيه وهو يجرب بزته في المخزن الأنيق الذي قرر، منذ سنوات، أن يكتسي منه ذات يوم.

بينما كان ينظر إلى نفسه في المرآة المثلثة الوجوه، كانت مسألة الشيك تفسد متعته قليلاً وذلك، دائماً بسبب التربية التي تلقاها، تربية الفلق(*)، على حد قول راؤول. لقد خشي منذ قليل، على الصندوق، أن يظنوه محتالاً.

أول فكرة له كانت شراء بزة سوداء، بزة حداد حقيقية ستجعل منه، في عيون بوب وكل شارع دولامبر، بل في عيون مارسيل وراوول أرملاً كامل الوقار.

شاهد، على الرف، بزة من قماش صوفي رمادية ناعمة جداً، خفيفة ومرنة كتلك التي كان يحلم بارتدائها منذ عمر الثامنة عشرة. قال للبائع الذي كان يجربها عليه معترضاً:

– ذلك، أني، للأسف في حالة حداد.

– اسمح لي أن أعطيك رأياً شخصياً. نحن في ذروة الصيف، يا سيدي العزيز، ويحتمل أن تسافر، أن تأخذ عطلة، تذهب في سيارة. بالنسبة لي، إن

(*) الفلق: تأديب الصغير بضربة على مؤخرته، وهو ما لا يوجد له معادل دقيق بالعربية، فلجأنا إلى ما يدل على التأديب وإن كان بالضرب على أسفل القدمين .م.

هذه البزة الرمادية ولاحظ أن لونها الرمادي خال من البهرجة، مصحوبة بقبعة سوداء وقميص أبيض وربطة عنق كامدة، تبرز حداداً رزيناً ولائقاً. قليل من الناس في أيامنا، خاصة من أرقى المجتمعات، هم من يُلزمون أنفسهم بحداد صارم على الطراز القديم.

كانت الألبسة الجاهزة تناسبه، عامة، لأنه لم يكن بديناً ولا نحيلاً.

- أعتقد أنك ستبقى في هذه البزة. أأرسل لك بزتك أم تفضل أن تأخذها معك حالاً؟

- سأدع لكم عنواني.

جاءت اللحظة الصغيرة البغيضة التي كان يخشاها منذ أن دخل إلى المخزن. أمام الصندوق، مد يده بالشيك الذي فحصه البائع بارتباك نادماً، على وجه الاحتمال، على تركه البزة على جسده.

- هل تسمح لحظة؟ أنا مرغم على استشارة المعلم.

كانت، بالطبع، فكرة غريبة أن يشتري المرء بزة بعد إغلاق المصارف وهو لايحمل في جيبه سوى شيك بعشرة آلاف فرنك، خاصة عندما لايترك في المخزن إلا بزة مهترئة تماماً.

كان المعلم رجلاً قصيراً سميناً، شديد التأنق، أسود الشعر، معطَّر الرائحة، وكان يزأزيء في كلامه. هو، أيضاً، فحص الشيك وقلبه بين أصابعه المخوتمة كما لو كان سينجز لعبة خفة.

سأل أخيراً، بأدب ولكن بلا حماس:

- هل لدى هذه السيدة هاتف؟

- لديها هاتف، لكنها رحلت، منذ قليل، إلى دوفيل. إنها زوجة أخي، زوجة المستشار البلدي.

- هل أنت شقيق المستشار؟ أرى أنك تحمل اسم لوكوان بدورك.

- أنا أخوه.

- هل أستطيع أن أسألك عما إذا كنت تحمل بطاقة هوية؟

أخرجها من محفظته محمر الوجه.

- لن أستطيع أن أعطيك ما يبقى من كامل المبلغ هذا المساء، ولكني سأوقع لك إيصالاً، بعد افتتاح المصارف، سوف أعطيك الباقي.

قال، وقد أحس بالحاجة إلى الشرح:

- الأمر يدور حول حداد، لذلك أنا مستعجل.

ندم، بسبب تفصيل في هذه الضآلة لأنه لم يشتر البزة السوداء التي كانت تزيد تأكيد أقواله.

- زوجتك؟

- زوجتي، نعم.

حصل على ألف فرنك. كان الوقت متأخراً. لقد خسر كثير من الوقت وكان يلوم نفسه على ذلك. كان قلقاً، فارغ الصبر للقاء بوب. وبما أنه كان هناك بائع أحذية قريب، فقد اشترى منه لنفسه، أولاً، ثم لبوب الذي كان يعرف قياس قدمه. وعدوه بإمكانية تبديلهما في حال عدم ملاءمتهما. وبالمناسبة نفسها، اشترى جوارب سوداء ثم، بعد عدة مخازن، في شارع سان ميشيل، قبعة من اللباد الأسود وقمصاناً وربطتي عنق من الحرير الكامد.

لم يسبق له، قط، أن اشترى بهذا المقدار في هذا الوقت القصير، وكان يفكر، دائماً، في الدقائق التي تنقضي. كان لا يزال عليه أن يهتم بمؤسسه دفن الموتى. هذا سيأتي فيما بعد. هذه المكاتب لا تغلق أبوابها حتى ليلاً.

كان فريسة لإحساس غريب، لنوع من الدوار، لحاجة إلى أن يمضي إلى الأمام، بسرعة، أن يفعل كثيراً من الأشياء دون أن يلتقط أنفاسه. لم يعد يعلم كيف ولا متى، بالضبط، أعطي هذا الدافع، ولكنه كان يحس بأنه لم يكن ينبغي، بأي ثمن، أن يتوقف ذلك. إنه ما دفعه من جديد، إلى أخذ سيارة أجرة إلى شارع دولامبر.

كان يحس بالنسيج الجديد. لم تخطر له فكرة الدخول إلى حانة لتناول كأس. من يدري؟ ربما سيفيد من ذلك للإقلاع عن الشرب تماماً.

لو لم يكن بوب ينتظره لرأى، حالاً، تجار شارعه الذين كان يدين لهم بمال. كان يدين لجميعهم تقريباً، وغدا، فجأة، من غير المقبول له أن يتخيلوا أنه رجل فقير غير قادر على أن يدفع لهم.

لكن بوب كان فوق، وستحل، قريباً، ساعة العشاء. كان لدى الغلام شغف نادراً ما تيسرت له فرصة إشباعه، الشغف بقواقع سرطان البحر بالمايونيز التي ترى شهية جداً في واجهات باعة اللحوم الباردة.

لا بد أن الناس كانوا ينظرون إليه من خلال الواجهات وهو يمر مختلفاً عن لوكوان البائس والآبق الذي غادر شارع دولامبر قبل بضع ساعات.

لم يكن الناس يعلمون بعد. لم يعد يحس بأي تعب. لم تكن لديه أدنى رغبة في أن يعلن عن نفسه مريضاً، أن يتمدد لمدة ثمان وأربعين ساعة مسلماً مصيره للمصادفة.

كانت رغبة غالباً ما ساورته: أن يتوقف عن التفكير، عن القلق، أن يعود، من جديد، طفلاً أو معوقاً على الآخرين الإعتناء به.

بالنسبة إليه، لم يكن هناك أحد، لم يحدث، قط، أن كان هناك أحد.

- أعطني، من فضلك، قواقع سرطان.

- كم؟

تردد.

- أربعاً!

قوقعتان لكل منهما، ما يكفي لإثارة انفعال بوب حتى الدموع.

- أعطني، من فضلك، يا سيدة بليزو، ورقة حسابي، سأفيد من ذلك لتسديده.

لماذا لا يشتري قطعة سانت أونوريه بالقشدة؟ إنه يدين بالمال للحلواني أيضاً. كان، بالضبط، تجاه بيته. ستراه السيدة بوساك خارجاً من المخزن. من المهم أن يعرف كل الحي، بأسرع وقت ممكن، أنه لم يعد المستخدم الصغير الذي لا عمل له والذي يستجدي قرضاً.

وعلى الفور، بدا له شارع دولامبر أكثر وداً، أكثر لطفاً، بتلقائيته، بمزيجه الحميم من كائنات بالغة الاختلاف يتبع كل منها مصيره منفرداً، وتساءل عما إذا كان من المفيد، حقاً، أن ينقل سكنه. نظر، من الرصيف، إلى نوافذه المفتوحة ولم ير أحداً. مر أمام حجرة البوابة مفكراً: «إنها لا تعلم بعد».

سيأخذ تسديد الأجرة المتأخرة، الآن، أكثر مما ينبغي من الوقت، ولم يكن يريد تجريد نفسه من كل نقوده السائلة. سيسددها غداً. وعلى وجه الإجمال، سيمزح مزحة جيدة مع السيدة بوساك التي سيغضبها أن لا يعود عندها كي تصبَّ عليه مزاجها السيء. لم يكن هذا المزاج أقل ضرورة لها من خيانات القدر لأمه.

صعد الدرجات ثلاثاً ثلاثاً. كان من الانفعال، وهو يقترب من بيته بحيث ملأت عينيه دموع لم تكن دموع حزن.

خرج من المأزق أخيراً.

كانت يداه ترتعشان من جراء ذلك عندما وضع المفتاح في القفل، وكانت ساقاه رخوتين.

دخل والرزم في وضع متوازن على ذراعه اليسرى، وارتعد لسماعه أصواتاً.

لم يهب بوب إلى لقائه كما كان قد تخيل. اجتاز فرانسوا الردهة قلقاً، مستاء، ظهر متصلباً إلى حد كافٍ في إطار غرفة الطعام التي جعلتها شمسُ المغيب حمراء اللون.

كانا ينظران إليه دون أن يقولا شيئاً. كان بوب جالساً إلى الطاولة ومنشفة حول عنقه، أمام فطيرة بالقشدة. كان يبدو مرتبكاً، في حين كان راوول يدخن سيغاراً شديد السواد وقد شمر كمي قميصه حتى المرفقين واستلقى على المقعد وفي يده كأس.

بدلاً من تذوق مفاجأة ابنه المعجبة، كما كان قد وعد نفسه كثيراً، كانت نظرة أخيه هي التي بحث عنها، آلياً، لأنه كان يعلم أن راوول رأى كل شيء من النظرة الأولى. قال ببرود:

– لم أظن أني سأجدك هنا.

- مضى أكثر من ساعة وأنا في صحبة ابن أخي، ذهبنا، معاً، للقيام ببعض المشتريات في الحي. لم يكن يريد أن يتبعني. كان يزعم أنه ينتظرك وأنه لم يكن يستطيع، بأي ثمن، أن يغادر الشقة.

كان بوب خجلاً كما لو من ارتكابه خيانة. كان ينظر إلى بزة أبيه الجديدة دون أن يقول شيئاً.

- لقد جلبت لك قواقع سرطان يا بوب.

يجب أن يكون الطفل قد فهم خيبته لأنه كان يحاول إظهار الحماسة، في حين أنه لم يعد بالطبع جائعاً.

- شكراً يا بابا، أحبها كثيراً. شكراً!

لم يجرؤ على متابعة أكل فطيرته... كما لم يجرؤ على النهوض:

- اشتريت لك، أيضاً، حذاء.

- بنعل من الكريب؟

- تماماً ذلك الذي ترغب به.

- هل أستطيع رؤيته؟

فك الرزمة بعناية، لكن ليس كما يمكن أن يفكها لو كانا بمفردهما.

أضاف أبوه مع نظرة إلى الفطيرة بالقشدة:

- وقطعة سانت أونوريه.

كان راوول صامتاً وراح يراقبه بابتسامة غريبة. لم تكن ابتسامته العادية ولم يكن، في الحقيقة، مرتاحاً إلى هذا الحد. كان يرفض أن يستغفل. إلا أنه لم يكن يفهم، وهو الذي كان يتباهى بأنه يفهم كل شيء، ولا يستطيع تفادي الاضطراب. بل بدا مرتبكاً عندما غير فرانسوا مكان زجاجة الكونياك التي أتى بها والتي شرع، فعلاً، في الشرب منها.

- فكرت في أنه يحتمل أن لا يكون لديك ما يشرب.

- لا أرغب في الشرب.

- ما أجمله! هل أستطيع أن أجربه؟

- اذهب لتجربته في غرفتك.

قال متوجهاً إلى عمه:

- سأنهي الفطيرة بعد قليل.

لم يعد خائفاً من هذا الأخير. كان يبدو أن السلام قد تم بينهما، وتساءل فرنسوا، بقلق، عما يمكن أن يكون أخوه قد روى للغلام.

على الرغم من أن باب غرفة النوم لم يغلق تماماً، فقد غمغم راوول:

- هكذا، فإنها قد ماتت!

ودون أن ينتظر ما يمكن أن يقول له أخوه حول هذا الموضوع تابع قائلاً:

- هل رأيت مارسيل؟

توقف نظره، لحظة، عند البزة والمشتريات الباذخة.

- كلا، لم أحاول رؤيته.

لم يفكر راوول في رونيه بحيث أنه راح يبحث، عبثاً، عن حل المسألة.

- انظر يا بابا. إنه يلائمني. ليس أصغر مما ينبغي. إنه حتى لا يسبب لي ألماً. هل استطيع أن احتفظ به في قدميّ إلى أن أذهب للنوم؟

- تعال إلى هنا يا صغيري.

كان وجود راوول، لدى وصوله، قد قلب خططه. انتبه. في الطريق، إلى أنه يكاد أن لا يكون قد أعلن للطفل عن موت أمه، ووعد نفسه بأن يتحدث عن ذلك بمزيد من الرسمية. وبسبب أخيه، جاء الحذاء والقواقع وقطعة السانت أونوريه، بالمصادفة، أولاً.

- أنت رجل صغير، أليس كذلك؟

في هذه الأشهر الأخيرة، عشنا، نحن الاثنان، متوافقين جيداً. لم تكن تعيساً جداً.

- لكن لا يا بابا

أفاد راوول من ذلك ليصب لنفسه شراباً وذهب ليقف أمام النافذة.

- حسناً يا بوب. من الآن، فصاعداً، سنبقى، دائماً، نحن الاثنان معاً. أعدك بان أبذل كل جهدي لأحل محل أمك.

كان الطفل ينظر إلى أبيه بهدوء. قال بصوت لا يُميِّز، فيه، انفعال:

- أعلم أن ماما ماتت.

- ماتت يا بوب، كنت، منذ قليل، أكثر تأثراً وانشغالاً من أن أستطيع التحدث إليك عن ذلك كما تمنيتُ أن أفعل.

كان فرانسوا قد تصور أنه سيأخذه، في هذه اللحظة، بين ذراعيه، لكن الغلام خفض بصره حالماً نحو حذائه، ثم اتجه ببطء إلى غرفته.

- هل أنت حزين جداً يا بوب؟

- كلا.

هذه المرة، أغلق الباب وراءه. التفت راوول وراقب أخاه برهة طويلة، وقال كما لو أنه أنجز اكتشافاً.

- على وجه الإجمال، ها أنت أرمل!

- أقال لك الصغير شيئاً؟

- في أي موضوع؟

- لا أدري، بصدد أمه، بصددي أنا

- لم نتحدث عنك. أخبرَني بموت جيرمين، ثم تحدثنا عن الأدغال والفيلة والأسود وأفاعي البوا.

لم يكن فرانسوا متأكداً جداً من ذلك، وكان يحس بشعور يشبه الغيرة يتسلل إليه.

- ألم يخف منك عندما دخلت؟

– أنت تريد، حقاً، أن يكون قد خاف مني، أليس كذلك؟ في الحقيقة، أنت غاضب لأننا أصبحنا صديقين طيبين.

– بما أنك هنا، هناك خدمة أطلبها منك. أفضل أن لا أدع بوب وحده هذا المساء. من جهة أخرى، يجب تسوية تفاصيل الدفن مع إدارة دفن الموتى.

– ألم تنجز ذلك؟

– لم يتوفر لي الوقت.

لا بد أنه عرف من الطفل الساعة التي غادر فرانسوا، عندها، البيت. كان هناك شراء البزة والأشياء الصغيرة الأخرى. وكان هناك، أيضاً، المستشفى والبلدية. لكن ماذا عن بقية الوقت؟ كان ذلك، بديهياً، السؤال الذي كان يطرحه راوول:

أين ذهب أخوه للحصول على المال؟

– هل ستعيد الجثمان إلى هنا؟

نظر فرانسوا إلى غرفة الطعام التي كان يجب تحويلها إلى حجرة للصلاة على الجثمان. تردد. كلا! ليس من الممكن العيش مع بوب، أن يأكلا ويناما إلى جانب غرفة للميتة.

– أعتقد أن من الأفضل أن لانفعل، مع ذلك، أود أن يوضع غطاء أسود على باب البناية وأن ينطلق الموكب من المنزل.

أضاف وهو يمد يده إلى محفظته المفتوحة بحيث رأى أخوه الأوراق المالية:

– إذا كان هناك ما يجب دفعه حالاً..

– لا ضرورة لذلك. أعلم أن معك مالاً.

ذلك أن مَن كان أمام راوول هو رجل آخر وليس فقط ملابس أخرى، هذا ما قَصَدَه. لم يكن مسروراً لأنه لم يفهم بعد، وأيضاً لأن الأمر جرى بسرعة كبيرة جداً، ولم يجرِ مثلما توقعه. كان يبدو قلقاً تقريباً.

– هل تريد أن تتولى الأمر؟ فليكن على أفضل نحو. لست حريصاً على ذرّ الرماد في العيون، بل أريد أن يتم الأمر بشكل جيد جداً.

– الكنيسة؟

– طبعاً.

– قداس؟

– إذا رأيتَ أن من الأفضل إقامة صلاة جنازة لا غير. جيرمين كان ورعة جداً.

كانوا جميعاً كذلك. لم يسأل راؤول إذا كان ما يزال يذهب إلى الكنيسة لشدة تأكّده من العكس. منذ سنين، لم يعد يذهب إليها هو أيضاً، مع أنه اتفق له مؤخراً أن رغب بذلك.

هل يمارس مارسيل ورونيه العبادات؟ إذا كان الأمر بالإيجاب، فتلك مسألة انتخابية خالصة.

تنهد راوول وهو ينزل كميه إلى معصميه ويزرهما.

– أنا ذاهب. ربما صعدت، بعد ذلك، لحظة لأراك. سوف أتأكد، من الشارع، من وجود ضوء.

بقي لحظة واقفاً تجاه أخيه، وتساءل هذا الأخير عما سوف يقول له.

– إذن، الم يكن ذلك صعباً جداً؟

سأل فرانسوا الذي فهم، جيداً، أن الأمر لا يدور حول جيرمين:

– ماذا؟

– لا تتغابى. ليس معي، لا تتغابى معي أبداً يا صغيري. تحياتي.

كان هناك تهديد في صوته تقريباً. لم يكن مسروراً. لماذا كان ينظر، جهاراً، إلى باب غرفة النوم؟ لمزاجه السيء علاقة مع بوب. كان هناك، في رأسه، شيء بصدد بوب. ولكن ماذا؟

عندما كف فرانسوا عن سماع خطوات أخيه على الدرج، بقي، برهة، أمام الطاولة غير المرتبة، ثم اتجه إلى الغرفة وفتح الباب ببطء.

كان ابنه جالساً على سريره يفحص، بانتباه، آلية مسدس كان تقليداً متقناً لسلاح حقيقي.

كان السؤال نافلاً، ولكن فرانسوا طرحه.

– من أعطاك هذا؟

– العم راوول، هل ذهب؟

– نعم.

– قال لي أنه ربما يأخذني إلى السينما. إذا سمحت طبعاً.

– لا يذهب المرء إلى السينما عندما يكون في حالة حداد يا بوب!

– هذا صحيح، عفواً.

– تعال لنأكل.

– سأضع الطاولة.

ترك، آسفاً، مسدسه الذي وضعه في مكان ظاهر من أجل ألاّ يغيب كثيراً عن عينيه، وضع الآنية لشخصين في حين كان أبوه في المطبخ، حيث كان يجب إشعال النور، يسخن ماء للقهوة.

– بزتك جميلة.

– أتحبها؟

– نعم. أحب أن تكون حسن اللباس.

ثم، بعد قليل:

– هل ستكون لي بزة جديدة أيضاً؟

– نعم.

– قبل الدفن؟

– سنذهب لشرائها غداً.

– بزة سوداء.

فضل فرانسوا أن لا يجيب.

- متى نذهب لرؤية ماما؟ هل تركوها في الغرفة نفسها؟

- لا أدري يا بوب.

قال للمرة الثانية:

- عفواً.

وهذا أدهش والدة الذي لم يلاحظ، قط، بهذا الوضوح، خشية ابنه من أن يسبب حزناً. أليس هذا هو السبب الذي من أجله قلق لرحيل راوول. لم يستطع أن يقول له شكراً ولا إلى اللقاء.

- أما زلت جائعاً قليلاً من أجل أن تأكل القواقع على الرغم من الفطيرة؟

- نعم. ربما لن آكل اثنتين. سأبقي واحدة إلى الغد. العم راوول هو الذي أراد أن آكل الفطيرة حالاً. لم أجرؤ على الرفض.

- لا بأس.

- أ أنت حزين؟

كاد يجيب بالنفي معتقداً أن ابنه كان يلمح إلى القواقع والفطيرة. فهم في الوقت المناسب أن الأمر كان يدور حول موت جيرمين.

- إنها مصيبة كبيرة يا بوب. سأحاول بكل قواي، أن لا تكون تعيساً.

قال الطفل وهو يلامس ذراعه خلسة:

- وأنا أيضاً.

- فلنأكل!

- نعم.

- هل تجده لذيذاً؟

- نعم. منذ عام لم نأكل منه حقاً.

وأخيراً، بعد صمت طويل إلى حد كاف وبصوت متردد!

- هل رأيت مسدسي الجديد؟ إنه، بالضبط، مثل مسدس حقيقي، إنه أكثر اتقاناً من مسدس جوستان.

غزا جو مزرق زوايا الغرفة، في حين بقي مستطيل النوافذ مضيئاً، نحاسياً.

راحا يأكلان ببطء أمام غطاء الطاولة الأبيض، بينما تتصاعد أصوات الشارع، متخافتةً بين البيوت، وتهبّ أحياناً نسمةٌ تنفخُ إحدى الستائر.

– ألن تغضب مني يا بابا؟ لم أعد جائعاً حقاً.

لم يكن يحاول الإيهام بأن بطنه يؤلمه. لم يعد فرانسوا، كذلك، جائعاً. كان يحب مايونيز السرطان كابنه، وأكل قوقعته آلياً، دون أن يتلذّذ بها.

لم تكن زجاجة الكونياك التي وضعت على البوفيه تغريه. ربما انتهى من الكحول. كان قد خلع سترته الجديدة وربطة عنقه وعقد منشفته حول عنقه كي لا يلوث قميصه الجديد وانتبه إلى عدم دعك بنطاله.

– يجب أن تذهب الآن لتنام يا صغيري. سأتولى أمر الأطباق.

وأضاف، عالماً بأن ذلك سيسر الطفل الذي غسلها، وحده، ظهراً

– لكل دوره.

كان ذلك يعني المساواة بين الاثنين. وافق الغلام كرجل وقال:

– غداً سيكون دوري. أتسمح لي بأن ألعب بمسدسي خمس دقائق، فقط خمس دقائق.

وذهب ليرى الساعة الكبيرة التي كان السيد باشون قد أعاد تشغيلها.

جيرمين ماتت.

كان راوول قد قال أنه قد يمر مساء بشارع دولامبر وأخطأ فرانسوا في عدم الرفض، في حين كان من السهل الادعاء بأنه سينام بعد العشاء فوراً.

كان ذلك يرغمه على الانتظار، في حين اعترته، حالما هبط الليل، رغبة ملحة في الخروج.

كان بوب نائماً. لم يكن من عادته الاستيقاظ ليلاً. وفي حال حدوث ذلك، كان من السهل أن يدع له في مكان ظاهر بطاقة مطمئنة: «اضطررت للخروج لحظة. لا تقلق ونم».

منذ أن لم تعد جيرمين في البيت، غالباً ما كانا يتكاتبان بطريقة البطاقات، واعتاد بوب على البقاء وحيداً. كان قادراً، عند الحاجة، على تحضير وجبته، واتفق لفرانسوا مرات عديدة أن وجد المائدة معدة لدى عودته.

كان هذا مخيفاً قليلاً. في اليوم الأول من حريته يستعيد، حيال ابنه، الشعور نفسه بالإثم الذي أحسّ به دوماً حيال جيرمين.

منذ قليل، شعر، وهو متكئ على النافذة والأنوار مطفأة وراءه لدى رؤيته امرأة تمر ببطء تحت أحد الفوانيس، باندفاعة رغبة قاسية تبلورت، فوراً، تقريباً، في موضوع محدد. وتذكر، بدقة، على صورة المهووسين، بار شارع غيتيه الصغير بالثلاث مومسات من روّاده اللواتي كنّ يدخلن ويخرجن، يهمن على وجوههن على الرصيف ويختفين، أحياناً، بصحبة رجل في غرفة في الفندق في الشارع المجاور.

لم يكن قد تبع فيفيان قط. لم يكلمها أبداً. وإذا كان يعرف اسمها، فلأنه سمع الآخرين وبوبول ينطقون به.

كانت لها شَعبيّة كبيرة في البار الصغير، وفجأة أحس بالرغبة في أن يتبعها إلى غرفة في الفندق، وعض شفتيه حتى أدماهما لمجرد تذكر طقمها الأزرق وقبعتها الحمراء.

إذا أتى راوول، فربما سيكون سكراناً. أكان كذلك قليلاً بعد الظهر، عندما جالَسَ بوب؟

لقد شرب منذ ذلك الحين دون أدنى شك. كان قد بلغ النقطة التي تجعله مضطراً للشرب منذ يقظته.

حتى لو لم ير نوراً، كان قادراً على الصعود وإثارة ضجة. قد يطرح، لدى عودته، أسئلة محرجة، وربما خمن. وفرانسوا كان لا يزال يخجل من غرائزه الجنسية.

رغبته لم تكن جنسية أساساً. لم يكن ذلك سوى هبة وانقضت. ما كان يريده الآن، وقد أصبح ذلك ممكناً، هو أن يصبح، بالنسبة لفيفيان، شيئاً آخر غير

السيد ذي الملابس المهترئة الذي يجلس، كل مساء، أمام المنضدة ذاتها، في زاوية من البار وينظر إليها من بعيد بوجل نفور.

لم يكن ذلك دقيقاً بدوره. كان جزءاً من كل، وكان في هذا الكل، بسبب وجود راوول لديه، عند عودته، صدوع.

لم تعد لديه الثقة ذاتها بنفسه. كان قد شعر بذلك في التاكسي. فهم أنه لم يكن ينبغي، وقد وجد الدافع، أن يتوقف بأي ثمن.

كان بالكاد يتذكر، بشيء من الدقة، ضحكة زوجة أخيه، ويصدق هذا النوع من التواطؤ الذي قام بينهما. لم يكن تواطؤاً حقيقياً، ولا فهماً تاماً، كذلك، لكنّ تماساً قد حصل. كان يعرف ذلك.

كان هناك شيء جذاب في هدوء الشارع والأرصفة التي كانت ترنّ فوقها أحياناً خطوة منتظمة، في موسيقى خافتة تتسرب من ملهى ليلي يبعد أربعة بيوت عنه وكانت لافتة النيون، فوق بابه، تصبغ جزءاً من الشاعر باللون البنفسجي.

كان في حاجة إلى أن يبدأ. بقي زمناً أطول مما ينبغي على الهامش. كان يختنق. كان ذلك ملحاً، جسدياً ومعنوياً معاً، وإذا انتظر أخاه أكثر مما ينبغي، فربما تكون فيفيان قد رحلت.

كان يجهل إلى أية ساعة كانت تبقى في جوار بار بوبول. لم يذهب إليه، أبداً، في هذا الوقت المتأخر. لم يكن يعرف، كذلك، مظهر البار في هذه الساعة من السهرة.

أعاد إشعال النور، مزق ورقة من الدفتر الذي انتزعت منه أوراق أخرى للغايات نفسها، كتب الكلمات القليلة التي سيقرؤها ابنه لو أفاق. كان يرقب أصوات الخارج، صمت السلم. تَصرّفَ بسرعة خوفاً من ظهور راوول وفي الشارع، التفتَ ليتأكد من أنه أطفأ النور، وراح يمشي بخطوات مسرعة وهو يحس في صدره بضغط بغيض.

كان، بدرجة أقوى، الإحساس الذي أحس به في التاكسي عندما بدا له أنه متأخر ويفكر في بوب الذي كان ينتظره.

مع ذلك، كان كل هذا ضرورياً. كاد يصدم المساعد التي كانت تروح وتجيء على بعد مسافة معينة من البار والتي التفتت إليه بدهشة. تعرفت عليه على الرغم من أنه لم يكن نفسه ومن أنها ليست ساعته.

قرر أن لا يشرب، دخل إلى البار، وبدلاً من أن يذهب ليجلس في مكانه، بقي واقفاً عند المشرب.

بوبول الذي بدا مدهوشاً أيضاً، مد يده، فعلاً، ليمسك بزجاجة المارك.

– ربع ليتر من مياه فيشي.

أية شهادات غريبة سيدلي بها هؤلاء الناس لو اتفق له أن اقترف جريمة أو اعتقل لسبب ما؟ «*كان يأتي كل يوم في الساعة نفسها ويجلس أمام منضدة الزاوية ويشرب كأسين من المارك*».

لم يكونوا يعرفون عنه شيئاً. لم يتحدث إليهم قط. هل اعتبروه، دائماً، أرملاً؟

سأل بصوت كاد أن لا يعرفه:

– أليست فيفيان هنا؟

– لن تطول غيبتها.

انحنى بوبول لينظر من خلال الزجاج.

– ها هي تخرج.

كان ظل رجل يعبر ظلمة الزقاق الصغير ويغوص في جمهور شارع غيتيه. الفتاة ذات الطقم الأزرق تقترب من البار، بهدوء، دون عجلة، وهي تدغدغ.

دهشت لرؤيته واقفاً أمام المشرب، وعلى الفور، نظر إليها بصورة طقوسية نوعاً ما كانت تعني: «انتظرك خارجاً» من جهتها، أفهمته، برمشة عين، أنها قد فهمت.

- كأس نعناع، يا بوبول.

تقرر الأمر. دفع، خرج، دخل إلى الزقاق الصغير وتوقف أمام أول بقعة ظلام حالاً بعد مستطيل الواجهة المضيء.

ماذا كانت تقول لبوبول؟ أية ملاحظة أبدى هذا الأخير؟ لم يكن ممكناً أن لا يكونا يتحدثان عنه. كان كلاهما قد لاحظا البزة الجديدة الأكثر أناقة من ملابسه العادية، القبعة السوداء، ربطة العنق التي كانت تبرز على قميصه الأبيض إلى أقصى حد.

كانت المساعد تقف عند زاوية الشارع، لمحت ظله، اقتربت لتتعرف عليه. قالت لها فيفيان التي خرجت، ببساطة:

- إنه من أجلي.

ثم لفرانسوا وهي تتجه إلى الفندق:

- هل تأتي؟

كان محبطاً. لم يفكر في أن ذلك سيجري على هذه الصورة. ربما كان راوول، الآن، يحدث ضجة عند بابه ويوقظ بوب.

كانت هناك كوة إلى اليمين في الرواق. وراء الكوة، كانت تسود الظلمة، وإلى هذه الظلمة تحدثت فيفيان بكل بساطة:

- هذه أنا يا سيدة بلانش.

رد أحدهم كان يتقلب على سرير:

- خذي مناشف من الخزانة.

اجتازا باباً مزججاً أطلق، وهو يفتح، جرساً كهربائياً. أخذت فيفيان منشفتين من خزانة وصعدت السلم المطلي باللون الأبيض مع سجادة شارع دو لامبر الحمراء نفسها، ومع القضبان النحاسية ذاتها. الفرق الوحيد هو أن الدرج كان، في شارع دولامبر من الخشب المطلي القديم والمهترئ.

فكر في أنها ربما أتت على الخروج من الغرفة نفسها، وتساءل عما إذا توفر الوقت لها لتعنى بنظافتها.

كان جورباها مشدودين جيداً، وكانت لها هيئة صغيرة بورجوازية جداً. لائقة جداً. لو لم تكن في هذا الهدوء، في هذه الثقة بالذات لأمكن، فضلاً عن ذلك، أن تُظن صبية صغيرة.

فتحت باباً يعلوه الرقم ١٢٧ أشعلت النور واتجهت إلى السرير لتعيد غطاءه إلى مكانه.

كان، حقاً، السرير الذي استخدم منذ قليل، وكانت لا تزال تسود في الغرفة رائحة صابون ومعقم.

لم يكن يدري ماذا يقول. فتح محفظته بشكل أخرق ووضع ورقة خمسين فرنكاً على المنضدة وفهم أنها قد دهشت.

- أتريد أن تقضي الليلة؟

لو كان قد قال نعم لأجابته، دون شك، بأنها ليست حرة. يجب أن تكون لها حياة منتظمة، أن تأخذ الباص أو المترو في ساعة معينة لتعود إلى بيتها. وربما كانت تسكن في الضواحي وكان لها ابن.

- أهذا من أجل برهة؟

كانت قد خلعت قبعتها وسترتها. كانت تتشمر لتنزل سروالها عبر فخذيها اللذين كانا أعرض مما تصور، وكانت تنورتها الزرقاء تلتصق باللحم وهي تلتفت. لم تكن ترفع عنه عينيها وسمعها تقول مدهوشة:

- ألا تخلع ثيابك؟

لم يجد، وهو مهصور الصدر، ما يجيب به حالاً. كان، إلى حد ما، كبوب أمام قواقع السرطان: منذ زمن طويل وهو يشتهيها.

(٦)

لم يتمكن من ذلك، مع أنها ساعدته إلى أقصى ما تستطيع. فهمت حساسيته وحاولت أن لا تراقبه. ومع ذلك، كان يحس أنها محتارة. من كان يمكن أن يعرف كل أنواع الرجال أفضل من فتاة مثلها؟ هل من المحتمل أن تكون قد التقت، من قبل، من يشبهونه؟

كان يود أن، يسألها عن ذلك. كان يرغب، منذ زمن طويل، في أن يصبح صديقها ليتحدث إليها بحرية، بحرية أكبر من تلك التي يتحدث المرء بها، إلى طبيب، وعن أشياء متنوعة أكثر، شخصانية أكثر.

اليوم، للمرة الأولى أحس بأنه يجب أن يتصرف كزبون عادي، ولم يتوصل إلى غاياته.

ربما ندمت لكونها قد منعته من خلع ثيابه. في الحقيقة، لم تقل له أن لا يفعل. أبدت، فقط دهشتها لأن تلك لم تكن العادة.

كان يعرف ذلك. كان قد تبع نساء أخريات إلى غرف كهذه، كميات منهن إذا جرى التعداد، ولكنه لم يفعل ذلك، قط، في حيه. منذ سنوات، كان يذهب دورياً، ليختار فتاة في جوار شارع سيباستوبول، وكنّ يقدنه إلى فنادق رثة تجاور سوق الخضار. إلى جانب مسنات يشربن، تجد هناك صغيرات جداً كن لا يزلن خادمات أطفال حتى الأسبوع السابق.

لم يكن قد اختار شارع سيباستوبول. كانت مصادفة: هناك اتفق له، للمرة الأولى، أن يتبع موسساً واستمر في ذلك.

لعدة مرات، كاليوم، كان عاجزاً عن المضي حتى النهاية. كن يقلن له:

– أنت بالغ العصبية. لا بد من أنك تفكر في أمور. هذا لا يجدي شيئاً.

كان يعرف أن الأمر أشد تعقيداً. هل يحدث ذلك للرجال الآخرين؟ حتى قبل أن يعترض الفتاة أو يوجه إليها إشارة، كان يحس بما يشبه صدمة، انقباضاً في الصدر كان يشبه مغصاً معدياً. كان ذلك يحدث له أحياناً منذ اللحظة التي يقرر فيها أن يذهب إلى شارع سيباستوبول، وكان يشعر بالضغط طيلة رحلته في الباص.

وكان ذلك يتفاقم، بدلاً من أن يخف، عندما يصل إلى الغرفة، خاصة حين تبدأ الفتاة في رفع تنورتها.

ليس مستحيلاً أن يعود ذلك إلى قصة الخال ليون والخادمة. كان مقتنعاً بأن أمه مسؤولة أيضاً. يتذكر الطريقة التي كانت تراقبه بها منذ بدأ سن البلوغ. فما أن يكون وحيداً في غرفته أو في الحمام، كانت تصعد الدرج على رؤوس أصابعها وتفتح الباب بصورة مفاجئة كما لو كانت متأكدة من أخذه بالجرم المشهود. وفضلاً عن ذلك. كانت تحس بالحاجة إلى الكذب. كانت تهتف متظاهرة بالدهشة:

– عفواً! أ أنت هنا؟

في نشرة أعارها له رفيق من ثانوية ستانيسلاس، قرأ أن الممارسات الانفرادية يمكن أن تجعل الرجل عاجزاً جنسياً. وخلال زمن طويل، كان يستيقظ مرتعداً، في وسط الليل، وهو يتعرق خوفاً.

ثم كان هناك، دون شك، العار الذي كانت أشياء الجسد، في نظره، ملوثة به.

هل كان طبيعي البنيان؟ من أجل ذلك كان ينبغي مساءلة رجال آخرين، وهو لم يجرؤ على فعل ذلك قط. مع جيرمين، مثلاً، أحس بأنه كان يتصرف بصورة طبيعية. لم تكن له، مع غيرها، سوى علاقة واحدة مع زوجة أول رب عمل له. كان صغيراً جداً، أتى على مغادرة الثانوية منذ قليل.

كان، عندما يتحدث عن دراسته، يقول أنه يحمل البكالوريا، لكن ذلك، كالباقي، كان يستدعي تصحيحاً. كان هناك، دائماً، فرق بين ما يقوله والحقيقة. ألم تكن أمه تفعل الشيء نفسه؟ والآخرون؟ الحقيقة هي أنه كسر، خلال شتائه الأخير

في الثانوية، ساقاً بانزلاقه على الجليد.لم تتم إعادة التحام العظم حالاً– كادوا يقيمون الدعوى على الطبيب الذي أساء علاج الكسر – وظل أكثر من ثلاثة أشهر في السرير. كان عليه التقدم إلى امتحانات البكالوريا، أن يعيد الصف.

لم يعد يرغب في ذلك. مل من الدراسة لاقتناعه بأنه سيرسب على كل حال. وهكذا بدأ العمل لدى السيد دوتيل الذي كان، في ذلك العهد، يدير دار نشر صغيرة في شارع جاكوب.

لم يكن له لقب محدد على اعتبار أنه كان المستخدم الوحيد، يحزم رزم الكتب كما يساعد في المحاسبة. وكانت رائحة الورق والصمغ تسود في المكتب الواقع في الطابق الأوسط، وفي الغرف المنخفضة السقوف، كان السيد دوتيل الطويل والبدين، يبدو كعملاق.

هل كان هذا نصاباً كما قيل فيما بعد؟ كان، على كل حال، متفائلاً راسخاً، لا يفقد شيئاً من مزاجه الطيب ولا من شهيته عندما يكون الصندوق فارغاً، وكان يغطي الجدران بأوراق المحضرين الصفراء أو الزرقاء أو الخضراء. كانت له لكنة بلجيكية وضحكة رنانة.

وفيما عدا بعض الكتاب الذين لم يعودوا رائجين والذين كانوا من الدار حين اشتراها، كان ينشر، خاصة، على حساب المؤلف، وبصورة خاصة أعمال نساء.

في النهاية، لم يعد يتجشم عناء نشرها على الرغم من أنه كان يقبض التكاليف مسبقاً. وهو ما أوقعه في متاعب. يجب أن يكون قد سجن. لم يكن فرانسوا يعلم، بالضبط، ما حل به.

لم تكن، إذن، مصادفة خالصة أن يكون فرانسوا قد فكر في الجريدة الانتخابية. في الحقيقة، لم يتصرف، أبداً، بصورة خاضعة للمصادفة. كان يتفق له، منذ زمن شارع جاكوب، أن يكتب اللوحات الإعلانية ويصحح الأخطاء في الكتب بعد الطباعة، بل ومقالات نقدية كانت ترسل إلى صحف صغيرة في المحافظات.

– فرانسوا، اركض وقل لزوجتي أني لن أعود للغداء!

كان السيد دوتيل يعشق الغداء في المدينة ويملك، إلى أقصى حد، فن جعل الآخرين يدعونه إلى أفضل المطاعم. كان بيته في البناء المجاور ولم يكن لديه هاتف.

كان البيت في الطابق الثاني. كان الدرج مظلماً. السيدة دوتيل كانت تدعى ايميه، كانت تمضي القسم الأكبر من اليوم شبه عارية.

كان يجب أن تكون في حوالي الأربعين من العمر، مثل رونيه حالياً. في الحقيقة، كانت تشبه رونيه شبهاً كافياً باستثناء أنها كانت أقل ليناً في الملمس وأكثر نحولاً بقليل.

هل كان متفقاً على ذلك بينها وبين زوجها؟ ذلك أن هذا الأخير كان يرسل فرانسوا، دون انقطاع إلى الشقة في مهمة أو أخرى وأنه وجد، في المرة الرابعة، ايميه عارية تماماً، واقفة في مغطس من القصدير.

- أعطني المنشفة يا صغيري من فضلك، هذا سيجنبني أن أبلل الأرضية.

هل كانت ترتاب في أنه لا يزال بكراً؟ لم تستعجله، أخذت وقتها، ما يقرب من شهر، ربما لإدامة المتعة؟ حتى اليوم الذي ألصقت، فيه، فمها بفمه، في نصف ظلمة الدرج، وأدخلت لساناً دافئاً بين شفتيه.

كان عليه، كل مرة، بعد ذلك، أن يبقى مرتعشاً خائفاً من وقوع كوارث، لأنها لم تكن تكلف نفسها عناء إغلاق الباب. وكان يخيل إليه، دائماً، أنه يشهد ظهور السيد دوتيل المطعون في شرفه.

كانت تتفنن، في تنويع المتعة. لم يكن هناك مكان في الشقة لم يمارسا، فيه، الجنس. كان يتفق لها أن تأتي إلى المكتب، في نهاية بعد الظهر، وأن تجره إلى كومة من الكتب في حين كان زوجها الذي كان يسمع صوته، بشكل واضح، في الجانب الآخر من الحاجز، يتحدث مع زائر.

من أجل أن تمضي بصورة أسرع، لم تكن ترتدي سروالاً داخلياً. قادته إلى السينما للاستمتاع بجوار الجمهور، ولا بد أن الجيران كانوا على علم بما يفعلان. ذهبا، أيضاً، إلى غابة بولونيا بسيارة أجرة. في المرة الأولى، تم ذلك في السيارة. في المرة الثانية، غاصا في الأدغال حيث رآهما شخص بالكاد مختبئ.

على الرغم من مخاوفه، كان يصل معها، حالاً، إلى غاياته، بصورة أسهل منها مع جيرمين التي يكاد أن لا يكون الأمر، بالنسبة إليها، متعة والتي كانت تخجل من أدنى تظاهراتها، مبتسمة بشكل أخرق عندما ينتهي ذلك كما لو على سبيل الاعتذار، متعجلة إلى الكلام عن شيء آخر وخاصةً عن أمور عائلية.

هل كان فاسقاً؟ ربما. لم يكن بكل صدق يظن ذلك. من المؤكد أنه كان محتاج إلى شيء غير عادي ليحدث الانطلاق، لكن هذا الشيء كان من الإبهام بحيث لم يكن في مقدوره أن يحدده لو كان قادراً على متابعته على نحوٍ غامض.

فيفيان كانت واهمة. ومع ذلك، كان هناك تعاطف في فضولها، مع شيء قليل جداً من الخوف احتمالاً، شعور كالذي خمنه لدى أخيه في نهاية بعد الظهر. كان يمكن أن يقال أنه أصبح يحيّر الناس فجأة.

وبما أنه كان يستميت وأنها كانت تحس بأنه تعس، مهان، نصحته برقة:

– يجب أن تسترخي لحظة.

ثم، دون أن يخلو ذلك من تبصر:

– أراهن، على أن شيئاً هاماً لديك قد حدث اليوم، على أنك انفعلت انفعالاً عنيفاً. هل أنا واهمة؟

احمر وجهه. كان قد قرأ في رواية أن القتلة، وخاصة الذين يرتكبون، منهم، جرائم دنيئة، الذين يقتلون من أجل المال، يحسون، دائماً تقريباً، بالحاجة إلى أن يذهبوا، بعد ذلك لرؤية المومسات ليسترخوا كما قالت منذ قليل.

كانت تراه، للمرة الأولى، بملابس جديدة، أنيقة، مزدهر الهيئة، ورأت الأوراق المالية في محفظته.

سارَعَ إلى القول:

– زوجتي ماتت.

لم يدهشها أن يفعل رجلٌ ما كان يفعله يوم موت زوجته. ربما رأت آخرين مثله: ربما كان ذلك، أيضاً، مألوفاً. قالت وهي تفكر:

- كنت أشك في أنه شيء من هذا القبيل.

ماذا كان يمكن أن تفكر بصدده؟ بصدد كل الذين رافقوها إلى هذه الغرفة؟ امرأة كالمساعد وبنت مثل أولغا لم تكونا ربما تفكران في شيء. كانتا بهيمتين. فيفيان، من جهتها، كانت لها طريقة أخرى في النظر.

هل كانت تتوقع مكاشفات؟ هذا شائع أيضاً. قرأ عن ذلك. بعضهم لا يتبعون الفتيات إلا كي يريحوا قلوبهم وعقولهم.

بالفعل، ماذا جاء يفعل؟ ساورته حاجة ملحة، فجأة، وهو متكئ على نافذة شارع دولامبر، إلى جانب الغرفة التي كان ابنه نائماً فيها.

- هذا غالباً ما يحدث. لا ينبغي أن يضايقك ذلك..

كان فخذاها عريضين وبيضاوين كما يحبهما. ولم يكن يكاد يجرؤ على النظر إلى المثلث القاتم في أسفل بطنها.

العار! العار دائماً! الآن، وبعد ما قاله راوول، كان يرتاب في أن أمه حجمته عن قصد، ليس لأسباب تتعلق بالأخلاق والفضيلة، كما كان يمكن أن تدعي، بل عن شر، عن كراهية منها للمسرات التي لم تعرفها.

لقد لوثت هذه المسرات، بالنسبة إليهم، سلفاً، ومن شأنه أن يكون اليوم قادراً، كما كان يظن، أن يفعل أي شيء قذر جداً، دنيء جداً، على سبيل الاحتجاج.

- كنت أتساءل، دائماً، عما إذا كنت تأتي من أجلي.

كان يعلم جيداً أنها لاحظته على منضدته.

- أمن أجل زوجتك كنت لا تريد أن تصعد؟

قال نعم، وهو ما لم يكن صحيحاً. لم يكن ذلك بسبب جيرمين. كان هناك، أولاً، سبب عدم وجود المال. لم يكن هذا كافياً، والباقي كان أشد تعقيداً. كيف يمكن أن يشرح لها آلية ضبابه؟

- من السيء الانتظار كل هذا الوقت. أنت تعلم كيف يكون الأمر عندما يكون المرء طفلاً ويعد نفسه بفرح خلال أسابيع.

كان هذا يجعله يفكر في أنها بنت صغيرة، أنها مرت بعمر أوديل، بعمر بوب. وبما أنه كان يكبرها بعشر سنوات على الأقل، فقد كانت لا تزال صبية صغيرة بينما كان رجلاً، ويضاجع ايميه. تابعت قائلة:

– الأمر هو نفسه. هناك عرسان يحدث ذلك لهم ليلة زفافهم.

ومن أجل أن تنهي عبوسه، قالت ضاحكة:

– هل تتصور حالة العروس؟

ابتسم، تحسن الحال.

– أتريد أن نجرب الآن؟

لم يستطع مع ذلك. كان حزيناً عند مغادرته إياها تحت فانوس الشارع، قال متلعثماً:

– اسألك العفو .

– غبي!

– لكن بلى! كنت لطيفة.

عند ذلك، وقد فهمت أن هذا يريحه، أنه كان يحتاج إلى تشجيع قبل أن يعود إلى وحدته، قبلته على خده قائلة:

– لا تخف من العودة.

بسبب هذه البادرة، بسبب صوتها الذي كان يذكر بصوت رونيه، بمزيد من البحة، لم يكن يائساً، بل كئيباً ،فقط وهو يسير في شارع غيتيه حيث كانت معظم الأنوار مطفأة.

وبدلاً من أن يعود عبر الشارع وهو ما كان أكثر شيوعاً، دار عبر شارع مونبارناس، حيث اعترضته نساء أخريات. إحداهن أمسكت بذراعه التي سحبها برفق.

على وجه الإجمال، لم يعط، أبداً فرصته من أجل هذا، كما من أجل كل الباقي. الآن، كان جديداً أكثر مما ينبغي. لم يكن تحوله يعود إلا إلى الأمس، إلى اليوم نفسه.

كان ينبغي، مع ذلك، الاعتقاد بأنه تحولٌ جذري على اعتبار أن الجميع لمسوه. ولمسته، أولاً، رونيه التي كفت، فجأة، عن معاملته كقريب فقير، كغبي لطيف، ثم لمسه ابنه - كان واثقاً من أن بوب أحس بالتحول وكان مسروراً منه - ولمسه، أخيراً، راوول. كان الأمر مضحكاً، تقريباً مع هذا الأخير لأنه بدا عليه أنه لم يعد يفهم شيئاً وبدأ يقلق.

ألن يكون من الطريف أن يبدأ ضمير راوول في تأنيبه؟ هل مضى فرانسوا بأسرع مما ينبغي، أم مضى إلى أبعد مما ينبغي في نظره؟ هل تكلم راوول، في تلك الليلة العتيدة، في الهواء مقتنعاً بأن أقواله كانت تلاقي أذناً صماء؟

ما كان يحيره هو مسألة المال، وكان فرانسوا يعد نفسه بأن لا يعلمه حالاً. ماذا كان يتصور؟ أنه سرق؟ أنه قتل؟

كان ما يزال يرى زبائن على أرصفة المقاهي، في برودة الليل، وفعل فرانسوا ما لم يتفق له أن فعله منذ زمن طويل: جلس في مقهى الكوبول في مقعد خيزران وطلب كأس جعة.

إذا أصبح ذلك ضرورياً، فسوف يستشير اختصاصياً. فهو يكاد أن لا يبلغ الثلاثين، وكان متين البنيان دون أن يكون بديناً، ولم يكن، قط مريضاً حقاً.

بحث في ذاكرته. لم يحدث له ذلك مرة واحدة مع إيميه، في حين غالباً ما كان يتفق له أن يعاود. جاء هذا، جملة، مع سلسلة من ضروب سوء الحظ. كان قد دخل، مؤخراً، في شركة تأمين وتزوج منذ قليل عندما اندلعت الأزمة وخفضت كل المنشآت مستخدميها مبتدئة بآخر الوافدين.

ولد بوب. توفي والد جيرمين وحاول فرانسوا، عبثاً، أن يعيد إطلاق تجارة شارع راسباي.

خسر فيها مالاً فباع المتجر. أكل الانتقال إلى شارع دولامبر ما وفراه، وجرب مهناً مختلفة.

الفقر هو الذي كان يجعله يذهب إلى شارع سيباسوبول، ولم يكن يحس، أبداً، بانجذاب إلى شريكاته اللواتي غالباً ما كن غير نظيفات. أكان ذلك هو السبب؟

لم يكن ينبغي أن يكون متطلّباً في اليوم الأول. كان زوجان جالسان على الطاولة المجاورة يتحدثان بالروسية أو بالبولونية بصوت منخفض كما لو كانا يخشيان أن يفهمهما أحد. وكانت هناك فتاتان جميلتان جداً، ممن يعملن حتماً موديلات للرسامين، وحدهما على طاولة. لم يكن يفكر فيهما، على الرغم من أنه نظر، آلياً، إلى سيقانهما. ولم يكن بسببهما، أيضاً، أنه راح يبتسم كرجل تحرر من عبء ثقيل.

أتى على تذكر رونيه كما رآها، بعد الظهر، جالسة على زاوية الطاولة، في غرفة التدخين وفخذاها يبدوان كأنهما مسحوقان على الخشب الداكن والمصقول. وفجأة جعلته هبة شهوة محرقة يتصلب وأحس بالافتتان نفسه الذي يحس به طفل أمام ألعاب نارية.

أليس غريباً أن تحل رونيه محل السيدة دوتيل التي كانت تشترك معها ببعض السمات والتي يجب أن تكون اليوم عجوزاً؟

كان عليه أن يذهب ليرى زوجة أخيه في دوفيل. لم يكن أخوه مارسيل بعيداً عن أن يذكره، بصورة مبهمة، بالناشر القديم، لكنه كان أقل عامية وبدانة، ولكن بالشعر الأشقر المبعثر نفسه ورخاوة اللحم والمواقف ذاتها.

لم يكن يعلم، بعد، إذا كان سيأخذ معه بوب الذي كان يشتهي كثيراً أن يرى البحر.

لم لا؟ كان يفكر في ذلك. كان عليه أن يفكر كثيراً. ما لم يكن ينبغي أن يفعله، بشكل خاص، هو أن يعطي نفسه الوقت الكافي للإحباط، كما فعل منذ قليل.

أشعل سيجارة ودار يميناً إلى شارع دولامبر. لم يكن هناك نور في بيته. راوول لم يأت. إذا كان قد مر، فإنه، قد ظن أن فرانسوا نائم. لا بد أنه يشرب، الآن، في مكان ما وهو سكران جداً، ولا شك في أنه قد وجد مستمعاً مخبولاً بالكحول ليوجه إليه خطاباته المصحوبة بضحكات ماكرة وناشزة.

راوول أحسن، معه، صنعاً دون أن يريد ذلك. كان رخواً، هو الآخر، على الرغم من مظاهره المتبجحة.

كان خروفاً كما كان يقول عن الآخرين، ومن أجل ذلك كان يثغو بهذه القوة!

لم يكن قد حدد ماذا ينوي أن يفعل.. لم يكن يبدو عليه أنه ينوي العودة إلى المستعمرات. لا بد أن شيئاً ما قد حدث هناك ونفرّه منها، وربما لم يكن شيئاً يسهل الاعتراف به. هل كان معه قليل من المال بعد هذه السنوات؟ هل سيقيم في باريس أم في الضواحي؟

وعد فرانسوا نفسه بأن يتجنب تركه، وحده، كثيراً مع بوب لأنه أحس، منذ قليل، بنوع من التواطؤ بينهما كان لا يسره.

أما بالنسبة إليه، فيحتمل أن لا ينتقل. شارعه بدأ يروق له الآن حين لم يعد خائفاً من نظرات التجار الذين دان لهم، طويلاً، بالمال. لم يكن يشبه أي شارع آخر.

الشوارع الأخرى تمثل، عامةً، محيطاً محدداً يكون المرء، أو لايكون، جزءاً منه. ويتفق، في لحظة معينة أن يلفظك الشارع بعد أن يكون قد وضعك تحت الملاحظة.

هذا الشارع كان صادقاً وملتبساً معاً، غنياً وفقيراً، زهيداً ولامعاً. كان صادقاً بتجاره الصغار ومساكن الموظفين والعمال أو صغار أصحاب الريع، ملتبساً بملاهيه الليلية الثلاثة، بفنادقه التي كانت تشبه ذاك الذي غادره منذ قليل، بقربه من شارع مونبارناس وبقسم من سكانه البوهيمين والفتيات والعارضات وخدم المقاهي والمومسات.

جرى التعرض له، أيضاً، على مسافة خطوتين من بيته وسره ذلك لأن من تعرضت له كانت من نساء البجعة، البار الذي كان يرى، من نافذته، انعكاساته الخبازية اللون.

ربما سيلزمه توظيف خادمة من أجل بوب. لم يخطر له أن يضعه في مدرسة داخلية. ألم يعده - وهذه المرة لم يكذب - بأنهما سيعيشان كأسرة صغيرة؟

كان الغلام نائماً عندما دخل الغرفة على رؤوس أصابعه دون أن يحتاج إلى الإضاءة لأن الشقة كانت تتلقى ما يكفي من ضوء الشارع. البطاقة التي تركها له لم تمس.

قبل ابنه فوق جبينه قبل أن يرقد، وأنّ الغلام وهو يتقلب بكل جسمه على سريره.

ثم، وبدون تمهيد تقريباً، جاء النهار وضجة الشاحنات في الشارع.

كان يشق عليه، الآن، أن يفكر، في أنه لن يعود عليه، قريباً، عندما ستكون لهما خادمة، الالتزام بألف المهمات اليومية الصغيرة التي طالما تذمر منها في سريرته.

كان بوب يتظاهر بالنوم، لكن فرانسوا كان يعلم أنه مستيقظ، وأنه كان، في معظم الوقت، يستيقظ قبله وأنه يراقبه عبر رموشه نصف المغلقة.

المرأة الضخمة، في البيت المقابل، كانت قد باشرت بنفضِ سجاداتها، وبما أن السكان كانوا ينامون والنوافذ والستائر مفتوحة بسبب الحرارة الشديدة، فقد كان ارتداء فرانسوا بنطاله دون أن يُرى، مشكلةً دائماً.

أصدر الغاز الذي أشعله صوتاً، ثم سال الماء من الصنبور في إناء الغلي المصنوع من الألومينيوم، وكل هذه الأصوات كانت أشبه بجنّياتٍ مألوفة. ذهب ليغسل أسنانه ووضع المائدة.

عندما بدأ الماء يغلي، دخل إلى الغرفة، وكان بوب يتظاهر بالخروج من نوم عميق، يظهر هيئة مدهوشة وهو ينظر إلى أبيه الذي راح يربت على خده أو على فخذ مكشوف.

- كم الساعة؟

كان يكفي الانحناء، كانت ساعة السيد باشون هناك، وتشير إلى الثامنة. كانت عربات صغيرة قد وقفت عند حافة الطريق، في حين لم تكن النساء البوابات قد أعدن، بعد، أوعية القمامة إلى داخل المباني.

- هل ستشتري لي بزتي اليوم؟

وفجأة تذكر مسدسه. أمسك به من تحت الوسادة حيث كان قد وضعه قبل أن ينام

- هل جاء العم راوول.؟

- متى؟

- قال أنه ربما أتى ليراك مساء أمس.

- لم يأت.

- هل تعتقد أنه التقى، حقاً، فيلة وأسوداً كما نلتقي كلاباً وقططاً في الشارع؟

ركض ليغتسل، حافي القدمين. كان في الحمّام مغطس من الخزف، من طراز قديم، مرتفع على قوائمه الأربع، ولكنه لا يستخدم كل يوم.

- يفضل أن تستحم يا بوب قبل أن نذهب لتجربة بزات.

غمرت رائحة القهوة الغرف بينما كان فرانسوا يرتب السريرين. لم يضع الأغطية والشراشف على النافذة هذا الصباح. كانا سيخرجان باكراً.

من قبل أن تدخل جيرمين المستشفى، كانت مريضة، واعتاد على تدبير المنزل، لكن المراقبة التي كانت تحيطه بها كانت تفسد، في ذلك الوقت، متعته.

أكلا. وضع بوب مسدسه إلى جانب صحنه.

– لدي خبر جيد أعلن لك عنه يا صغيري، سنذهب، في الأسبوع القادم إلى دوفيل.

– هل سأرى البحر؟ هل سنبقى هناك طويلاً؟

– لا أدري. هذا محتمل.

– هل سنذهب بعد الدفن حالاً؟

– غداته احتمالاً.

– متى الدفن؟

– سأعرف ذلك بعد قليل. العم راوول تولى الأمر. ربما يوم الاثنين.

– هل سنذهب، إذن الثلاثاء؟

– ولكني فكرت في تفصيل. لا تستطيع أن تذهب إلى دوفيل في بزة سوداء.

– أعلم!

– من الصعب علي أن أشتري لك عدة بزات معاً. أود، مثلاً، أن ترتدي بزة رمادية وعمرة سوداء.

– وشريطاً أسود على الكم؟

– إذا أردت.

ذهبا مشياً على الأقدام عبر حديقة اللوكسمبورغ لأن الوقت كان لا يزال مبكراً. وكان يجب أن ينتظرا افتتاح المصارف. كان بوب يمسك بيد أبيه.

عندما دخلا إلى المخزن الذي اشترى منه فرانسوا بزته، كان هناك مستخدم عائد لتوه، ممسكاً بأوراق مالية.

بدوا ودودين جداً، لكنه لم يكن لديهم شيء لبوب. كان عليهما أن يعبرا جسر سان ميشيل ليصلا إلى مخازن الساماريتين.

كان الغلام ذو الحياء الشديد قلقاً من الباب المنفرج في حجرة التجريب الصغيرة، وفي كل مرة كان يمرر إليه، فيها، بنطال جديد، كان يقول:

- أغلق الباب يا بابا!

- إننا نختنق أقسم لك على أنه ليس هناك أحد

- أغلق الباب.

اشترى له، أيضاً، سراويل من النسيج المحبوك الأزرق وقميصين مقلمين كقمصان البحارة.

- هل أستطيع الحصول على عمرة أمريكية؟

أصر على أن يبقى مرتدياً السروال الأزرق والقميص. ثم، منذ أن وصلا إلى شارعهما، سارع إلى بيت صديقه الصغير.

- جئت أسدد حسابي يا سيدة بوساك.

سدد كل الحسابات الأخرى أيضاً! كان ذلك اليوم، السبت. وكان غليان الشارع أشد حدة من المعتاد.

ذهب إلى فندق رين ليرى راوول. كان فندقاً هادئاً وريفياً مع شجيرات نخيل في أصص في الردهة وسيدات عجائز على مقاعد الخيزران.

- تستطيع الصعود. إنه في الرقم ١٤٩.

جاء راوول في قميص النوم، حافي القدمين ليدير المفتاح في القفل وعاد إلى الغوص في سريره.

- كم الساعة؟

- الحادية عشرة والنصف.

- أعطني الزجاجة من على المنضدة.

شرب جرعة من الزجاجة نفسها وفرك طويلاً، عينيه ورأسه. كانت رائحة كريهة تسود الغرفة التي كانت الملابس، فيها، مكومة على الأرض.

سأل راوول:

- ماذا فعلت مساء أمس؟

- نمت.

- أراهن على أنك لم تفعل. وفضلاً عن ذلك، فلهذا السبب لم أمر عليك. إلا أنك أكثر انتماء إلى لوكوان وأكثر انتماء إلى ناي من أن تعترف أنك ذهبتَ إلى مومسٍ. كنت متشوقاً جداً إلى أن تدهش ببزتك الجديدة.

لم يجب بنعم أو لا.

- لا بأس إن كنت قد حصلت على المتعة يا صغيري! بالمناسبة، ربما يجب أن تنتبه إلى ابنك.

- ماذا تعني؟

- لا شيء. ببساطة، إنه أشد ذكاء، أشد حصافة مما تتصور.

- هل حدثك؟

- كلا. لكن الآباء يميلون إلى الاعتقاد بأن أبناءهم أقل تنبهاً من الآخرين. أتريد أن تأخذ سترتي؟ يجب أن تكون على الأرض. فتش في الجيوب، في الجيب الداخلية احتمالاً. سوف تجد أوراق إدارة دفن الموتى. أعطني إياها.

من جديد، شرب من الزجاجة، ولم يتحدث عن طلب طعام إفطار. لا بد أنه لا يأكل صباحاً.

- يجب أن توقع هنا، ثم هنا، وأيضاً هنا. الأفضل أن تمر بمكاتبهم. لقد بدؤوا بعمل اللازم. بصورة تلقائية، أوصيت على مائة ورقة دعوة للمشاركة في جناز ستكون جاهزة ظهراً. فكرت في أن هذا يكفي لأنه لا ينبغي أن يكون لك معارف كثيرون. يكفي أن تعطيهم الأسماء والعناوين وهم يتولون

كل شيء. أما بالنسبة لإعلان الوفاة فقد وضعته في جريدة صباحية وأخرى مسائية فقط.

– والدفن؟

– وصلت إلى ذلك، يبدو انه إذا أردت أن يكون الاجتماع في شارع دولامبر، فمن الضروري جلب الجثمان إلى بيتك صباح يوم الجنازة على أبعد حد. شرحت لهم الوضع وفهموا. إنهم يعرفون هذا كما يعرفون جيوبهم. أتعلم أن هذه مهنة مضحكة؟ بعد ذلك دعوت الشخص إلى كأس وأمضينا أكثر من ساعة معاً.

– تقول أنهم سيأتون بالجثمان إلى شارع دولامبر؟

– لا تخف. في هذه البرهة ستكون في تابوتها. انظر إلى النشرة النموذج رقم ٥، سنديان مدعم بزخارف تقلد الفضة. هذه الأشياء غالية. انتظر! في المستشفى يرتبون الأمور هذا الصباح. سيسلم التابوت حوالي نهاية بعد الظهر، لكنهم لن يغلقوه إلا مساء الغد، بحيث أنه إذا كان هناك من يريد أن يرى جيرمين، فإن الوقت متوفر لذلك. أعطني بنطالي، أو هات، بالأحرى، علبة سجائري من جيبي. بقيت واحدة؟ هل معك كبريت؟

كانت تلك المرة الأولى التي يرى، فيها، فرانسوا أحداً يدخن ويشرب الكونياك من الزجاجة في سريره. راوول، أيضاً، مر بعمر بوب. كان في عمره عندما ولد فرانسوا، وغضب لولادة أخ صغير جديد.

كان، طيلة صغره، نحيلاً جداً، توجد في الألبوم صورة له ببزة صياد، بوجه على شكل زاوية يعلوه شعر أشعث وهيئة عبوس.

عندما بلغ فرانسوا، بدوره، العاشرة من عمره، كان راوول، فعلاً، فتى لا يظهر إلا لفترات قصيرة في مواعيد الوجبات ليتشاجر مع أمه دائماً.

– أهكذا تدع ابنك يتصرف؟

كان أبوه يتدخل كما لو كان آسفاً. ثم علموا، فجأة، أن راوول الذي كان مجازاً في الحقوق ويكرس نفسه للمحاماة وقع عقداً للذهاب إلى المستعمرات دون أن يقول شيئاً من ذلك لأحد.

من أجل ذلك كانت معرفة فرانسوا له على هذا المقدار من السوء. سمع أمه، دائماً، تكرر:

- سيسوء حال أخيك وأنت تسلك دربه نفسه.

قبل أمس، اعترف له راوول قائلاً:

- لماذا تعتقد أني رحلت ما لم يكن ذلك بسببها؟ كنت محبطاً. مللت من كل حقارات البيت. كنت أطمح إلى أشياء عظيمة. كنت مثالياً، يا صغيري، نقياً!

كان يضحك وهو يتكلم هكذا، ضحكته الشريرة.

- أرسلوني إلى بقعة ضائعة في الهند الصينية حيث كدت، بعد بضعة شهور، أن أموت من الحمى.

بعد بضع سنوات، كان في مدغشقر. ومن هناك عاد في عطلة طويلة وتزوج امرأة رفضت أمهما استقبالها. كانت هناك، أيضاً، صورة للزوجين في الألبوم. في ذلك الوقت، كان راوول يوزع، طواعية، صوره. خاصة تلك التي أخذت على خلفية مغرية في بزة استعمارية مع عمرة من الفلين.

- حسناً! إذن، سيدخلونها في صندوقها غداً الأحد... في صباح الاثنين سيأتي الفراشون باكراً، حوالي السابعة والنصف، إلى بيتك، ويرتبون غرفة الطعام. شرحت لهم كيف يبدو المكان. يبدو أن تعليق بضعة سجف وكل ما يلزم يستغرق ساعة. هؤلاء السادة يقدمون كل شيء، بما في ذلك الزهور والماء المقدس. في الساعة الثامنة، يسلم الجثمان، في الساعة التاسعة، تأتي سيارة نقل موتى لتحضره. ففي ساعة، إذن، يستطيع الناس أن يصعدوا ليقدموا احترامهم ثم ينزلوا بعد ذلك للانتظار على الرصيف.

سنذهب، جميعاً، إلى الكنيسة معاً. لا قداس، بل صلاة لمغفرة الخطايا. مع القداس، تقفز، حالاً، طبقتين وهذا يغير السعر.

هل تتابعني؟ لن تكون صلاة مستعجلة، بل احتفالاً لائقاً جداً مع ثلاثة أطفال جوقة وشيء من الموسيقى.

سألوني عن عدد السيارات التي تريدها إلى ايفري لأن كل واحد يمضي، بعد ذلك، في سبيله.

أجبت، دون تفكير، أنك تريد ثلاثاً. هناك مكان لستة أشخاص في مقدمة سيارة نقل الموتى.

الدفع سلفاً. وعدت بأن تمر اليوم، الآن، وإذا كان ذلك لا يزعجك، من الضروري أن أذهب إلى المرحاض. أعلم أن ذلك ليس شاعرياً وأن أمنا لم تكن تحب أن نتحدث عن ذلك. لكني لا أستطيع أن أفعل هذا في سريري.

متى سأراك يا صغيري؟

لا أقول ذلك لأستعجلك، بل، من أجل أن تعلم أني تحت تصرفك.

لم تسنح لي فرصة دفن أية واحدة من زوجتيّ.

وعبر الغرفة وساقاه العاريان يظهران من قميص نومه وشعره النادر ملتصق بجمجمته، السيغار في فمه والزجاجة في يده.

ربما كان يتعمد أن يكون بشعاً ومنفراً، كان هو، في نهاية المطاف، من أتى، في بضع دقائق، على دفن جيرمين.

الباقي لم يعد سوى شكليات.

القسم الثاني

يوما الشانزيليزيه

(١)

كان قد نام لدى فيفيان في تلك الليلة، وهو ما كان يقل حدوثه معه منذ بعض الوقت. استيقظ في الساعة السابعة في شقة شارع برسبورغ، ودون أن يوقظ رفيقته، انسل إلى الحمام.

ربما كان ذلك المكان الوحيد الذي مازال يعطيه، في كل مرة، إحساساً واحداً بالترف، فرحاً طفلياً تقريباً. كانت الشقة القائمة في بيت جديد حديثة جداً، بجدران فاتحة بألوان باستيل. كان الاستوديو مضاء، كمحترف فنان، من خلال نافذة واسعة مزججة.

كان لون الحمام، بما فيه المغطس والأجهزة الصحية، أصفر مذهباً، وكان يحب أن يمضي فيه صباحاً وقتاً طويلاً يعالج الأزرار المصنوعة من الكروم ويبقى طويلاً أمام المرآة المكبرة المزودة بضوء خفيف، التي وضعت ليستطيع أن يحلق بصورة ممتعة.

عندما ارتدى ملابسه، كانت فيفيان لا تزال نائمة. كتب على ورقة كما كان لا يزال يفعل، أحياناً، مع بوب.

«سأهتف لك حوالي الساعة الحادية عشرة. قبلاتي».

كان يعلم أن الفرّاش سيقدم من جديد فاتورته مبكراً. ربما كانت تلك هي المرة العاشرة، لكنه كان يتظاهر بنسيانها.

اختار بزة رمادية فاتحة كتلك التي اشتراها منذ ثلاث سنوات، ولكنها كانت، هذه المرة، مفصلة لدى خياط في جادة هوسمان كان يفصل ثياب معظم الممثلين. لم يسدد للخياط أيضاً، بدوره، كان ذلك دون أهمية.

قبل أن يذهب إلى المرآب لأخذ سيارته، دخل إلى بار صغير في زاوية الشارع كان الناس يسمونه فيه دون كلفة السيد فرانسوا وأكل هلالين مغمسين بقهوة مع الحليب ملقياً نظرة على الجريدة.

كان الجو في الإشراق الذي كان عليه يوم بدأ حياته الجديدة، وكان حي الإيتوال أكثر انغماراً بالنور من شارع دولامبر مع سماء أكثر اتساعاً تئز، فيها، طائرة غير مرئية.

كانت سيارته جديدة. غمره فرح إضافي لرؤيته مستخدم المرآب يأتي بها إلى الرصيف، ثم يجلس، هو نفسه، وراء المقود، فرح ممزوج بخشية مبهمة لم يتوصل، أبداً، إلى تبديدها كلياً، وربما كان ذلك لأنه تعلم القيادة متأخراً، وربما، أيضاً إلى حد ما، بسبب قضية جيانيني.

دار حول قوس النصر، اجتاز شارع فريدلاند، جزئياً، ليصل إلى الشانزيليزيه عبر شارع بيري ويصعدهما من جديد، إلى مكتبه.

هنا، أيضاً، كان البناء جديداً، بناية على الطراز الأمريكي: مد له البواب الذي يرتدي زياً رسمياً بأزرار مفضضة رزمة بريده ودخل إلى المصعد الذي كان عامله يرتدي الزي نفسه.

– سيكون الجو حاراً، أيضاً، يا سيد فرانسوا.

على طول الرواق، كانت تصطف أبواب بزجاج غير مصقول تحمل أرقاماً. كان يقرأ، تحت الأرقام ٦٠٧، ٦٠٩، و٦١١، بحروف سوداء:

«السوط» وعلى أول باب، كانت تقرأ كلمة «خاص».

كان ذلك مكتبه الشخصي. كان، في هذه الساعة، يدخل عبر ٦١١، يسدل الستائر البندقية التي تعطي المكان جواً نيويوركياً جداً، ويجلس، دون أن ينزع قبعته، أمام واحد من المكاتب الفاتحة اللون، أي واحد منها، ويمسك بقاطع ورق ويفض بريده.

لم يكن يترك هذا الأمر لأحد، كان ذلك أحد الأسباب التي كان يحب، من أجلها، أن يكون أول من يصل إلى المكتب، وعندما يتفق أن يتأخر وأن تصعد الآنسة بيرت بالبريد، يكون سيء المزاج طوال الصباح.

كانت هناك، كالعادة، شيكات صغيرة وحوالات بريدية من أجل اشتراكات أو إعلانات صغيرة.

- نهارك سعيد يا سيد فرانسوا.

كانت الآنسة بيرت تسكن بعيداً إلى جانب مقبرة بيرلاشيز في حي ربما لم يذهب إليه مرتين في حياته. كان عليها أن تبدل المترو في محطة «الجمهورية» ثم في الشاتليه، ومع ذلك، كانت تصل، دائماً في الوقت المحدد في النضارة واليقظة والابتسامة نفسها ناشرة، رائحة خزامى وصحة طيبة.

لم يمسها أبداً. كان يعلم أنه لن يصل إلى غايته وأنها يحتمل أن تكتفي بأن تضحك. كانت في الخامسة والثلاثين من عمرها وتسكن مع أمها التي تدير حانوت أعشاب في حي مزدحم بالسكان.

كانت بدينة، بثديين مرتفعين وبداية ذقن مزدوجة، وكانت تذكر بالسكاكر أكثر مما تذكر بالجنس. سألت وهي تتخلص من قبعتها وراء الباب الذي كانت قد علقت عليه مرآة:

- أهناك كثير من المال في البريد؟

كانت تمزح. لم تكن مسائل المال تتوصل إلى التأثير فيها.

- ألم تنس أن الهاتف يهدد بأن يقطع عنا اليوم؟

كان ذلك يسليها. كانت تقوم بترتيبها الصباحي، تضبط آلتها الكاتبة وورقها والكربون والممحاة وتسحب من محفظتها منديلاً مطرزاً وعلبة أقراص.

- هل تخرج هذا الصباح؟

- سأعود قبل الحادية عشرة.

- ماذا يجب أن أقول إن جاء أحد؟

- اجعليه ينتظر.

- أليس لديك ما ترسله إلى المطبعة؟

شارتييه، خادم المكتب الذي كان، في الوقت نفسه، مدير الجريدة المسؤول - بعبارة أخرى، كان هو الذي يذهب إلى السجن إذا وُجِّهت لـ«السوط» لسبب ما أية تهمة - دخل، بدوره، خلسة ومتسللاً بحيث لم يكن أحد أبداً يسمعه عندما يأتي وترتعد الفرائص لدى رؤية المرء إياه قريباً جداً منه. أعلن قائلاً:

- إنه تحت.

- من؟

- شخص البارحة وأول البارحة. افترض أنه شرطي. له هيئة شرطي. هذا ثالث صباح أراه، فيه، في الرواق. ويكون متواجداً مساء، أيضاً، عندما أخرج. أراهن على أنه هنا لأجلنا.

رد فرانسوا دون أن يتأثر:

- هناك، بالضبط اثنتان وتسعون شركة في البناية.

- ربما لا يوجد كثيرون من نوعنا يا معلم. لو كنت مكانك لانتبهت. إذا كان شرطياً فلا بأس. أما إذا اتفق له أن لا يكون كذلك، فربما حدثت لك المغامرة التي حصلت لك في مقهى فوكيه.

لم تكن ذكرى لطيفة. جرى ذلك في بداية الخريف السابق، في ليلة فاترة، حين كان رصيف فوكيه، عند زاوية الشانزيليزيه وشارع جورج الخامس مليئاً بالجمهور الأنيق العائد من التسوُّق.

كان فرانسوا قد ضرب موعداً لفيفيان كما كان يحدث غالباً، وكانت ترتدي طقماً جميلاً من الحرير الداكن اللون وقبعة مرفوعة من أمام كانت تناسبها جيداً. كان النادل قد أحضر لها كأس كوكتيل، ولفرانسوا كأساً من الجعة عندما أصبح، في برهة غير متوقعة بالمرة، مركز تدافع.

جرى ذلك بقدر من السرعة كاد أن لا ينتبه، معه، إلى ما حدث. كادت المنضدة أن تنقلب. تحطمت كأسه وأغرقت بنطاله بالجعة. كان رجلان يقفان أمامه ويحجبان عنه الرؤية، ودون أن يكون قد فتح فمه، قال أحدهما كما لو أنه تلقّى شتيمةً للتو:

- ماذا تقول؟ ماذا تقول؟ تجرأ على تكراره....

كان الكلام موجهاً إلى فرانسوا، ودون أن يستطيع النهوض عن كرسيه، تلقى لكمة في وسط وجهه تماماً. رأى، بصورة مبهمة، الزبائن يقفون. سمع صراخ امرأة لم تكن فيفيان. راح الرجلان يقدمان، وسط جمعٍ مشوِّش، شروحاً لم يكن يسمعها، وقبل وصول شرطي، ابتعدا في سيارة كانت تنتظرهما عند حافة الرصيف.

رفض أن يتقدم بشكوى لأنه كان يعرف من أين أتت الضربة. منذ ذلك الحين بات يأخذ حذره، وكان هناك، في باريس، عدد من الأمكنة عني بتجنبها، خاصة بعد هبوط الليل. في بعض الأحيان، لم يكن يخجل من الحصول على مرافقة.

لم يكن شارتييه بقصته عن الرجل المغروس في الردهة، يعلمه بشيء. كان يعلم أنه مراقب، وأنهم كانوا يهتمون اهتماماً قوياً بالناس الذين يأتون لرؤيته في المكتب. أما بالنسبة للتهديد بقطع الهاتف، فقد كان أكثر إضحاكاً. في خاتمة المطاف، فإن موظفي التنصت الذين كانوا يسجلون محادثاته بصبر سيكونون أشد الجميع خيبة.

أساساً، سيحصل على مال في الساعة الحادية عشرة. راوول سيأتي به. إذا لم ينجح راوول، فسيعرف كيف يحصل على مال. كان يجد، دائماً، في آخر لحظة.

في الأسفل، نظر إلى الرجل الذي كان يتظاهر، وهو جالس على مقعد تجاه المصعد، بأنه مستغرق في قراءة جريدة. منح نفسه متعة المشي نحوه كما لو كان ذلك ليتحدث إليه وعدم الوقوف إلا على مسافة متر منه.

بعد ربع ساعة وراء مقعد سيارته، مر بشارع راسباي الواقع على مسافة خطوتين من بيته، ورأى حانوت والد جيرمين القديم. ثم جاء أسد بلفور، حيث انعطف يساراً، في حي كئيب شعر بأنه غريب فيه، ووصل أخيراً إلى حي باب ايطاليا.

خلال ثلاث سنوات، لم يذهب سوى مرتين إلى المقبرة الأولى مع بوب عند وضع الشاهد الحجري على القبر، بعد دوفيل بقليل. كان الشاهد بسيطاً، ينم عن ذوق. تأثر قليلاً برؤية كنيته منقوشةً حديثاً في مقبرة، تُلاصق اسم زوجته الأول. وكانت المرة الثانية في يوم الأموات من السنة نفسها.

اليوم، انقضت ثلاث سنوات بالضبط على وفاة جيرمين، وقد تذكر ذلك أمس. لهذا السبب، فضل أن يقضي الليلة لدى فيفيان التي لم يقل لها شيئاً.

هل فكرت في هذا أيضاً؟ هذا محتمل. ربما خمنت أنه ذهب إلى المقبرة لأنها كانت موهوبة في حدس كل شيء، وخاصة الأشياء المزعجة.

لن تتحدث عن ذلك. على العكس من أمه وجيرمين، لم يكن يبدو عليها، أبداً، أنها كانت تعلم.

كان هو، المرتبك، الذي يسّمع لها، دون أن تسأله عن شيء، وينتهي بأن يعترف لها.

قال راوول مرة:

– النساء يتدبرن أمورهن لمعاملتنا، طيلة حياتنا، كصبيان صغار، ولكي يتركْن لدينا، دائماً، الانطباع بأننا مذنبون.

اشترى زهوراً عند البوابة حيث لم يكن يوجد إلا الأقحوان. بحث الحارس في دفاتره وأعطاه إرشادات ليجد القبر في حي لم يعد الحي الجديد. كان الأمر يتم سريعاً في ايفري. إلا أن المقبرة كانت تحافظ على مظهر صافٍ ونظيف، كالبيوت الحديثة. لم يكن الأمر مَهيباً بالمرة، وكان من الصعب أن يشعر المرء هناك بأنه حزين.

كانت طائرات ضخمة تقلع، باستمرار، من مطار أورلي. صادف عربات نقل موتى كانت مثل باصات يسافر، فيها، الميت مع الأحياء لآخر مرة. عد المماشي وتعرف، أخيراً، على الشاهد وأحس بالغرابة عندما رأى في أسفله باقة ورود نضرة.

أتي بهذه الزهور في الصباح المبكر. أحدهم تذكر أن جيرمين كانت تحب الورود الضخمة ذات العطر العنيف، المبتذل قليلاً، من تلك التي لا توجد لدى باعة الزهور، بل في الباقات الريفية وفي عربات الطريق الصغيرة.

يحتمل أن تكون قد اشتريت من عربة صغيرة في شارع دولامبر.

جاء بوب قبل أن يذهب إلى المدرسة. ربما وصل إلى مدرسة ستانيسلاس متأخراً. هل سيقول لماذا تأخر أم سيعطي عذراً آخر؟ يجب أن يكون قد نهض مبكراً جداً وركب الباص، وربما يكون فرانسوا قد صادفه في الطريق.

في هذه الحالة، هل رأى أباه؟ هذا الأخير كان مضطرباً لاكتشافه، حزيناً ومحبطاً.

في البداية، خلال السنة الأولى كان يتفق لبوب أن يتحدث عن أمه دون أن يلح، كما لو كان ذلك سهواً.

- أتعتقد أن ماما كانت لتحب بزتي؟

أو:

- في حياة ماما، كنت لا أريد أن آكل السبانخ. هل تذكر؟ كنت أدعي أنها تشبه روث البقر.

كان الشاهد على القبر قد أثر في الغلام، وفي ذلك المساء، سمعه فرانسوا يبكي في سريره: في الليل، رأى بوب كابوساً، انتصب في سريره صارخاً، تائه العينين.

- لا يا بابا، لا، أنت ترى جيداً إني ميت! نحن، كلنا، أموات يا بابا! أقسم لك على ذلك.

في عيد جميع القديسين، احتفل بمعطف جديد.

ومنذ ذلك الحين، وفرانسوا يحاول عبثاً تذكُّرَ مناسبة تحدث فيها الطفل عن أمه.

كانا صديقين جيدين، صديقين جيدين جداً. كان بوب يروي له قصصه في المدرسة وقصص رفاقه، وهي في الغالب قصص يميل الصبيان إلى كتمانها عن ذويهم.

هل حمل، في السنة الماضية، أيضاً، ورودا إلى المقبرة؟

اكتفى فرانسوا بشراء زهور من جوار السياج، وكاد يأتي فارغ اليدين، لم يكن يفكر أبداً في هذه التفاصيل، وكانت أمه تأخذ عليه، عندما كان غلاماً، نسيانه أن يهنئها بعيدها.

بل إنه لم يكن يعلم بالضبط لماذا جاء. ربما كان أنانياً، ربما كان ذلك بسبب دوفيل.

ذلك أنه لم تكن ذكرى وفاة جيرمين فقط. قبل ثلاث سنوات، في هذا التاريخ، اشترى أول بزة صوفية ممزّعة(*)، ثم اشترى، غداة الدفن، سيارة ميشلين كانت تبدو جديدة تماماً وكانت تنزلق دون صوت، بسرعة باعثة على الدوار، عبر الريف. وحملتهما، هو وبوب إلى دوفيل.

– هل سبق لك، يا بابا، أن كنت في دوفيل؟

– مرة واحدة.

– مع ماما؟

– كانت تلك رحلة شهر العسل.

في نيسان. إذا كان الجو قد تحسن في باريس، وكانت أشجار تفاح النورماندي قد أزهرت في ذلك الشهر، فقد وجدا البرد والزوابع والمطر على الساحل، وكان البحر رمادياً وسخاً ومتلاطم الأمواج.

أصر على السباحة على الرغم من كل شيء لأن السباحة كانت الرياضة الوحيدة التي مارسها كما يليق. كانا وحيدين، تماماً، على الشاطئ الذي بدت قمراته مهجورة، مفتوحة الأبواب وغزاها الرمل ونباتات البحر.

(*) من قماش صوفي متين بلونين متعاقبين

كانت جيرمين ترتدي كنزة زرقاء باهتة كانت قد حاكتها وكانت تحس بالبرد. كان يراها، من جديد، واقفة على ساق، حيناً، وعلى الأخرى حيناً آخر مثل مالك الحزين، بشعرها الذي كانت الريح تطيّره حول وجهها.

كانت ترقبه خائفة، في حين كان يجتاز الأمواج الضخمة ويضرب بضع ضربات في الماء الجليدي.

أنت أزرق يا فرانسوا! ارتد ثيابك بسرعة!

تذكر أنهما شربا قهوة مروية بالكحول. لحسن الحظ كانت هناك دار سينما في الجانب الآخر من الجسر، في تروفيل ومطعم صغير يفتح أبوابه كل السنة يؤكل فيه القريدس والكركند.

يا له من فرق بين ذاك وحلولهما المنتصر، هو وبوب، في أوج الموسم حين لا يرى منذ المحطة سوى المشهد الباهر لفساتين متعددة الألوان وبزات فاتحة. وكانت سيارات فارهة تنزلق على طول الطريق في موكب مرح.

كان ذلك من العنف بحيث تصاعدت الدموع إلى عيني فرانسوا واضطر أن يشيح بوجهه، في حين كان بوب يسأل عما إذا كانا سيذهبان إلى البحر حالاً.

كانت صواري المراكب التي ترى من فوق السقوف النورماندية تجعله في حالة غليان. كانا، كلاهما، حسني اللباس. كان مع فرانسوا مال في جيبه وحقيبة جديدة ذات لون بني فاتح جميل وعليها بطاقة باسمه.

لم يعد عليه أن يمر مشيحاً بوجهه أمام السيدة بوساك. كان قد سدد ديونه للخباز والبقال وحتى اللحام وكان الجميع يبتسمون له ودياً.

انتهى الأمر! خرج من النفق. صبر طويلاً. صمد سنوات كثيرة وهو يعذّب نفسه، يحني هامه، يكتب رسائل كانت لا تزال تترك مذاقاً مراً في حنجرته.

في الحقيقة، كان يأمل دون أن يصدق. وها هو الأمر يحدث، مع ذلك، بين عشية وضحاها، مصادفة تقريباً.

كان على البحر. لم يكونا، هو وبوب، يحتاجان إلى النزول في فندق فاخر. ففي تروفيل، تجاه مرفأ مراكب الصيد، على بعد خطوتين من حوض

اليخوت والمسبح، اكتشفا فندقاً صغيراً أبيض تماماً، مع زهور جيرانيوم في كل مكان، وكان صاحبه مرحاً، يعتمر طاقية الطهاة البيضاء، وبدت صاحبته ظريفة وحنوناً.

هتفت، وهي تنحني على الغلام:

- من المؤكد أننا سنجد غرفة لهذا الفتى.

ولأنها رأت الشريط الأسود الذي كان على ذراعه، ابتسمت، من وراء ظهره، لفرانسوا ابتسامة مشفقة.

فيما بعد، حين أصبحا وحيدين سألته:

- متى حدث ذلك؟

أخذت الطفل تحت حمايتها، كانت تعتني به، تدلله.

- تستطيع أن تمضي، دون خوف، إلى أعمالك يا سيد فرانسوا. دعه لي نحن صديقان جيدان، أليس كذلك يا بوب؟

كانوا ألوفاً، ألوفاً من الناس الذين يعيشون هكذا، دائماً، وليس من أمس أو أول أمس، في رضى أبدي.

من أجل هؤلاء، من أجل هذا الحشد الذي يمر ويعود من تروفيل إلى دوفيل، يقفز إلى الأمواج، يأخذ حمامات شمس وكؤوس كوكتيل، يهرع إلى سباق الخيل أو إلى الكازينو أو، أيضاً، يهيم على وجهه حول اليخوت، بالنسبة لمعظم هؤلاء، إن لم يكن بالنسبة لجميعهم، كانت هذه عطلة تذكر بعطلة أخرى تليها عطل أيضاً.

بالنسبة لفرانسوا، كانت عطلة حياته. كانت الخلاص، كانت معجزة، واتفق له، في الأيام الأولى، أن يكون ندي العينين.

- هل البحر جميل يا بوب؟

- أوه! نعم يا بابا.

- هل تحب أن تكون عليه؟

- في مركب؟

لم يكن بوب، كذلك، يصدق عينيه ولا أذنيه، ومع ذلك، ومع ذلك أبحر فيه، بل إنهما ساعدا في سحب الشباك بعيداً عن الشاطئ الذي لم يعد يرى إلا في نوع من الضباب، على متن مركب صيد كان يقل سياحاً.

- هل سأرى ابنتي عمي؟

- لا أعلم.

ربما كان الغلام المسكين يتخيل أنه سوف يدهشهما بقصة رحلة صيده. لم يكن قد رآهما سوى مرة واحدة، بمناسبة المناولة الأولى للصغرى.

كان مارسيل وزوجته قد اشتريا فيلا في منتصف الطريق إلى الهضبة على درب لم يكن يؤدي إلى أي مكان ويشبه، بالأحرى، بصفه المزدوج من الأشجار الكبيرة، ممشى في حديقة. لم يكن هناك حولها سوى ملكيات كبيرة لا يرى منها إلا سقوف في الخضرة. كان يرى، أحياناً، سائق يلمع سيارة.

ذهب فرانسوا، تاركاً بوب في الفندق، إلى هناك في سيارة أجرة. لم يكن يفكر، بعد، أنه ستكون له، يوماً، سيارته الخاصة. في الحديقة التي تدور فيها نوافير مياه ببطء، صادف ابنتي أخيه اللتين لم تتعرفا عليه واللتين كانتا تلعبان تحت إشراف معلمتهما.

لم يكن، بالنسبة إليهما، إلا سيداً جاء في زيارة، أو ربما مورّداً. لم تكونا تستطيعان التخمين بأنه سيصبح، ذات يوم، عشيق أمهما. هل ستعرفان ذلك قط؟

- السيد لوكوان في مكتبه. هل لديك موعد؟ لا أدري إذا كان سيستطيع أن يستقبلك لأنه مشغول جداً هذا الصباح.

- قل له إن شقيقه هنا.

- حسناً يا سيدي.

- شقيقه فرانسوا.

- نعم سيدي.

كان الخادم يرتدي صدارة مقلمة كما في المسرحيات وفي قصور ضاحية سان جيرمان. كان يرى، في الطابق الأرضي للفيلا، تتابع من ثلاثة صالونات وسلم عريض جداً ينتهي في الردهة.

لم يُدع للصعود. مارسيل هو الذي نزل في أعقاب الخادم. لا بد من أنه قرر أن يكون ودّياً لأنه ابتسم ابتسامة خفيفة وهو يمد يده.

مع ذلك، بدا متعباً، مهموماً. كان، يرتدي بنطالاً فاتحاً وسترة يخت وربطة عنق بألوان أحد النوادي.

لا شك في أنه كانت له، مع رونيه، محادثة طويلة بصدده. ماذا قالت له زوجته بالضبط؟

- أتريد أن تشرب شيئاً؟

- شكراً.

كانت الساعة تشير إلى الحادية عشرة والنصف صباحاً. كان، هو وبوب، قد وصلا في العشية. تناول فرانسوا، في إفطاره، القريدس الذي كان لا يزال حاراً تماماً وشرب كأساً من النبيذ الأبيض. أما بوب، فقد تركه في المطبخ يساعد في فرط البازلاء.

- أتريد أن نتحدث خارجاً؟

من السلم الخارجي، لمح مارسيل التاكسي من خلال أوراق الأشجار وقطب حاجبيه:

- لا داع للاحتفاظ بالسيارة. سأجعل سائقي يصحبك.

وعندما عاد أخوه من ذهابه لدفع أجرة السيارة، قال:

- أين نزلت؟

- في فندق عند المرفأ، في تروفيل. أعتقد، فضلاً عن ذلك، أنه يدعى، ببساطة تامة، فندق المرفأ، إنه نظيف جداً، مرح جداً وطعامه جيد جداً.

- أ أنت وحدك؟

- ابني يرافقني.

ما كانت تقلق مارسيل معرفته هو ما إذا كان أخوه يعتقد أن الأمر قد حصل، ما إذا كان قد انطلق في الحماقات. وربما كان يتساءل أيضاً عما إذا كان ينوي البقاء طويلاً في دوفيل.

كان يدور حول الموضوع، وفي هذه الحالة لم يكن يرى، أبداً، إلا جانبياً: ذلك كان طبعه دائماً.

ربما كان هذا هو السبب الذي كان، من أجله، يتفاهم جيداً مع أمهم: «حاولوا، فقط، أن تكونوا في حسن تربية مارسيل!».

وهذا ما لم يكن يمنع الأخير من أن يتمتم وراء ظهرها، عندما يكون متأكداً من عدم سماعها إياه: «العجوز المجنونة» أو حتى «الساحرة العجوز».

انتهى وهو يسير في الممشى المقابل للذي كانت تلعب، فيه ابنتاه، إلى القول:

– بالطبع، حدثتني رونيه منذ عودتها من باريس، كانت مصادفة أن تلتقيا لأنها كادت أن لا تمر برصيف مالاكيه.

– أعتقد أننا، زوجتك وأنا، قد اتفقنا إلى حد كاف.

الآن، بعد ثلاث سنوات، كان مفتوناً بتبينه إلى أي حد كان حذراً وبارعاً، في حين كان يبدأ حياته الجديدة، منذ قليل، ولم يكن، إن صح القول، يعرف شيئاً. كان يتفق له أن يسأل نفسه من أين جاءته مثل هذه الثقة بالنفس.

ذلك أنه كان هادئاً، دون غطرسة، على الرغم من أنه كان يوحي بأنه يجب، من الآن فصاعداً، أن يحسب له حساب وبأنه لم يكن هناك، هذه المرة، لاقتراض مبالغ صغيرة أو استجداء مساعدة.

ربما كان مارسيل سيلاحظ لو نظر عن كثب بدلاً من إظهار بروفيله بعناد، أن شفتي أخيه كلتا، طوال الوقت الذي استغرقته المحادثة ترتعشان ارتعاشة خفيفة.

– ربما تعرف بأن لدي جريدة.

– وأعلم، أيضاً، أن اسمها هو «صدى سان جيرمان دي بريه» وقرأت أول عددين.

– بوسوس الذي وضعته على رأسها قد لا يكون نسراً، لكنه صحفي محترف قديم. هنئت له أمس بصددك.

- آه.

- أنت تعلم أن هذه صحف انتخابية تهمل لدى انتهاء الانتخابات. هذا لا يستدعي عملاً مجنوناً، خاصة من حيث التحرير.

لم يحرك ساكناً، وأثار صمته أعصاب مارسيل.

- إلا أن بوسوس سوف يسرّه أن تقدم له عوناً.

إنه يفترض أنك ستكتب أخباراً، وربما بضعة مقالات. ألا تنوي التوقيع عليها؟

- بالتأكيد لا.

- أعتقد أن ذلك أفضل. يجب أن لا ننسى أنك أخي وأننا نحمل الاسم نفسه.

- فكرت في ذلك. ومن أجل هذا بالضبط أظن أننا يجب أن نتصرف بطريقة أخرى.

- ماذا تعني؟

- أن الجمهور سيعرف، حتماً، أني أخوك وأني أعمل في الجريدة. أنت رجل غني جداً، مشهور جداً. أنا لا أقلل من قيمة بوسوس الذي لا أعرفه بعد، لكنه ليس، بعد كل شيء، سوى صحفي من الدرجة الثالثة. يمكن أن يبدو غريباً أن يعمل أخوك تحت إمرته.

- لا أرى كيف نفعل خلاف ذلك.

- يجب أن تكون رونيه قد أخبرتك أن المعروض علي، في مكان آخر، هو منصب مدير وأني لم أرفض بعد. هناك، ستكون لي مزية إنشاء الجريدة، بكاملها، حسب فكرتي الخاصة. أعطيت حرية التصرف.

- لن يقبل بوسوس الاعتداء على صلاحياته.

- حسب مانشيت الجريدة، هو يحمل لقب رئيس تحرير، وما رأيت ذكراً لمدير.

- المدير، في الواقع، هو أنا...

– حسناً! إني أعفيك من هذه المهمة، وذلك مع بقائك تعطي التوجيهات ومع التزامي بعدم الإقدام على شيء دون استشارتك. أنا مقتنع بأن هذا ما فهمته رونيه.

– هل دخلتما، أنتما الاثنان، في هذه التفاصيل؟

كان هذا معنى التسليم بأنها لم تكن تقول له كل شيء.

– ربما لم يكن ذلك بهذه الصراحة. أنوي أن أحدثها عن ذلك اليوم.

– ليس هذا ضرورياً. لرونيه حياة اجتماعية تستغرقها، يجب أن تكون، في هذه البرهة على الشاطئ، ولا انتظرها على الغداء. يجب أن ألقاها، بعد ظهر اليوم، في السباق، وهذا المساء...

– أنوي بالضبط أن أذهب إلى السباق.

ربح الجولة دون أن يكون عليه، مرة واحدة، أن يغضب، أن يهدد. ذهب إلى السباق. كانت في الكازينو، حفلة ماتينيه للأطفال وأخذ بوب إليها. كانت تلك المرة الأولى في حياته التي يضع فيها قدميه في حلبة سباق. كان الاجتماع باهراً. ومن أجل الالتقاء بأخيه وزوجته، أخذ بطاقة موزن(*).

أثاره ذلك كثيراً. لم يكن يفهم، بعد، روحات الجمهور وغدواته، ولكنه عثر، حالاً، على المنصة التي كان المشهورون يعرضون أنفسهم عليها، وحيث كان معظم الرجال يعتمرون قبعات عالية رمادية فاتحة مثل تلك التي لم تعد ترى إلا على النقوش.

مر قرب الآغا خان الذي عرفه من صور الصحف، وكان يستطيع أن يلمسه. رأى فنانين مشهورين وعرف أن السيد العجوز الذي كان يربت على منظاره، متكئاً على حافة المنصة، كان البارون روتشيلد.

لم يلعب لأنه لم يكن يعرف، بعد، آلية الرهان. لم يكن يفهم شيئاً حول الأرقام التي كانت تتغير، باستمرار، على لوحة كبيرة، ولا حول الصرخات التي كان يطلقها أشخاص يبيعون أوراقاً صفراء صغيرة.

(*) موَزّن: مكان وزن راكبي الخيل في ميدان السباق

أمام كوة لرهانات الألف فرنك وجد رونيه التي كانت تعتمر قبعة بحواف عريضة في خفة وشفافية جناحي يعسوب.

كانت جميلة وكانت تعلم ذلك. كانت سوارات لامعة تثقل ذراعيها. كان مارسيل أبعد قليلاً، يثرثر، تحت شجرة، مع رجل ضخم جداً بوجه دموي.

– نهارك سعيد يا فرانسوا.

قبل يدها. لم يكن يعرف بعد أن يد المرأة لا تقبل في الهواء الطلق. ربما لم تكن ابنة الدرلان العجوز تعرف ذلك بدورها لأنها بدت مسرورة.

– قال لي مارسيل، منذ قليل، أنه رآك هذا الصباح. نحن مشغولان، هنا، إلى حد يتفق لنا، معه، أن نلتقي كالغرباء. هل جربت حظك؟

أجاب دون تفكير:

– لست مقامراً.

– أنا مقامرة بشكل رهيب. ألم تلعب أبداً في السباق؟ ولا مرة؟ في هذه الحالة، قل رقماً بين واحد وأحد عشر.

– سبعة!

– لا فرصة له. الرهان عليه ثلاثون ضد واحد. مع ذلك سألعب عليه. يقال أن هذا يجلب الحظ.

لم يربح الحصان، بل لم يأت بين المراكز الثلاثة الأولى. رأى زوجة أخيه، ثانية أمام الكوة، لكن زوجها كان يصحبها ويكلمها بصوت منخفض.

– تعال لشرب كأس في البيت، حوالي السادسة غداً. سنكون هناك. يندر جداً أن نكون حرين!

أخذت قيادة العمليات. في اليوم التالي، حاول مارسيل، عبوساً، أن يلجم، أن يبدي اعتراضات، ولكن بلا جدوى.

– دعني أسوي الأمر مع أخيك، هل تسمح؟ فرانسوا مصيب. بدأت أعتقد أن لديه أكثر مما تتخيل بكثير من الأفكار. لا تلق بالاً يا فرانسوا. إنه محبط جداً في هذه البرهة. خصومه يجعلون المعركة قاسية.

– خاصة جيانيني.

– خاصة جيانيني، نعم! لا يفيد أن نخفي عنك ذلك ما دمت تعرف.

جيانيني، من جهته، كان، حتى هذه الساعة، يجهل حتى وجود شخص يدعى فرانسوا لوكوان الذي اقتصر أمره على المرور، مرتين أوثلاثاً، أمام منشآته، مختلطاً بالجمهور، وسيتشبث به بصلابة شديدة.

مضى على ذلك ثلاث سنوات، والجولة لم تنته بعد.

كان المرور من شوارع باريس أشد كثافة، واضطر فرانسوا إلى التوقف عند عدة مفترقات طرق. وجد مشقة في صف سيارته في الشانزيليزيه. كان الشخص لا يزال في ردهة البناية متظاهراً بالاستغراق في تأمل اللوحة التي تعلن أرقام المكاتب.

لم يكن فرانسوا يدخل، أثناء النهار، أبداً، عبر الرقم ٦٠٩ ولا عبر الرقم ٦١١، لأنه كان يمكن أن يكون، فيهما، أشخاص لا يرغب في مصادفتهم.

مر، دون ضجة، أمام البابين، بصمت، مرور شارتييه الذي كانت له، بجسمه النحيل وكتفيه المتهدلين ووجهه المنحرف، هيئة جوال من مينيلمونتان.

دس المفتاح في القفل، أعاد إغلاق الباب، بسرعة، وراءه وارتعدت فرائصه لدى رؤيته شخصاً في مكتبه.

لم يكن هذا سوى راوول الجالس على مقعده دون سترة، على عادته، مشغولاً بصب كأس صغيرة له.

لم يستطع فرانسوا أن يمنع وجود زجاجة دائماً في مكان ما، في خزانة أو في مصنف، وكان راوول، بسبب شارتييه الذي لم يكن يكره هذا، بدوره، يتفنن في إيجاد مخابئ جديدة دائماً.

لماذا كان ينظر إليه هكذا، بعينين زرقاوين، كعادته، ولكن ذلك بنظرة ثاقبة؟

لم يكن يختبئ ليشرب. لم يتنازل عن مكانه حالاً، على الرغم من أنه لم يكن إلا موظفاً.

– هل ذهبت إلى المقبرة؟

– أهي فيفيان التي أخبرتك بذلك؟

– لم أر فيفيان. بالمناسبة، أعتقد أنها هتفت وهي تطلب أن تهتف لها.

سحب محفظته من جيب المسدس حيث اعتاد وضعها، وألقى على الطاولة برزمة أوراق مالية.

قال باقتضاب:

– لقد دفع.

نهض أخيراً، اتجه نحو الباب الموصل إلى المكتب المجاور.

– هناك أربعة أو خمسة مزعجين ينتظرونك. قلت لهم أنك لن تأتي هذا الصباح، لكنهم لا يتحركون.

ثم قال ويده على مقبض الباب:

– بوسوس، أيضاً، يريد أن يتحدث إليك. إنه في المطبعة. أعتقد أن الأمور لا تجري على ما يرام.

كان هناك، دائماً، مشكلة أو أخرى، وكان هو، فرانسوا، وحده، الذي يجب أن يتدبر الأمر.

كم كان على كاهله من أناس لا يعرفون إلا الشكوى: «هناك شيء لا يسير على ما يرام» أو «يلزم مال من أجل.......».

المال دائماً! وكان يجد مالاً لهم جميعاً، لراوول، لبوسوس، للآنسة بيرت ولشارتييه، لكل هؤلاء الأغبياء والعجائز الفاشلين الذين كانوا يحملون أنباءً أو رسومات.

– آلو! آنسة بيرت أعطيني شارع برسبورغ من فضلك.

– هل أستطيع أن آتي لأتحدث إليك بعد ذلك؟

– لدي المال، اطمئني. تستطيعين أن تأتي. لن يقطعوا علينا الهاتف اليوم.

(٢)

- أهذا أنت يا فردينان؟

كان فردينان بوسوس يمضي يوم الاثنين بطوله وقسماً من يوم الثلاثاء في المطبعة المركزية، قريباً من البورصة لإخراج الجريدة.

- إذا لم تكن مشغولاً جداً، يا معلم، أعتقد أنك تحسن صنعاً إذا جئت لتراني. لا أستطيع أن أترك طاولة الصفحات.

- أهناك شيء بشع؟

- ليس بالضرورة. الأمر يدور حول واقعة جرت في المطبعة هذا الصباح، قبل وصولي. يجب أن تحاول القدوم إلى هنا.

- هل لديك نصف ساعة لتتغدى معي؟

- إذا لم تكن سوى نصف ساعة، نعم.

كان بوسوس يكتفي، أيام الإخراج، في معظم الأحيان، بسندويشات يأكلها في أحد المكاتب المزججة التي كانت المطبعة تضعها تحت تصرُّف رؤساء ومدراء التحرير.

أرغم فرانسوا على أن يهتف ثانية لشارع برسبورغ لأنه كان قد وعد فيفيان بالمرور لأخذها للغداء.

- سأراك في السهرة، لا أدري بعد متى. يحتاجون إليّ في ميدان البورصة.

كان راوول ينتظر وراءه وفي يده ورقة.

- ما هذا؟

اقرأ.

كان ذلك نبأ حول بعض أنواع الشذوذ الجنسي لصناعي كبير من الشمال كان يأتي ليمضي يومين أو ثلاثة ، في باريس، كل أسبوع. سأل راوول:

– هل ننشر هذا؟

– بصورة أكثر إبهاماً دون الأحرف الأولى من الاسم. هذا يمكن أن يفيد دائماً، هل أنت مشغول؟ أتتغدى معي؟

– ما زال لدي خمسة أشخاص ينتظرون دعني أعد الورقة. إذا كنت ذاهباً إلى المطبعة فخذها معك إلى بوسوس. لدي اثنان أو ثلاثة أخرى، على مكتبي، يمكن أن تسد ثغرة.

– هل أراك بعد الظهر؟

– هذا محتمل. إذا لم أكن هنا، فأنت تعلم أين تجدني.

لم يكن راوول يستغل كونه أخاه. بل إنه تبنى، حيال فرانسوا، موقفاً مختلفاً إلى حد كافٍ. بدأ ذلك لعبة. أخذ يسميه، أمام الناس، المعلم.

وشيئاً فشيئاً تعود ذلك، وإذا كان يمزجه بشيء من السخرية، فقد كان من المستحيل ملاحظة ذلك.

في الحقيقة، كانت المهنة تسليه. كانت لديه، الآن، وهو الذي كان يحب كثيراً أن يرغي ويزبد ضد الناس وأن يكتشف أسباباً جديدة لاحتقارهم، كانت لديه، الآن، الفرصة ليفعل ذلك من الصباح إلى المساء، وكان يستطيع أن يغوص في القذارة على هواه.

ربما بقي فضوله حياً حول التطور الذي حققه فرانسوا وكان يصر أن يبقى، حتى النهاية، مطلعاً عن كثب على ما يجري.

عندما صدر العدد الأول من «السوط» سأل مرتاباً:

– أتعتقد أنه سيصدر كثير منها؟

كانت أسبوعية، واحتفلوا، في الشهر السابق بالعدد المائة منها.

كان كل شيء يجري بشكل جيد بينهما. لم تقع بينهما أية مشاجرة. ربما كان راوول هو الأشد ارتياحاً بين الاثنين على الرغم من أنه واصلَ النظر إلى أخيه في كل مرة بهيئةٍ من يطرح سؤالاً.

حدث ذلك بصورة غير متوقعة. بعد موت جيرمين مباشرة، لم يبق فرانسوا سوى أربعة أيام في دوفيل التي قرر أن يعود إليها كل يوم سبت، خلال العطلة، كالأزواج، تاركاً بوب برعاية صاحبة الفندق، السيدة فرينيو.

لدى عودته إلى شارع دولامبر، وحيداً، زادت دهشته لعدم رؤيته أخاه وعدم توفر أي خبر عنه من حيث أن راوول تجشم عناء أخذهما إلى المحطة. ذهب إلى فندق رين وعلم أن أخاه رحل دون أن يترك عنواناً.

– أتعتقد أنه غادر المدينة؟

– كل ما أستطيع أن أقوله لك هو أنه جاء لأخذ حوائجه في تاكسي.

توفر له الوقت لقضاء نهايتي أسبوع في دوفيل، وكان اختفاء أخيه يسبب له شيئاً من الخيبة.

هل عاد إلى المستعمرات؟ لم يكن يبدو عليه أنه ينوي ذلك، وكان من غير المحتمل أن يخطر له أن يقيم في الريف.

اعتاد فرانسوا، خلال هذه الفترة، على أن يذهب ليلتقي فيفيان كل مساء في بار بوبول. كانا يشربان كأساً سوية، ويسيران إلى الفندق الصغير الذي يَشغلان، فيه، دائماً، الغرفة نفسها. كان عليهما، مرتين، أن ينتظرا في الرواق حتى تشغر.

– أنت ترى أنك أخطأت في الانشغال ببعض الأفكار.

يجب أن تكون على حق، لأنه استعاد كل قوته، بل وقوة لم يعرفها قط إلا في زمن إيميه احتمالاً، بفرق هو أن زوجة رب عمله السابق كانت هي التي تتصرف. وعلى وجه الإجمال، تبين له اليوم أنها قد عاملته كما يعامل رجل، صبية صغيرة يشتهيها.

أما فيفيان دائمة الهدوء، فقد كانت، من جهتها، تستمر في ملاحظته بفضول. بعد ذلك، وفيما هما يغتسلان، كانت تحدثه، أحياناً، عن ابنه. طلبت منه أن يريها صورة بوب، وفي الأحد التالي، جعل مصوراً يصور بوب في الهواء الطلق.

كانت باريس شبه خالية. راحت الطرقات تصبح أكثر صخباً، وحتى، في شارع غيتيه نفسه، غالباً ما كان المرء أمام منظور طويل لرصيف مقفر. كان هناك أناس يبتردون على العتبات، كما في الريف، وكان بعضهم قد أتوا بكراسيهم معهم.

– أيزعجك أن تأتي لتتعشي معي ذات مساء؟

في الغرفة، احتفظت بعادتها المهنية، عادة رفع الكلفة في الخطاب. إلا أن ذلك تغير وحده عندما جلسا معاً على رصيف مطعم صغير في شارع مونبارناس مع نبتات خضراء وراءهما.

– ألا يضايقك أن نشاهد معاً في حيك؟

في ذلك المساء علم أنها كانت تسكن على مسافة بضعة بيوت من بيته، في شارع دولامبر الذي لم يصادفها فيه قط. والشيء الأبعد عن توقّعه هو أنها لم تستطع السماح له بالصعود إلى بيتها، كما كان يرغب لأن المالكة لم تكن تسمح لها بتلقي زيارات ذكرية. كان منزلاً رصيناً كجزيرة صغيرة فاضلة، مع كاهن عجوز كان يسكن الطابق الثالث.

كانت الساعة حوالي التاسعة والنصف مساء. كانا واقفين على الرصيف ولم يكن الليل أسود تماماً، وكانت السماء تنعكس في الطرقات التي لم يسطع فوقها بعد ضوء الفوانيس. لا بد من أنهما كانا يشبهان كل الأزواج الذين يبحثون عن جملة ليغادر كل منهم الآخر دون أن يجدوا الكلمات للتعبير عن الحنان المبهم الذي يضعفهم. في هذه اللحظة لمح فرانسوا طيفاً كان يبدو أنه ينتظر في مكان أبعد قليلاً، من جهة بيته. تعرف على راوول، وبسببه استأذن بشكل أخرق. قال أخوه حين لحق به:

– آمل أن لا أكون قد أزعجتك. البوابة قالت لي انك اعتدت العودة حوالي هذه الساعة وانتظرتك وأنا ابترد.

- أ أنت هنا منذ وقت طويل؟

- حوالي نصف ساعة. هل تدعوني إلى تناول كأس في مكان ما؟

كان الجو أفضل في الخارج، ولم يكن فرانسوا يحب أن يجد نفسه منفرداً بأخيه في الشقة التي لم يتيسر له الوقت لتنظيفها. كان، في غياب بوب، أقل اعتناء. وفضلاً عن ذلك، كان ينبغي شراء زجاجة وراوول لن يرحل قبل إفراغها. اقترح قائلاً:

- فلنذهب إلى رصيف مقهى الدوم.

- إذا كان ذلك لا يزعجك، أفضل حانة.

كانت هناك واحدة في الشارع مع منضدتين، فقط على الرصيف. كان يمكن لفيفيان أن تراهما من النافذة التي أضيئت منذ قليل.

- ماذا تريد أن تشرب يا فرانسوا؟

- ربع ليتر من ماء فيشي. شربت ما يكفي من الجعة اليوم.

- أنا سأشرب كأساً مزدوجاً من الكونياك أيها النادل.

كان هناك شيء قد تغير فيه. أولاً، لم يكن قد شرب بقدر الأيام الأخرى، في مثل هذه الساعة. كان أكثر هدوءاً وأقل عدوانية، وكان قميصه نظيفاً تقريباً.

- ما الذي يقوله مارسيل؟

لا بد أن البوابة قالت له، في الأيام الأولى، أنه كان في دوفيل لأن فرانسوا لم يستطع الامتناع عن إعلان ذلك في كل الحي. وربما خطرت له فكرة شراء «صدى سان جيرمان دي بريه» ورأى اسم أخيه على المانشيت.

- مارسيل ما زال على حاله، إنه متعب دائماً. لا يبدو لي أنه في صحة جيدة.

- على كل حال، تصرفت بسرعة! هل تركت بوب على شاطئ البحر؟

كان ذلك من أول أسئلته غير المتوقّعة من رجل كان يدعي أنه كان يكره الأطفال وكان قد صرح قائلاً:

- إنهم يقومون بتكشيرات الرجال الذين سيصيرون إليهم ويتذكرون، فضلاً عن ذلك، تكشيرات أسلافهم القرود.

وهذا الرجل كان يسأل مرتبكاً قليلاً:

- هل هو على مايرام؟ هل وجدت من يعنى به؟ أفترض أن أخانا العزيز لم يمض إلى درجة أن يقترح عليك جعله يشارك ابنتيه ألعابهما.

- كلا!

الواقع هو أنه كان بين الزبائن سيدة لا تزال فتية مع صبي طويل ونحيل أحب بوب بحيث كان الطفل يرافقهما كل يوم، على الشاطئ ويأكل على مائدتهما.

- أعلموني أنك غادرت فندقك يا راوول.

- هل ذهبت لتستعلم؟

- دهشت لعدم رؤيتك، لعدم تلقي أي خبر.... مضى ما يقرب من شهر على .....وفاة جيرمين.

هاتان الكلمتان اللتان كان ينطق بهما في كل مناسبة، في اليومين الأولين، اللتان كان يرمي بهما الناس كما لو كانتا من حملة إعلانية، تزايدت شيئاً فشيئاً صعوبة النطق بهما كما لو ساوره حياء.

شرح راوول دون اقتناع قائلاً:

- كان عليّ أن أعنى بشؤوني هل يضايقك أن أطلب كأساً ثانية؟

- أيها النادل، الشيء نفسه.

أخذ ذلك وقتاً. كان راوول يتهرب كلما دار الأمر حوله، وكان يستطيع أن يبقى برهة يحدق في محدثه بنظرة ضائعة ويلزم الصمت.

- أتريد أن تنشئ عملاً في باريس؟

- كلا.

- هل تنوي العودة إلى المستعمرات؟

- هذا الأمر قد يلقى عدداً من الصعوبات.

بعد ثلاث سنوات، لا يزال فرانسوا غير عارف بالمزيد حول هذه النقطة. لا بد أن شيئاً ما قد وقع في الغابون، قصة بشعة إلى حد كافٍ احتمالاً، وكانت هذه الجملة هي التلميح الوحيد الذي صدر عن راوول.

ألم يكن مفاجئاً، على الأقل، أن يعود من المستعمرات المدارية، بعد هذه السنوات، وليس في جيبه قرش.

حوالي الكأس الخامسة، انتهى بأن اعترف ببساطة شديدة قائلاً:

– كان علي البحث عن عمل.

– أي عمل؟

لم يكن يستطيع أن يصدق أن أخاه كان، في عمر السادسة والأربعين، في الوضع السخيف نفسه الذي كان هو فيه قبل شهر، يركض وراء الإعلانات الصغيرة والردهات ومكاتب التوظيف. كان راوول البكر، وحظي، دائماً في نظره، بمكانة ما، وخاصة بعد رحيله إلى البلدان الحارة. والحقيقة هي أنه قبل بضعة أسابيع، في الوضع الذي كان عليه، كانت لكل الناس في نظره مكانة خاصة.

زجاجتا الكونياك وفطيرة القشدة والمسدس لبوب كانت آخر أعمال بذخ لراوول، ولذلك طلب قبل قليل من فرانسوا الذي لم يفهم حالاً، إذا ما كان يريد أن يقدم له شراباً.

– هل وجدت؟

– بدأت يوم الاثنين.

– ماذا تفعل؟

لم يسع راوول إلى استثارة عطفه، ولا إلى أن ينصب عليه.

– أنا موظف مخازن في دار لتجارة الخضار في زقاق كوكيير في الهال، لا أدري إذا كان هذا هو اسم العمل المضبوط. ليس لهذا أهمية كبيرة. أبدأ في الساعة الحادية عشرة مساءً، عند وصول الشاحنات من الريف... أسجل، وفي يدي دفتر صغير، الصناديق والأكياس التي تفرغ. ليس هذا صعباً ولا متعباً....

المساكين هم الذين يفرغون الحمولة. الفريق ليس هو نفسه أبداً. أحياناً يتقدم أكثر من العدد المطلوب منهم وفي أحيان أخرى، عليَّ أن أذهب لألتقطهم على الأرصفة. تجدهم ينتظرون أمام المحلات التي تقلي الأطعمة في الهواء الطلق عند زاوية شارع مونمارتر وقد اجتذبتهم الرائحة.

- أين تسكن؟

- استأجرت غرفة مفروشة إلى جانب عملي.

ربما كانت الغرفة في أحد الفنادق الصغيرة التي كان فرانسوا يتبع إليها، في السابق، البنات اللواتي كان يلتقطهن حوالي شارع سيباستوبول. كان يتذكر زقاقاً يعج بالناس وقذراً، مليئاً، دائماً، بصخب الشاحنات مع بوابات تفضي إلى باحات مزدحمة.

- هذا هو الأمر يا صغيري. لقد رأيتك. كنت لطيفاً جداً لتقديمك شراباً لي. وفي أحد الأيام أو، بالأحرى، في ذات مساء، لأني أنام بعد الظهر، سآتي، من جديد، لأطلب منك كأساً.

كان فرانسوا قد اطلع للتو على قصة جيانيني والبنت. لم يكن قد التقى المفتش السابق بيبدبوف سوى مرتين، وكان لا يزال يجهل الفائدة التي سيجنيها منه.

والأسابيع التالية، عندما لمح إمكانية أن يطير بجناحيه، هي التي خطرت له، فيها، الفكرة التي مازالت مبهمة، فكرة استخدام راوول. لم يكن ذلك عن شفقة ولا عن واجب، كان، أيضاً، أقل، كما فعل مارسيل معه.

- إذا أسست أسبوعية إخبارية صغيرة لحسابي، هل تقبل بأن تأتي معي؟

- لماذا؟

- لا أدري بالضبط، لتساعدني.

- هل فتحت قضية جيانيني شهيتك؟

- هذه وقضايا أخرى.

- أتعتقد أني وغد إلى درجة كافية؟

لم ينزعج فرانسوا.

- فكر في ذلك. أنا أواجه الأمر جدياً.

- مبدئياً، لا أقول لا.

- اعتمد على ذلك.

- هل أستطيع أن أطرح عليك سؤالاً؟

- افعل.

- هل يمشي بوسوس معك؟

- سيكون رئيس تحريري.

- ومارسيل؟

- كلا.

- ورونيه؟

- ربما مشت بطريقة ما. لكن ذلك لن يكون باسمها.

- وهو ما يعني أنها ستقدم لك رأس مال البداية.

- جزئياً.

كل هذه الأحاديث مع راوول دارت، تقريباً، على أرصفة المقاهي التي كان لها عنده، بسبب السنوات التي أمضاها في الأدغال، مكانة بارزة. كان يستطيع أن يبقى، فيها، ساعات وساعات يكوم طبقاً فوق طبق حتى عندما كان المطر يشكل جيباً مهدداً في المظلة، فوق رأسه، وكانت الريح تطرد قطرات كبيرة من الماء حتى طاولته.

في ذات مساء، قرر وهو ينظر بهدوء، في عيني أخيه:

- سأحاول. اعتباراً من يوم الاثنين، ستكون إن لم تغير رأيك، معلمي.

كان هو الذي اتهم أمه والبشر، عامة، بالمازوشية. كل أقواله في الليلة الأولى محفورة في ذاكرة فرانسوا الذي كان يستطيع تسميعها كصلاة.

– الناس يعشقون تعذيب أنفسهم، معنوياً وليس جسدياً فقط. غريب هو عدد الذين يحسون بنشوة حقيقية في إذلال أنفسهم، في جعلِ ذواتهم أدنى من الأرض. ولاحظ أن هؤلاء، أنفسهم، هم الذين يشكون من عدم توفر حظ لهم! بعض الأشخاص الذين لهم وضع هام ويديرون أعمالاً ضخمة، يتمتعون بسلطة هائلة، يذهبون، كل أسبوع، إلى القوادات، في شقق خفية إلى حد ما من أجل أن تجلد مؤخراتهم بالسياط أو أن ترفس.

غالباً ما تساءل فرانسوا عما إذا كان أخوه قد أحس بمتعة مرة في وضع نفسه تحت إمرته.

– كلمة أخرى قبل نعم النهائية. يفضل أن يعرف كل منا ما الذي يواجهه. أنت تعلم أني سكير متمرس، أليس كذلك؟

– أعلم.

– أنبهك إلى أني لن أغير شيئاً من عاداتي. إذا كان ذلك يناسبك، فلم يعد لي ما أقول.

استمر في الشرب دون أن يحدث، أبداً، ما يستوجب الشكوى من ذلك.

عندما خرج فرانسوا من المصعد، في الطابق الأرضي، لم يعد الرجل في الردهة، بل رآه على مقعد في الشارع، على مسافة نحوِ خمسة عشر متراً، في ظل شجيرة.

لم يتابعه أكثر مما فعل صباحاً. لو كان هناك من أجل فرانسوا، كما كان محتملاً، فلم تكن أفعال هذا الأخير وحركاته هي التي كانت تهمه، بل، بالأحرى، الزيارات التي كان مكتبه يتلقاها، والتي يجب عليه محاولة وضع قائمة بها.

ربما كان يأمل في رؤية بيبدوف يدخل إلى البناية. كان ذلك يثبت، على كل حال، أن الاحتياطات الكبيرة للمفتش السابق لم تكن مضحكة.

وجد بعض المشقة في إخراج سيارته، وكاد يصدم سيارة أخرى. وفي البورصة، لاقى المزيد من المشقة في إيجاد مكان يوقف فيه سيارته لأنها كانت ساعة أوجِ الغليان، وكان يسمع، من بعيد، زعيق الموظفين تحت الأعمدة.

كانت المطبعة تؤوي عدداً كبيراً من الجرائد، من بينها نشرتان ماليتان وجرائد نقابية مثل جريدة «لحامو فرنسا». كان لرؤساء التحرير أيامهم، ويوجد تحت تصرفهم، كل منهم بدوره، ثلاثة مكاتب مزججة ترى فيها الألواح وآلات جمع الحروف. كان غدواً ورواحاً أزليين للمراسلين والسعاة، وكان في حوزة الجميع أوراق تجارب ندية، أو مسودات تصحيح أخيرة.

كان بوسوس جالساً في قفصه، أمام ثلاث كؤوس من الجعة أتاه بها صبي المقهى المجاور. مشمور كمي القميص، غير حليق كعادته.

كان، بدوره، سكيراً، كراوول وبيبوف، لكن كلاً منهم كان كذلك بصورة مختلفة عن الآخرين.

كان شارتييه، صبي المكتب، يسميهم «البدناء الثلاثة» وكان بوسوس أضخم الثلاثة، ضخماً إلى حد كان معه يجد صعوبة في دخول سيارات الأجرة. لم يكن يشرب إلا الجعة من الصباح إلى المساء، ثلاثين كأساً يومياً، كما كان يعلن بكياسة، وأكثر من ذلك حين يقضي جزءاً من الليل في الشرب وفي تدخين الغليون مع صديق.

- أتستطيع أن تأتي الآن يا فردينان؟

كان، على الرغم من بطنه الذي كان يتدلى فوق، أخف الثلاثة، وكان يتغنج في مشيته كامرأة. لهذا السبب، كان يمكن أن يظن منحرفاً جنسياً - أو مخصياً- لو لم يكن مصحوباً يومياً في ساعة شرب المشهيات والعشاء، بهذه أو تلك من بنات إخوته.

كانت عادة قديمة لديه أن يطلق هذا الاسم على الصبايا الهزيلات والبائسات، الجميلات غالباً، اللواتي كن ملتصقات به دوماً واللواتي كان يلتقطهن من حيث لا يعلم إلا الله. لا بد أنه كان يملك سراً لترويضهن لأنهن كن يبدون متواضعات وموقرات، ينتظرن، بتهذيب، على المقعد أن يتكرم بتذكر وجودهن ويوصي لهن على طبق شوكروت باللحم.

- سأعطي التصحيح لغاستون واتبعك يا معلم.

كان غاستون المخرج الذي كان يرفع ذراعيه إلى السماء كلما أتوه بالنسخة والذي كان يقسم، دائماً، على أن «هذا لا يمكن أن يدخل».

- أعطاني أخي بعض الأنباء.

- لا تحدث غاستون عنها. انتهى الأمر بالنسبة لهذا الأسبوع. أرسلها لي إلى المكتب. يجب أن نجهز للطبع قبل الساعة الثالثة. ولذلك آمل في أن لا تأخذني، أيضاً، إلى إحدى ولائمك الرهيبة في «الديك المحشي». وهو ما كان يعني أنه يشتهي ذلك.

كان على مسافة خطوتين من هناك، وكان أحد أفضل مطاعم باريس ويرتاده، خاصة عند الظهر، أناس من البورصة وكذلك بضعة سياسيين ويشاهد فيه، بين حين وآخر، وزير أو المدير القوي لجريدة يومية كبيرة.

هتف مدير الخدم الذي لم يكن فرنسوا ينسى أبداً أن يصافحه.

- طاولة للسيد فرانسوا!

من المؤكد أنه كان هناك عدد من الأشخاص، حتى هنا ، لا يحيون مدير «السوط»، ولكن الذين كانوا يسمونه «الصديق العزيز»، كانوا، أيضاً، في مثل عددهم إن لم يكونوا أكثر.

على المدى الطويل، اعتاد فرانسوا، من جهته، أن يتلفظ بهاتين الكلمتين وأن يوجههما إلى أناس كان من شأنه، قبلاً، أن يسميهم، وهو يرتعش، «سيدي المدير».

كان يعرف، أيضاً، أن يقول، بمرح يخففه شيء من الاحترام، «عزيزي الرئيس» أو «عزيزي الوزير».

لم يكن قد مل، بعد، من المطاعم الفاخرة، وربما لن يملها أبداً. كان يحب أن يرى العربة الفضية الثقيلة التي كانت تحتوي على قطع من لحم الثور أو الحمل كاملاً، وكان التردد أمام أشهى المقبلات متعة تتجدد دائماً.

كم من مرة كان قد ألصق وجهه إلى زجاج بائع اللحوم الباردة في شارع دولامبر، في العهد الذي كانت، فيه، قواقع السرطان تشكل، بالنسبة إليه، منتهى الترف! ذات مرة، المرة الوحيدة، اشترى أربع قطع دفعة واحدة، وإلى ذلك اليوم يعود تاريخ حياته الجديدة.

– دورق من بويي – فويه يا فردينان؟

كانت تلك مزحة قديمة. فلم يكن بوسوس، حتى على المائدة، حتى هنا، يشرب غير الجعة، وربما كان في ذلك بعض التصنع، لأنه كان ينتمي إلى عهد كانت فيه الجعة والشوكروت حكراً على الصحفيين.

– بماذا تنصحني يا جيرمان؟ شيء خفيف من أجلي.

– أضلاع مملحة وبطاطا.

كان ينتهي، دائماً، إلى اختيار طبق بالصلصة معقد بقدر المستطاع مع فطر وكماة كان، بالنسبة إليه، تغييراً أكبرعن المطبخ الفقير الذي اعتاد عليه.

– هل الكلى بالبيض جيدة؟

– أوصيك بها.

بالنسبة لبوسوس، كان المطلوب لحم طيور أو قطعة شاتوبريان مع كثير من البطاطا. كانت الكمية هامة بالنسبة إليه لأنه يجب أن يكون جائعاً. وكان هذا واضحاً في الطريقة التي تلفظ بها بعبارة «قطعة بفتيك سميكة جداً».

– والآن، يا عزيزي فردينان، نستطيع أن نتكلم.

– ليس الحديث طويلاً، ولست متأكداً من أن هذا أمر هام، لكنه يضايقني منذ الصباح. عندما أتيت إلى المطبعة، في الساعة العاشرة......

– الساعة العاشرة؟

الجميع كانوا يعلمون أنه نفسه، بمشقة، من سرير لا بد أن رائحة الجعة تفوح منه.

– فلنقل في العاشرة والنصف. عندما وصلت، دهشت لعدم رؤيتي رزمة البروفات على المكتب كالعادة. ظننت أن غاستون متأخر أو أنه نسيني. ذهبت إلى لوح الطباعة. أنت تعرف ما يكون عليه صباح الثلاثاء وهو مكلف بثلاث جرائد، صاح قائلاً:

«بروفاتك؟ لقد حملتها إليك منذ ساعةٍ رأيتها بنفسي على مكتبك.

«بحثت. سألت الغلام الذي يجمع الأوراق القديمة، ثم الرجل الذي يقف على الباب.

«استغرقت بعض الوقت لأعلم أنه قد شوهد شخص وفي يده بروفاتنا، شخص لم يعيروه الانتباه اعتقاداً منهم بأنه ينتمي إلى إحدى هيئات التحرير.

«إنه شخص قصير ضخم، بنظارتين سميكتين جداً وقبعة قش. عندما خرج. كان يحمل حقيبة جلدية وبدا مستعجلاً. الرجل الذي يقف على الباب، باتيست، لاحظ أن حذاءه الأصفر مهترئ جداً.

سأل فرانسوا:

– الشرطة؟

– لا أدري، على كل حال، لا يبدو لي أن هذا جاء من مديرية الشرطة. أعتقد أني أعرف رجال الشرطة القضائية ولا أرى منهم من تنطبق عليه أوصاف الشخص. وفضلاً عن ذلك ، فهذا ليس أسلوبهم. لو كان ذلك من طرفهم لما كان رجلهم ليبالي، ولما انصرفَ قبل وصولي. كان سيجلس في زاوية من مكتبي، وكان سيأخذ الأوراق بصورة وقحة. كان سيقول لي شيئاً مثل: قل إذن، يا بوسوس، يؤسفني أن آخذ هذا معي، لكن المعلم يريد أن يلقي عليه نظرة صغيرة.

«أنت تعرفهم. إنهم لا يتخفون. على العكس من ذلك، يحاولون، بالأحرى، إثارة الفزع.

- جيانيني؟

- هذا ما فكرت فيه، أولاً، على الرغم من أن هذا ليس أسلوبه بدوره. هؤلاء أشد قسوة. الوصف الذي أعطوني إياه مبهم، لكنه انتهى بتذكيري بشي ما.

«أعرف بعضاً من جماعة شارع سوسّيه أيضاً. هناك رجل قصير ضخم، بنظارتين سميكتين له، دائماً، هيئة تدعو إلى الرثاء. له اسم غريب لا أتوصل إلى تذكره.

«ما أعرفه هو أنه لايهتم بالجرائم ولا بشي مشابه. إنه يعمل، مباشرة، مع المعلم الكبير. إنه هو الذي يقوم بالمهمات الخاصة للوزير، خاصة السياسية منها.

«هل ترى هذا؟

غمغم بوسوس دون أن يضيع لقمة واحدة:

- ربما مضينا إلى أبعد مما ينبغي. قرأت العدد كله، بعد ذلك. لم أجد، فيه، شيئاً أعنف من المعتاد. ويدهشني، بعد هذا الزمن الذي استمرت خلاله قضية جيانيني، أن يتنبهوا فجأة.

لم يكن بوسوس، كل حياته، إلا صحفياً من الدرجة الثانية، بل من الدرجة الثالثة، ينتقل من جريدة إلى أخرى، من قسم الحوادث إلى قسم سياسي أو أدبي مع إدارة جريدة عابرة في برهة الانتخابات أحياناً. لكنه كان يعرف كل كواليس بعض من باريس، ونادراً ما أخطأ.

- لا أريد أن أظهر بمظهر من يريد أن يثبت صدقه يا معلم. قلت لك، دائماً، أنك تمضي بأكثر مما ينبغي من القوة والشيء الخاص، والأخطر هو أنه يتفق لك أن لا تحترم قواعد اللعبة... إذا توفر لي الوقت هذا المساء، فسوف أعيد قراءة كل الأعداد الأخيرة لمعرفة ما الذي أمكن أن يسبب لنا هذا.

منذ الآن، أرى أن الحكاية قذرة. مع جيانيني ورجال عصابته لا نجازف بأكثر من فعل إزعاج، ولا أعتقد أنهم سيجازفون بذلك حالياً. عندما هاجموك في مقهى فوكيه، كان ذلك لتلقينك درساً ولأنهم ظنوا أنهم يؤثرون، بذلك، عليك.

«الشرطة القضائية لا تخيف بدورها. معظمهم أشخاص طيبون لا يهتمون إلا بعملهم.

«شارع سوسّيه قصة أخرى. إنهم في طابق أعلى. إنهم، تقريباً، في أعلى طبقة. أتمنى أن أخطيء، لكني أتساءل عما إذا كانوا، في العالي، لم يقرروا، بالضبط أن ينهوا القصة.

«خففت، كيفما اتفق بعض النصوص على الآلة الطابعة لتجنب مصادرة العدد في برهة البيع.

- من هي هدف العدد؟

- ليست شريرة. إنها من الذين يدفعون.

تذكر فرانسوا أنه رأى على نموذج تصميم الغلاف امرأة شابة وجميلة، ممثلة صغيرة في السينما دون شك، يقدم لها عشيقها شيئاً من الدعاية.

كانت جريدة «السوط»، تنشر، كل أسبوع، على غلافها الخارجي، صورة رأس شخصية متفاوتة الشهرة، سواء أكان ذلك في السياسة أم في الأعمال، في المسرح أم في الأدب.

وحسب الكلمة التي أتى بوسوس على النطق بها والتي كانت مألوفة في الجريدة، كان الأمر يدور حول «دافع»، أي أن المقال الذي يلي الرسم كان مدفوع الأجر بالتعرفة العليا.

كان المقال لطيفاً مع ما يكفي، بالضبط، من تعريض كي لا تفوح منه رائحة الإعلان ولينسجم مع لهجة «السوط» العامة. و«الأهداف» التي تدفع الكثير هي تلك التي لم تكن تظهر والتي يتم تأليفها بأكبر قدر من العناية. كان تحريرها موكلاً إلى بوسوس. كان يقوم بتأليفها على طاولة حانة، يتعرق ويشرب الجعة ممرراً طرف لسانه بين شفتيه الضخمتين كتلميذ مدرسة.

الباقي كان، ما عدا بعض الاستثناءات، من شأن صبي المكتب، شارتييه، الذي كان معلماً بهذا الصدد. كان يسأل، قبل ذهابه، قائلاً:

– إلى أي حد أنزل يا معلم؟ عند العشرين ألفاً؟ عشرة آلاف؟

كان فخره أن يأتي بأكثر من الحد الأدنى المقرر. في ذات يوم، حصل على خمسة أضعاف الرقم المتوقع. المنهج لم يكن يتغير. كان يذهب بالمترو، أو بالباص، بهدوء، مائل المشية. كان من النادر أن لا يتوصل إلى الحصول على استقباله سواء أكان ذلك في قصر خاص أم في مكاتب هامة، ربما كان ذلك لأنه يحسن التصرف مع الحجاب والخدم. وهذا كان أصعب ما في عمله. الباقي كان نوعاً من تمثيلية يجب أن يمثلها ويتقنها.

– أعذرني لأني سمحت لنفسي بإزعاجك، لكني تلقيت، منذ قليل، صدمة، وقررت أن أتحدث إليك مهما كلف الأمر، مجازفاً بفقدان عملي. عدني، فقط، بأن لا تكرر لأحد ما سأقوله لك. الأوقات صعبة يا سيدي. إن رجلاً مثلي، في الأربعين من عمره، مرغم، أحياناً، لأن له أسرة...

كان شارتييه عازباً دائماً.

– .....على قبول أعمال يخجل منها. هل تعرف اسم فرانسوا لوكوان؟ لا يهم. إنه معلمي على الرغم مني، وهو ما يتيح لي أن أرى، عن كثب، ما يجري في «السوط». وهذا ما التقطته، بعد ظهر اليوم من على مكتب.

كانت بروفات مقال ماكر يمارس، تحت غطاء رواية قصة حياة الشخص، تدخلاً واسعاً في حياته الخاصة ويلح على الخفايا المخجلة.

– عندي ضمير على الرغم من كل شيء. وقررت أن أحذرك. لا أدري ماذا تستطيع أن تفعل. الجريدة تصدر بعد غد. ربما لا يزال هناك وقت.

كان ذلك ينجح تسع مرات على عشر.

– لا حظ أنه ربما كان فرانسوا لوكوان غير مطّلع على هذا المقال. إنه لا يتدخل، أبداً، في تفاصيل التحرير. لكن إلى جانبه شخصاً معيناً دون ضمير......

ربما إذا دفع مبلغ ما لهذا الشخص..... كان شارتييه مستعداً للتوسط. كان يفعل ذلك. كان يركض لرؤية كاتب المقال الشرير، ويعود آسفاً وحانقاً.

– حسبت أنك تستطيع التخلص بمبلغ صغير لأن رجلنا مثقل بالديون. لسوء الحظ هناك ما هو أخطر، الجريدة تطبع. يجب وقف الطباعة وتعويض المطبعة.

المقالات التي لم تكن تنشر أبداً كانت الأهم، وعندما كان يتفق أن تفشل الضربة، لم يكن ذلك سيئاً. كان من الضروري أن تنشر نصوص حادة من أجل القراء، أولاً، ثم لحمل الضحايا المقبلة على التفكير.

تذكر بوسوس وهو يملأ غليونه الذي كان يحب أن يدخنه بنفحات ضخمة في أكثر الأمكنة أناقة.

– بالمناسبة، تلقيت، هذا الصباح، بطاقة صغيرة من بييدبوف.

بحث عنها في كل جيوبه وانتهى بسحبها مع رزمة من المفاتيح. كانت مكتوبة في مقهى، ولكن المفتش السابق مزق، بحرص، الزاوية التي تحمل اسم المقهى. وكالعادة، لم يكن هناك توقيع.

«أود أن أرى الرئيس بعد ظهر هذا اليوم. الأمر هام جداً. إذا أراد أن يكون، في الساعة الخامسة في البار الذي يقع على زاوية شارع واغرام وزقاق بريي، فسوف أهتف له لأقول له أين سأكون...»

– أعتقد أنك تحسن صنعاً إذا هتفت له.

وكان بوسوس ينظر إلى فرانسوا خلسة، كما كان الجميع ينظر إليه حالياً، بمزيجٍ من الثقة والقلق وبشيء من الدهشة دائماً. ذلك أن فرانسوا لم يكن يبدو منفعلاً. كأن كل ذلك كان شيئاً قليلاً جداً.

– الحساب من فضلك.

كان يشعر عامة بثقل، بشيء من النعاس بعد غداء وفير، على الرغم من أنه لم يشرب، قط أكثر من كأسي خمر.

(٣)

اقتضى الأمر أن يهتف من جديد إلى شارع برسبورغ. كانت فيفيان معتادة على هذه الهواتف التي تغيّر مواعيدهما أو تلغيها.

- لا تنتظريني هذا اليوم. سيدهشني أن أكون حراً قبل المساء.

- هل تنام في شارع دولامبر.

لم تكن وحدها. كانت لديها صديقة، ميمي، التي تسكن شقة فوق شقتها وكان ينفق عليها أحد أصحاب السفن في نانت. كان يأتي إلى باريس يوماً واحداً في الأسبوع، في موعد ثابت. كانت المرأتان تمضيان ساعات معاً، في الثرثرة، وأحياناً في الخياطة وتجربة الملابس لأن فيفيان حافظت على عادة خياطة «فساتينها الصغيرة» بنفسها. قالت:

- سأذهب، دون شك، إلى السينما مع ميمي. هل كل شيء على ما يرام؟

- نعم!

- ألا تخفي عني شيئاً؟ أليس لديك متاعب؟

في ذات يوم، في حين كانا معاً، وكانت قد انقطعت عن الذهاب إلى بار بوبول منذ عدة شهور، أوقفتها شرطة الآداب بينما كانت تتناول طعام الغداء، بحجة أن بطاقتها كموس لم تكن نظامية.

لم تكن تعيش، بعد، في شارع برسبورغ، بل في شقة مفروشة في زقاق دارو، وكانت تتناول وجباتها في مطعم في شارع فوبور سانت أونوريه. كانت في الهدوء والاحتشام اللذين كانت عليهما الآن. المفتش تعمد أن يتكلم بصوت مرتفع ليعلم الجميع، حولهما، أنها كانت فتاة ببطاقة.

اقتيدت إلى الحجز، وأمضت ليلتها الأولى مع الفتيات اللواتي التقطتهنّ سيارة الشرطة. في صباح الغد، انتظرت، عارية تماماً، في الطابق الأول، وراء دستات من الأخريات، دورها في الفحص الطبي.

كان فرانسوا هو المقصود. وقد جرى إعلامه بفضل إحدى الفتيات اللواتي أطلق سراحهن في ذلك اليوم والتي استطاعت تكليفها برسالة. لم يتردد في الإسراع إليها، واصطدم بأنظمة صارمة.

اقتضى الأمر عدة أيام من التحقيق والشكليات المعقدة كان عليه، بعدها، أن يصرح، كتابة، بأنه كان يفي بكل حاجات المرأة ويتحمل مسؤولية سلوكها. كان ذلك تحذيراً، التحذير الأول الذي لم يكن، أبداً، ألطف من تحذير رجال جيانيني، فيما بعد، على رصيف مقهى فوكيه.

ربما لم يكن ذلك صادراً عن موقع عال جداً، وربما صدر عن المفتش بوتاريل الذي يجب أن يكون قد خيل إليه أن فرانسوا لن يجرؤ على التدخل.

هؤلاء الناس كانوا واهمين فيما يتعلق به، واهمين جميعاً، بمن فيهم بوسوس وبيدبوف، وحتى أخوه راوول أيضاً. بيدبوف، مثلاً، كان مقتنعاً بأنه لم يكن يخاف أبداً، عن سلامة نية، عن سذاجة أو عن غباء.

هذه المرة، ضرب له، على الهاتف موعداً في الغلوب، وهي حانة في شارع ستراسبورغ كان يجتمع، فيها، الممثلون الجوالون وكومبارس السينما.

– اصعد إلى الطابق الأول أيها الرئيس. ستجدني قرب طاولات البليار.

هكذا أرسل فرانسوا إلى أقل الأمكنة التي كان يتوقع وجوده فيها في باريس وضواحيها. ومع ذلك، كان، في مظهره، أقل الرجال رومنطقية، وأقلهم قابلية لأن يتحسس المشهد الغريب.

كان ابن مزارعين نورمانديين، قصيراً وبديناً، عريضاً، إلى حد كان، معه، مشوهاً تقريباً. تشعر، تحت لحمه المكتنز، بهيكل غوريلا، ومع العمر اكتسب كرش باعة المواشي هؤلاء الذين كانوا يشاهدون في معارض منطقته. كانت له لكنتهم، وجهه الذي ينتهي بغدة درقية غالباً ما تحمل على خشية نزيف دماغي ويتحول، أحياناً، في نهاية السهرة إلى بنفسجي.

كان يشرب كؤوساً صغيرة من الكالفادوس ويعرف كل خمارات باريس التي تقدم فيها خمور جيدة. كان صوته يصبح، منذ منتصف بعد الظهر، أبح.

- هل تأكدت من أنك لم تكن متبوعاً؟

وبما أن فرانسوا لم يجب، غمغم بفظاظة:

- لا تتخابث. لست وحدك في اللعبة. من يجازف بأن يتلقى أقوى ضربة ليس أنت. هل لاحظت فقط أنهم وضعوا لك مفتشاً مداوماً في الشانزيليزيه؟ أنا لا أحتاج إلى أن أذهب إلى هناك لأعلم أنه شاروو، الجديد في شارع سوسّيه.

- والذي جاء هذا الصباح وذهب مع المسودات؟

راح بييدبوف، ينظر إليه بهيئة متكبرة، كما لو كان غاضباً، وهو يسخن كأسه في راحة يده الضخمة.

كانت تفوح منه دوماً رائحة الكلفادوس ملء الأنف، إلى حد كان يزعج المرء ويضطره إلى إدارة رأسه. وككل الذين يملكون نفساً قوياً، كان لديه عادة أو عيب النفخ في وجهك وهو يتكلم، وشدّكَ من ياقة سترتك ليبقيك ضمن مداه عند الحاجة.

كان شرطياً بلباس رسمي لسنوات، شرطياً من الطراز القديم، سكيراً، وسيء الهندام، أمياً تقريباً، وكان، في ذلك العهد، وجهاً طريفاً من وجوه حي سان ميشيل.

وبفضل صهره الذي كان يشغل منصباً هاماً في وزارة الداخلية، نجح، بصورة ما، في فحص المفتشين وألحق بشعبة الآداب.

إلا أن مكانة صهره لم تستطع أن تبقيه، فيها، أكثر من ثمانية أعوام، لأن بييدبوف، المتروك لذاته، في حياته المدنية، أخذ يشرب أكثر من أي وقت مضى ويتصرّف كمزربان حقيقي مع بنات الأرصفة اللواتي كان مكلفاً بمراقبتهن.

اتهم بفرض أتاوات منتظمة عيناً ونقداً، من بعضهن، واللواتي حاولن التملص دفعن ثمن ذلك غالياً. وفي النهاية، جرى التخلص منه بإحالته المبكرة على التقاعد. ولم يغفر ذلك، أبداً، لزملائه القدامى ولا لرؤسائه السابقين.

كاد فرانسوا أن لا يعرفه لأن الرسالة الأولى التي تلقاها منه والتي لم تكن، فوق ذلك، موقعة، لم يكن من شأنها أن تطمئن. وبوسوس الذي استشير لم يبد متحمساً.

– يحتمل أن يكون مهووساً. سترى من نوعه كثيرين. لا يوجد ما يجتذبهم أكثر من الصحف.

كان فرانسوا لا يزال يعمل لحساب مارسيل في «صدى سان جيرمان دي بريه». وقد كتب، كيفما اتفق، مقالاً أولاً حول جيانيني، على صورة مقالات الحملة الانتخابية، مع اتهامات مبهمة ووعد بتقديم أكثر من ذلك قريباً.

أقر بوسوس ذلك وقال:

– ليس هذا غبياً جداً. سوف ترى أننا لن نضطر بعد الآن لإزعاج أنفسنا منذ الغد سنتلقى كمية من الرسائل التي تقدم كل ما تتصوره من معلومات صحيحة وزائفة حول خصمنا. إنها الحيلة الكلاسيكية. لم أكن أعلم أنك تعرفها.

كان بوسوس قد قبل فرانسوا بلا مبالاة. كان، بالنسبة إليه، شقيق المعلم الكبير الذي يدفع، وقد رأى منه كثيرين، وكان في خدمة كل أنواع الناس.

كانت أول بطاقة لبييدبوف تقول:

«*إذا كنت تنوي كشف جيانيني، إذا كنت تملك، حقاً، الشجاعة لمواجهته* هو وعصابته، *إذا كنت لا تخاف الضرب عالياً جداً،* أعلى بكثير *مما تظن، فكن في الساعة الثالثة* من بعد ظهر *الأربعاء،* عند مدخل حديقة *النباتات الرئيسي* وأمسك بيدك *عدداً من الجريدة*».

أخذ بييدبوف كل الوقت، في ذلك اليوم، لفحص فرانسوا خلال ما يزيد على ربع ساعة قبل الاقتراب منه.

– تعال نجلس على مقعد تجاه الزرافات، حيث يوجد أكبر عدد من الناس. بين الجمهور هو المكان الذي تهبط فيه، إمكانية الانكشاف إلى الحد الأدنى.

لا بد أنه كان ينتظر هذه الفرصة منذ زمن طويل، ولا شك في أنه قد كتب دستات من الرسائل، دون جدوى، إلى الجرائد. دقت ساعته أخيراً، وكان يبدو على فرانسوا أنه الرجل الذي كان يلزمه.

- قبل كل شيء اعلم أن جيانيني ليس شيئاً على الرغم من ماله وتبجحه. إنه بيدق. إلا أنه سيكون، بالنسبة إليك، إذا أردت إجراء التنظيف الكبير، نقطة انطلاق، وأقسم لك على أنه سيقودك بعيداً. اعلم أنك شقيق المستشار. أعرفه بالتسامع. ليس سانجاً، ولكنني لا أدري إذا كان، وهو في موقعه، سيرغب في أن يتورط.

- جيانيني؟

- رجل عصابات، رجل عصابات متوسط الحجم كان، حتى عشر سنوات من الآن، لا يزال قواداً وينتمي إلى عصابة الكورسيكيين.

لم يكن فرانسوا يعرف بعد، عصابة الكورسيكين ولا عصابة نيديه مارسيليا. وكان يجهل أن معظم الطلقات النارية التي تطلق، دورياً، في بارات مونمارتر لم تكن سوى تصفية حسابات بين المجموعتين المتنافستين.

- كل شيء يتوقف على معرفة ما إذا كنت تثق بي. من حيث المواد، لدي الكثير.

ضرب على جبينه ثم أضاف:

- إنه مليء بها! إلا أنه يجب أن أتأكد من أن هذا سيجدي نفعاً ومن أنك لن تتوقف في الطريق. أنا مفتش شرطة سابق وأعرف أكثر من أي كان، من سيقدم لك معلومات.

ألح فرانسوا قائلاً:

- جيانيني؟

- أفهم. أن ما يهمك هو حملتك الانتخابية. حسناً! سأنيرك حالاً حول بقالك في زقاق بونتشي، سأعطيك، على الأقل، في البداية، مايكفي لتقصم ظهره. منذ ثلاث سنوات، دهسَ جيانيني الذي كان في سيارة مع امرأتين وكان مبتهجاً جداً، بنتاً صغيرة في شارع أورليان. لم يحمل نفسه عناء التوقف، والبنت الصغيرة ماتت، بعد ساعة، في المستشفى.

سجل شهود رقم السيارة. جرى التظاهر بإجراء تحقيق، لكنه لم يزعج، أبداً، جدياً.

«هل تعتقد أن ذلك يساوي ألف فرنك؟

– أ أنت متأكد مما تقول؟

– إذا كنت لا تثق بي، فمن الأفضل أن نفترق حالاً. عندما أقول شيئاً، فإنه يكون متيناً. سأعطيك اسم الشرطي الذي كتب الضبط وأسماء الشهود. سأقول لك كيف جعلوا هؤلاء يتراجعون عن شهاداتهم. افترض أنك تعلم كيف تميز سيارة بوغاتي رياضية كبيرة عن سيارة أخرى. حسناً! كانت سيارة جيانيني، في تلك الفترة من طراز بوغاتي. اعتاد على تغيير سيارته مرتين أو ثلاثاً سنوياً. هذه كانت زرقاء فاقعة.

«في أول يوم، كان خمسة شهود متأكدين من كونهم تعرفوا على بوغاتي زرقاء. حتى أن بائع مخدرات حدّد بأنه أزرق لازوردي. إلا أنه لم يبق لاحقاً عندما استُجوبوا بطريقة معينة أعرفها لأني مارستها، سوى شخص مسكين، لم يفده ذلك، يتذكر نوع السيارة.

«لاحظ أن الحادث وقع نهاراً، على مسافة خطوتين من كنيسة مونروج. أما بالنسبة لرقم اللوحة، فقد أربكوا الشهود الذين لم يعودوا يعرفون ما إذا كانت هناك ثلاث سبعات متبوعة بخمسة أم ثلاث خمسات متبوعة بسبعة.

«النتيجة هي أن جيانيني لا يتورع، بعد ثلاث سنوات، عن التقدم إلى الانتخابات البلدية، وأم الطفلة لم تقبض شيئاً من التأمين.

ناقش فرانسوا الأمر مع بوسوس. أجاب هذا الأخير قائلاً:

– هذا يتوقف على أخيك. لا أدري، بالضبط، إلى أين يريد أن يمضي. شخصياً، أريد ذلك حقاً.

كان عنوان المقال الأول: «عملية دهس في شارع أورليان»

كانت هناك مقالات أخرى بلهجة متزايدة الحدة، تقدم إيضاحات كبيرة أكثر إثارة للقلق دائماً «رجل البوغاتي الزرقاء»، «عصابة زقاق بوسي»

هتف مارسيل عدة مرات لأخيه ليطلب إليه، بما يكفي من الجفاء، أن يذهب ليراه لأنه كان قلقاً جداً.

- أنت تذهب إلى أبعد مما ينبغي. سنواجه، بالتأكيد، متاعب.

- انتظر العدد القادم.

- لماذا؟

- سوف ننشر محضر الاستجوابات.

لا بد أن مارسيل المذهول قد قال لنفسه أنه أخطأ، دائماً، بصدد أخيه أما رونيه، فإن المعركة كانت تبهجها.

- ماذا يساوي هذا؟ خمسة آلاف؟ عشرة آلاف؟

ذلك أن بييدبوف، ولو كان يرتب انتقامه من الشرطة، لم يكن ينسى الأرباح، ورقم الألف فرنك جرى تجاوزه منذ زمن طويل.

«عشيق لويز ماريا قواد» هذا المقال بدأ على هذا النحو:

«هل سيمثل حي سان جيرمان دي بريه في المجلس البلدي مستثمر دار بغاء؟»

ذلك أن عشيقة جيانيني، امرأة تدعى لويز ماريانى، لم تكن تدير بيتاً برقم كبير، بالمعنى الحقيقي للكلمة، بل طابقاً أوسط لإجراء كل التدليكات، في زقاق مسيو لوبرانس.

لم يكن ذلك خارجاً عن الحي.

لم يكن يضايق فرانسوا إطلاقاً أن تكون فيفيان في ذلك الوقت لا تزال تعمل، كل مساء، في جوار بار بوبول. لم يغير شيئاً من عاداته. استمر في الذهاب ليلقاها. كان يجب عليه، أحياناً، أن ينتظرها في البار حيث كان يراها تغادر زبوناً في زاوية الزقاق الصغير. كان يدعوها، بصورة متزايدة، للعشاء في مطعم شارع مونبارناس نفسه.

وعلى عكس ما أعلنه فرانسوا لرونيه يوم وفاة جيرمين، لم يطلق جيانيني جريدة لدعم ترشيحه. كان يعمل عن طريق الإعلانات، وخاصة عن طريق جذب الجمهور إلى مخازنه بأسعار لا يصدق تدنيها. كان يضغط أيضاً على الرأي العام في المقاهي التي كان رجاله مستعدين، فيها، دائماً، لتقديم كؤوس الشراب.

«جيانيني والزنجي» لم يكن الأمر يدور حول زنجي حقيقي، بل ملهى ليلي في زقاق راسين، قرب شارع سان ميشيل، يتولاه توني، شقيق جيانيني. كان يقال أنه كانت تجري فيه، بعد منتصف الليل، والأبواب مغلقة، المقامرة بمبالغ كبيرة، وأنه كانت للشرطة أسباب وجيهة لتغمض عينيها.

كانت قضية البنت الصغيرة هي التي كان لها أكثر الانعكاسات لأنها كانت أكثرها قابلية للتأثير في الرأي العام. كانت، بسبب الأشخاص المقحَمين فيها، تثير الجمهور الباريسي كاملاً، وليس الحي فقط، وتتجاوز إطار الانتخابات، ما أرغم الجرائد الكبيرة على الحديث عنها.

وبالفعل، فإن مستشاراً بلدياً، شخصاً يدعى دامبوا، قدّم، ظناً منه أنه يضع زميله لوكوان في موقع سيئ، إلى المجلس استجواباً وطلب تحقيقاً إدارياً من أجل بيان التواطؤات التي أمكن، بسببها، نشر تقرير للشرطة في الصحافة.

جرى إقرار التحقيق بأغلبية ضعيفة، بغتة، ومنذ ذلك الحين، سئم المجلس ومدير الشرطة.

تضاعفت هواتف بييدبوف والمواعيد التي كان يضربها في أربعة أركان باريس، في مطاعم سائقي سيارات، في دور سينما مجهولة، وأحياناً في بوفيه محطة أو حانة في الضواحي.

أصبحت هناك أسماء مألوفة، إن لم تكن مشهورة. كانت البنت الصغيرة المدهوسة تدعى مارسيل توغان، وكانت أمها التي هجرها زوجها منذ زمن طويل تعمل في ورشة أزهار اصطناعية في شارع حديقة مونتسوري. وعندما ظهرت صورتها في الجريدة بمناسبة اكتتاب مفتوح لصالحها، هرعت مذعورة.

– أرجوكم أن توقفوا هذا! أدرك أنه ليست لكم غير النوايا الطيبة، لكنكم لا تعرفون الألم الذي تسببونه لي. لقد استدعتني الشرطة أمس بالذات. سألوني، بخشونة كم قبضت لأطلعكم على الأمر، وعبثاً أقسمت، باكية، على أن لا شأن لي في الأمر. فهم لا يريدون أن يصدقوني. هددوني. رب عملي غاضب، هو أيضاً، لأنه خصم لسياستكم.

لم تقتصر قضية جيانيني، على كونها أمنت إعادة انتخاب مارسيل، بل إنها كانت منصة انطلاق لجريدة «السوط» التي كان فرانسوا قد أسسها، حالاً، بعد ذلك، والتي حررت أعدادها الأولى في المكاتب نفسها.

كانت تلك الفترة هي التي أسكن، فيها، فيفيان في شارع دارو.

وصل بييدبوف إلى أغراضه بهدوء تام. كان الذي يقصده، وقد تبين ذلك، أخيراً، هو العريف الأول بوتاريل، المساعد الأيمن للمفوض جامار الذي كان يدير شعبة المخدرات. كان بوتاريل هو من كتب التقرير الذي أنهى حياة بييدبوف المسلكية.

إلا أن بوتاريل هذا نفسه قد شوهد، في «الزنجي»، أمام عشاء فاخر بصحبة الأخوين جيانيني ولويز مارياني.

وفي مرة أخرى، حطم، في حركة غضب، كاميرا مصور كان يحاول أن يأخذ لقطة حية في اللحظة التي كان، فيها، خارجاً، في وسط النهار، من بقالية جيانيني، في شارع بوسني وذراعاه محملان بالرزم.

كان نشاط بييدبوف غزيراً بقدر ما كان غامضاً. كانوا، في التحرير، يتساءلون كيف يحصل على الوثائق التي كان يقدمها دون كلل والتي ثبت، على الرغم من الشكوك التي أحاطت بها في البداية، أنها حقيقية. هل كان يجب الاعتقاد بأنه توصل إلى إشراك صهره في لعبته؟ كان يلمح، أحياناً، إلى أنه كان يتقاسم المال الذي يعطونه إياه مع شخص يحتل مركزاً عالياً جداً وشره جداً.

وفي مرات أخرى، كان يدعي أنه احتفظ بقدم في «البيت» وهو الاسم الذي استمر في إطلاقه على الشرطة القضائية، وأن بعض زملائه السابقين لم يكونوا يرفضون له طلباً.

كان يعيش في الضواحي، في بور لارين، مع زوجته وولديه. في ذات يوم كان يفيض، فيه، بالإسرارات، عرض على فرانسوا صورة ابنته البكر التي كانت تبلغ السادسة عشرة، وكان مربكاً سماعه يقول بضحكة غريبة:

– هذه البنت قطعة جميلة، أليس كذلك؟

في ثلاث سنوات، لم ير فرانسوا خصمه جيانيني العنيد، سوى مرة واحدة. وفي حين أن «صدى سان جيرمان دي بريه» ثم «السوط»، قد نشرتا صورته عدة مرات، وقبل أن يفكر في أن الرجل سيصنع، ذات يوم، ثروته، رآه فرانسوا، ذلك المساء، في مخزنه ولم يتعرف عليه.

كان يتعشى في ملهى فخم، «المونسنيور» مع شموع على الطاولة، في صحبة فيفيان. كانت ترتدي فستاناً حريرياً يلف جسدها، وهو ما كان يجعل منها جديرة بأن ينحت لها تمثال. كانت الكمانات تنتقل من طاولة إلى أخرى. همست وهي تنحني على أذنه:

– هل رأيت؟

– من؟

– جيانيني!

كان هذا الأخير جالساً تجاههما، على مسافة خطوات، سميناً قليلاً في بزة السموكنغ، وكان مع رجل متقدم في العمر وامرأتين إحداهما شقراء جداً تتزين بفيض من المجوهرات وتضحك بصخب.

جيانيني الذي كان يدخن لفافة نظر إليه طويلاً وهو ينفخ الدخان أمامه. لم ينهض ليهاجمه كما فعل رجاله في مقهى فوكيه أو ليطلب منه إيضاحات. اكتفى بأن يراقبه، مدهوشاً، حالماً. ثم مد كأسه، رافعاً كتفيه، إلى رئيس الخدم ليصب له شمبانيا.

كانت فيفيان، هي الأخرى، مدهوشة من موقف فرانسوا، وليس من موقف جيانيني. سألته مع شيء من المماحكة:

– ألا تخاف أبداً؟

اليوم، كان بيدبوف، في حانة الغلوب، أكثر عصبية من المعتاد، بل وكان يبدو عدوانيا. لا بد أنه كان يهوى البليار لأنه لم يستطع، خلال كل المحادثة أن يمتنع عن أن يتابع بعينيه الكرات على أقرب مباراة بليار إليه.

– بالطبع، ليست لديك أدنى فكرة عما جرى، أمس، في شارع سوسيه.

وبما أن فرانسوا لم يرد لأنه لم يكن لديه ما يقول وكان ينتظر بصبر، قال:

– مفتش بسيط في الأمن استدعي إلى مكتب الوزارة، وهو ما لايحدث، فعلاً، في كل الأيام. كان هناك رئيسا بوليس الدولة الكبيران. عمن دار حديث هؤلاء السادة في رأيك، والأبواب مغلقة تماماً مع حاجب في الخارج يجيب بأن السيد الوزير كان في اجتماع؟ عن واحد يدعى فرانسوا لوكوان وعن جريدته «السوط». المفتش، إذا كان الأمر يهمك، يدعى جوريس.

– الذي جاء إلى المطبعة اليوم؟

– إنه هو.

– ظن بوسوس أنه تعرف عليه من وصفه.

– بوسوس ليس غبياً تماماً، وهو قديم في المهنة إلى درجة تكفي لمعرفة ما يجري. إلا أنه يحسن صنعاً إذا كان أكثر انتباهاً إلى ما يجري في الجريدة. لا شك في أنك تتخيل أن هؤلاء السادة أزعجوا أنفسهم بسبب جيانيني. دعني أخبرك بأن هذه القضايا لا تهمهم في شيء. ماذا أقول؟ بما أننا نتهم أشخاصاً من الشرطة القضائية، وبما أن الداخلية لا تحبهم كثيراً، فإنهم، بالأحرى، مسرورون. وكذلك لم يتحركوا بسبب هذا المصرفي أو ذاك السياسي اللذين كشفت جريدة «السوط» قذاراتهما الصغيرة.

«خلال سنتين، تركوك في سلام، يجب أن تسلم بذلك. طيلة الوقت الذي عملت استناداً إلى معلوماتي، لم تقع في أدنى مشكلة.

«إلا أنهم ينتقلون، منذ اليوم، إلى الهجوم، وعندما يطلقون رجلاً مثل جوريس في القضية، فذلك لا يبشر بشيء جيد بالمرة.

سحب، أخيراً، ورقة من جيبه، مقتطفاً من جريدة، أو، بصورة أصح، قطعة من ورقة تصحيح.

– من أعطى هذه للطبع؟

وصل إلى تأثير المفاجأة المطلوب. كان النبأ يبدو غير خطير، واحداً من هذه الأنباء المتفاوتة الوعورة التي كانت «السوط» تملأ بها عدة صفحات كل أسبوع، تحت عنوان: «هل صحيح أن..........»

«.......إحدى أرقى سيدات ضاحية سان جيرمان، الكونتيسة دو........التي يعد صالونها من أهم صالونات باريس لم تكن، دائماً، كونتيسة، وأن أباها، وهو واحد من كبار تجار زيت المائدة، قد بدأ، في وهران، كبائع فستق؟.............

«.......إن هذه الكونتيسة نفسها عاشت شباباً حافلاً وأن أحد عشاقها السابقين الذي لا يبدو أنها قد نسيته كان، مؤخراً، موضع ترقية غير متوقعة في إحدى دوائر الدولة الكبيرة؟

«..........إن ميل بعض الشخصيات إلى الحفلات المربعة قد لا يكون غريباً عن هذه التسمية؟.......»

لاحظ فرانسوا بهدوء، بعد أن قرأ، قائلاً:

– لكن هذا لم يصدر بعد

– فعلاً، هذا سيظهر في عدد الغد، إذا لم يصادر العدد.

– ألم تفهم بعد؟ النبأ لم يصدر، أنت قلت ذلك، ومع هذا، فبسبب هذا النبأ اجتمع هؤلاء السادة في الساعة الخامسة من بعد ظهر أمس. وفي هذا الصباح، ذهب المفتش جوريس ليقوم بجولة في المطبعة. هل فهمت؟ هذا يعني أنهم كانوا يعلمون، أن أحدهم قرأ النص.

– أتعتقد أن واحداً من عندنا.......

– هذا ممكن. أنا لا أثق بأحد، ولا حتى بصهري دائماً. إلا أنه تبقى هناك فرضية أخرى هي أن صاحب النبأ والذي حمله إلى الوزارة هما الشخص نفسه.

– لا أفهم.

– اعلم. أنا هنا لأشرح لك. هل أنت موافق على أن هناك أشخاصاً، في باريس، سيسعدهم تدمير حياتك المهنية وزوال «السوط»؟ حسناً! لنفترض أن

واحداً من هؤلاء الأشخاص قد كتب هذا المقال ليصب عليك صواعق رجل ذي نفوذ، وأرسله إليك وحمله إليه......

– أخمن.

– أنت لا تخمن شيئاً بالمرة. هل تعلم، فقط، إلى من يجري التلميح في هذه الأسطر القليلة؟ ببساطة إلى وزير المال الذي لا يعد مضاجعاً جيداً. أما بالنسبة للكونتيسة التي تهاجمونها، فإنها، منذ زمن طويل، المرأة المسموعة الكلمة لديه إلى حد عقدت، معه، جلسات حكومية حقيقية في قصرها في شارع سان جيرمان. وضعت البروفة تحت أبصار الوزير. أخطر هذا الأخير، غاضباً، زميله وزير الداخلية الذي لا يرد له طلباً. ومن هنا اجتماع الأمس الذي كان نوعاً من مجلس حربي. هذا الصباح، تأكد جوريس، في المطبعة، من أن الورقة ستنشر حقاً.

قال فرانسوا متأثراً:

– سأهتف، فوراً، لبوسوس.

– الأفضل أن تذهب أنت بنفسك. سوف يزعق لأن القوالب انتهت في هذه الساعة، والآلات لن تلبث أن تدور. هيأت لك ورقة صغيرة لتحل محل التي ستطير. أعطها، من جهتي، إلى بوسوس. في الحقيقة، هذه لعبة جيدة نلعبها عليهم لأنهم سيتساءلون عن معجزة صدور «السوط» دون النبأ المقصود. الأكثر إضحاكاً هو أن يكون الأمر قد وقع فعلاً، وأن يصادر هؤلاء السادة، غداً، جريدة لن يكون فيها شيء.

لم تقبل السيدة غونيشون، أبداً، أن تأكل على مائدتهما عندما يكون فرانسوا هناك، ولم تكن توافق على ذلك إلا عندما يكون بوب، وحده، معها. كانت امرأة طويلة وقوية، أرملة، وكانا ولداها متزوجين.

في البداية، نامت في غرفة الغلام القديمة، في حين كان الأب والابن مستمرين، في تقاسم الغرفة الكبيرة كما في فترة وجود جيرمين في المستشفى. ثم حصل فرانسوا على غرفة صغيرة لها في الطابق الأعلى، وعاد بوب إلى غرفته.

بدل أثاثها وكانت جميلة إلى حد كاف. جددت كل أوراق الجدران. لكن معظم قطع الأثاث بقي في مكانه. مع جهاز راديو فخم.

عندما غادر فرانسوا المطبعة حيث جن جنون بوسوس، أحس بالحاجة إلى أن يذهب ليثرثر مع راوول الذي كان يعلم أنه سيجده، في هذه الساعة، على رصيف الحانة الملكية. خلال أشهر، قال ما هو أسوأ من شنق رجال المستعمرات، وفرانسوا لم يشك في شيء عندما تبنى أخوه حانة الشارع الملكي.

إلا أن هذه الحانة كانت ملتقى قدامى مستوطني مدغشقر والهند الصينية وافريقية الاستوائية والغابون. وكان يجري التعرف عليهم من لون بشرتهم ومرض الكبد لديهم، وغالباً ما كانوا يسمعون يستمتعون بالثرثرة بلغة وطنية ما.

لم يكن راوول يتحدث إليهم. كان وحيداً، دائماً، وكان يصغي إليهم وهو على طاولة أمام كومة من الصحون الصغيرة.

أجاب فرانسوا الذي أطلعه على نشاط الشرطة قائلاً:

– سواء أكان ذلك الآن أو السنة القادمة، أفترض أن لديك ما يكفي من الحس السليم لتعلم أن هذا لن يدوم إلى الأبد.

أضاف كلمة ربما كانت تشرح طريقته في النظر إلى أخيه:

– وفضلاً عن ذلك، أليس هذا ما تتمناه؟

لم يتأخر فرانسوا لأنها كانت ساعة العشاء في شارع دولامبر. كان قد ترك سيارته عند الباب بدلاً من أن يقودها إلى المرآب. وكان بوب قد انحنى على النافذة لدى سماعه ضربات الزمور الثلاث الصغيرة.

كان قد كبر كثيراً، وكان نحيلاً جداً، مع صوت كان يتغير وحركات خرقاء كما لو كان لم يتعود، بعد، أن يكون رجلاً.

لم يكن يبدو على السيدة غوديشون أبداً أنها مسرورة عندما كان فرانسوا يعود للعشاء. كان يمكن أن يقال أنه سوف يسرق منها انفرادها ببوب.

– ليس لدي سوى وجبة باردة. لم تهتف لتقول لي أنك ستأتي.

كان قد ركب هاتفاً في الشقة، وكذلك حماماً حديثاً، وتغير المطبخ تغيراً كلياً.

- هل أنت خارج يا بابا؟

هل كان بوب، أيضاً، يتمنى أن يراه يرحل؟ غالباً ما طرح على نفسه هذا السؤال. في بعض المرات، كان يحصل لديه الانطباع، وهو يعود للعشاء، بأنه يقطع جواً حميمياً ليس له فيه أي نصيب. كانت هناك ضروب صمت مربكة. كانت السيدة غوديشون تتبادل، مع بوب، نظرات لم يكن يستطيع فهمها.

هل كانت تعلم أن الغلام ذهب، هذا الصباح، إلى المقبرة؟

كان ذلك محتملاً. ربما كانت هي التي اشترت الورود. لابد أنه كان عليها أن تستيقظ قبل المعتاد لتحضر له طعام إفطاره.

كانا، كلاهما، يتخيلان أنه لم يكن يعرف، وكان يود، حقاً، أن يقول لهما، أن يقول لبوب على كل حال، أنه ذهب إلى ايفري هو أيضاً.

- احتفظت بالسيارة من أجل أن نذهب، نحن الاثنين بعد قليل للتنزه. شريطة أن يسرك ذلك طبعاً.

- أنت تعلم أن هذا يسرني دائماً، ولكن.......

هل كانت السيدة غوديشون توجه، من وراء ظهر فرانسوا، إشارات للطفل؟

- لكن ماذا؟

- لا شيء، سأفعل ذلك غداً صباحاً......

- إذا كان شيئاً هاماً.........

- لا يا بابا، يسرني أن أخرج.

كان يحب السيارة، خاصة تلك التي اشتراها فرانسوا منذ بضعة أسابيع، للصيف، والتي كانت مكشوفة. بين حين وآخر، كانا يذهبان في جولة بالسيارة عند الغروب. كانا يسيران موازيين للسين حتى سان كلو ويأخذان أوتوستراد

دوفيل ماضيين، أحياناً، حتى مانت لا جولين حيث كانا يبتردان على رصيف مقهى على ضفاف الماء.

– هل ستعلمني قيادة السيارة؟

– ربما هذا الصيف، في الريف أو على البحر.

– هل ستأتي إلى البحر معي؟

– آمل في أن آخذ عطلة لمدة شهر.

– منذ ثلاث سنوات وأنت تقول ذلك ولا تأتي، أبداً للقائي إلا في عطل الأسبوع.

هل كانت لدى بوب، حقاً، محبة حياله؟ في بعض الأيام، كان مقتنعاً بذلك. وفي أيام أخرى يحس بالارتباك أمام الطفل. وبالضبط، بسبب ارتباك هذا الأخير، كان بوب يشعر، دائماً، بالحاجة إلى أن يتحدث عن أشياء متنوعة، كما لو كان يفهم أن أباه كان يود أن يطرح عليه أسئلة كان يفضل عدم سماعها.

كان هناك سؤال، بسيط جداً، من شأنه أن يمهد الطريق إلى حد بعيد. هل كان رفاقه، في ستانيسلاس يتحدثون عن جريدة «السوط» ومديرها؟ إذا كانوا يفعلون، فربما كان هناك صبيان يبقون بوب في معزل عنهم. وربما كان الأمر أخطر من ذلك.

حتى السنة السابقة، عمل جيداً وكانت نتائجه لامعة إلى حد كاف. إلا أنه تحول، فجأة، في بضعة أشهر، إلى تلميذ سيء كما لو كان قد أضاع الميل إلى الدراسة، أو كما لو أن حياة المدرسة أصبحت شاقة عليه.

– سنعود بعد ساعة أو ساعتين يا سيدة غوبيشون. أفترض أنك لا تتمسكين بمرافقتنا.

– من الذي سيغسل الصحون عني؟ خذ سترة يا بوب. الجو حار الآن، ولكن برد الليل سيأتي، فجأة، بعد ساعة.

انزلقت السيارة بصمت في الشوارع شبه الخالية، مرت قريباً من برج إيفل. التقيا، قرب جسر ميرابو قافلة متأخرة من القوارب.

– أليس لديك ما تقوله لي يا بوب؟

– كلا يا بابا. لماذا؟

– لا أدري. أنا مسرور من وجودنا، نحن الاثنين معاً. إنها، دائماً، أفضل برهة في يومي، أتعلم ذلك؟

– نعم.

– أتتذكر اليوم الذي ذهبنا، فيه، للمرة الأولى، إلى دوفيل كصديقين؟

– نعم.

– ألا أزال صديقك يا بوب؟

– نعم.

كان ذلك يضايق الطفل، وكان يعلم ذلك، لكنه كان، في ذلك المساء مشتعل القلب قليلاً، بسبب الورود على القبر احتمالاً. أليس ذلك، بعد كل شيء، من قبيل الغيرة؟

– أود أن تكون سعيداً، أن لا تكون فقيراً أبداً.

كان بوب، إلى جانبه، يحدق، مغلق الوجه، في المنظر الذي كان ينزلق إلى جانبهما.

– هل تذكر عندما كنا فقيرين؟

– لا تتحدث عن هذا، هل تريد ذلك يا بابا؟

– أنت على حق. لم أعد أريد أن أفكر في ذلك. إنه أقبح مما ينبغي، أرهب مما ينبغي. أقسمت على أن لا نعود فقيرين أبداً.

كانا يصعدان منحدر سان كلو. كانا يستطيعان المرور ببوجيفال ومشاهدة لاغلوربيت حيث ولدت أم فرانسوا. كان، الآن، بناءً قديماً مهدماً، ذا لون أصفر كالح وبحديقة بور كان يحمل لافتة «للبيع»

ربما بدأ الآن يعرف معرفة أفضل أمه التي لم تستطع، قط، أن تتعود. لن يتعود هو بدوره. لن يرضى، بأي ثمن، من جديد، بالمهانة والخوف الأبديين، بهذا الإحساس الباعث على اليأس بالصغار الذي يعطيه الفقر.

– أ أنت مسرور من دراجتك الجديدة؟

– نعم يا بابا، إنها رائعة.

كان يشتري له كل ما يريد، يتفنن في استباق رغباته، وكان يحصل لديه الانطباع بأن ابنه يجب أن يكون يبذل جهداً ليبدي فرحه.

– شكراً، أنت تعلم يا بابا، أنا مسرور جداً.

لم يكن يلاحظ، أبداً، حماسة حقيقية. كان يفتقد الشرارة.

– الجو لطيف هذا المساء.

– نعم.

– أتريد أن نذهب لنأكل بوظة في مكان ما؟

– إذا شئت.

كانا يلتقيان سيارات أخرى، وكان يرى فيها، أزواج، وكان بعضها محملاً بالزهور المقطوفة في الريف. كان هذا يذكّره بورود الصباح، ويصمت ناظراً إلى الطريق أمامه.

كان نافلاً أن يدل الغلام، مرة جديدة، على البيت الذي ولدت، فيه جدته. لم يكن ذلك يعنيه.

بماذا كان يمكن أن يفكر؟

وكما لو كان ذلك ليرد على هذا السؤال، تمتم في برهة معينة:

– لم يأت العم راوول، منذ زمن طويل، إلى البيت.

حتى العودة إلى شارع دولامبر، شعر فرانسوا بالفراغ.

(٤)

في اللحظة التي كان يوقف فيها سيارته في الشانزيليزيه، لمح الآنسة بيرت خارجة من محطة مترو جورج الخامس وانتظرها لحظة. مفتش الأمس لم يكن هناك. لم يكن ذلك يعني شيئاً. ربما بدلوه أو ربما كانت نوبته لا تبدأ إلى في الساعة التاسعة.

كانت الآنسة بيرت تمشي بخطى صغيرة، بوقار، مع شيء من الرسمية، كدجاجة صغيرة. تساءل عما كانت تفكر، فيه، في تلك البرهة، بالذات، التي لم تكن تعلم، فيها، أنها مراقبة، ثم عما كانت تفكر، فيه، حوله. كانت تقية جداً وكانت لها أفكار جاهزة حول كل الأمور. في كل صباح، وقبل أن تركب المترو، كانت تجد وقتاً للذهاب إلى القداس. كانت تكره شارتييه الذي كان يروي أمامها، على سبيل اللهو، عارفاً بأنها حيية وحساسة، قصصاً مبهرة، ويختار أكثر الكلمات فجاجة.

خلال زمن طويل، أغضبها، في كل مرة كان يمر، فيها، قريباً منها، وتكون واقفة، بالربت على ردفيها الممتلئين. وعندما تكون جالسة، كان يمد ذراعيه، بسرعة خاطفة أمامها، متظاهراً بأنه يمسك بثدييها.

وقع حادث مشهور صرحت خلاله:

– إما أن يذهب هو أو أذهب أنا.

استطاع فرانسوا الاحتفاظ بالاثنين ولكن ليس دون مشقة. وعد شارتييه بأن يبقى هادئاً. التزم بوعده تقريباً، بمعنى أنه استبدل التكشيرات بالحركات.

– تلاحظين، يا آنسة، أن يدي في جيبي وأني لا أقول شيئاً.

وكان يمر لسانه على شفتيه وهو يحدق في صدرها.

دهشت عندما رأت فرانسوا على الرصيف.

- هل كنت تنتظرني؟ هل نسيت مفتاحك؟

- رأيتك تخرجين من المترو في اللحظة التي وصلت فيها وفضلت أن أصعد معك.

- ستكون الحرارة، اليوم، أشد منها في الأمس أيضاً.

أخذ البريد في طريقة، أوصلهما المصعد إلى طابقهما. كانت هناك مكاتب على جانبي الرواق. كان تنظيف الصف الأيسر يتم في ساعة مبكرة جداً صباحاً. وكان ينتهي في هذه البرهة، في حين أن الصف الأيمن الذي توجد فيه مكاتب «السوط» قد نظف مساءً بعد الإغلاق.

كان كلاهما يتصرفان ككل صباح. خلعت الآنسة بيرت قبعتها الفاتحة أمام المرآة، أصلحت شعرها وسوت بضعة دبابيس. ألقى فرانسوا، دون أن يجلس، نظرة سريعة على البريد.

سمعها تسأل بدهشة:

- ألم تصعد هذا الصباح؟

- كلا، لماذا؟

- ربما يكون شارتييه قد مر.

كانت هناك ثلاثة مفاتيح للمكاتب. كان هناك مفتاح مع الآنسة بيرت وآخر مع فرانسوا وثالث مع شارتييه. أما بالنسبة لخدمة التنظيف، فقد كانت تستعمل مفتاحاً خاصاً يفتح كل الأبواب. قال:

- يدهشني أن يكون شارتييه قد جاء مبكراً.

لم يعلق أي منهما، بعد، أهمية على ذلك. تذكر فرانسوا أن صبي المكتب كان مكلفاً، في ذلك الصباح، بمهمة تتعلق بصورة الغلاف. كان يجب أن يذهب إلى أوتوي في الساعة التاسعة ليحاول لقاء متعهد أشغال عامة في بيته بعد أن تعذر عليه الوصول إليه في مكتبه. كانت، في جيبه، بروفة الغلاف القادم وكذلك بروفة المقال الذي لن ينشر، احتمالاً، أبداً.

لم يكن الرهان كبيراً، مسألة عشرين ألف فرنك، إن لم يكن خمسة عشر ألفاً.

– تعال، انظر يا معلم. هناك رماد سجائر على آلتي الكاتبة. أقسم على أنها استعملت لأن الممحاة ليست في المكان الذي أضعها، فيه، دائماً، وحاملة الورقة المطبوعة ليست في الوسط تماماً. فتحت أدراجها، واحداً بعد الآخر.

– لقد نقبوا، بالتأكيد، في أغراضي.

– هل أخذوا شيئاً؟

– لا أدري. لا يبدو ذلك للوهلة الأولى. بل إني لن أستطيع أن أذكر، بالضبط ما الذي بدل مكانه، لكني أحسه.

كانت الملفات مصفوفة في حافظتين معدنيتين كان مفتاحهما يترك عادة تحت جرس برونزي يستعمل ثقالة للورق. كان جرس بقرة جبل. كان فرانسوا قد أتى به من السافوا عندما اضطر أن يأخذ ابنته إلى مصحة كان أمل شفائها، فيها، ضئيلاً.

كانت أوديل قد بدأت تكتب، قليلاً جداً، بصورة سيئة جداً، بعدد من الأخطاء مساوٍ لعدد الكلمات لأن مرضها كان يمنعها من الذهاب إلى المدرسة: فمنذ سنتين وهي تعيش راقدة.

– أنا متأكدة، يا سيد فرانسوا، من أن أحداً فتح الحافظتين. بالنسبة للحافظة اليسارية، لدي الدليل لأني لا أغلقها، أبداً، إلا بمجرد دورة واحدة منذ أن أصبح القفل يعلق عندما يدار دورتين. هذا الصباح، أدير القفل دورة مزدوجة.

كان راوول الذي وصل دون أن يلحظا ذلك يراقب بفضول أخاه الذي التقى، فجأة، نظرته

– هل سمعت؟

– نعم.

وأضاف بهدوء، متذمراً احتمالاً:

– أليس هذا ما أعلنته لي مساء أمس؟ إنهم يهاجمون.

التفتت الآنسة بيرت، بسرعة، نحو فرانسوا:

– هل تعرف شيئاً؟ هل هي الشرطة؟

– سأحاول أن استعلم.

عاد، بعد ربع ساعة، مهموماً. لم يكن يلزمه أن يغادر البناية:

– ليس هناك شيء في تقرير الحارس الليلي. استطعت أن أهتف إليه في بيته. لم يكن قد نام بعد. يدعي أنه لم ير ولم يسمع شيئاً. الوكيل بدا بارداً إلى درجة كافية. رأيت المرأتين اللتين نظفتا المكاتب بين السادسة والسابعة من مساء أمس. إنهما ذاتهما، دائما، ما عدا في أيام السبت. أنهما تؤكدان أنهما مررتا المكنسة الكهربائية في كل مكان، ولم يكن يمكن أن تتركا رماد سجائر.

غمغم راوول قائلاً:

– ولا عقب السيجارة الموجودة في منفضتك. هناك علبة كبريت فارغة في سلة الأوراق، وأحدهم برى قلماً وهو جالس في مكانك.

– اطلبي وكالة التوزيع، من فضلك، يا آنسة بيرت.

كان فرانسوا ثائراً من موقف أخيه الذي كان يذكره بقصة الانكليزي الذي كان يتبع السيرك على أمل أن يشهد، يوماً، الأسد يأكل المروض.

– آلو! وكالة التوزيع؟ هنا فرانسوا لوكوان. أهتف لكم لأعلم ما إذا كنتم قد استلمتم «السوط» كالعادة. ماذا تقول؟ ستكون في الأكشاك ظهراً؟ كلا، ما من شيء خاص. أمس، كانت المطبعة متأخرة وخشيت صعوبات في التوزيع.

لم تصادر جريدته، ليس بعد، على كل حال. في هذه الساعة تكون الطرود في طريقها إلى المحافظات فعلاً.

– هل يمكنك، يا آنسة بيرت، أن تتأكدي من أنه لا ينقص شيء في الملفات؟

– هذا ممكن، ولكنه يأخذ وقتاً طويلاً، وعلي أن أنجز، هذا الصباح، الحسابات مع السيد راوول.

– الحسابات ستنتظر.

- ألا تعتقد أن الشرطة كانت، بالأحرى، ستأتي نهاراً مع مذكرة تفتيش؟

بقي هادئاً، ولكنه فهم الضربة. كان يحس، منذ الأمس، بعبء يثقل كتفيه. هذا الصباح، كان مشتت البال، لم يوجه، تقريباً، الكلام لابنه أثناء الفطور وندم على ذلك. كانت السيدة غونيشون في أيامها السيئة. غادر شارع دولامبر دون حمية واجتاز طريقه دون نظرة إلى لون الشمس. توجه، بفراغ صبر، بالسؤال إلى راوول.

- وأنت؟ هل وجدت، على الأقل، من أتى بالنبأ؟

نادراً ما كان يتكلم معه بهذه اللهجة، وتظاهر أخوه بعدم ملاحظة ذلك. أخرج زجاجة من أحد الدروج وشرب جرعة من الزجاجة مباشرة، وهو ما كان يثير اشمئزاز الآنسة بيرت.

- اعذرني يا فرانسوا لعدم ردي عليك لأني كنت أفكر في شيء آخر. أراهن على أن هؤلاء الخنازير شربوا من زجاجتي.

ماذا كنت تقول؟ كلا يا صغيري، لم أتوصل إلى التذكر. أنت تعلم أنه يرد الكثير منها.

- ألم تعرف الخط، ولا الورق؟

- ربما كنت مستعداً لأن أراهن على أنه وصل بالبريد. بالنسبة للمتعاونين المنتظمين معنا، أنا ألح على أن تكون الأنباء، كالمقالات، مطبوعة على الآلة الكاتبة باستثناء الأسطر القليلة التي تكتب هنا في الدقيقة الأخيرة، أحياناً، وهو ما ليس عليه الحال. قل لي.

- ماذا؟

- ألا تعتقد أن الزيارة التي يجب أن يقوم بها شارتييه، هذا الصباح، تصبح ضارة إذا كان فردينان على حق وإذا كانت المكاتب قد فتشت، حقاً، الليلة؟

- فات الأوان على منعه. إنه هناك في هذه الساعة.

- لنأمل، في هذه الحالة، في أن لا يستقبله الزبون.

- ماذا تخشى بالضبط؟

- لا أدري. لست واثقاً.

كانت صبيحة مقيتة، كما يكون الأمر حين ينتظر المرء، بفراغ الصبر، عاصفة لا تندلع، وعندما يلتصق الثياب بالجسم. الذبابة، بالمناسبة، كانت راوول الذي لم يكن لديه ما يفعله لأن الآنسة بيرت كانت مشغولة، وكان في حاجة إليها لحسابات الأسبوع. كان يذهب من مكتب إلى آخر وهو يصفر، يلمس كل شيء، ينتصب، أحياناً، تجاه أخيه و يفحصه برزانة وهو يحك رأسه.

كان فرانسوا يجرد، كي يداري فراغ صبره، البريد بدقة مسجلاً ملاحظات غير مفيدة على الهامش.

لم يكن بوسوس يصل، أبداً، إلى المكتب مبكراً. خاصة غداة الإخراج. كان ذلك، كل أسبوع، الصباح الأجوف، وكان أصحاب الطلبات، أنفسهم. نادرون كما لو كانوا قد تبادلوا المعلومة.

رن جرس الهاتف.

- إنه شارع برسبورغ يا سيد فرانسوا.

لا بد أن فيفيان قد أنهت إفطارها في السرير، وكانت تحب، إذ ذاك، أن تجري مخابرات هاتفية طويلة.

- كيف حالك؟ وكيف حال ابنك؟

- جيد جداً، شكراً.

- يجب، حتماً، أن تذهب إلى سينما مابوف هذا الأسبوع. إنهم يعرضون فيلماً رائعاً. أتساءل عما إذا كنت سأرافقك لأراه مرة ثانية.

- نعم.

- ماذا بك؟

- لا شيء. ليس بي شيء.

- أهناك أحد في مكتبك؟ أتريد أن أهتف لك لاحقاً.

- كلا.

- هل نتغدى سوية؟

- لست متأكداً من ذلك. لدي عمل كثير هذا الصباح.

- هل ستهتف لي.

لم يكن لديه ما يأخذه عليها، بل كان العكس هو الصحيح. كانت لطيفة، بعيدة بقدر ما هو ممكن عن الإزعاج. بدلاً من أن تدفعه إلى الإنفاق، كانت هي التي تلجمه. كانت تمضي أياماً كاملة تنتظره دون أن تبدي فراغ صبر حتى حين يتركها معطلة في آخر لحظة.

هل كانت رونيه على حق؟

كان أحد الشروط التي وضعها بيبدبوف لعمله هو أن لا يحاولوا، أبداً، الاتصال به خارج المواعيد التي كان يعطيها، هو نفسه، بطرق ملتوية.

أما بالنسبة لبوسوس الذي لم يكن يأتي دائماً، فلم يكن الاتصال به هاتفياً، أو بطريقة أخرى، موضع بحث. فهذا الرجل الذي كان يروي أشد شؤون حياته حميمية لأول قادم، لم يكن متحفظاً إلا حول نقطة واحدة، لكنه كان متحفظاً، بشأنها، بصورة مطلقة: المكان الذي يعيش فيه. فبعد ثلاث سنوات، كان فرانسوا غير قادر على أن يقول في أي حي من باريس يسكن رئيس تحريره.

لماذا خطر اسم رونيه على باله؟ كان يبحث عن تداعي الأفكار الذي جعله يفكر في زوجة أخيه عندما هتفت له فيفيان. كان ذلك بسبب محاميه. كان يقول لنفسه أنه ربما كان من باب الحذر أن يذهب لاستشارته.

كان فاشلاً، هو الآخر، كبوسوس، كراوول، كشارتييه، كالمفتش السابق بيبدبوف. كان، وهو في عمر الخامسة والخمسين، يطوف في أروقة قصر العدل وهو يلوّح بكمي رداء قذر بحثاً عن مرافعة بعشرين فرنكاً. كانت له رذيلته كالآخرين. لم تكن الشرب. ولم يبدو لفرانسوا، كذلك، أنها النساء.

وجد، الآن، المجرى الدقيق لأفكاره. ماذا لو استطاع راوول، فقط، أن يتوقف عن الصفير! لم يكن يجرؤ على أن يقول له، اليوم، شيئاً خشية أن يفعل ذلك بأكثر مما ينبغي من الحدة.

فكر، إذن، في أن رجلاً كأخيه مارسيل كان من شأنه أن يكون المستشار المثالي في قضايا على هذا القدر من الدقة. كان لدى العجوز إلدرلان حدس.

ربما كان مارسيل غير قادر على مرافعة لامعة، ولكنه كان يعرف القانون في أدنى زواياه وأكثرها التواء خاصة.

كان، منذ أن يطرح سؤال في الحقوق، يتجمد مشدوداً كما تفعل، في الجو، بعض الطيور الجارحة. كان يحافظ على الوضع لحظة، ثم يجد حلاً كان من شأن قلة من زملائه المشهورين أن تفكر فيه.

كان فرانسوا لا يزال يتبع الخيط. النتيجة هي أنه من المؤسف أن يكون قد اختلف مع مارسيل.

وبما رونيه كانت سبب الخلاف، فقد أخذ يفكر فيها.

وهكذا انطلقت الدائرة على اعتبار أن بروده في الهاتف عندما هتفت له فيفيان جعله يفكر في زوجة أخيه.

- «أراهن على أنك ستفتقد هذا!»

كان قد احمر حين قالت رونيه ذلك. ومنذ ذلك الحين، غالباً ما اجتر هذه الجملة الصغيرة بكل ما كانت تحتوي عليه من باعث على الاضطراب. كان ذلك في الفترة التي غالباً ما رأى فيها، بسبب «صدى سان جيرمان دي بريه» زوجة أخيه. كان فرانسوا يتدبر أمره، بقدر الإمكان، ليذهب إلى رصيف مالاكيه عندما كان يعلم أن أخاه كان في مكان آخر، وأن البنتين كانتا، مع معلمتهما، تتنزهان في حديقة التويلري حيث كانتا تمضيان كل بعد ظهر تقريباً.

لم تلبث رونيه أن لاحظت أنها كانت تثيره. ولزمن ما - وربما لم ينقض هذا الزمن - مثلت الأنثى النموذجية، وفي كل مرة كان، في حضورها، لم يكن يستطيع أن يمتنع عن تخيل مضاجعات ضارية.

كان، خلال أحاديثهما، بالمرصاد لأية زاوية من بشرة مكشوفة مراقباً حركاتها، يقلص أصابعه إلى درجة إيلام نفسه عندما يلتصق فستانها بردفيها بصورة موحية..

- أصحيح أن لديك رذائل خفية يا فرانسوا؟

صوتها نفسه كان يحمله على التفكير باللحم في حالة نزو، بجسد مشدود على سرير.

- من قال لك هذا؟

- مارسيل. إنه يدعي أنك كنت كذلك وأنت فتى. قال لي أن لك، الآن، كعشيقة بنت أرصفة وأنك تنتظر، بصبر، أن تخرج من ذراعي زبون.

كان يجب أن يكون ذلك بعد أسبوع من إقامة فيفيان في شارع درو.

- لم تعد تمارس هذه المهنة.

- آه! إنها لا تضاجع سواك؟

- لدي كل ما يحملني على أن أفترض ذلك.

- أتساءل عما إذا لم يكن ذلك مؤسفاً يا فرانسوا.

- لمن؟ لها؟

- لها ولك، خاصة لك. أراهن على أنك ستفتقد هذا. يجب أن تحدث فيك تأثيراً معرفتك بأن رجلاً آخر «عالجها» قبلك.

كلمة « عالجها » بقيت في ذاكرته وكانت، بصورة أفضل من أية كلمة أخرى، تستدعي صوراً دقيقة إلى ذهنه.

- اعترف بأنك كنت فاجراً دائماً.

- لا أدري ما الذي تقصدينه بذلك.

- قص علي كيف بدأت.

كان قد دخل في اللعبة، فهم أن أمامه أنثى مهيجة. كانت تستقبله، دائماً، في صالون يؤدي إلى غرفتها. وغير بعيد عن منضدة مرصعة جميلة

جداً، كانت هناك أريكة مغطاة بالساتان الأصفر كانت معتادة على أن نتمدد عليها بتَراخٍ.

- قص عليّ!

- ماذا؟

- المرة الأولى.

- كنت في السابعة عشرة من عمري.

- ولم تكن قد لمست امرأة أبداً؟

- كلا.

- ولا حتى بإصبع؟ أنا كنت في الثالثة عشرة من عمري ألعب، فعلاً، مع شقيق إحدى صديقاتي في المدرسة. كيف كانت؟

- كان لها عمرك، وتشبهك قليلاً، لكنها أقل نعومة. كانت زوجة رب عملي، ناشر في شارع جاكوب أفلس.

- أكانت هي التي بدأت؟

- أظن ذلك.

وروى لها مغامراته مع إيميه، في حين كان يرى بطنها يرتعش وفخذيها يتلاصقان بعصبية.

- أكانت فاجرة هي الأخرى؟

- أظن ذلك. كانت تتفنن في فعل هذا في أقل ما يتوقع من أمكنة.

- مثلاً؟

- في ذات مرة، في مكتبي، في حين كنا نسمع صوت زوجها من الجانب الآخر من الباب وفي حين كان يمكن أن يرونا من النافذة لأن الوقت كان شتاء والمصابيح كانت مضاءة. وفي مرة أخرى، كان ذلك في أدغال غابة بولونيا.

- وفي التاكسي أيضاً؟

– وحتى في عربة قديمة، وعدة مرات في مقصورة في سينما ماكس لندر التي لم أعد إليها أبداً.

– في أمكنة أخرى أيضاً؟

– اعتقد أن إمكانية أن يفاجئنا أحد كانت تثيرها. في بيتها، كانت تتعمد أن لا تغلق الباب. في ذات يوم، دخلت الابنة الصغيرة لجارة.

– ماذا قالت؟

– لم أعد أتذكر.

– هل كان زوجها يعلم؟

– غالباً ما تساءلت حول ذلك. لا بدَّ أنه سجن ثلاث سنوات. لا أعلم ماذا حل بهما.

– و.......

كانت تطرح أسئلة متزايدة الدقة، تقنية تقريباً، بصوت لم يكن، قط، في هذه البحة. أجاب عن سؤال بسذاجة تقريباً:

– لم تكن ترتدي سروالاً داخلياً أبداً.

ضحكت ضحكة حارة وكشفت عن جسدها بحركة سريعة.

– ولا أنا أيضاً. انظر!

– للأسباب نفسها؟

كان يرتجف. لم يكن يستطيع أن يرفع بصره عن بطن رونيه وأحس بدوار. تساءل عما إذا كان وجود مارسيل أو أي كان من شأنه أن يوقفه، وفهم، فجأة، الرجال الذين يقترفون اغتصاباً.

كانت مستمرة، عند أعلى نقطة استثارة، وعيناها نصف مغمضتين فعلاً، وشفتاها ذديتان:

– لاحظ أن الباب مفتوح، هنا أيضاً، وأن هناك ثلاثة من الخدم، أحدهم رجل في الشقة.

كان هذا، بالنسبة إليه، على حدة موجعة. عجنها بدرجة من السعار لا بد أنها تركت كدمات زرقاء على كل لحمها الأبيض جداً، وهو يتذكر التجويف في الأريكة والوسادة المشوهة بعد ذلك.

– ألا يعذبك ضميرك لمضاجعتك زوجة أخيك؟ صحيح أن المسكين لا يفيد من ذلك إلا قليلاً جداً!

كانت أكثر تعقيداً مما كان يظن في الغد والأيام التالية هتف لها عبثاً.

بدأت الانتخابات. كان فرانسوا يتهيأ لإطلاق «السوط» وكانت رونيه قد ساهمت بقسم من الأموال لحسابها الشخصي لأن مارسيل كان يخشى الانخراط في هذه المغامرة.

حاول فرانسوا أن يرى أخاه لتسوية حسابات الجريدة الانتخابية.

– سأكون في مكتبي في الساعة الرابعة من بعد ظهر اليوم!

تلقى فرانسوا استقبالاً جليدياً. مارسيل تركه يقدم حساباته وهو يلقي عليه نظرة ملحة ليس فيها أدنى حرارة إنسانية. قال أخيراً، كما لو كان يصرف ضيفاً ثقيلاً:

– حسناً! لن تسنح لنا، بعد اليوم، فرصة رؤية بعضنا، ويسعدني ذلك!

– وهو ما يعني؟

– أعتقد أنك نلت ما أردت، بل وأكثر. سنبقى عند هذا الحد.

لم يكن فرانسوا واثقاً، بعد، من أنه يفهم.

– سيسرني منك، من الآن فصاعداً، أن لا تعود تطأ بقدميك رصيف مالاكيه ولا مكاتبي. الخدم والحجاب تلقوا أوامري.

وأضاف، وهو يشبك أصابعه التي كان يشد عليها بقوة، كما لو كان ذلك ليمنع نفسه من الضرب:

– رونيه روت لي كل شيء....اذهب! كرر، مرتين أو ثلاثاً، بغضب، ولكنه غضب بارد:

– اذهب....أسرع.....اذهب!

ربما كانت رونيه على حق فيما يتعلق بفيفيان. لم يجرؤ على سؤالها لماذا أحست بالحاجة إلى أن تروي كل شيء لمارسيل. ذلك أنه رآها ثانية. جاءت،

بعد صدور العدد الثاني من «السوط»، إلى المكتب. كان لا يزال المكتب القديم العفن في الضفة اليسرى.

لم يكن هناك كما لدى السيد دوتيل، سوى غرفتين، وكان بوسوس يجلس في الأولى، في حين استقبل فرنسوا زوجة أخيه في الأخرى. سأل:

– هل رأيت عددنا الأول؟

– رأيته ولذلك، بالضبط، جئت. أنا لا أنتقدك. ليس لدي مأخذ عليك. لكني لا أرى أنه من الحذر، في مثل وضعي، أن أسهم، مهما كان إسهامي قليلاً، في أسبوعية من هذا النوع. لا تخف، لا أطلب منك رد إسهامي الطوعي. تسديد ما دفعته ليس موضع بحث. حظاً سعيداً يا فرانسوا. أنت رجل ظريف. أتساءل، أحياناً، إلى أين تمضي.

كالآخرين. هل كانت في ذهنها فكرة خفية عندما جاءت إلى المكتب؟ هل كانت ذكرى إيميه هي التي دفعتها؟ كانت تنظر إلى الفوضى، إلى الأثاث المشترى من حانوت للأشياء المستعملة، إلى الأرضية القذرة ونوافذ البيت المواجه الذي كان يرى عبر الزجاج دون ستائر. في إحدى هذه النوافذ، كان عجوز يدخن غليوناً، وعلى الرغم من نصف ظلمة المكتب، لا بد من أنه كان يميز بقعة الوجوه الفاتحة.

– أكان الأمر هكذا لدى ناشرك؟

– مع بعض الفروق.

ولإكمال الوهم، سمع، فجأة، صوت بوسوس يتحدث على الهاتف. قالت من طرف أسنانها كما لو كان ذلك تحدياً.

– أشتهي، تقريباً، أن أجرب.

وبينما كان يمسك بها مقلوبة على المكتب، رأى أنها استمرت في التحديق في العجوز من النافذة.

لم تعد أبداً. لم يكن يراها إلا من بعيد، في المسرح، في سباق الخيل، على رصيف في الشانزيليزيه. لم يعد إلى دوفيل. في السنة الأولى، أمضيا العطلة في

السافوا، هو وبوب، للاقتراب من أوديل ثم، عندما دخلت هذه الأخيرة إلى المصح، تبنيا ريفاييلا، غير بعيد عن مدينة كَن حيث وجد إقامة لابنه.

هل كان فرانسوا، حقاً مختلفاً عن الآخرين؟ هل يوجد رجال ليس عليهم أن يصارعوا أفكاراً مربكة، أن يحيطوا أنفسهم بضبابهم؟ هو فعل ذلك، دائماً، منذ أن كان صغيراً جداً. وربما كان ذلك ما كان مارسيل يسميه فجوراً.

كانت «السوط» تفضح، كل أسبوع، رذائل عدد ما من الأشخاص المشهورين، وكانت هذه الأنباء تصل إلى الجريدة أكداساً. هل يجب أن يظن أنه لا يوجد أشخاص مختلفون، أناس أسوياء حسب تعبير أمه؟

هل كانت، هي نفسها، سوية بغرورها التافه، بهواجسها التي غرستها فيهم ورؤيتها للعالم المتمحورة كلياً حول المال؟

أكان أخواه مارسيل وراوول أكثر سواء منه؟ هل حصل مارسيل، بوسائل سوية، على ابنة وثروة العجوز إلدرلان الذي أمضى حياته في استغلال معاصريه؟ راوول الذي تزوج مرتين، لا يعرف أين كانت زوجتاه ولا ما صارت إليه ابنته، ولم يكن يبدو عليه أن مهتم بذلك.

أكان يمكن إعطاء جديه السكيرين، من جانب لوكوان، كما من جهة ناي، كنموذج يحتذى؟

لم يكن هناك، في الأسرة، من كائن سوي، بالمعنى الذي تقصده أمه، سوى أبيه، لأنه استسلم لأنه لم يرد أن يناضل، أن يسبب ألماً، لأنه حرص على أن ينقذ المظاهر، بسبب أبنائه احتمالاً، ولأنه كان منغلقاً على ذاته.

وكان يحس، أيضاً، على ذمة راوول، بالحاجة، أحياناً، إلى تسلية بائسة وعابرة في بيت ما من شارع سان سولبيس.

– توقف عن الصفير يا راوول، أرجوك.

– لماذا لم تقل لي، من قبل، أن ذلك يضايقك؟

ربما كان ذلك، جزئياً، جواباً عن مسألته. لماذا لم يقل ذلك؟ كي لا يخجل أخاه، كي لا يبدو أنه يلعب معه لعبة المعلم، عن حياء. إلا أن ذلك كان، بالضبط، لو أنه لم يكن يؤخذ عليه سكوته. تمتم كي يغير أفكاره:

– لا يزال بوسوس غير موجود هنا. أراهن على أنه يشرب أول كأس جعة على بار سيلكت وأنه سوف يصعد.

– أما زلت لا تعلمين ما إذا كان ينقص شيء يا آنسة بيرت؟

– ألاحظ فقط تفصيلاً غريباً. انظر إلى هذه الرسالة مثلاً. هناك ثقوب صغيرة، كثقوب دبابيس، في زوايا الورقة الأربع. أنا متأكدة من أني لست من صنعها. ليست هذه الورقة وحيدة. هناك حوالي عشر منها مثقوبة بالطريقة نفسها.

– ضعيها جانباً من فضلك.

– بدأت في ذلك من قبل، لكني لم أنته، وربما كانت هناك أوراق أخرى.

أخيراً، ظهر بوسوس الضخم في إطار الباب، وشعر كل منهم، لسبب يعلمه الله، بالراحة، كما لو كان يحمل الحل لكل المسائل.

– تعال معي إلى مكتبي يا فرديناند..

– هل من جديد يا معلم؟

لم يكن، أبداً، في حالة جيدة صباحاً، ولم يكن يبدأ بالعيش، حقاً، إلا بعد أربع أو خمس كؤوس من الجعة.

– فتشوا المكتب ليل أمس.

– الشرطة؟

– الآنسة بيرت تقوم بالتأكد من أنه لا ينقص شيء من الملفات. وهذا ليس كل شيء. هناك ما يشبه ثقوب دبوس في الزوايا الأربع لبعض الوثائق.

– ثبتوها على لوح لتصويرها.

– هذا ما فكرت فيه.

– بما أنهم لم يفعلوا ذلك هنا نظراً لنقص الوسائل، فقد أتوا، إذن، مرتين، على الأقل. ماذا يقول الحارس؟

– هتفت له. يدعي أنه لم ير ولم يسمع شيئاً غير طبيعي.

– إنها الشرطة إذن، وقد أوصته بالسكوت.

– الوكيل بدا لي بارداً جداً هذا الصباح. حصل لدي الانطباع، وربما أكون محطئاً، بأنه كان يتوقع زيارتي ويلتزم جانب الحذر.

– الشرطة دائماً.

– وأخيراً، لم يرجع شارتييه.

– أين ذهب؟

– إلى أوتوي.

– صورة غلاف؟

– كان يجب أن يلتقي، في الساعة التاسعة، جيروم بوتييه، متعهد الأشغال العامة في مسكنه.

– أنا الذي كتبت المقال. أني أفهم.

– بلغت الساعة الحادية عشرة والنصف.

أفرغ بوسوس غليونه على الأرض ضارباً إياه بعقب حذائه وبدا، فجأة، أشد ارتخاءً وأشد وهناً من الصباحات الأخرى. قال:

– يبدو الأمر غير مبشر بالخير.

ونهض متنهداً وأعاد وضع قبعته على رأسه.

– هل أنت ذاهب يا فرنينان؟

– أنا ذاهب لأتناول كوباً على رصيف السيلكت إذا احتجت إليَّ.

– لم يصادروا الجريدة هذا الصباح.

– ليسوا أغبياء كثيراً.

تركت رؤية فرانسوا لظهر رئيس تحريره العريض يبتعد أثراً غريباً فيه. في لحظة ما، تساءل عما إذا لم يكن خائناً جاء ليتنسم الأخبار أم ما إذا لم يكن جباناً يهرب من المعركة.

كان راوول الذي عاد، آلياً، إلى الصفير، ينظر إلى أخيه بعين لاهبة.

ربما كان يأمل في أن يرى المروض يؤكل، ربما لم يكن كل هذا سوى أفكار.

– أعطيني شارع برسبورغ يا آنسة بيرت!

كانت الخادمة هي التي ردت. أعلنت أن السيدة في الحمام، ولكنها ستأخذ الهاتف إليها.

– أهذا أنت؟

قال:

– هذا أنا...

– ماذا إذن؟

– سنتغدى سوية. أتريدين أن أمر لأخذك بعد ساعة أم تفضلين أن تذهبي على قدميك إلى مطعم فوكيه؟

– أفضل أن تأتي بالسيارة.

ربما أصبحت كسولة لكثرة ما مشت على طول الرصيف.

– كيف يجب أن ألبس وما حال الجو؟

لم يكن يعرف. اضطر إلى النظر من النافذة من بين شقوق الستائر.

– بعض الغيوم. لا أعتقد أن السماء ستمطر.

– إذن، سأرتدي فستاني المزهر. إلى اللقاء. ماء الحمام يبرد وحان الوقت لأخرج منه.

كان راوول لا يزال يراقبه، وفي يده زجاجة.

للمرة الأولى، أثارت هذه الزجاجة التي كان يأخذها إلى كل مكان اشمئزاز فرانسوا كما كانت تثير، دائماً، اشمئزاز الآنسة بيرت.

– ماذا أفعل؟

– ما تريد.

– هل أحضر الحسابات كأن شيئاً لم يكن؟

– نعم.

مشى فرانسوا حتى النافذة ورفع الستائر كما لو كان ذلك بدافع الحاجة لإعادة الاتصال مع الخارج. طار عصفور دوري.

(٥)

كان، وفيفيان. يتناولان الغداء في فوكيه إلى جانب جورج الخامس. كانت الشمس صفراء وكثيفة، وكان يحس بأن الجو يثقل. في كل مرة كانت صفارة الشرطي توقف تدفق السيارات المزدوج في الشانزيليزيه، كان فرانسوا يلقي نظرة آلية على رصيف السيلكت حيث كان يميز، بوضوح، على الرغم من المسافات، الزبائن المصطفين كما في السينما، مصغرين جداً، كما لو كانوا على ماكيت.

سألته قائلة:

– أتنتظر أحداً؟

– ليس بشكل خاص.

كان قد مرّ بالسيلكت وهو يغادر مكتبه وقال له البارمان:

– السيد بوسوس جاء يشرب كوباً بسرعة، ولكن وقتاً طويلاً مرَّ على ذلك. كان هذا قبل الحادية عشرة. أتريد أن أبلغه رسالة حين يعود؟

ما الفائدة، طالما أنه لن يأتي على الأرجح!

– شكراً يا جان... في حال حدث شيء، أنا أتغدى تجاهكم.

– شهية طيبة يا سيد فرانسوا!

ربما كان فرديناند يتوقع أن تأتي الشرطة لاعتقاله بين لحظة وأخرى وفضل أن لا يكون حاضراً. في ذات يوم، كانا يتحدثان عن جنازة فاعترف قائلاً:

- أنا على استعداد لعمل كل شيء من أجل صديق ما عدا أمرين أعجز عنهما: الذهاب لرؤيته في المستشفى وحضور جنازته.

كان فرانسوا، وهو ينظر إلى فيفيان تأكل، مدهوشاً من درجة تكيفها مع حياتها الجديدة. كانت حولهما بعض أجمل نساء باريس، دون أن يحسب حساب عدد من ممثلات المسرح والسينما. كانت فيفيان تبدو أكثرهن انطلاقاً، بل وتميزاً. لاحظ، أيضاً، أنها غيرت تسريحة شعرها بحيث تحرر رقبتها التي لم يكن، إن صح القول، يعرفها.

في البرهة التي كانت المقبلات تقدم فيها، وفي حين كان يحدق في هذه البشرة البيضاء والناعمة تحت شعرها القصير، سأل بصورة حالمة:

- هل كنت فقيرة جداً؟

فوجئت إلى حد بقيت، معه، برهة لا تجيب. تفحصته بدورها.

- أتعتقد أنك كنت لتجدني حيث وجدتني لو لم أكن فقيرة؟

- كان في إمكانك أن تجربي شيئاً آخر، أن تعملي في ورشة أو في مخزن كبير.

لم يكن يجب أن ينسى الطريقة التي قالت، بها، مع كثافة جديدة في صوتها.

- كلا.

لم يكن متأكداً من أنه يفهم جيداً. ومنعه حياء من أن يسألها عما كانت تعنيه بالضبط.

- هل ستقبلين بأن تعودي فقيرة؟

- بالطبع لا!

جاء ذلك جافاً، أيضاً، مع شفة مقلوبة. بعد ذلك، حالاً، ضحكت دون فرح، دون بشاشة.

– يا لها من أسئلة غريبة تطرح هنا! لا يبدو عليك المرح اليوم يافرانسوا. أهناك شيء لا يسير على ما يرام في الجريدة؟

فضل أن لا يلح، وفهمت أن المكان أقل مناسبة، أيضاً، لهذه الأسئلة، بحيث قالت، مصادفة، وبنوايا طيبة، لتغيير الحديث، وهي تحمل إلى شفتيها قطعة فطر مطهية على الطريقة اليونانية:

– ألن تذهب إلى حفل توزيع الجوائز؟

– متى؟

– بعد ظهر اليوم. ألم يحدثك بوب عنه؟

– نسيته.

كان يكذب. ابنه لم يقل له شيئاً. تفكر أن شيئاً ما بدا له، أمس، غير طبيعي خرج من رأسه. كان ذلك في المقبرة، عندما رأى الورود على القبر. بوب أتى إلى إيفري في ساعة مبكرة، قبل المدرسة. إلا أنه كان، قبل ثلاث سنوات، لدى موت جيرمين، في عطلة.

فكر واستغرق وقتاً، وهو يأكل، ليفهم أن تاريخ العطلة لم يغير بالضرورة، بل إنه كان يمكن أن يكون هناك فارق يبلغ بضعة أيام لكون الفصول المدرسية تحسب بالأسابيع.

كانت فيفيان تحسن صنعاً لو لم تحدثه عن هذا في هذه البرهة، في حين كان في حاجة إلى كل هدوء ذهنه ليواجه مسائل أخرى. كان يعلم، بالخبرة ، أن الأمر كان، دائماً، هكذا، وعلى كل حال فيما يتعلق به.

«ما من اثنين دون ثالث».

كان لديه، بوصفه الابن الجدير بأمه، حس الكوارث.

«المصيبة لا تأتي وحدها أبداً»

في البرهة التي كانت هذه الكلمات تعود إلى ذهنه، بالضبط، جلس على مسافة طاولتين منهما، وكيل إعلانات بصحبة امرأة جميلة جداً. نهض فرانسوا قليلاً عن كرسيه ليوجه إليه، بيده تحية. إلا أن الآخر الذي كان يعرفه تماماً، والذي كان يدعوه، عادة، «صديقي العزيز» كان يتظاهر بأنه لا يراه أو أنه كان يحدق بهيئة من لا يعلم أنه كان يتم التوجه إليه.

لم يفت هذا فيفيان التي لم تقل شيئاً. لماذا خطر لها هذا الإلهام السيء بالتحدث إليه عن بوب؟ هل كان توزيع الجوائز هو الذي بدا، بسببه، هذا الأخير، بالأمس، مراوغاً، نفوراً؟ على كل حال، لم يكن فرانسوا سيذهب.

في السابق، في أيام جيرمين، كانا يذهبان معاً وكان فرانسوا مرغماً على التسليم، بينه وبين نفسه، أن ذلك كان بدافع نفعي دنيء.

كان الاحتفال يشكل، بالنسبة إليه، فرصة لإعادة الاتصال مع زملائه القدامى الذين كانوا، جميعهم تقريباً، أشخاصاً ذوي مكانة، ممن يسمونهم رجالاً نافذين. إذا كان يحس بالمهانة لوجوده بينهم، فإنه كان، مع ذلك، يتعجل تسجيل عناوينه. كان يشرح لجيرمين قائلاً:

– هذا يمكن أن يفيد، هل تفهمين؟

ذهب لرؤية كثير منهم عندما كان يبحث عن عمل. كتب إلى آخرين. كان ذلك بالنسبة إليه، تقريباً، ما كانت عليه، بالنسبة لفيفيان، قطعة الرصيف بين بار بوبول والفندق.

ألم يكن يقصد أن يمحو هذا الانطباع عندما حضر حفل توزيع الجوائز، وحده، هذه المرة، في السنة الأولى من حياته الجديدة؟ لم يتبين له، حالاً، أن الوضع كان، بالنسبة للآخرين، أشد إرباكاً من السابق. وقد حاولوا إشعاره بذلك بتحفظ.

ألم يكن يفعل، إلى حد ما، ما كان يفعله آخرون كثيرون غير معزولين، بل كانوا عكس ذلك تماماً؟

إذا لم يؤخذ كمثال سوى أخيه مارسيل الذي كان يرأس، كل عام، حفل توزيع الجوائز في أحد أكثر معاهد البنات انغلاقاً، كيف توصل إلى الزواج بابنة العجوز إلدرلان؟

ألم يكن كل الناس يعلمون أن كل حملة في إحدى أكبر جريدة يومية في باريس، بالكاد كانت تخفي ابتزازاً على نطاق واسع، وهو ما لم يمنع من أن يصبح مديرها وزيراً؟

كانت هناك صفحات كشوف من هذا النوع، كل أسبوع، في «السوط» وكل شيء كان حقيقياً. لم يجرؤ أحد مرة في ثلاث سنوات أن يلاحقه بتهمة التشهير، حتى ولا جيانيني نفسه.

قدم له النادل طبق الطيور الحار - البارد، وكان بوب والمدرسة هما اللذان استمر في التفكير فيهما وهو ينظر ذاهلاً إلى رقبة فيفيان.

في السنة الثانية، سأله ابنه، ذات مساء بلا مبالاة غير ملعوبة جيداً:

- هل تنوي حضور حفل توزيع الجوائز؟ إنه بعد غد.

- هل تحب أن أذهب؟

أكد بوب بأكثر مما ينبغي من الاقتناع:

- بالطبع.

- لسوء الحظ لا أعتقد أني سأكون حراً. في أية ساعة هو؟

- في الساعة الثالثة.

- لدي، في هذه الساعة، موعد يصعب عليّ إلغاؤه.

لو ألح الطفل أقل إلحاح لكان ذهب. لم يقل بوب شيئاً وهذا أحزنه.

- أما زلت تفكر في الفقر يافرانسوا؟

كانت فيفيان ترى أنه ذهب في الضباب

– نعم......لا......الأمر معقد.

فاجأه أن يسمعها تقول بهدوء كان يدل على أنها فكرت في الأمر، من جهتها، كثيراً:

– الذين عرفوه، ليس كحدث طارئ، بل لزمن طويل إلى درجة كافية، الذين عاشوا معه دون كبير أمل في الخروج منه لا يتحدثون عنه أبداً. هل لاحظت ذلك؟ من أجل هذا يقال الكثير من الحماقات حول هذا الموضوع. إن الذين يتحدثون هم الآخرون، الذين لا يعرفون.

كانت تأكل سمكتها بانتباه.

– قرأت في مجلة سينما مقابلة مع أشهر ممثل سينمائي أمضى طفولته في الإيست إند في لندن. رد على تهمة البخل التي كانت توجه إليه غالباً.

«عندما يكون المرء فقيراً كما كنت، فإنه على استعداد لفعل أي شيء كي لا يعود كذلك. وهو لا يخجل من هذا».

معظم النساء حولهما، كن في ملابس من لدى كبار الخياطين، وكانت حليهن واردة من شارع السلام. أدنى الأشياء التي كن يخرجنها من محفظاتهن، قداحة أو علبة بودرة، كانت من ذهب ومزينة، غالباً، بأحجار كريمة صغيرة. كثيرات منهن كن فتيات جداً. بعضهن أفلتن منذ عامين بالكاد، من كشك بوابة أو من كوخ في الضواحي.

كم من الرجال، وكلهم أكبر سناً منهن، أتوا من أركان أوربا الأربعة، قضوا طفولتهم حفاة في محجر في فيلنا أو وارسو أو بودابست؟

أكانت هذه الذكرى هي التي كانت تلوّن بالافتراس ضحكة أولئك وهؤلاء؟ أكان هناك شريف واحد بالمعنى الذي كانت تعطيه أمه لهذه الكلمة؟ أو نظيف كما كان من شأن أبيه أن يقول؟

تنهد فرانسوا.

– لا أدري أي جواب كنت سأعطيه في الثالثة عشرة من عمري.

– عن ماذا؟

– عن السؤال الذي أطرحه على نفسي.

– أحزره. أنا، في الثالثة عشرة، كنت قد قررت من قبل.

نظر إليها بإعجاب ممزوج بالخوف.

– هل أنت واثقة مما تقولين؟

– بل إني أعلنته لأمي.

– بماذا أجابت؟

– بأني ربما كنت على حق.

– أكانت أمك........

– لم تكن تمارس الحياة إذا كان هذا ما تعنيه.

وضحكت من جديد.

– لا شك في أن العاصفة في الجو هي التي تعطينا أفكاراً في هذا المرح.

صاح غلام على باب المطعم متوجهاً إلى الرصيف.

– السيد لوكوان!.... السيد فرانسوا لوكوان!

خاف، تقريباً، من رفع يده. تسلل الغلام ليعطيه رسالة وصلت باسمه.

– هل تسمح؟

عرف خط بييدبوف أو، بالأحرى، خطه المزور لأن المفتش السابق لم يكن يهمل أي احتياط، وكان فرانسوا يشتبه في انه كان يكتب وفي يده قفاز كي لا يدع بصمات.

«انتبه. هناك جديد. تحسن صنعاً إذا ذهبت، حوالي الساعة الرابعة من بعد ظهر اليوم، إلى حديقة حيوانات فانسين. لأنصحك بأخذ سيارتك. خط

المترو مباشر تقريباً. إذا لم تصادف أحداً قبل الساعة الخامسة، اذهب إلى الحانة الملكية حيث يكون أخوك قد تلقى مخابرة هاتفية».

– سيء.

– لا سيء ولا جيد.

هل كانت تدري أن النهاية يمكن أن تأتي بين لحظة وأخرى؟ هذا محتمل: عرفت ذلك دائماً. عرف ذلك، دائماً. كل الذين كانوا على اتصال دائم به، ومن أجل ذلك، دون شك كانت طريقتهم في النظر إليه واحدة.

«لأنهم كانوا يظنون أنه، أي فرانسوا، لم يكن يعلم».

وكما لو من قبيل السخرية، فإن ذكرى من ستانيسلاس كانت هي، على وجه الضبط، التي تعود إليه في هذا الصدد، ذكرى الأب هوبو، مدرس الديانة الذي كان له رأس مسيح والذي كان يباعد بين ذراعيه، وهو يتكلم كما لو كان على منبر الوعظ.

كان التلاميذ يدعون، في نهاية كل درس، إلى إبداء اعتراضاتهم التي كان الأب هوبو يرفضها.

لم يكن فرانسوا، بل أحد زملائه، هو الذي طرح السؤال المحتوم في موضوع حرية الاختيار.

– إذا كان الله يعلم كل شي منذ البداية، إذا كان يعلم حتى قبل أن نولد، ماهي الأخطاء التي سنقترفها، فكيف يمكن الادعاء بأننا أحرار في أفعالنا؟ أليس الله هو الذي يصبح مسؤولاً عن خطايانا؟

كان يرى، من جديد، الكاهن الطويل في جلبابه ينتصب بهيئة من ينتشر ببطء، يأخذ كل وقته، ينظر إليهم، كل بدوره، كما لو كان ذلك ليستولي على عقولهم.

– كالعادة، أيها السادة، سأسير على نهج المقارنة، الصورة. رجل يمشي في الطريق وهو يقرأ جريدته وأنتم تتابعونه بعيونكم. وعلى الدرب

الذي يبدو أنه يريد إتباعه، وأنا ألح على الكلمات الثلاث الأخيرة، «أنه يريد إتباعه»، تلاحظون أن عمالاً نزعوا غطاء مجرور وأن هناك، بالتالي، فراغاً وسط الرصيف. كلمة «مجرور» حملت كل الصف على الابتسام، وكان الأب هوبو، مسروراً من تأثيره. كان يتفنن، دائماً، في إيجاد التشبيه المبتذل وغير المتوقع.

– عشر خطوات، عشرون خطوة تفصل الرجل عن هذا الفراغ ويتوقف لحظة.... أنت، المشاهد، تراه يتوقف.... هل سيطوي جريدته ويعيدها إلى جيبه؟....يصدم أحد المارة....ربما كان هذا هو الخلاص؟.....كلا، لأنه ها هو يستأنف اتجاهه الأول بصورة عمياء، وهو لا يزال يقرأ. لم يعد هناك سوى خمس خطوات، ثلاث.........فوهة المجرور أمامه، بالضبط، وتستمر جريدته في إخفائها عنه.

«أنت تراه، وأنت تعلم.

«هل يعني هذا أنه ليس حراً في التوقف من جديد، في الانقطاع عن القراءة، أو في أن يستدير؟

«هذا الرجل الذي سيسقط في المجرور هو، أيها السادة، رمز.......

– لماذا تبتسم؟

– لا لشيء.

هذا الرجل كان هو. الآخرون، سواء أكانوا مارسيل أو رونيه، أم راوول، أم فيفيان أم بوسوس، أم الآنسة بيرت، كانوا متفرجين على المشهد، هم الذين كانوا ينظرون إلى المتنزه بالجريدة وغطاء المجرور المرفوع.

ربما كان هذا هو السبب الذي كانوا، من أجله، يحدقون فيه ببعض الفزع دون إرادة منهم.

إلا أن ما كانوا يجهلونه هو أنه، هو أيضاً، كان يعلم أن المجرور مفتوح.

– الحساب من فضلك.

مع ذلك، لم يكن يعلم أن هذه آخر مرة، يتغدى، فيها، على هذا الرصيف.

– هل أنت عائد إلى المكتب؟

– لحظة. ثم لدي موعد في المدينة.

لم يكن شارتييه قد عاد، وكانت الآنسة بيرت معتادة على تناول طعامها في المكتب الذي تأتي إليه بغدائها في رزمة مربوطة بصورة جميلة دائماً. كانت قد وعدت بأن تهتف إليه إن عاد شارتييه أو خابر.

كان يصعب تصديق كونه اختفى طوعاً، ليستولي، مثلاً، على الخمسة عشر أو العشرين ألفاً المقبوضة في أودوي. سنحت له، عدة مرات، فرصة الاستيلاء على مبالغ أكبر بكثير، ولم يفعل. صحيح أن الموقف قد توتر بين يوم وآخر، وكان لدى شارتييه حدس وشيء من الخبرة.

كانت الفرضية الأقرب إلى المعقول هي فرضية مصيدة علق فيها. ألا يجب، في هذه الحالة، أن يكون أحد من الجريدة قد أعلم الشرطة؟ أكان بوسوس؟ أم راوول؟ أم بيبدبوف نفسه؟ لماذا لا يكون هذا الشخص فيفيان التي كان يطلعها على كل شؤون الجريدة تقريباً؟

ألم تعترف، منذ قليل، أنها لن تقبل، بأي ثمن، أن تعود فقيرة؟

– كيف عرفت أن اليوم هو حفل توزيع الجوائز؟

ارتعدت لأنها أحست بريبته. أدهشتها في البداية ثم انفجرت ضاحكة.

– ميمي جاءت لتحيتي بعد هاتفك. إنها تنزل، كل صباح تقريباً، بالمئزر بعد الحمام.

– لا أرى ما هي العلاقة.

– لميمي أخت متزوجة من مهندس معماري ، والأسرة تسكن في الضفة اليسرى. إن لها ابناً في السادسة عشرة من عمره، وهو في ستانيسلاس مثل

بوب. ميمي سترافق، بعد ظهر اليوم، شقيقتها إلى حفل توزيع الجوائز. ليس في الأمر سر. هل أراك هذا المساء؟

- ربما.

- أود أن ألتقيك. ولو لحظة، في غير هذا المكان. أعتقد أن ذلك أفضل.

- سأهتف لك بعد الخامسة إلا إذا مررت، مباشرة، بشارع برسبورغ.

- إذا اتفق أن خرجت فسوف أترك لك رسالة.

نقّم عليها لهذه الكلمة. الله يعلم ما إذا كانت تتجاوز الحد في استعمالها حريتها. ولكنه كان يبدو له فظيعاً أن تكون لها، في مثل هذا اليوم، مشاغل أخرى غير انتظاره. ما أهمية كونها لا تعلم؟ كانت تحس بأن أموراً هامة تجري. بوسوس رحل من قبل وإذا كان شارتييه موقوفاً حقاً، فما الذي كان يرويه الآن؟

الشرطة القضائية، وحدها، هي التي أمكنها، في حدود باريس، أن تنصب له فخاً وتنفذ توقيفاً نظامياً. في هذه الحالة، يكون شارتييه في دائرة الشرطة القضائية ويجب أن يكون بوتاريل ليشارك والفرح يملأ قلبه.

لم يكن في شارتييه شيء من بطل. كان لقيطاً أفلت من الميتم ووصل، وحده، إلى بيليفيل، متسللاً إلى الحياة، ماكراً ومهذاراً، مع قدرة القطط في الوقوع، دائماً، على قوائمها.

في ذات يوم، قال فرانسوا لزائر أمامه:

- نحن شرفاء، هنا، يا سيدي. نحن نعمل في وضح النهار.

وشارتييه الذي كان واقفاً خلف الزبون، وجه غمزة إلى معلمه وهو يربت على ذقنه بسبابة ساخرة.

التمثيلية الصغيرة المتخيلة بصدد وجوه صفحة الغلاف كانت تخدم فرانسوا. لا بد أن شارتييه روى لمتعهد الأشغال العامة، كما روى للآخرين، أنه

جاء لرؤيته طوعاً، من تلقاء ذاته، خفية عن معلمه، لأنه كان مغتاظاً لرؤيته الخ.....الخ...

لم يكن هناك دليل على العكس. وحتى في حال الإدانة بجنحة صحافة - وهو ما قد لا يكون عليه، لسوء الحظ، الحال - فإن شارتييه، بصفته المدير المسؤول، هو الذي سيذهب إلى السجن.

كان قد ذهب إليه من قبل، لكن ليس من أجل فرانسوا، كان ذلك أقدم عهداً وقد أفلت هذا الاعتراف من فمه في ذات يوم كانوا يتحدثون، فيه، عن الفاصولياء وأكد، فيه، أنه أكل منها، في سنة، ما يكفيه لبقية حياته. لم يقدم، قط، تفصيلات. لا بد أن في سجله عدة إدانات في برهة خدمته العسكرية على اعتبار أنه كان في أفواج أفريقيا التي لا يضم إليها إلا ذوو الرؤوس العنيدة، وكان يجب أن يدندن، في أذن الآنسة بيرت التي كان ذلك يغيظها جداً، أكثر أغاني الطريق فحشاً.

لم يقترح فرانسوا على فيفيان أن يقلها في السيارة. فقد كان البيت على بعد خطوتين. عبر الشانزيليزيه تاركاً السيارة تجاه فوكيه وصعد إلى مكتبه .

- شارتييه؟

قالت الآنسة بيرت:

- كلا! ولكن بوسوس قد جاء...

سر لذلك كثيراً خلال لحظة. كان ذلك يعيد إليه الثقة، لكن ذلك كان قصير الأجل.

- ماذا قال؟

- لا شيء.

- لقد جاء ليفعل شيئاً ما؟

- ملأ محفظة بالأوراق وأخذها.

كانت دروج مكتبه فارغة، تقريباً، ولم يكلف نفسه عناء إعادة إغلاقها. ومثل رجل يغادر فندقاً، ترك وراءه غليوناً مكسوراً وعلبة تبغ قديمة وأعقاب أقلام وأوراق قذرة.

فهمت الآنسة بيرت ونظرت إليه بصمت

– وأخي؟

– ذهب ليتغدى.

– وحده؟

– دعاه بوسوس. السيد راوول وعد بالعودة في الساعة الثانية ليستقبل المحررين.

كانت الساعة قد بلغت الثانية والدقيقة العاشرة. تابعت تقول:

– جداول الأجور لم تعدّ. لا نستطيع أن ندفع بعد ظهر هذا اليوم. أفترض أن ذلك أفضل.

كيف أمكن اجتياز هذا القدر من الطريق في الإحباط في هذه الفترة القصيرة دون الانتباه إلى ذلك تقريباً؟ وكانت هذه الجملة الأخيرة أكثر من الباقي تعبيراً عن العرض، خاصة وأنها جاءت من الآنسة بيرت.

رد بجفاء – وندم حالاً على جفائه –

– يمكنك أن تعدي الجداول تدريجياً وتدفعي.

– هل لديك مال؟

أعطاها مع قليل من الأسف. قال:

– إلا إذا كنت تفضلين الرحيل أنت أيضاً

في اللحظة نفسها ظهر راوول ولم يكن على الآنسة بيرت أن تجيب. قال كرجل متحمس:

- هيا بنا!

ثم قال، سائلاً، دون أدنى قلق في صوته:

- ماذا، إذن عن شارتييه؟ مسجون؟

وصاحب الكلمة بحركة يد بليغة. وكان سيء الإلهام حين أضاف:

- بدأت أتساءل عما إذا كان صديقي بوب سيمضي عطلته على البحر هذا العام. بالمناسبة، هل أنت ذاهب إلى حفل توزيع الجوائز؟

هوذا واحد يعرف، أيضاً، ويستميت في تذكيره بابنه! الأخطر هو أنه يجب أن يكون بوب هو الذي تحدث إلى راوول عن توزيع الجوائز. راوول اعتاد على الذهاب إلى شارع دولامبر عندما لا يكون فرانسوا هناك. وكان يزيد من سهولة ذلك أنه كان يسمع، في المكتب، هواتفه إلى فيفيان.

كان يجري تجنب التلميح إلى هذه الزيارات أمامه. كان ذلك يشبه، إلى حد ما، مؤامرة كانت غونيشون جزءاً منه. كانت تقطع كلامها عدة مرات.

لماذا لم يكن بوب يتحدث عنها، بصراحة، إلى أبيه؟ ألأنه كان يخجل من صداقته مع السكير العجوز؟ أم، هو أيضاً، خشية أن يسبب له حزناً؟

- يجب أن تكون في الحانة الملكية في الساعة الخامسة، ويفضل أن تكون هناك قبل ذلك بقليل.

- حسناً. لماذا؟

مد إليه رسالة بيبدوف.

تنهد راوول قائلاً:

- اتفقنا. هل ندفع؟

وعندما رأى الأوراق المالية على مكتب الآنسة بيرت، أجاب نفسه بنفسه:

- ندفع! هيا بنا!

بعد بضع دقائق، سيبدأ عرض الأشخاص المساكين، كما كان يقول شارتييه، القادمين من أبعد زوايا باريس أو من الضواحي ليقبضوا ثمن نبأ أو رسم صغير ثمنه خمسين فرنكاً. وعندما كانوا يرحلون، كان المكتب يشبه صالة تدخين مع رائحة ملابس وأحذية معذدة.

كان فرانسوا غاضباً، خجلاً من الذهاب إلى فنسين بالمترو، لكن ذلك لم يكن وقت مناقشة تعليمات بييدبوف الذي ربما كان الوحيد الذي يعلم ما هو الوضع. اجتاز فرانسوا، على قدميه، الشانزيليزيه على باب أحد الخياطين، تعرف على سيارة رونيه وسائقها.

أخذ يفكر، بحسد، في مارسيل. قال لنفسه أن المرء يجب أن يكون، من أجل أن يكون في مأمن من الهجمات، كما كان يبدو عليه هذا الأخير، قد اجتاز درباً معيناً لم يبلغه فرانسوا بعد.

مارسيل، من جهته، كان عبر والد زوجته، إلى حد ما، وغداً من الجيل الثاني كما كان يقول راوول، وابنتاه ستكونان شخصيتين محترمتين تماماً، وأولادهما أيضاً، ثم يعود الوضع إلى الانحدار من جديد، على طريقة أسرتي ناي ولوكوان، وسوف يعطي ذلك أشخاصاً حسني التربية، طيبي التفكير، يتذكرون بهاء الأسرة ويئنون من مصائبهم.

وفي ذات يوم، سيكون هناك أبناء مثل مارسيل وراوول وهو نفسه. الآن، كان هناك، في طرف أحد الفروع بوب الذي كان يدرس في ستانيسلاس مع أغنياء صغار أمجاد.

في الكونكورد، كاد ينعطف إلى زقاق بواسي دانغلاس، لا لشيء إلا الدخول إلى حانة. حلت به، فجأة، نفحة من ضبابات ماضية، ضبابات الشخص المسكين فرانسوا لوكوان الذي كان يمضي وحيداً في خنادقه وهو يناجي نفسه.

ساوره الحنين وتساءل، فجأة، عما إذا كان فرانسوا هذا تعيساً حقاً. من المؤكد أنه كان يشرب على كل البارات. كان يشرب قسماً من المال الذي كان يعاني كثيراً من العناء في الحصول عليه بحيل صغيرة وإذلالات.

لكن الحال كان يصبح جيداً، مثل حجرة كلب، عندما يكتمل ضبابه ويصبح كثيفاً جداً. كان من المثير النظر إلى الناس بجسد موجع، أن يصطدم بهذه البيوت العالية التي كانت تشبه أسواراً منصوبة ليصدم رأسه بها.

كان صغيراً وضعيفاً، وعليه كان يستميت القدر، مطارداً إياه يوماً بعد يوم، يضحك ضحكة هائلة من كل ضربة جديدة موقعة جيداً. وما أن يتظاهر بالنهوض، يلمح شعاع أمل ويمد يده، كان الوحش يخترع، سريعاً جداً، مصيبة جديدة لتركيعه من جديد.

في ذلك العهد، كان يحسد البنات أنفسهن. لم يكن يحسد فيفيان فقط، بل والمساعد أيضاً. كان يحسد متشردي الأرصفة الذين لهم الحق، كل أسبوع، بحساء ساخن وسرير على مركب جيش الخلاص وتنظم من أجلهم، كل سنة، سهرة لعيد الميلاد.

كان ذلك سهلاً. الضباب كان في متناول يده. غالباً ما اتفق له، خلال السنوات الثلاث الأخيرة، أن يتطلع إلى قصدير طاولات بائعي الخمور، لا عن رغبة في الشرب، بل ليستعيد كثافة مضيئة كان قد أضاعها.

لم يتعود، أبداً، على مكاتب الشانزيليزيه الفائقة الإضاءة، ولا على شقة شارع برسبورغ. شقة شارع دولامبر نفسها فقدت سحرها منذ أن أعيد طلاؤها.

يلزمه بضع كؤوس على القصدير الدبق إلى حد ما، محاطاً بالرائحة الكثيفة للنبيذ الخفيف والكحول، وسوف يحس، بنفسه، من جديد، أكثر رجال العالم إنهاكاً... قد يستطيع التضاحك وهو يفكر فيهم، في كل أولئك الذين كان

يحملهم بذراعين ممدودين، والذين كانوا، معتقدين أنه سيفقد توازنه، متعجلين للقفز إلى أرض ثابتة.

راوول عاد مع ذلك. الآنسة بيرت بقيت. لم تكن تجازف بشيء، لم تكن سوى موظفة. كان يدفع لها أجراً أعلى مما كانت ستحصل عليه في أي مكان آخر. كانت بخيلة على طريقتها، توفر في كل شيء، في طعام غدائها، في نفقاتها الصغيرة. وإذا كانت، كل مساء، تخيط، بنفسها، ثيابها وترطب قبعاته، فذلك لتجمع المبلغ الذي سيسمح لها بأن تذهب لتعيش مع أمها في الريف.

لم تكن تعرف ما كان ذلك أكثر مما كان فرانسوا يعرف. كان البقر والدجاج والخنازير، بالنسبة إليها، لعباً خشبية كالتي ترى في الواجهات منذ أن يقترب عيد الميلاد. وكانت الحقول سنابل القمح المتموجة التي ترى عبر أبواب القطارات، والمزارع سقوفاً حمراء جميلة مزروعة في الشمس والخضرة.

ربما كان شارتييه، في هذه الساعة يتكلم جالساً على ركن طاولة، كما كان يفعل في المكتب، مرتاحاً في مقر الشرطة القضائية وساخراً بقدر ما كان كذلك في الشانزيليزيه.

بعد الموعد مع بيدبوف، سيذهب فرانسوا ليرى محاميه. كان قد وعد بالمرور بالحانة الملكية. وعد فيفيان، تقريباً، بأن يذهب إلى شارع برسبورغ، كان يرغب، أيضاً، في أن يذهب لرؤية ابنه بعد حفل توزيع الجوائز.

حان الوقت ليأخذ المترو، وذلك لإطاعة بيدبوف أكثر منه عن قناعة. تأكد من أنه لم يكن متبوعاً، غير الخط مرتين في الطريق.

كان يأخذه إلى حديقة حيوان فنسين، التي غالباً، ما كانوا، هم الثلاثة يأتون إليها في أيام الآحاد، حين كان الغلام لا يزال صغيراً، وكان أبوه يحمله على كتفيه ليريه الحيوانات.

كانت جيرمين تقول:

- إنه يستطيع أن يمشي. ضعه على الأرض. سوف يتعبك.

كان للشمس، للغبار، لحديقة الحيوانات نفسها، في تلك الأيام، مذاق آخر، رائحة أخرى، وعندما كان، هو فرانسوا، صبياً صغيراً، لم تكن حديقة الحيوانات موجودة بعد. كان أبوه يأخذه إلى حديقة النباتات.

ماذا كان أبوه يفترض، فيه، أن يكون في المستقبل؟ هل كان يهتم بما كان يفكر، فيه، فرانسوا، في الصورة التي سيحتفظ بها عنه؟

وصل إلى أولى الحفر التي كانت تفصل الجمهور عن الحيوانات، وجعله أحدهم ينتفض خوفاً بلمسة كتفه. كان بيبدبوف.

- أنا أتبعك منذ برهة أيها الرئيس كنت أتمسك بالتأكد من أن أحداً لا يتعقبك. الرائحة كريهة كما تعلم. بل إن الرائحة كريهة جداً. أتعلم بماذا كنت أفكر منذ قليل؟ كنت أتساءل عما إذا لم تكن هذه، بالنسبة إليك، فرصة لتقوم بجولة في بلجيكا. إني لا أقول أنه لن يتفق لي أن أتبعك إليها.

- وشارتييه؟

- في الشرطة القضائية منذ الساعة العاشرة. جاؤوا له بسندويشات وجعة من مقهى دوفين. وجاؤوا بها لهؤلاء السادة أيضاً: أغلق الخمسة عليهم الباب في مكتب، بمن فيهم هذا الوغد بوتاريل، وهم على اتصال هاتفي مع شارع سوسيه. أنا من السلك وتستطيع أن تثق بي إذا قلت لك أن الضربة محضرة بشكل ممتاز.

- جاؤوا إلى المكتب في الليلة الماضية.

- ليسوا الأشخاص أنفسهم. هؤلاء كانوا من الأمن وعلى رأسهم جوريس. لا تظن، مع ذلك، أن جيانيني وبوتاريل قد انتهيا مني.

فجأة، تلامح لفرانسوا، كالبرق، حل وأرغم على أن يدير وجهه.

ما الذي كان يمنعه من سحب دبوسه من اللعبة، هو أيضاً، كما فعل بوسوس من قبل، كما يفعل شارتييه، دون شك. الآن، كما سيحاول الآخرون أن يفعلوا، كل منهم بدوره.

ماذا لو ذهب لرؤية جيانيني رؤية الند للند ليقترح عليه الصلح؟

ما هو أفضل، أيضاً، كان يستطيع أن يذهب إلى شارع سوسيه حيث كان مقتنعاً بأنه سيستقبل فوراً. أحد زملائه الذي يدير جريدة من نوع جريدته ذهب إلى هناك دون أن يقول عن ذلك شيئاً لأحد. ومنذ تلك الحين، كان في طمأنينة. تابعت جريدته الصدور. لا شك في أنه كان يتلقى بضعة توجيهات سرية. وكان، من جهته، يقدم، في المناسبة، بعض المعلومات. ومقابل ذلك، كان له شفيع، أي أنه ترك يمارس النصب بسلام وكان يجنب، عند الحاجة، بعض المتاعب الصغيرة. وفوق ذلك كان يتلقى، في نهاية كل شهر، كآخرين كثيرين، كبعض مديري الجرائد البارزين، مظروفاً يحتوي على نصيبه من المخصصات السرية.

أثبت لهم فرانسوا أنه يجب أن يحسب حسابه على اعتبار أنه صمد، وحده، خلال ثلاث سنوات وأنه أرغم المجلس البلدي على فتح عدة تحقيقات. استماتتهم والهجوم العالي المستوى الذي شنوه ضده يثبتان أنه لم يكن خصماً يمكن ازدراؤه.

– أود كثيراً، أن أعلم أنك في بروكسيل التي ذهب إليها كثيرون قبلك، بمن فيهم فيكتور هوغو وسلفك روشفور. أنت ترى أني أعرف تاريخي الصغير. هذا لم يمنعهم من العودة. ستعود، أنت أيضاً، وفي انتظار ذلك أكون أقل قلقاً.

كان يحس، كالعادة، بالكالفادوس يملأ أنفه. لا بد أنه تناول جرعة كبيرة منه قبل هذا الحديث.

– لاحظ أنه ليس لدي ما أخشاه شخصياً. لقد حرصت، دائماً، على عدم التوقيع على شيء، وعلى عدم ترك أية ورقة ورائي. إلا إني أجد، على الرغم من أنه ليس لديك أي دليل، أي شاهد، أن من الأفضل للجميع أن لا تستجوب عن كثب.

وكما لو أنه خشي، فجأة، أن يكون قد وجه فرانسوا على طريق خطر، قال:

– من غير المجدي أن أضيف أني أملك، أنا أيضاً، ما يجب للدفاع عن نفسي، وكي أهاجم عند اللزوم، وخاصة كي أهاجم. قطار الليل يتحرك في الساعة الحادية عشرة وبضع دقائق من محطة الشمال. لا تحتاج إلى جواز سفر. فكر في ذلك أيها الرئيس! سأذهب في جولة إلى جوار الشرطة القضائية. هل تحمل مالاً؟ جيد. لقد تكبدت نفقات ضخمة وربما لن تسنح لك فرصة رؤيتي لبعض الوقت.

أعطاه فرانسوا ألفي فرنك باذلاً جهده كي لا يريه محتويات محفظته. أصبح بخيلاً بدوره، أخذ يندم على إعطاء الآنسة بيرت ما تدفع به الأجور. أصابت حين قالت أنه ربما كان من الأفضل عدم استقبال المحررين.

ربما لن يجد، هو نفسه، مالاً من الآن وإلى زمن طويل، وكان يعد، عقلياً، ما بقي في جيبه.

(٦)

كان، الآن، نادماً لإطاعته تعليمات بييدبوف وتركه سيارته تجاه فوكيه. مضى زمن طويل لم يسافر، خلاله، بالمترو، وخرج محبطاً من جراء هذه الرطوبة تحت الأرض، من هذه الحياة المتباطئة، في ضوء دون بريق ودون ظل، من عالم أخرس كعالم الأسماك حيث تكون الضجة الوحيدة، فيه، زعيقاً معدنياً لدى مرور المجاذيف.

كانت في أسفل السلم الحجري لافتة خزفية تدعوه إلى أن يأخذ يساره، وكان ضوء النهار النافذ يصدمه، ولم يتعرف على أعمدة المادلين مرئية من هذه الزاوية. توقف في منتصف طريق الصعود واكتشف وجهاً آخر للكون مرئياً من حافة الأرصفة، ألوف السيقان المتحركة، سيقان النساء الفاتحة اللون التي كانت كعوبها العالية تقطّع المشي كرقصة، وسيقان الرجال القاتمة والواهية، وبمثابة مد، الضجة، صرير كل هذه النعال على الأرض المغبرة ومكابح السيارات والباصات.

بدا له أن إيقاع الحياة قد تسارع، منذ أن نزل إلى ما تحت وأحس بنفسه أخرق وهو يعبر الشارع. كانت الساعة، تجاه الكنيسة، تشير إلى الخامسة وثلاث دقائق. لم ير، قط، مثل هذا العدد من الناس على الجزء من الرصيف الذي يؤدي من المادلين إلى ضاحية سانت أونوريه، ولم يكن الرصيفان اللذان كانا يتلامسان يشكلان سوى واحد مزدحم، فائض، رصيف الحانة الملكية ورصيف ويبر.

كان يبحث، فيه، عن أخيه، يندس بين الموائد، بين الأكتاف والسيقان، متجنباً، عند آخر لحظة، صواني النادلين. كان يعرف ركن راوول المعتاد، لكنه

لم يكن فيه. كان من المدهش التفكير في أن هذه الفوضى كانت في الظاهر فقط، وأن كل واحد كان يعرف أين هو ذاهب، كان لكل واحد مكانه.

لم يكن راوول مضبوطاً في أحيان كثيرة، ولن يلبث، دون شك، أن يصل. ربما اضطر إلى انتظار الباص. كان الحشد، هذا المساء، كثيفا إلى حد تساءل، معه، فرانسوا عما إذا لم يكن هناك عيد نسيه كما نسي حفل توزيع الجوائز.

- قل لي أيها النادل، ألم تر أخي؟

- أليس فوق؟

لم يكن راوول يكتفي بالشرب على الرصيف. كان يتفق له أن يجد تجديد المشروبات أبطأ مما ينبغي، فيصعد ليبتلع، بسرعة، كأساً من الكونياك على البار قبل أن يعود إلى مكانه. لم يروه في البار أيضاً. هل قرر، في نهاية المطاف، أن يقلد بوسوس؟

عندما نزل فرانسوا، ثانية، خيل إليه أنه يلمح رئيس تحريره، وكاد ينطلق. لم يكن بوسوس، بل رجلاً ضخماً آخر كان يدخن الغليون، ويسير مثله منتفخاً.

ذهب ليهتف إلى المكتب. كان ذلك هو الأبسط. لم يكن في حاجة إلى راوول. ليس لديه ما يفعله به. إذا تدبر أمره مع شارع سوسيه، فلن يقول ذلك لأحد. ولا حتى لأخيه؟ كان لديه انطباع بأن راوول لن يحب ذلك. سيحتفظ به في الجريدة دون أن يطلعه على الأمر، وكان يحتمل، بعد زوال الخطر، أن يعود بوسوس.

لم يكن قد قرر أنه سيفعل هذا أو ذاك. كان الوقت متأخراً على خطوة من هذا النوع. لم يكن لديه الوقت للتفكير بالطريقة التي سيلجأ إليها في ذلك وكان هذا يضايقه. كان محبطاً قليلاً.

يجب أن يتأكد، قبل كل شيء، من أن بوب لن يعلم بذلك قط. كان فرانسوا يعلق على هذا الأمر أهمية رئيسية. كان شيئاً يؤخذ أو يهمل. بوب لن يفهم. لم

يكن مثل فيفيان التي ردت، منذ قليل، على رصيف فوكيه، بوضوح، بنبرة وحشية تقريباً:

- لا!

كان هناك الحل الآخر، حل التوجه إلى مارسيل وإلى رونيه بالأحرى. في بعض البرهات، لا أهمية للخلافات. سيشرح لهما أن المسألة كانت مسألة حياة أو موت.

بييدبوف سينتقم. لم يخف ذلك. لمح إلى أن لديه أسلحة ضد فرانسوا. أية أسلحة؟ كان الوثوق به أكثر مما ينبغي خطيئة. كان نموذج السكير الشرير، الحقود، وكان يشمل الإنسانية كاملة في كراهيته الحادة لبوتاريل.

إذا تدبر فرانسوا أمره مع شارع سوسيه، فإن بييدبوف سوف يحيّد آلياً، ولن يعود يستطيع أن يؤذي ويحتمل أن ينسف صهره. لم يكن فرانسوا قد رآه قط ولم يكن يعلم كيف كان يجب أن يكون رجلاً متوسط العمر عمل بكد ليصل إلى المركز الذي كان يحتله أحد الموظفين المتشددين والمتقشفين الذين يرى أحدهم، في أيام الآحاد، وزوجته تمسك ذراعه مع أطفال منطفئين، فعلاً، يمشون أمامهما. أو أنه كان يشغل شقة في أبنية مدينة باريس الجديدة على أراضي التحصينات القديمة أو أنه حصل على بناء جناح بأقساط سنوية في مكان ما قرب شوازيل لوروا يزرع فيه قطعة حديقة.

كم كان بييدبوف يعطيه؟ كم أوصل إليه فرانسوا، بصورة غير مباشرة، خلال ثلاث سنوات؟ يجب أن يكون قلقاً هو أيضاً ، ولا شك في أنه سينتظر، هذا المساء هاتف شقيق زوجته يعلن له قائلاً : «لقد رحل».

إلا أنه كان يجب أن يفكر في الحل الذي خطر في بال فرانسوا.

دخل هذا الأخير إلى بار دون أن ينتبه تقريباً. لم يكن ذلك ليشرب، بل ليهتف، والتفت عدة مرات ليتأكد من أنه ليس متبوعاً. إذا كان أحدهم، من

المكتب، قد خان، فالشرطة قد تكون، دون شك، مطلعة على موعده في الحانة الملكية.

ركب رقمه، مغلقاً على نفسه الحجرة، وانتظر أحدهم - ولكنه لم يعد يذكر من هو - أكد له أن من المستحيل، مع الهاتف الآلي، كشف مصدر المخابرة. كان يجب أن يسأل بييدبوف الذي كان، بالتأكيد، يعرف الحقيقة.

سمع الجرس. رفعت السماعة. كان يجب أن ترد عليه الآنسة بيرت. إلا أنه لم يسمع شيئاً.

قال بين سعلتين مترددتين.

- آلو!

عند ذلك، كرر صوت رجل لم يكن راوول، كأنه صدى.

- آلو؟

- هل هنا ايليزيه ٣٤ - ٧٧؟

- نعم.

- من يتكلم؟

صمت. سمع حركة، همساً. كان صوت آخر هو الذي سأل:

- من يتكلم؟

فرانسوا الذي أحس فجأة، بنفسه، ثقيلاً أعاد السماعة. خرج دون أن يتوقف عند البار، وندم على ذلك حين أصبح على الرصيف لأن فمه كان دبقاً، وتابع طريقه.

وغريزياً، دون خطة سابقة التصور، أدار ظهره لحي ايتوال وغاص، عابراً الشارع الملكي، في شارع سانت أونوريه.

هل بقي راوول في المكتب؟ هل احتفظوا به؟ كان يمكن، بالطبع، أن لا يكون كل ذلك سوى مصادفة. عندما تكون الآنسة بيرت مشغولة، كان يتفق أن

يرفع السماعة أحد الأشخاص المساكين الذين كانوا ينتظرون مالهم. ولكن، لماذا، إذن، صوتان مختلفان؟

دخل إلى بار آخر، وفي حجرة أخرى ركب الرقم. تأخرت التكة في الحدوث. ثم رن الجرس. رفعت السماعة. انتظر حابساً نفسه صوت المرة السابقة الثاني قال، أخيراً:

– آلو!

ثم، بصورة خرقاء واضحة:

– هنا «السوط».

كان الأفضل هو الابتعاد. لم يكن واثقاً من عدم مقدرتهم على كشف نقطة انطلاق نداء. راح يمشي مسرعاً على طول أرصفة ضيقة متفنناً في تجنب المارة.

كانوا ينتظرونه في مكتبه. إذا كان راوول لا يزال معهم، فلا يجب أن يكونوا أوقفوه لأنهم لا يوقفون الموظفين، وأخوه لم يكن إلا موظفاً. ربما يكونون قد أرسلوا الآنسة بيرت إلى بيتها. أسف لعدم وجود هاتف في مخزن الأعشاب.

شارتييه تكلم كما كان يتوقع. لم يكن لديه أي سبب يحمله على الصمت. لم تكن الطرقات قد بدت له، قط، في هذا العمق، وانتفض مبتعداً أمام فانوس مركز شرطة كانت تصطف تحته دراجات الشرطيين.

أما زال هناك متسع من الوقت للذهاب، من تلقاء ذاته، إلى شارع سوسيه؟ ألن يضحكوا منه ويعتقلوه مع ذلك؟

في الحقيقة، كان ساذجاً دائماً وربما كان هذا التفسير الحقيقي للنظرات التي طالما حيرته: لم يكونوا يأخذونه على محمل الجد.

بعد كل المال الذي وزعه صباحاً. بقي معه ما يكاد لا يبلغ ثلاثة آلاف وخمسمائة فرنك وسيارته كانت تجاه فوكيه. هل اكتشفوها؟

ألم يكن الذهاب لأخذها خطراً؟ ولم يكن يرغب في ذلك. كان حي الشانزيليزيه يوحي إليه، فجأة، باشمئزاز ممزوج بالخوف.

ألوف الناس الذي كانوا يقاربونه كانت لهم مسائلهم. ولكن هل كان بينهم من كانت مشاكلهم في حدة مشاكله وإلحاحها؟

وعلى الرغم من ذلك، لم يكن يفكر، كان يقفز من موضوع إلى آخر بصورة متقطعة، مجذونة تقريباً. كان يجب أن يهتف إلى شارع دولامبر قبل كل شيء. لحسن الحظ، كانت هناك بارات على طول الطريق. هذه المرة، كانت الحجرة مشغولة برجل كان يبتسم بغباء للجهاز، مرة أخرى، كاد يشرب وهو ينتظر. ولكنه امتنع عن ذلك.

– آلو! أهذه أنت يا سيدة غوديشون؟ السيد هو الذي يكلمك.

– أسمعك جيداً.

– كيف الحال عندكم؟

– حسن. لماذا؟

– وبوب؟

– عاد من المدرسة. منذ برهة حبس نفسه في غرفته ولا أسمع صوته، أفترض أنه نائم. أتريد أن أناديه؟

– كلا.

كانت تتكلم بصوت منخفض كي لا توقظ الغلام.

– بالمناسبة، جاء بعضهم إليك منذ قليل، كانا سيدين.

– ماذا قالا؟

– لا شيء. لاأعلم شيئاً. بوب هو الذي استقبلهما. كنت في المطبخ.

– هل رحلا؟

– من المؤكد أنهما لن يمضيا بعد الظهر هنا.

– ألم يقل لك بوب ماذا كانا يريدان؟

– كلا، سيحدثك عن ذلك هو نفسه.

– كيف حاله؟

– إنه متعب قليلاً. اليوم كان حفل توزيع الجوائز، وهذا يتعب الأطفال دائماً. هل تعود من أجل العشاء؟

– يحتمل ذلك. لست متأكداً بعد.

– هذا عملي بالنسبة إلي!

هل كان اللذان ذهبا إلى شارع دولامبر هما، ذاتهما اللذان ذهبا، بعد ذلك، إلى الشانزيليزيه؟ لماذا ظهرا غير ملحين؟ ماذا قالا لبوب؟ هل لدى هؤلاء الناس خفر احترام الأطفال؟

كان يمشي. لم يكن يحب التباطؤ في المكان الذي هدف منه. كان يمشي مسرعاً مشية تصبح متقطعة، وكانت التفاتاته تتزايد.كان ذلك، إلى حد ما، كما لو كان قد نصب، من جديد، جدار في طريقه.

في البداية، سدوا أمامه طريق الشانزيليزيه، وجاء الآن دور شارع دولامبر.

يجب أن يجد حلاً وسوف يجده، لكنه، من أجل ذلك، كان في حاجة إلى أن يعلم.

بار آخر وحجرة هاتف أخرى، فيشة ثم رقم، رقم شارع برسبورغ. ماذا لو كان الذي سيرد رجلاً؟

كانت فيفيان، لكن فهم من صوتها أن شيئاً ما كان يجري هناك أيضاً.

– أين أنت يا فرانسوا؟ أو، بالأحرى، لا تقل لي ذلك. انتبه إلى كلامك. قل، فقط إذا كنت في المدينة.

– نعم.

– جاؤوا منذ ساعة.

– أكانا اثنين؟

– نعم. لا أعرفهما. حاولا أن يجعلاني أقول أين أنت ومتى وأين يجب أن ألقاك. هل تسمعني؟

– نعم.

– أ أنت وحدك؟

– وحدي . نعم

بل لم يكن، قط في حياته، في هذا الاكتمال لوحدته!

– هل فتشا الشقة؟

– قليلاً. نعم، لم يحدثا فوضى.

– وهل كانا مهذبين معك؟

– تقريباً. لا يهم. لا تذهب خاصة، إلى المكتب. حاولت أن أهتف لأحذرك فأجابني رجل.

– أعلم.،

– آه! حسناً. لدي انطباع بأني تعرفت على صوت أحد اللذين جاءا إلى هنا. ماذا ستفعل؟ أنا غبية. لا تقل شيئاً ستجد، دائماً، وسيلة لإعلامي أين أنت، لكن ذلك، فقط عندما تصبح في مأمن. أود أن أساعدك يا فرانسوا.

– شكراً.

– حاولت أن أعلم، بالنظر من النافذة. أن أرى ما إذا كانا قد تركا أحدهما يراقب الشارع. لا أرى، لسوء الحظ سوى قسم من الرصيف. لم أجرؤ على النزول لأني كنت أنتظر هاتفك. إذا هتفت لي بعد قليل، فسوف أستطيع أن استعلم.

سكت كلاهما. كان يجب أن تكون قد ابتسمت ابتسامة مرة عندما قالت:

- هل تذكر غداءنا يا صديقي المسكين؟

- نعم.

- هل تعتقد أنك تستطيع أن تدبر أمرك؟

- يجب أن أستطيع، أليس كذلك؟

هل كانت تلك المرة الأخيرة التي يسمع، فيها، صوتها؟ كان هذا يجعله يتردد في قطع الاتصال الذي لا يزال قائماً بينهما، بينه وبين كائن بشري.

- إلى اللقاء

- إلى اللقاء.

لم يكن يستطيع أن يأخذها معه. ذلك أنه كان قد قرر، فجأة، أن يرحل. ترتيب الأمور مع الأمن لم يعد ممكناً. فات الأوان. سيسخرون منه. سيتسلون باستجوابه. كان بييدبوف على حق وغضب لتبينه ذلك، خاصة وأن المفتش السابق أخذ منه، بمكر، قسماً كبيراً من المال الذي بقي له.

لن يأخذ معه فيفيان، لن يأخذ إلا بوب. من أجل ذلك، كن يحتاج إلى مال، حالاً، والكثير منه لأنه، هو أيضاً رد ولا يزال يرد على السؤال الذي طرحه منذ قليل بكلمة: «لا!»

سيمضيان معاً إلى بروكسل مع مال، مع ما يكفي من المال كي لا يكونا فقيرين أبداً، من أجل أن لايكون عليهما أن يمتهنا ولا أن يخجلا. لم يكن ينبغي، خاصة، أن يتكون، لدى بوب، الانطباع بأن أباه يتدحرج، من جديد، على المنحدر.

سيكون ذلك كسفرة ممتعة كما كان الأمر عندما سافرا إل دوفيل.

من يعلم؟ربما كان ذلك، أخيراً، فرصة يرسلها إليه القدر.... سيعيشان.

كلاهما، في بلد آخر، ديكورات جديدة، مع أثاث جديد وأناس جدد. كان فرانسوا يبدأ من جديد، حقاً من جديد، حياة لائقة. لم يكن مايشتهيه الثروة و لا

الترف بقدر ما كان نوعاً من الكرامة، وكان لهذا، بالنسبة إليه، معنى دقيق كان غير قادر على تفسيره. عدم الارتعاش أمام أحد، أمام أي رجل! عدم الارتعاش، أيضاً، أمام الحياة! عدم الشعور بأنه كائن أدنى تحدد له كائنات أخرى، وهي تتلاعب به دون تبكيت ضمير، حدوداً حسب مصلحتهم أو نزواتهم. عدم بقاء حاجة إلى الغش، إلى الكذب حتى على نفسه! كانت الدموع تملأ عينيه وهويمشي في الطرقات حيث نزلت قطرات كبيرة من المطر وهو يهتف.

ما كان رائعاً هو أن تكون رونيه وحدها في رصيف مالاكيه وكل الأسرة في دوفيل، كما حدث منذ ثلاث سنوات. لماذا لا يمنحه القدر الذي تعب من الوقوف ضده هذه الخدمة؟

لم يكن يطلب أكثر من ذلك. سيتحدث إليها، سيتحدث إليها بلغة لم يستعملها، قط، مع أحد. كان ذلك، حقاً، وفي المعنى الحقيقي للكلمة، مسألة حياة أو موت. هي أو هو. وإذا لم تفهم، فستكون هي بالطبع، من قبل، منذ ثلاث سنوات، كان قد واجه، في ظرف لحظة إمكانية قتلها، ولم تكن هذه فكرة في الهواء.

لن يكون لديه، اليوم، أدنى تردد إذا لم تعطه مايطلبه. ألن تفعل هذا من أجل ابنتيها؟

الأصعب سيكون أخذ بوب إلى المحطة. كان ينفر من الذهاب إلى شارع دولامبر. انتهى إلى بلوغ الهال. لن يكون عليه أن يمشي بعيداً للوصول إلى رصيف مالاكيه. يفضل أن يهتف أولاً. في اللحظة التي دخل،فيها، إلى دكان بائع خمور، قرأ كلمتي «زقاق كوكيير» على رقعة خزف زرقاء.

أخرج دفتر العناوين من جيبه. كانت الآنسة بيرت هي التي تنظمه وكان يبدو غريباً أن يرى خطها الهادئ والمقروء جيداً. رن الجرس طويلاً في حسابه.سحقاً! إذا كان مارسيل في باريس فسوف يرى مارسيل.

لماذا تكون لديه الانطباع، من جراء الصوت الذي كان يسمعه في الطرف الآخر، شقة فارغة؟ جاء صوت أخيراً، صوت نسائي. لم يكن صوت رونيه ولا صوت وصيفتها. كانت اسطوانة هي التي تتكلم.

– مصلحة المشتركين الغائبين. السيد والسيدة لوكوان غائبان عن باريس حتى ١٥ أيلول.

بما أنه نسي أن يعيد السماعة، فقد ظلت الاسطوانة تدور، تكرر الجملة نفسها. وكان يزيد في سخرية هذه الاسطوانة كون فرانسوا يتذكر أنه رأى سيارة رونيه، قبل بضع ساعات، في الشانزيليزيه.

كان جبينه وظهره نديين.

لم يكونوا يتوقفون عن مطاردته، عن نصب الجدران أمام خطواته. ربما أخطأ في انتظار قطار الليل، وفي الانشغال ببوب الذي كان يمكن أن يلحق به فيما بعد لأن الشرطة لا تعتقل الأطفال. كان من السهل أن يستقل سيارة أجرة إلى محطة الشمال وأن يقفز إلى أول قطار قبل أن تعطى أوصافه للمحطات والمطارات. ألا توجد هناك طائرة إلى بلجيكا كل ساعة وكان معه من المال ما يكفي لرحلته وحاجاته الفورية دون حسبان حساب الساعة الذهبية التي اشتراها منذ أن أحس بنفسه غنياً.

بدلاً من أن يذهب، كان يتخبط في حي الهال ثم في شارع المجلس البلدي مقترباً، على هذا النحو، دون أن يعي ذلك، من الضفة اليسرى حيث ولد وعاش دائماً.

– آلو! فيفيان؟

– نعم. نزلت. راقبت النواحي، لم أشاهد شيئاً مشبوهاً. إلا أني لو كنت مكانك لما اطمأنيت إلى ذلك.

وبعد فترة:

– هل معك مال؟

سأل بيرود:

– هل تحتاجين إلى مال؟

– كلا. من أجلك. إني منشغلة بمعرفة ما إذا كان معك مال من أجل.........

توقفت في الوقت المناسب. لا بد أنها، بدورها، فكرت في بروكسيل، وكان من المحتمل أن تلتقط مخابرتهما على لوحة المراقبة.

– هل لديك أخبار عن بوب؟

– يبدو أنه نائم.

– يا للغلام المسكين!

أعاد السماعة دون أن يقول شيئاً. لم يكن لديه ما يقوله لها. من هذه الجهة، انقطع الخيط. كان بمثابة جدار آخر.. هل كان من قبيل الوسوسة كونه لم يجرؤ على المرور أمام بناء الشرطة القضائية ووزارة العدل؟ قام بدورة عبر جزيرة سان لويس، عبر جسر التورنيل.

كان، في فترة طويلة من حياته، قد مشى هكذا أياماً. ولكن زمناً طويلاً انقضى لم يحدث له، فيه، ذلك. كان لا يزال متوقفاً عن الشرب، وكان ذلك، في ذهنه، نوعاً من قربان يقدمه لابنه.

كان ذاهباً لموافاة بوب. سحقاً للمخاطر. سيذهبان معاً ولا ينبغي أن يحس الغلام من نفسه أنه قد شرب. كان من الطريف أن لا يكون بوب قاسياً حيال إدمان راوول الشرب، في حين كان يقطب حاجبيه منذ أن يشرب أبوه مجرد كأس من الجعة. كان يحتفظ لعمه بمودة من نوع خاص، مودة كالتي من شأنه أن يحس بها حيال ند، حيال شخص من عمره، ولم يكن يتكلم معه مثلما كان يتكلم مع أبيه.

على كل حال، كان من المستحيل على فرانسوا أن يدع نفسه يعتقل. لقد فكر في ذلك. كان يفكر في كل شيء باندفاعات مفاجئة، وفي كل مرة، كان يظن، للحظة، أنه يملك الحل الجيد، الوحيد.

كان الحشد الحار لا يزال يسيل حوله.

إذا ذهب فرانسوا إلى السجن، فمن يدري ما إذا لم يكن راوول هو الذي سيعهد إليه بالوصاية على الطفل؟ ألن يكون بوب تعيساً من جراء ذلك؟ هل كان تعيساً حين كانا فقيرين؟ ألم ينظر إليه، في بعض الأيام، نظرة لوم أو بهيئة محبطة متسائلاً عما إذا لم يكن أبوه كالآخرين؟ بماذا فكر مساء وصول راوول عندما ذهب ليأتي بفرانسوا من بار زقاق غيتيه المشبوه.

لم يكن يريد أن يعيش بوب مع راوول. لم يكن يستطيع أن يذهب إلى السجن. كان يعلم جيداً ما كان بعضهم يتوقعون منه، مثل، مارسيل. خطرت له الفكرة حين كان يعبر السين.

من أجل ذلك، كان من الضروري أن ينتظر الليل. كان هذا يوفر له الوقت ليذهب للشرب في الأزقة الصغيرة التي لن يأتي إليها من يزعجه، الوقت اللازم ليحيط نفسه بضباب كثيف جداً.

كان ذلك الأسهل. في الحقيقة، ربما من أجل ذلك لم يطلب مشروباً ولن يفعل. لو ابتلع كأس كحول واحدة، فإن الآلية ستنطلق وسيمضي، بشكل لا يقاوم، إلى النهاية.

لم لا؟ هذا سيسمح له بأن يضحك، أن يضحك كثيراً، ضحكة واسعة ورنانة في الليل، أن يضحك على ذقون الجميع. على ذقن أمه، على ذقون أفراد أسرتي ناي ولوكوان الملعونين، على ذقن بوسوس ومارسيل، على ذقن هذه المتظاهرة بالتقوى، الآنسة بيرت، ذقن هذا الخائن الرخيص، بييدبوف، أن يضحك ضحكة قوية إلى درجة تمزيقه أحشاءه، ثم ينسف.

سرقوه. خدعوه على طول الخط. جعلوا منه بائساً، معذباً، نصف مملح، كانت تلك كلمة شارتييه وبدأ، فقط، يفهم معناها: رجل شريف زائف، وغد زائف، نصف نصف، كما في الكوكتيلات والتركيبات...

هذا كان يعني لا شيء، هذا هو الأمر! وكان السيد لاشيء الذي كان يتخبط في الطرقات كذبابة ضخمة في غرفة مغلقة - في ظل شمس ثقيلة، مع غيوم رمادية هائلة بدأت تضغط على المدينة، في حين كانوا يتفننون في سد المخارج الأخيرة أمامه.

ومع ذلك، وصل إلى حيه. لن ينالوا منه. سيقامر بالكل من أجل الكل. اجتاز مونبارناس من قبل. فليدعوه، فقط، يصل إلى شارع دولامبر، فليعطوه ابنه وهو سيتكفل بالباقي، سيتدبر أمره للقفز إلى قطار أو طائرة.

كانت فيفيان قد أجابت، على رصيف فوكيه، قائلة:

- «لا!»

هو، أيضاً، قال: «لا»

لكن ذلك، كان منذ زمن طويل. لن يعود فضلاً عن ذلك، فقيراً. لن يعود نصف شيء ما. جعلوه يخطيء رونيه التي، لولا ذلك، ربما كانت ميتة، في هذه الساعة، في شقتها على رصيف مالاكيه.

سيجد آخرين!

لم يكن ذلك صحيحاً! كان يكذب. كان، الآن، في قرارة نفسه، يرد، ولو بوجل، قائلاً: «نعم».

منذ قليل، كان يمكنه ذلك، كان مقتنعاً به. حالياً، الأمر انتهى. انعطف عند زاوية شارعه. قبل أن يكون فقيراً، وكان يصرخ بذلك، سريعاً جداً، للسماء من أجل أن لا يرتكب خطأ في حقه.

سيكون فقيراً في بروكسل، في أي مكان. سيبيع جرائد في الطرقات إذا أرادوا، سينادي على الأحذية.

هل قدم ما يكفي من تنازلات؟ هل سيدعونه في سلام، وهل سيعطونه، أخيراً، فرصته، الآن وهو لا يطلب إلا القليل.

لماذا لا يوقف سيارة أجرة، حالاً، ليكسب الوقت؟ لم يفعل ذلك. قال لنفسه أنه يحتمل أن يكون أمام السيارة أن تنتظر. كان غريباً أن يستعيد عقلية فقير في حين كان يملك سيارة مكشوفة جديدة تقريباً أمام مطعم فوكيه.

سوف يكفي أن ينادي، بوب، حتى من الأسفل. يجب أن تكون النوافذ مفتوحة وسوف يسمع، أو سوف تسمع السيدة غونيشون وتخطر الغلام. لم تكن هناك حاجة إلى حقائب. من غير المفيد أن يضاع الوقت.

«سنذهب في عطلة يا صغيري!»

«لكن.......»

«لا تقلق إننا ذاهبان في عطلة دائمة. هل تسمع يا بوب؟ عطلة دائمة! إلى محطة الشمال أيها السائق».

أو إلى أورلي، أو إلى بورج، لم يكن يعلم، لم يكن لذلك أهمية. بل يمكن أن تقودهما سيارة الأجرة إلى الحدود. كان لايزال يمشي وقد استولى عليه دوار، قلق جسدي مثلما وقتَ عاد، ذات مساء، في بزة جديدة وقد اشترى أربع قواقع سرطان وقطعة من حلوى سانت أونوريه.

راوول سبقه، في ذلك المساء، بفطيرة القشدة والمسدس الآلي. لقد سرق دائماً.

ماذا هم، الليلة، على أهبة أن يفعلوا به؟

رفع يده كما في المدرسة، فتح فمه. لا يحق لهم ذلك.

وصل بعد فوات الأوان. كان الجيران قد حجبوا عنه، طويلاً، سيارة الإسعاف تجاه البيت، وكذلك بزة الشرطي.

أخذ يركض. ثم صرخ، بصورة آلية وقد سمع صفقة باب:

– هوب.......هوب.....توقفوا.

التفت الفضوليون، لكن سيارة الإسعاف كانت قد تحركت وانعطفت، فعلاً، عند زاوية شارع غيتيه.

كان الجميع ينظرون إليه. وكان ينظر إلى كل الناس:

– من هو؟

وفجأة رأى أمامه، قريباً منه، أقرب مما ينبغي، وجهاً شاحباً ومخيفاً. كانت تلك السيدة غونيشون التي صاحت به بوجه شرير:

– ألا تعلم؟

بلى. كان يعلم. كان يفهم كل شيء. كان لا يزال ينظر إليهم، وكانوا يبتعدون عنه لشدة ما كان مؤثراً. لم يكن يتحرك، لم يكن يبكي. أصبح وجهه وجسده، دفعة واحدة، من مادة أخرى.

– إنه.......إنه.....

ابتلع لعابه، توصل، أخيراً. إلى أن يتمتم بصوت لم يسمع قط:

– هل مات؟

لم يردوا على سؤاله مباشرة، ولم يحدث، إلا بعد صمت طويل، أن زعقت السيدة غونيشون وهي تنظر إلى السماء.

– لقد أتيت على إيجاده مشنوقاً في غرفته. من أجل ذلك كان على هذه الدرجة من الهدوء.

سحب جيران المرأة التي كانت تتخبط وتلتفت لتلوح له بقبضتها. تركوه وحده.

أسدلت السيدة بوساك ستائر حجرتها بإحكام، كما لو كان ذلك من أجل أن لا تراه، وكانت أبواب الطوابق ترتعش لدى مروره.

كان بابه مفتوحاً على مصراعيه، وكان تيار هواء يرفع الستائر. كانت طاولة الطعام في غير مكانها. لا بد من أنهم دفعوا بها من أجل أن تمر المحفة.

بقعة بيضاء كانت وحدها على خشب الجوز المشمع. كانت هناك رسالة تحمل، في طرفها الأعلى، اسم مدرسة ستانيسلاس. لم تكن مفتوحة. ربما تكون قد وصلت في بريد المساء، بعد هاتفه مباشرة.

قرأها وهو واقف في الظل دون أن تخطر له فكرة إدارة القاطع الكهربائي.

«سيدي

يؤسفني أن أعلمك بأن إدارة المدرسة لا تفكر في أن تسجل، من جديد، ابنك بين تلاميذها للسنة القادمة لأسباب احتفظ بحق إطلاعك عليها مشافهة إذا رغبت في ذلك.

وتفضل..........»

رن جرس الهاتف. تركه يرن طويلاً وهو مشغول بتمزيق الرسالة إلى قطع صغيرة وبالتحديق، عبر النافذة، في ساعة السيد باشون.

هذه المرة، لم تكلف الساعة نفسها عناء التوقف كما من أجل جيرمين، انتهى إلى رفع السماعة وقول «آلو» بصوت يجب أن يكون قد تغير إلى حد سأل، معه، راوول على الطرف الآخر:

– أهذا أنت يا بوب؟

أعاد فرانسوا السماعة.

كانت أبواب الغرف مفتوحة، وكل النوافذ أيضاً، وكان النسيم يمر كما لو كان على رصيف محطة.

سيكون بييدبوف في محطة الشمال وسوف يقلق، سوف يقلق بدون داعٍ.

هبط الدرج ببطء ومر أمام الحجرة ذات الستائر المفتوحة، أمام الجيران الذين كانوا لايزالون متجمعين على العتبات وصمتوا فجأة.

كان هادئاً. لم يكن قد تخيل، قط، أن هناك وجوداً لمثل هذا الهدوء.

أدار ظهره للمستشفى الذي أخذوا إليه، دون شك، حسب الروتين، ابنه إليه.

كان هو، الآن، هو فرانسوا الذي قال بصوت منخفض، عند بلوغه شارع مونبارناس، ناظراً إلى آخر قطعة من السماء بين الأسطُح:

- بابا!

اتفق له أن يعتقد، من قبل، أنه في أدنى السلم تماماً، أنه آخر الرجال! كان يود، تقريباً، أن يبتسم بتسامح لذاك الغبي فرانسوا الذي لم يفهم شيئاً والذي ذهب يبحث بعيداً عن حقائق بسيطة دون أن يجدها.

كما لو كان معتوهاً! طيلة حياته، تخبط في فراغ كما كان يفعل منذ أن غادر حديقة الحيوانات، بعد حديثه مع بييدبوف، راكضاً من جدار إلى آخر، بحثاً عن مخرج غير موجود.

كان يمشي، الآن، ببطء، انعطف إلى شارع راسباي تاركاً كل شيء وراءه، متجنباً الالتفات. لم يلتفت حتى حين سمع خطوات مسرعة ونفساً قصيراً، صوتاً يتلفظ باسمه.

- فرانسوا!

كان راوول. كان، منذ قليل قد هتف، دون شك، من حانة في الحي. أسرع، قلقاً، إلى شارع دولامبر. هل أعلموه أن فرانسوا ذهب، دون أن يتفوه بكلمة، على طول الرصيف. كرجل فقد عقله. سأل وهو ينظر إليه بقلق:

- أين أنت ذاهب؟

- عرفت بالنبأ منذ قليل.

جفف وجهه، وكان جسده الضخم يرى مرتجفاً.

- اسمع يا فرانسوا، يجب أن نتحدث.

- كلا.

- لست مسؤولاً. لا ينبغي أن......

كان راوول يجهل أن حل السين قد انقضى منذ زمن طويل.

- قل لي، على الأقل، إلى أين أنت ذاهب.

- إلى الشرطة القضائية. إنهم ينتظرونني.

- أعلم. لكن....

وها هو راوول الذي كان، قبل لحظة، بالغ الإحباط، بالغ القلق، يبدو عليه أنه قرأ الحقيقة في عيني أخيه. هل يمكن أن يكون قد فهم؟ ألم يكن ذاك وهماً أخيراً؟

كان هو الذي خفض رأسه وقال:

- آه!

ثم بوجل:

- أتريد أن أقودك؟

- أفضل أن أذهب بمفردي. اذهب إلى المستشفى. سأطلب إليهم أن يأخذوني إليه بعد قليل.

هل كان قادراً على فهم هذا أيضاً؟ هل كان هناك كائن على الأرض قادر على الدخول إلى تفكيره؟

- أفضل أن يراني معهم، أن يعلم جيداً، أن الأمر قد انتهى.

بحثت يد ضخمة، ندية وخرقاء عن يده، ضغطت عليها بقوة ثم انفصلت أخيراً.

- نعم.

كان راوول ينظر حوله. كانت سيارات تمر

- ألا تأخذ سيارة أجرة؟

أشار فرانسوا برأسه نفياً. ولم يعد أخوه يرى سوى ظهره الذي كان يبتعد في اتجاه الشرطة القضائية.

فهرس

الصفحة

الطبعة الأولى / ٢٠١١م

عدد الطبع ١٠٠٠ نسخة





www.syrbook.gov.sy
مطابع وزارة الثقافة - الهيئة العامة السورية للكتاب - ٢٠١١م

سعر النسخة ٣٠٠ ل.س أو ما يعادلها